عبد المجيد سباطة

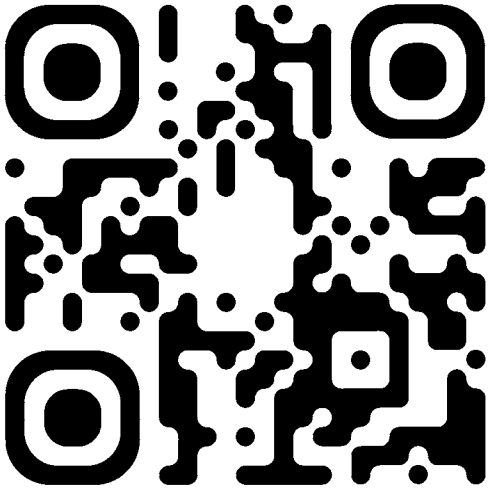
رواية



مكتبة

في متاهات الأستاذ ف.ن.

المركز الثقافي العربي



سجل في مكتبة
اضغط الصفحة
SCAN QR

عبد المجيد سباطة

في متاهات الأستاذ ف.ن.

الكتاب
في متاهات الأستاذ ف. ن.

تأليف
عبد المجيد سباطة

الطبعة
الأولى، 2025
عدد الصفحات: 592
القياس: 14 × 21
الترقيم الدولي:
ISBN: 978-9953-68-993-7
جميع الحقوق محفوظة
© المركز الثقافي العربي
الناشر
المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء ـ المغرب
ص.ب: 4006 (سيدنا)
42 الشارع الملكي (الأحباس)
هاتف: 0522 303339 ـ 0522 307651
فاكس: 212 522 305726+
Email: markaz.casablanca@gmail.com

بيروت ـ لبنان
ص.ب: 5158 ـ 113 الحمراء
شارع جاندارك ـ بناية المقدسي
هاتف: 01 750507 ـ 01 352826
فاكس: 961 1 343701+
Email: cca_casa_bey@yahoo.com

مكتبة
t.me/soramnqraa

نُشر هذا الكتاب بدعم
من برنامج المنح الإنتاجية
لمؤسسة المورد الثقافي

عبد المجيد سباطة

مكتبة
t.me/soramnqraa

في متاهات الأستاذ ف.ن.

رواية

المركز الثقافي العربي

إلى المناضلة رقية بلمامون والحكيم عابد سباطة،
كالعادة، دائماً، وإلى الأبد...

عندما تكتب عن الماضي، فإنك تكذب في كل حرف، في كل نقطة، بل في كل فاصلة لعينة.

ربيع علم الدين - **امرأة لا لزوم لها** (رواية) - 2013

وإن تكن عادلت الأعدادا ... فهي تليها فافـهـم المرادا

الأرجوزة الياسمينية في الجبر والمقابلة

كلية اللغات والآداب والفنون – جامعة ابن بطوطة – طنجة

ماستر: الأدب المقارن والدراسات الثقافية – **الأسدس:** الرابع

السنة الجامعية: 2014-2015

الجدول الزمني لمحاضرات مادة: النص الأدبي المقارن

الحصة الافتتاحية: 3 فبراير 11

I. **المحاضرة الأولى** : 4 فبراير 19

II. **المحاضرة الثانية** : 11 فبراير 73

III. **المحاضرة الثالثة** : 18 فبراير 131

IV. **المحاضرة الرابعة** : 25 فبراير 177

V. **المحاضرة الخامسة** : 4 مارس 213

VI. **المحاضرة السادسة** : 11 مارس 255

VII. **المحاضرة السابعة** : 18 مارس 293

عطلة بينية

VIII. **المحاضرة الثامنة** : 1 أبريل 333

IX. **المحاضرة التاسعة** : 8 أبريل 367

X. **المحاضرة العاشرة** : 15 أبريل 407

XI. **المحاضرة الحادية عشرة** : 22 أبريل 447

XII. **المحاضرة الثانية عشرة** : 29 أبريل 483

XIII. **المحاضرة الثالثة عشرة** : 6 مايو 513

XIV. **المحاضرة الرابعة عشرة** : 13 مايو 545

الامتحان النهائي: 20 مايو 583

الحصة الافتتاحية

«ما الذي يمكن أن يقدمه الأدب الكلاسيكي لهذا العالم اللاهث والمفكك؟»

رشيد بناصر – الثلاثاء 3 فبراير 2015

مكتبة
t.me/soramnqraa

صباح الخير...

سلوى: التاسعة بالضبط، يحترم مواعيده بالدقيقة والثانية!

لا يسعني بداية إلا أن أشكركم على الحضور، فكما هو معلوم للجميع، تقررت برمجة محاضرات مادة الدرس الأدبي المقارن كل يوم أربعاء، لكنني ارتأيت مقابلتكم اليوم، بغرض التعارف وتقديم نبذة عن سير المحاضرات القادمة.

حسام: توشك جميلة على التهامه بعينيها...

أعرّفكم بنفسي، اسمي رشيد بناصر، أعمل حالياً أستاذاً للأدب المقارن في جامعة السوربون الفرنسية، وأستاذاً زائراً في جامعات أوروبية وأميركية، لكنني ابن أصيل للجامعة المغربية، وقد تابعت دراستي فيها، وصولاً إلى سلك الدكتوراه في كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، قبل أن أكمل أطروحتي، أو أبدأها من جديد إن صح التعبير، في باريس.

كنزة: لا بدّ لي من استغلال فرصة مناسبة لسؤاله عن إمكانية التقدم بملف إعداد أطروحتي هناك، لعلّه يدعمني برسالة توصية مناسبة. لكن ماذا أفعل وتلك الملعونة تترصد كل حركاتي بدقة!

عندما اتصل بي السادة الأساتذة عمر الصادقي عميد الكلية، وجمال عزيزي منسق الشعبة، لاقتراح إشرافي على تقديم هذه المحاضرات، وافقت رغم الوعي العميق بمدى صعوبة المهمة، نظراً للظروف الخاصة التي مررتم بها جميعاً، بعد الوفاة المفاجئة لأستاذكم الراحل، فريد النوري رحمه اللّه.

أسامة: هل تجوز الرحمة على مَن قتل نفسه؟

لا شك في أن بعض الإكراهات ستفرض نفسها هنا، وأقصد بذلك تقسيم الجهد بين ضغط المحاضرات المتبقية والاستعداد للامتحانات النهائية، وأيضاً ضرورة إنجاز بحوث التخرج في الآجال المحددة.

جميلة: أربعيني على ما يبدو، ولا يضع خاتم زواج. أعزب أم مطلق أم مراوغ؟

لا داعي للقلق، فقد أخذت ذلك بعين الاعتبار، ولن أثقل كاهلكم بما يقود إلى استنزاف طاقاتكم.

أشرف: كروس موقوف ودي ماريا مصاب، والفرق مع برشلونة نقطتان، إذن...

نحن في منتصف العقد الثاني من هذا القرن، ولا شك في أن كل التحولات السياسية والاجتماعية والتكنولوجية والثقافية التي عشناها خلال الأعوام الماضية قد تركت أثرها العميق على الجميع، بما قد يدفعنا إلى التساؤل: ما الذي يمكن أن يقدمه الأدب الكلاسيكي لهذا العالم اللاهث والمفكك؟

نجوى: لا شيء. عام كامل وأنا أحاول تجاوز الصفحة العاشرة من الإخوة كارامازوف، دون جدوى...

نعم، قد لا يقدم لنا إجابات جاهزة، لكنه يزوّدنا بأدوات لطرح الأسئلة الصحيحة، التي تبدأ بشكل العمل الأدبي ومضمونه، ولا تنتهي بمنطق الحياة ومساراتها المفترضة. أسئلة من قبيل: من يكتب من؟ هل يمكن الحديث عن ثابت ومتحول في بداية العمل الأدبي ونهايته؟ هل هناك تأويل فردي وآخر جماعي؟ أيهما يقود إلى الآخر، الشك أم اليقين؟ متى ينتهي الصواب ويبدأ الخطأ إذن؟

خليل: هذا ما ستعرفونه في الحلقة القادمة من مسلسل «المحقق كونان»!

تمنحنا قراءة الأدب الكلاسيكي فرصة للتمهل والتقاط الأنفاس، ثم التأمل والاستفادة من الخزان الهائل للتجارب الإنسانية الممتدة عبر العصور. هذا الأدب هو بوصلة توجيهنا في حاضر مربك.

بسمة: لن تسبقني كنزة إليه...

سنسعى معاً لتحديد ماهية العمل الكلاسيكي، وفهم أسباب قدرة بعض النصوص على مقاومة الزمن، واستسلام أخرى لغياهب النسيان، عبر مناقشة تفاصيل أعمال أدبية خالدة، ومحاولة الربط بين مضامينها الماضية، وما نعيشه في حاضرنا اليوم.

عبد المولى: فليُنهِ ثرثرته المملة بسرعة، وإلا فاتتني البيصارة الصباحية الساخنة التي يعدّها عمي البشير...

ستكون حصص تفكير أو عصف ذهني جماعي. لا تخشوا التعبير عن آرائكم، شكوككم، أو حتى معارضتكم لأي فكرة أو رأي.

هالة: أين وضعت هاتفي المحمول؟ اللعنة! هل نسيته في الشقة؟ ما اسم العمارة؟

الأدب حوار قبل كل شيء، ولن تثري هذا الحوار سوى أصواتكم الخاصة.

عصام: كلاسيكي قولاً وفعلاً. لا أثر له على وسائل التواصل الاجتماعي...

سيقتصر دوري على إرشادكم في هذه الرحلة، ومساعدتكم على طرح أسئلتكم الخاصة، وتطوير تحليلاتكم، وأيضاً مقارنة تفسيراتكم، فأجمل ما في الأدب نسبيته وانفتاحه على كل الاحتمالات، الممكنة والمستحيلة. كما أشير أيضاً أن هذه الأعمال ستكون محور الاختبار النهائي.

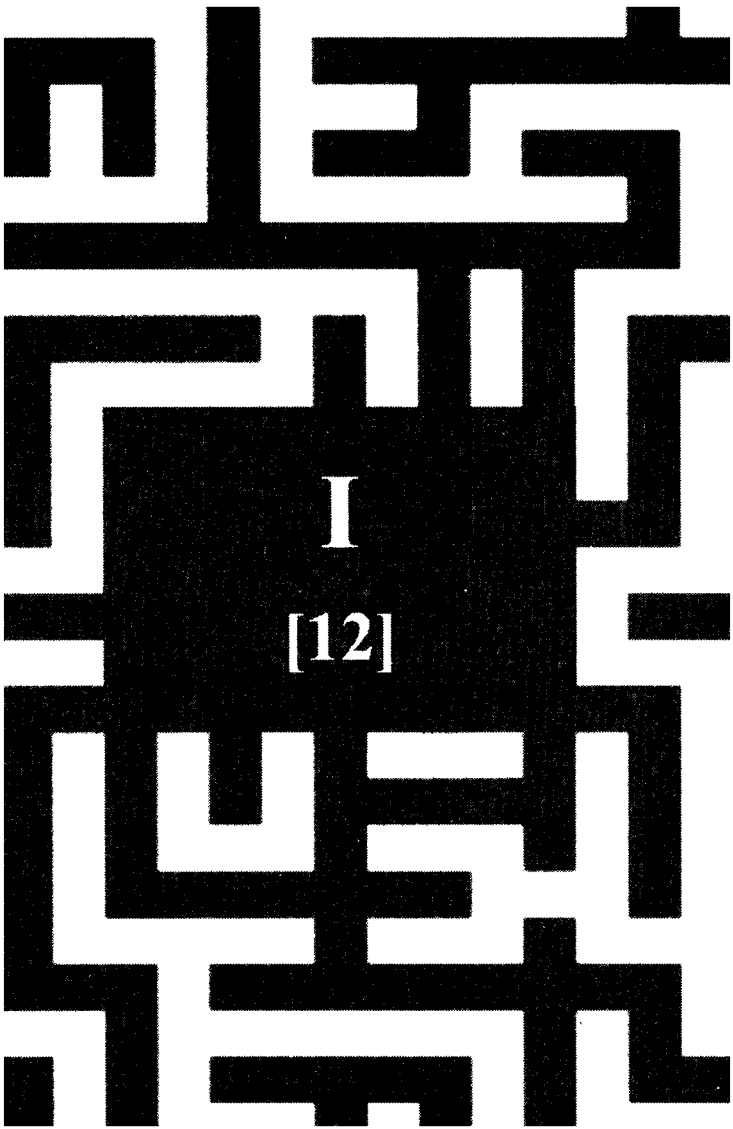
سماح: فيمَ يفكر أشرف؟ هل قرر مصارحتي بحبه بعد طول انتظار؟

فقط للتذكير: أنا لست مهتماً بتسجيل الغياب، فنحن لسنا هنا في ثكنة عسكرية، لكن ما يميز الحرية عن الفوضى خيط رفيع لا يكاد يُرى، لذا أعوّل كثيراً على التزامكم بالحضور، اتفقنا؟ هل من أسئلة قبل أن أنقل الكلمة إليكم للتعريف بأنفسكم؟

منير: سؤال واحد يشغل بالي فعلاً، ما الذي أتى بك إلى هنا؟

*

مكتبة
t.me/soramnqraa


I
[12]

I

[12]

الرقص على حبال الشك

(2014)

«رغم كل ما يقال عن دور التطور التكنولوجي في تقدم الإنسان المعاصر، إلا أنه يواجه اليوم شبكة من الأنظمة البيروقراطية والآليات الرقابية المتعاظمة، لتتحول حياته في نسخة ما بعد الحداثة إلى مسرح كبير، ترتسم فيه فجوات هائلة بين الأفراد والمؤسسات، كما وتُدار قضاياه بقوانين مبهمة وإجراءات مفرطة في التعقيد. أرى تجربة جوزيف. ك، بطل رواية **المحاكمة** لفرانز كافكا، مرآة لما نعيشه حالياً من تشظٍّ، مع تنامي السعي المحموم لإثبات المكانة، في عالمٍ يترسخ فيه الشعور بالضياع».

رشيد بناصر – المحاضرة الأولى – الأربعاء 4 فبراير 2015

مكتبة
t.me/soramnqraa

ليلى الصادقي

(مترجمة قانونية محلفة – 38 سنة)

*

وضعية الجثة (مستلقٍ على الظهر مع ارتخاء تام للأطراف) لا توحي بوجود صراع بدني.

التقرير الرسمي للطبيب الشرعي (ص 2)

*

– أشكر حضورك في الموعد المحدد يا سيدتي. أدرك مدى قسوة المصاب. لكننا بحاجة إلى توضيح بعض النقاط بخصوص وفاة زوجك الراحل، الأستاذ فريد النوري.

– بالطبع، أنا مستعدة للتعاون، وسأسعى للإجابة عن أسئلتكم قدر المستطاع

– لنبدأ بقضية التحرّش التي اتّهم بها الراحل من طرف الباحثة الإسبانية، أدريانا نافاس. هل كنتِ مطلعة على تفاصيل العلاقة بينهما، وإن كانا على وئام أو خلاف، قبل تفجّر الفضيحة ووصولها إلى وسائل الإعلام؟

– كلّ ما عرفته أنّ أدريانا باحثة في سلك الدكتوراه. ظلت على تواصل دائم مع الراحل، وزارت الكلية أكثر من مرة، لتدقيق بعض النقاط التي تتلاقى مع تخصص زوجي، في إطار مشروع أطروحتها

بجامعة مدريد، المرتبطة باتفاقية تعاون أو شراكة، مع جامعة ابن بطوطة في طنجة.

- كيف كان ردّ فعل زوجكِ، حين أعلنت نافاس اتهامها له بالتحرش؟

- الصمت المطبق، كما لو أن الصدمة قد أخرسته، خاصة مع تدحرج كرة الثلج، بثرثرة الجميع، وتناسل الإشاعات، واضطرار الكلية إلى سحب دعمها له، تدريجياً على الأقل...

- ألا يعني ذلك اعترافاً ضمنياً بصحة الاتهام؟

- ممكن...

- ماذا تقصدين؟ هل كانت براءته موضع شك بالنسبة لك؟

- لا أملك دليلاً قاطعاً يؤكد صدق الاتهام أو كذبه. وللأسف الشديد، فقد تخللت علاقتنا في الفترة الأخيرة خلافات وجفاء.

- أيمكنني معرفة الأسباب؟

- ما تشهده كل العلاقات الزوجية من مطبات، خاصة بعد مرور سنوات طويلة على زواجنا.

- رزقتما بابن يدعى ربيع، وهو الآن في الثامنة، وابنة في الثالثة من عمرها، اسمها صابرين، أليس كذلك؟

- بلى. تسلّق فريد سلم النجاح بثبات، وأصبح رقماً صعباً في تخصصه، وطنياً ودولياً، لكن إنجازاته الشخصية لم تتحقق إلا على حساب واجباته الأسرية، فقد أهملني، وتقاعس عن تتبّع حاجة ابنيه للرعاية والحنان الأبوي.

- فهمت. طيب، أنت امرأة، وللنساء قدرتهن الخاصة على كشف خيانات أزواجهن، وإن فضّلن أحياناً غضّ الطرف، خشية الفضيحة،

وحفاظاً على ما يرينه تماسكاً ضرورياً للأسرة. أرجو منك إجابة صريحة: هل كان الراحل رجلاً متعدد العلاقات النسائية؟

- للأمانة، لم أشعر يوماً بأي شيء، ولكنني لا أدّعي في الآن نفسه معرفتي بأدق تفاصيل حياته، فقد كان أستاذاً جامعياً مرموقاً كما أسلفت، يتنقل بين ربوع المغرب، ويسافر إلى الخارج باستمرار، يؤلف ويترجم أعمالاً بارزة في نطاق تخصصه، كما أنني مترجمة معروفة، وأدير مكتباً ناجحاً له صيته داخل المدينة وخارجها، ما فرض بالتالي تباعداً تدريجياً بيننا بحكم تراكم الانشغالات.

- ألا يتناقض هذا مع تحميله وحده قبل قليل مسؤولية إهمال الابنَين وباقي الواجبات الأسرية؟

- لم أقصد ذلك...

- حسناً، هل كان من المألوف أن يشرف الأستاذ فريد على بحوث وأطروحات طالبات في كليته، قبل تعاونه الأخير مع أدريانا؟

- أجل، وهذا جزء طبيعي من عمله الأكاديمي. لذلك لم أشغل نفسي أبداً بأدريانا أو غيرها.

- ما رأيك في معلومة أن هذه الباحثة ابنة موظف بارز في القنصلية الإسبانية بطنجة؟

- سمعت بالمعلومة، ولا أعتقد أن لذلك علاقة ما بالموضوع...

- وما رأيك في مغادرتها المفاجئة للمغرب، قبل أن يصل التحقيق في اتهامها للراحل بالتحرش إلى نهايته؟

- لا إجابة لدي.

- يشغل والدكِ منصب عميد الكلية التي عمل فيها زوجكِ. يقول البعض إنه أحاط الراحل بعناية خاصة، كما ساهم في تأخير إجراء الكلية

لأي تحقيقٍ داخلي معمّق في الاتهام، مما أثّر على مسار القضية منذ البداية...

- المعذرة، لا أسمح لك بالطعن في نزاهة والدي، فهو رجلٌ محترم وأكاديمي معروف، ولا تنس أننا ننتمي لعائلة عريقة، يحظى اسمها بأقصى درجات التقدير، ويشهد لها الجميع بالوطنية والتفاني في خدمة الصالح العام. لم يسعَ والدي سوى إلى التهدئة وتخفيف حدّة الأزمة بعد تداولها في وسائل الإعلام، لا التغطية على الحقائق أو السعي لعرقلة عمل العدالة.

- هل لاحظتِ وجود بوادر أو علامات أيّ توتّرٍ بينهما قبل وفاة فريد؟

- لا يمكنني وصف طبيعة العلاقة بينهما بكلمات قليلة، فهي طويلة وممتدة لما يقارب سنوات زواجي، وربما حتى ما قبلها، ولا أنكر أنني شعرت أحياناً ببعض الغيرة من الإعجاب الجارف الذي لطالما أبداه والدي تجاه فريد، باعتباره النموذج المثالي للابن الذكر الذي لم يمنحه إياه القدر.

- إذن فقد تمتع الراحل بمعاملة خاصة...

- كما تعلم، فلا علاقة ولا علم لي بطبيعة ما يجري داخل أسوار تلك الكلية، لكنني لا أعتقد أن فريد احتاج أصلاً إلى تسهيلات من أي نوع، فقد فرض نفسه، وأثبت علو كعبه وتفوّقه على الجميع، ولا يمكن لأي خلافات بينهما أن تتجاوز درجة العتاب، ربما مع توالي رحلات المرحوم إلى الخارج لحضور مؤتمرات أدبية دون التنسيق مع العميد، أو حديثه باسمه، لا باسم الكلية، عند إصداره أعماله النقدية. وبعد بروز قضية أدريانا إلى العلن، اعتبر والدي أنّ سمعة الكلية في خطر، فوضعها فوق أي اعتبار.

- يقال إن والدك لم يتخذ القرار الحاسم بتوقيف الراحل عن العمل إلا إثر خضوعه لضغوطات من أساتذة آخرين، شكلوا ما يشبه تحالفاً ضد والدك والمرحوم زوجك، هل هذا صحيح؟

- لم أسمع بهذا، وكما أخبرتك، فأنا بعيدة كل البعد عن أجواء الكلية، لكنني لا أستبعد شيئاً مماثلاً في أي فضاء عمل تسود فيه الحسابات الشخصية قبل المهنية...

- إلامَ تلمّحين؟

- لا شيء...

- طيب، قبل وفاة فريد بأسبوع، وردتنا معلومات عن اندلاع شجارٍ حادّ بينكما في المنزل. هل تؤكّدين ذلك؟

- نعم، تشاجرنا. لأنني لم أفهم سر صمته المريب. رحلت الإسبانية عائدة إلى بلدها، لكن الحملة الشعواء ضده لم تتوقف، دون أن يدافع عن نفسه ولو بكلمة. اعتبرت ذلك إقراراً صريحاً منه بتورطه في اتهام الباحثة له بالتحرش والشروع في الاغتصاب. ألقيت على مسامعه كلاماً جارحاً، محمّلة إياه مسؤولية ضرب سمعتنا في مقتل، لكنني لم أتصوّر أبداً إقدامه على الانتحار نتيجة لذلك.

- على ذكر الانتحار، وباعتبارك زوجة إنسانٍ عاش كل هذه الضغوط، فقد تراودك بعض الأسئلة المنطقية: هل انتحر بإرادته؟ أم أنّ أطرافاً معينة ضيّقت عليه الخناق، ودفعته إلى الاستسلام؟

- لا أستطيع الجزم بشيء، سوى أن الراحل قد عانى كما غيره من الإكراهات التي يفرضها العمل وروتين الحياة، ولطالما تعامل مع كل مشاكله بثبات وذكاء، وآمن بأن خلوة ممتدة لبضعة أيام كافية لتجديد نشاطه وعودته أقوى.

- خلوة؟ أين؟

- منزل جبلي صغير، في ضواحي مدينة إفران، وحتى أستبق سؤالك التالي، فقد زرت هذا المنزل برفقته أكثر من مرة، خاصة في سنوات زواجنا الأولى، كما وأعرف، بطرقي الخاصة، أنه لا يستقبل فيه أحداً...

- هل كنت على علم بتناوله أدوية أو مهدئات بعينها؟

- كلا، ولم أرَ أي أثر لها في المنزل من قبل، لذلك فوجئت للغاية بما قيل عن انتحاره بجرعة زائدة من هذه المهدئات.

- بخصوص الأمور المالية، هل كان بينكما خلافٌ بشأن مواردكما المشتركة؟

- اكتشفت قبل مدة أنّه استخدم جزءاً منها في مشروع شراء حقوق ترجمة كتب أجنبية ونشرها، دون استشارتي. يبدو أنّ هذا المشروع قد تعثّر. نعم، تشاجرنا بسبب ذلك. لكنه مجرد خلاف عادي كغيره.

- أين كنت ليلة العثور على جثة الراحل؟

- حضرت اجتماعاً مع أحد عملاء مكتبي، وعدت على الفور، بعد اتصال من مدبرة المنزل، لأجد رجال الشرطة يطوقون المكان.

- طيب، شكراً على تعاونك. قد نحتاج إلى استدعائكِ مرة أخرى إن أمكن.

- وأنا رهن إشارتكم.

*

ملاحظات الضابط مراد بنصالح:

- لـ (ل. ص) حضور لافت وعناية فائقة بمظهرها، إذ وضعت مساحيق تجميل أخفت إلى حدّ ما شحوب وجهها المرهق، ولم تهمل حتى أناقة وتناسق ملابس حدادها البيضاء، التي بدت في حالتها التزاماً إجبارياً بقواعد

اجتماعية، أكثر منها تعبيراً حقيقياً عن حزن زوجة على رحيل رفيق عمرها.

- أتت (ل. ص) مع توقع مسبق لطبيعة الأسئلة التي ستُطرح عليها، وبالتالي نوعية الردود المناسبة، كما دلّت على ذلك أجوبتها المدروسة، التي غابت عنها العفوية.

- ليست (ل. ص) ببعيدة عن خفايا الكلية وإن ادّعت العكس، لكنها فضلت الصمت على البوح.

- لم تسعَ (ل. ص) إلى الدفاع عن زوجها، أو حتى إدانته، بل فضلت ربط معظم ردودها بضبابية متعمدة، تجعل من الصعب تبيّن موقفها الحقيقي مما جرى.

- في المقابل، دافعت (ل. ص) عن والدها بقوة، مذكّرة بنفوذ العائلة وحضورها السياسي الوازن، للتغطية على كل الأقاويل، لعلها تحمي والدها (وبالتالي نفسها؟) من تداعيات لا تحمد عقباها.

*

عمر الصادقي

(عميد الكلية - 63 سنة)

*

لا توجد علامات خدوشٍ أو كدماتٍ حديثة على الذراعين أو العنق، باستثناء بعض الآثار الخفيفة على المعصم الأيمن (قد تكون ناجمة عن سقوطٍ لاإرادي أثناء الوفاة).

التقرير الرسمي للطبيب الشرعي (ص 3)

*

- أشكر لك تجشم عناء الحضور إلى مكتبي، أستاذ عمر، ولكن بعض الأسئلة العالقة تحتاج إلى إجابات واضحة، لعلنا نصل إلى استنتاجات مقنعة حول انتحار الأستاذ فريد النوري.

- أنا تحت أمر العدالة، يا حضرة الضابط. أتمنى أن تساعد إفادتي في إظهار الحقيقة، فقد كان المرحوم أكثر من مجرّد أستاذ في الكلية.

- كما هو معلوم، فقد جرى اتهام الراحل بالتحرّش بباحثة إسبانية تُدعى أدريانا نافاس. بصفتك عميد الكلية، وأيضاً حمو فريد، ما موقفك الصريح من ذلك الاتهام؟

- أنا أعرف فريد رحمه الله منذ سنوات طويلة، عندما كان شاباً فقيراً، فساهم القدر في لقائي به، واكتشافي لمواهبه المتعددة. كنت يومها أستاذاً في هذه الكلية، قبل تسلّمي منصب عمادتها. أقنعته باستكمال

مشواره الجامعي، تحت إشرافي المباشر، فأسهم هو بمجهوده في تطوير قسم الأدب المقارن، والتخطيط لمشاريع أكاديمية مهمّة، منها برامج تبادل ثقافي مع جامعات دولية. وعندما انفجرت هذه الفضيحة، شعرتُ أنّني أُضرب في صميم الكلية وسُمعتها. لم أصدّق التهمة أبداً، لكن الضغوط المتواصلة أجبرتني على إيقافه عن أداء مهامه. بلغ الوضع حينها درجة من التأزم، مما لم يسمح بأي تهاون.

– قلت إنك لم تقتنع يوماً بتهمة التحرّش، ومع ذلك خرجتَ بقرار إيقاف الأستاذ فريد عن العمل، ما نوعية الضغوط التي تتحدث عنها؟

– أحاطت بالقضية ظروفٌ شديدة الحساسية. صار توازن العلاقات المغربية–الإسبانية على المحك، خاصة مع إصرار الإسبان على التدخل السافر في شؤوننا، وتسلحهم بآلة إعلامية رهيبة، ساندها البعض هنا، وللأسف الشديد، دون تمحيص أو استدلال منطقي. لم تكن الكلية معزولة بالطبع، مع تمتعها بشراكات واتفاقيات مع جامعات دولية. كما تلقينا رسائل واضحة تطالب باتخاذ موقف حاسم ضدّ الأستاذ المتحرّش. في ظل هذه الأجواء المشحونة، وجدتُ نفسي مرغماً على إظهار موقفٍ يميل للحفاظ على سمعة الكلية ومصالحها.

– كيف كانت العلاقة بين الراحل وابنتك، السيدة ليلى؟ هل كانا منسجمين؟ أم أسيرَي خلافات متواصلة؟

– لا وجود لحياة زوجية مثالية إلا في الخيال. كانت علاقة طبيعية، تتأرجح بين الوئام والخلافات العابرة. تتمتع ليلى بشخصية قوية ومستقلة، أما فريد فقد غرق في نشاطاته الأكاديمية وأبحاثه. تسرّب الفتور إلى حياتهما، وعاتبت ابنتي زوجها على انشغاله الدائم بأسفاره وأعماله، وربما شعر بدوره أنّها تقيّده بقواعد عائلية واجتماعية لا يهتم لها، فكان هذا منبع صدام متكرر بينهما.

– المعذرة يا أستاذ، قلت إن فريد لم يكن عندما عرفته إلا شاباً مغموراً، كيف تمكّن من كسب ثقتك وقتها؟

– أفهم تلميحك. تعتقد أنني نموذج مألوف لأولئك الآباء الذين يعشقون التحكم بكل شيء، بما في ذلك مصائر أبنائهم. بصراحة، لا أنكر ترددي قليلاً في الموافقة على زواج ابنتي من شاب لا ينتمي إلى طبقتنا الاجتماعية، ولا ينحدر من عائلة معروفة مثلنا، لكنني رضخت لإلحاح ليلى ورفضها لكل المرشحين للارتباط بها. كما فكرت وقتها بهدوء، ورأيت فيهما ثنائياً متكاملاً، قادراً على بناء مستقبل باهر ومتميز.

– هل كنتَ على وفاقٍ تام ودائم مع ابنتك فيما يخصّ فريد؟ هل تشاركتُما الرأي بشأن توقيفه؟

– كلا، لقد اختلفنا بشدّة حول الموضوع. طالبتني ليلى باتخاذ خطواتٍ صارمة، حفاظاً على سمعة العائلة والكلية. لكنني رفضت تدميره أكاديمياً قبل اتّضاح الصورة الحقيقة لما جرى. شعرتُ أنّها تصدّق الاتهامات، أو تحاول، على الأقل، تجنّب تبعات أي فضيحة قد تلحق بالعائلة. توتّرت العلاقة بيننا، لا سيّما مع شعوري بأنّها لا تبدي أي تعاطفٍ مع زوجها.

– أتظنها أخفت شيئاً ما له علاقة بالاتهام الفاضح بالتحرش والشروع في الاغتصاب؟

– لا أدري. ما أعرفه هو أنها عبّرت أكثر من مرة عن ضيقها من بعض تصرفاته، خاصة غيابه الطويل والمتكرر خارج المغرب، في رحلات ليست كلها لفائدة ولحساب الكلية، وأيضاً استثماره في مشاريع ترجمة أدبية وأكاديمية فاشلة في نظرها، هي المشتغلة في حقل الترجمة القانونية. لكن هذه تبقى مواضيع وخلافات جانبية. لطالما كانت لفريد

موهبة منقطعة النظير في العثور على مخرج من أي أزمة، مهما بلغ تعقيدها، لكن الفضيحة الأخيرة دمّرته تماماً.

- من وجهة نظرك، هل عانى فريد من اكتئابٍ حاد في أيامه الأخيرة؟

- تحدث الجميع عن أن الوفاة ناجمة عن جرعة مهدئات زائدة، لكنني لم أعلم أبداً بتناوله للأدوية، أو خضوعه لحصص مواكبة نفسية، أو أي شيء من هذا القبيل. كما أخبرتك، اعتاد الراحل على مواجهة أنواع الضغوطات بهدوء وروية وذكاء.

- تمام، وماذا عن حالته بعد ما جرى؟

- قابلته مرّتين بعد اندلاع الأزمة. أصرّ على صمته ورفضه التعليق على اتهامات أدريانا نافاس، سواء بالتأكيد أو النفي. وعدته حينها ببذل جهدي لترميم صورته أمام مجلس الكلية. لكن الأمور خرجت عن السيطرة، وتعالت الأصوات المطالبة برأسه. لستُ فخوراً أو سعيداً بما فعلناه، يوم أعلنّا رسمياً توقيفه عن مزاولة عمله. كانت طعنة في الظهر، لا يستحقها رجل مثله.

- أستاذ عمر، هل يبدو لك انتحار فريد حدثاً عادياً، أو بالأحرى متوقعاً؟

- لا قِبَل لي الآن بتقديم تفسيرات أو تحليلات، فأنا ما زلت واقعاً تحت أثر الصدمات المتتالية، لكنني متأكد من وجود حلقة مفقودة، بيد تلك الباحثة الإسبانية الغامضة. لماذا فجّرت الفضيحة بتلك الطريقة؟ ولماذا غادرت البلاد قبل وصول التحقيق في اتهاماتها إلى نهايته؟ لماذا تواصلت الحملة ضد فريد بعد رحيلها؟ ربما دفع التحوّل المفاجئ من شخصيةٍ ناجحةٍ إلى مُتهمٍ ومدانٍ مجتمعياً، بالإضافة إلى الضغط

الإعلامي الذي أوشك على التحول إلى أزمة ديبلوماسية، ثم تراكم الخلافات مع ليلى، بفريد إلى الانهيار، ومع ذلك، لا أمتلك دليلاً قطعياً على شيء. ظننت أن الهزيمة لا مكان لها في قاموسه، لكنه خذل كل توقعاتي.

- أشكرك على صراحتك يا أستاذ. أرجو ألا تغادر المدينة، فقد نضطر للاتصال بك مجدّداً.

- لا مشكلة لدي، وكلّي أمل في وصولكم إلى الحقيقة الفعلية حول ما جرى. كان فريد رجلاً متفرداً، في علمه وأخلاقه، ولن يدفعه إلى الانتحار إلا مصاب جلل، لا قِبَل لبشر به.

- اطمئن، سنقوم بواجبنا على أكمل وجه. إلى اللقاء.

*

ملاحظات الضابط مراد بنصالح:

- يبدو (ع. ص) متأثراً للغاية برحيل (ف. ن)، كمن فقد ذراعه اليمنى حرفياً لا مجازياً. ما يعطي انطباعاً بأن العلاقة بينهما أعقد من الفكرة السطحية عن العميد الذي يحابي زوج ابنته، أو الشيخ الذي يدعم مريده.

- لـ (ع. ص) مكانته في الحزب، ويقدم دوماً بصفته المنظّر العقلاني، والحكيم البعيد عن أضواء الصراعات السياسية المتشابكة، لكنه يبدو في هذا الاستجواب رجلاً عاطفياً ضعيفاً، يسهل التحكم به كدمية، ويخضع لضغوطات محيطه وأهواء ابنته، وإن لمّح إلى خلافه معها.

- تبدو (ل. ص) إذن أقرب إلى نهج عمّها (س. ص) زعيم الحزب وواجهته، والممسك بكل مفاصله، من نموذج والدها.

- رسمياً، لم يكن (ف. ن) منتسباً لأي حزب، وقد أكد أكثر من مرة، في حواراته المكتوبة والمصورة، أنه وهب نفسه فقط لمشروعه الأكاديمي

الكوني، المنزّه عن كل الأيديولوجيات، فهل كان له دور خفي، من وراء الستار، في «صناعة» نموذج حميه؟

- لماذا فضّل (ف. ن) اللجوء إلى الصمت، عوض الدفاع عن نفسه ضد تهمة التحرش الموجهة إليه؟

*

جمال عزيزي

(منسق شعبة الأدب المقارن – 52 سنة)

*

تمّ أخذ عيّنات من دم المتوفى، فتبيّن وجود ارتفاع ملحوظ في تركيز مادة «البنزوديازيبين»، بالإضافة إلى آثارٍ عالية من مضادات الاكتئاب الثلاثية الحلقات.

التقرير الرسمي للطبيب الشرعي (ص 4)

*

– أهلاً بك، أستاذ جمال. نعلم أنّك شغلت أخيراً منصب منسق شعبة الأدب المقارن خلفاً للراحل، الأستاذ فريد النوري، ونرغب في الاستماع إلى شهادتك حول ما جرى، منذ اندلاع ضجة فضيحة التحرش، وحتى وفاة المرحوم.

– تحت أمركم، يا حضرة الضابط. لطالما أردتُ منحي فرصة لتوضيح بعض الحقائق التي غابت، أو ربما تمّ تجاهلها عمداً.

– لست أنت المخول بتحديد ما سقط عمداً أو سهواً، مفهوم؟

– أكيد، أكيد، لا رغبة لي سوى في التعاون مع العدالة!

– طيب، وصلتنا معلومات تفيد أنّ الراحل لم يكن محبوباً لدى بعض زملائه في قسم الأدب المقارن. هل لك أن توضّح لنا ذلك؟

– هذا صحيح، لكننا لم نعترض إلا على سلوكياته التي تجاوزت

حدود المهنية. سأكون مباشراً وأقول إن فريد استغل حماه في إبرام بعض الصفقات المشبوهة، باسم الكلية، كنشر المطبوعات، أو اقتناء بعض اللوازم والمعدات، أو تمرير مناقصات استغلال قطعة أرض محاذية للكلية قصد بناء أقسام ومدرجات جديدة، أو حتى استضافة بعض الكتّاب والباحثين التافهين.

- ماذا تقصد بالتافهين؟

- على سبيل المثال، أشرف الراحل ذات مرة على تنظيم لقاء أكاديمي مع شاب نشر رواية، وهو بالكاد في عمر طلبتنا أو أكبر بسنوات معدودة. هذا تسيّب! كيف يمكن لشاب، لم يبلغ الثلاثين من عمره بعد، أن يؤلف رواية؟ ولنفترض ذلك جدلاً، هل ستستحق خربشاته احتفاء أكاديمياً؟

- مفهوم، لنعد إلى موضوع الصفقات التي تصفها بالمشبوهة. ألم يكن باقي الأساتذة على علم بها؟

- جرى تمرير معظمها بصورةٍ ملتوية، إذ تُقصى منها أسماؤنا نحن، أو ربما تُهمّش أدوارنا، فلا نعلم شيئاً إلا بعد فوات الأوان.

- ألديك ما يثبت هذا الكلام؟

- هذه وثائقُ تخصُّ ثلاث صفقاتٍ على الأقل. ستجدون في بعضها توقيعات العميد، وتوقيع الراحل بصفته منسق الشعبة. لم أعلم بهذه الصفقات إلا بعد انتهاء الإجراءات، بل وبعد وصول عائدات مادية، ما بين مكافآتٍ وتسويات مالية غامضة.

- أتعتقد إذن أنّ العميد تواطأ مع صهره في تمرير هذه الصفقات؟

- طبعاً. العميد حمُ فريد، واعتاد على منحه تسهيلاتٍ تفوق صلاحيات أي أستاذ عادي. باختصار: تمكن فريد من تدبير أموره بفضل هذه العلاقة العائلية وما توارى خلفها من نفوذ حزبي، فحصد المكاسب

له وللعميد. أما نحن، أقصد أنا وباقي الأساتذة، فلم يكن يُلتفت إلينا إلا في اجتماعات روتينية جوفاء.

- ما الذي تعرفه عن الأستاذة حنان الطالبي؟

- آه، الأستاذة حنان... عاشقة فريد الولهانة. قد تبدو للجميع أستاذةً جادة ظاهرياً، لكنها مجنونة حرفياً إن صح التعبير. ظلت معجبة بالراحل لسنوات، تلاحقه بنظراتها وتفتعل أحاديث معه بسبب أو من دونه...

- وهو، هل كان يتفاعل مع التصرفات التي وصفتها؟

- إطلاقاً، لم يتجاوز معها أبداً حدود الزمالة، لكنه فهم أسلوبها على الأرجح، ولم يسعَ لإيقافها.

- ومهنياً، ما موقعها في شعبة الأدب المقارن؟

- فُرِض عليها التهميش، مثلنا جميعاً...

- ألا تعتقد أن لحنان علاقة مفترضة بما حصل لفريد؟

- لن أجزم بشيء، لكن الهوس قد يتحوّل أحياناً إلى بغض أو تصرّفاتٍ غير محسوبة.

- دعنا ننتقل إلى موضوع آخر. من موقعك كأستاذ وزميل للراحل، أتظن أنه تحرش فعلاً بالباحثة الإسبانية أدريانا نافاس؟

- لا يمكنني اتهام رجل ابتلعه القبر بجريمةٍ كبرى كهذه. كلُّ ما أستطيع قوله هو أنّ الأستاذ فريد لم يكن نزيهاً إدارياً أو أكاديمياً، واستغل نفوذه بشكل واضح. هل يُحتمل أنه استغلّ سلطةً مماثلة للتحرش بالباحثة الإسبانية؟ ممكن، ولا شيء مستبعد، لكنني لا أملك دليلاً قاطعاً، فقط لا يجب إسقاط صمته المريب وعدم دفاعه عن نفسه بعد الفضيحة من الحسبان.

- وماذا عن أدريانا نفسها، ما الذي تعرفه عنها؟

- لا تتجاوز معلوماتي ما تداولته الصحف ووسائل الإعلام. شابة إسبانية بارعة الجمال، بقوام ممشوق وملامح أخاذة تخطف الأنظار. تشتغل على أطروحة دكتوراه تتناول موضوع الشعر الأندلسي، تعيش في مدريد، وتزور طنجة ومدناً مغربية أخرى من حين لآخر. أثارتها ربما السمعة الزائفة والمصطنعة للراحل، مع توالي إصداراته وترجماته، وتعدد مجالات أبحاثه ودراساته، وما يعرف عن إتقانه للإسبانية، إلى جانب الفرنسية والإنجليزية.

- يقال إن الفترة الأخيرة من حياة فريد شهدت خلافاً محتدماً مع زوجته ليلى الصادقي. ألديك أي علمٍ بتفاصيل ذلك الخلاف؟

- لا، لكنني لا أستغرب وجود خلافات بينهما. أظنّ أنّ زواجهما كان مجرّد صفقة عائلية، هذا مجرد تأويل، لأن الراحل لم يناقشني أبداً في شؤونه الشخصية، لكنني رأيت زوجته أكثر من مرة، سواء في مكتب والدها العميد، أو في أنشطة اجتماعية أخرى بمدينة طنجة، حضرها الثلاثي، هي ووالدها وزوجها.

- حسناً، تحدثت عن فسادٍ إداري، وتهميشٍ متعمد لكم أنتم أساتذة الشعبة، وعن أستاذة مهووسة بالراحل. تنفي يقينك حول تحرشه بالباحثة الأجنبية، لكنك لا تستبعد الأمر. ما تقييمك الأخير لشخصية الراحل؟

- تمتّع فريد النوري بذكاء فائق، لا أنكر ذلك. لكنه استغل قدراته للهيمنة على كل ما قد يعود عليه بالمنفعة. استقوى بنفوذ العميد وقطف الثمار وحده، فيما بقينا نحن خارج الدائرة، نراكم غضبنا؛ فالعميد منحازٌ له بلا نقاش طبعاً.

- لكنكم أجبرتم العميد على توقيفه بعد الفضيحة!

- لأن مصلحة الكلية وطلبتها فوق أي اعتبار، ما كان لنا أن نسمح

بالإمعان في إغراق جامعة ابن بطوطة في وحل الفضائح والمحسوبيات المدمرة.

– أستاذ جمال، قد نستدعيك مجدداً في حال احتجنا إلى مزيدٍ من التفاصيل. سنضيف الوثائق التي قدمتها إلى ملف القضية، وسننظر في مدى مصداقيتها.

– يسرّني التعاون مع الشرطة في الوصول إلى الحقيقة. أنا لم آتِ إلى هنا لتصفية حساباتٍ شخصية، بقدر ما أرغب في رفع الظلم الذي وقع علينا جميعاً، جراء تحالف العميد وصهره، مما لا تدفع ثمنه سوى الكلية وطلبتها المساكين.

– مفهوم، مفهوم، بإمكانك الانصراف...

*

ملاحظات الضابط مراد بنصالح:

- يبدو (ج. ع) المستفيد الأكبر من إزاحة (ف. ن) عن المشهد في الكلية، ورغم عدم تأكيده أو نفيه تهمة التحرش عن الراحل، إلا أن حركاته وكلماته ونظراته لا تخفي شيئاً من تشفّيه.

- لا يدل إصرار (ج. ع) على الحديث عن إقصائه (بمعية زملائه) من المشاركة في تمرير الصفقات إلا على شعوره بالغبن، لحرمانه من نصيبه في الكعكة، وإن كرر أكثر من مرة شعارات الدفاع عن مصلحة الكلية وطلبتها.

- برقت عينا (ج. ع) وكاد لعابه يسيل عندما انعطف الاستجواب نحو الحديث عن أدريانا نافاس. (لم يكن من الضروري تقديم وصف عن ملامح الباحثة وقوامها، وقد تناقلت كل المواقع والصحف صورتها).

*

حنان الطالبي

(أستاذة في شعبة الأدب المقارن – 42 سنة)

*

قد يؤدي تراكم هذه الأدوية، بجرعةٍ تفوق الحدود العلاجية، إلى تثبيط عمل الجهاز العصبي المركزي، ثم توقف عضلة القلب.

التقرير الرسمي للطبيب الشرعي (ص 5)

*

– أهلاً بك أستاذة حنان، وأشكركِ على الحضور. كما تعلمين، فإن تحقيقاتنا بشأن وفاة الأستاذ فريد النوري ما زالت مستمرة، وقد يساعدنا الاستماع إلى شهادتكِ في توضيح تفاصيل مهمّة لها علاقتها بالقضية.

– بالطبع، سأدلي بكلِّ ما أعرفه. آن الأوان لكشف الحقيقة، أو جزء منها على الأقلّ.

– ما طبيعة علاقتكِ بالأستاذ جمال عزيزي؟

– أقترح تسميتها بالعلاقة الاضطرارية، بحكم عملنا في الشعبة ذاتها. لا يهتم جمال إلّا بمصالحه، ولعب دور الأستاذ والمسؤول المثالي أمام الجميع. ولو سألتَ الطلبة –أو الطالبات إن تحريت المزيد من الدقة– فلربما أدهشكَ كمُّ الشكايات التي سيقدمنها بحقّه.

– شكايات من أي نوع؟ ما طبيعة تجاوزات الأستاذ عزيزي؟

– التحرش طبعاً، بل وربما ما هو أبعد. يستغل جمال سلطاته

لتوزيع منح استكمال بحوث التخرج في جامعات أوروبية، لكن فقط على الطالبات اللواتي يخضعن لرغباته. وإذا ما فكرت إحداهن في الاعتراض أو المقاومة، فإن مصيرها المحاصرة، بتأخير تسلّم مشاريع التخرج، أو التلاعب بالنقط ظلماً. أما الطلبة الذكور، فلا وجود لهم في قاموسه، لا منح ولا اهتمام.

- هكذا إذن...

- الحقيقة واضحة ولا تحتاج إلى مراوغة أو مداراة: إنّ ما اتُّهم به فريد مجرّد كذب وافتراء، في حين أن ممارسات جمال مع الطالبات موثّقة ومتداولة بين أروقة الكلية.

- هل لديكِ أدلّةٌ ملموسة أو أسماء لطالباتٍ يمكنهنّ تأكيد كلامكِ؟

- أعرف منهنّ اثنتين على الأقل. لكنهنّ يخشين التحدّث علناً، لأن مستقبلهنّ الأكاديمي على المحك. هو رئيس الشعبة الآن، وبإمكانه تدمير مستقبلهن بجرة قلم.

- ماذا عن الراحل؟. كيف تصفين علاقتكِ به؟ يرى البعض أن إعجابك به تجاوز كل مألوف...

- فريد! آه يا سيّدي، إنه من أفضل مَن أنجبت الساحة الأكاديمية في تخصص الأدب المقارن. كان عبقرياً في التحليل والنقد، ويحمل مشروعاً فكرياً متفرّداً. لطالما حرصت على متابعة محاضراته، كباقي الطلبة، مستمتعة بقُدرته الكبيرة على فتح آفاقِ تفكيرٍ جديدة ومختلفة. نعم، أعترف أن شعوري نحوه لم يكن عادياً؛ هو مزيج من الاحترام الفكري والإعجاب الشخصي، سمّه ما شئت، لكنّني لم أتجاوز يوماً حدود الأدب والاحترام معه.

- وكيف كان يعاملك هو؟

- بأقصى درجات التقدير، لكن في إطار ما تسمح به زمالة العمل طبعاً.

- ماذا عن زوجته، ليلى الصادقي؟ ألم تشعري بالغيرة منها مثلاً؟

- ما دمتَ يا سيدي مصرّاً على النبش في هذه التفاصيل فلا بأس. تلك المرأة لا تستحقّه، لا روحياً ولا فكرياً. أنا لا أعرفها شخصياً، لكن العالمين بدوائر صياغة القرار في المدينة أو ربما البلاد يعلمون جيداً أنها تسعى لخلافة عمّها في زعامة الحزب، وتربط كل حركة أو خطوة بسطوتها الاجتماعية وسُمعتها السياسية، أما إنصاف موهبة زوجها، فلم يكن ليهمها في شيء، فالأهم بالنسبة لها هو الحفاظ على صورة العائلة المثالية المتماسكة.

- طيب، سأعود بك إلى فضيحة التحرش التي دمرت فريد. ما تعليقك؟

- أقسم لك إنّها تهمة زائفة. لم يكن فريد من هذا النوع كما أسلفت. أعرفه منذ سنوات، ولامستُ فيه حسّاً أخلاقياً عالياً. أعتقد أنّ جهاتٍ ما داخل الكلية سعت لتحطيم سمعة المرحوم، فاستغلت هذه الباحثة الإسبانية لتشويه صورته. أنا متأكدة من براءته.

- حسناً، وماذا عن انتحاره؟

- لم ولن أصدق أبداً هذه الفرضية. اعتاد فريد على المواجهات المعقدة، وحافظ على صلابته وقدرته على التعامل مع مختلف الضغوطات. عاش بالتأكيد أياماً صعبة بعد الفضيحة، لكنّي واثقةٌ بأنّه لن يختار الرحيل بهذه الطريقة المأساوية. لقد قتلوه، ولا أشتبه سوى بشخصٍ واحد هو جمال عزيزي.

- الأستاذ عزيزي؟ هذا اتهام خطير للغاية! هل تملكين أدلة تدعمه؟

- كلا للأسف. لكنّني أعرف جمال جيّداً، كهل متصاب يعاني من

أعراض المراهقة المتأخرة. قضى سنوات طويلة من عمره معلماً في سلك الابتدائي بضواحي نائية، وبعد حصوله على الدكتوراه تزلف لكل من هب ودب، بحثاً عن فرصة لولوج الكلية أستاذاً، وعندما أتيحت له أخيراً، اعتبر أن خير ما يكافئ به نفسه على سنوات «شقائه» هو نهش الأجساد البضة لطالبات شابات لا حول لهن ولا قوة، عوض الاهتمام على الأقل بالحالة المتدهورة لزوجته المريضة...

- مهلاً، مهلاً يا أستاذة، نحن لسنا هنا في معرض الشخصنة العشوائية، أطالبك ببعض الاحترام من فضلك!

- المعذرة. حسناً، لم يُخفِ جمال أبداً حقده على فريد، لتألقه وحظوته لدى العميد. وعندما انقضّ على منصب منسق الشعبة مباشرةً بعد وفاة فريد، اتضحت لي خطّته في التخلص من منافسه. ربما يقف وراء قتل فريد، أو ساهم في دفعه إلى حافة اليأس على الأقل.

- ألا يمكن اعتبار كلامك مجرد استنتاجات عاطفية لا تؤكدها حقائق دامغة وملموسة؟

- ربما، لكن العاطفة لم تكن دوماً دليلاً زائفاً. أنا لا أطالبك بتصديقي، بل بالتركيز على جمال وليلى وحتى العميد. كلّهم ساهموا في إقصاء فريد وتضخيم أبعاد الحملة التي استهدفته ودمرته. لا دخان بلا نار.

- يبدو أنّ شعبة الأدب المقارن هذه لم تكن واحةً هادئة كما قد يظن البعض. أرى أمامي معارك حامية الوطيس، تصفّى فيها الحسابات المعقدة بالحديد والنار...

- هذا صحيح، ومن حقك أن تسخر. لا أنفي أنّ فريد أخطأ عندما اعتمد على نفوذ العميد لإبرام صفقاتٍ علمية وأكاديمية، واستضافة مبدعين وباحثين من مختلف التوجهات لمشاركتنا تجاربهم، لكنها

الوسيلة الوحيدة في نظري لبث الروح في شعبة ميتة، سعى هو بكل قوّته لإعادة إحيائها وتنشيطها، لتواكب التطور الحاصل في تخصص الأدب المقارن والدراسات الثقافية على مستوى العالم، ولو افترضنا جدلاً أن ما فعله جريمة، فإنها لا تكاد تقارن بخروقات جمال الفاضحة، بإيذائه طالبات بريئات، ومعاقبته لطلبة ذكور بالتهميش الكامل. جمال عزيزي رجل لا يتورّع عن إزاحة كلّ من يعترض طريقه نحو تحقيق حلمه بالسيطرة والنفوذ. أكرّر: لا أدلة محسوسة لديّ حول تسببه في مصرع فريد، لكن قلبي وعقلي يدفعانني إلى هذا الاستنتاج.

- أشكركِ يا أستاذة، وأتفهّم نبل مشاعركِ حياله، وحرصكِ على كشف الحقيقة. لكننا بحاجة إلى أدلّة موضوعية تدفع بالتحقيق إلى الأمام. قد نستدعيكِ لاحقاً، في حال ظهور معطيات جديدة.

- أتمنّى لكم التوفيق، وآمل ألا تتهرّبوا من ملاحقة كلّ المشتبه فيهم، أينما كانوا، ومهما كانت مناصبهم وحجم نفوذهم. فريد النوري رجل استثنائي، ولا أريد أن يُظلم في موته كما ظُلم في حياته.

- كفى يا أستاذة، أحذرك من التمادي أكثر. نحن نقوم بواجبنا على أكمل وجه، ولا يحق لك التدخل في طريقة عملنا على القضية. والآن يمكنك الانصراف...

*

ملاحظات الضابط مراد بنصالح:

- تبدو (ح. ط) الأكثر تأثراً فعلاً بوفاة (ف. ن). لم تذرف (ل. ص) دمعة واحدة (ولو على سبيل التمثيل) خلال استجوابها، فيما انشغلت (ح. ط) في كل مرة بمسح زجاج نظاراتها لمداراة رغبتها في الانفجار بالبكاء (يبقى أن لكل إنسان طريقته الخاصة في التعبير عن حزنه).

- لا يعني فشل (ح. ط) في تقديم أي دليل على اتهاماتها، عدم أخذ كل ما قالته عما يجري داخل أسوار تلك الكلية على محمل الجد.

- إذا افترضنا أن (ف. ن) بريء من تهمة التحرش، وأن الباحثة الإسبانية كانت بدورها مجرد أداة للإيقاع به، فمن يقف وراءها فعلاً؟

*

طالبات شعبة الأدب المقارن

كلية اللغات والآداب والفنون - جامعة ابن بطوطة - طنجة

*

لا وجود لأدلّة قاطعة تشير إلى تدخّل خارجي، بدليل إغلاق الغرفة من الداخل وانعدام آثار المقاومة أو العنف.

التقرير الرسمي للطبيب الشرعي (ص 7)

*

الطالبة الأولى: سلوى عاطف (22 سنة)

- عندما حصلت على الإجازة في شعبة الآداب، فكرت في الاكتفاء بهذا القدر، لعلّي أحظى بفرصة الولوج إلى سلك التعليم، وبالتالي ضمان راتب شهري أعيل به أسرتي المتواضعة على مواجهة تقلبات الزمن. لكنّ الأستاذ فريد أقنعني بالمواصلة، لثقته باجتهادي. بفضله مثلاً حصلت على منحة للمشاركة في ورشة للترجمة الأدبية في بروكسيل...

- ماذا تقصدين؟ ما طبيعة المساعدة التي قدّمها لك؟

- كتب رسالة توصية أكاديمية رسمية، باعتبارها وثيقة ضرورية في ملف الترشح، ولم يبخل عليّ أبداً بالنصيحة. لا أصدّق أبداً قصة تحرشه بالباحثة الإسبانية، فهو اعتاد على دعم كل من يطرق باب مكتبه، رغم انشغالاته. أمّا فكرة انتحاره، فلا أتصورها بالمطلق. لا يمكنني

الحكم على دواخل البشر، لكن الأستاذ فريد أثبت دوماً قوة حضوره وتمتعه بثقة عالية بالنفس.

- ماذا عن الأستاذ جمال عزيزي؟ هل عاملَكِ بالمثل؟

- أرجو منك، يا حضرة الضابط، أن تبقي هذا الكلام بيننا، فأنا الآن في مرحلة حرجة من دراستي الجامعية، ولا أريد مشاكل مع أحد.

- لا بأس، أفهم قصدك، تحدثي بكل حرية، فالقانون هنا لحمايتك...

- نعم، أكيد، بالطبع يا سيدي. قلت إن الأستاذ عزيزي لا يقيس طبيعة علاقته بالطالبة إلا بناء على شكلها، لا تفوّقها... وعلى هذا الأساس فهو دائم التواصل مع طالبات بعينهن، نعلم جميعنا أنهن لا يتمتعن بأي قدرات معرفية تؤهلهن للتحصيل الجاد، بل بمواهب مذهلة في المراوغة والغش، وربما وجد فيهن ما يعجبه. أما عندما تتواصل معه طالبة أخرى، من خارج تلك الدائرة، للاستفسار عن إشراف أو منحة، يتجاهل الرسالة، أو يتذرّع بانشغاله في أفضل الأحوال.

- وما رأيك في الأستاذة حنان الطالبي؟

- علاقتي بها أقرب للحياد. يبالغ من يقول إنها مجنونة. هي مجرد إنسانة عادية، تعيش في عالمها الخاص، في وقت اعتاد فيه الجميع على صور نمطية بعينها. لكن صدقاً، لا أعرف عنها الكثير.

الطالبة الثانية: كنزة شاكيري (23 سنة)

- أعرف الأستاذ فريد منذ ولوجي إلى السنة الأولى في شعبة الآداب، وقبل وفاته علمت بقبوله الإشراف على بحث تخرّجي، وكم أسعدني ذلك، لما يعنيه من إضافة مهمة في سيرتي الذاتية، ما سيمكنني

من دعم ملف ترشحي للدكتوراه في الخارج، لكن موته ضرب أحلامي في مقتل...

- بإمكانك العمل مع مشرف آخر، جمال عزيزي مثلاً. أليس كذلك؟

- بالطبع، لكن اسم الأستاذ النوري يفرض احترامه، لا أعتقد أن اسم عزيزي مناسب لطموحاتي.

- بلغني أن الأستاذ فريد أصدر ترجمة كتاب باسمه، بينما اعتمد فيه بالأساس على مجهودات الطلبة، دون أدنى إشارة إلى أسمائهم، هل هذا صحيح؟

- وماذا في ذلك؟ نحن ما زلنا في طور التعلم واكتساب الخبرات، ولا أرى في نشره الكتاب دون أسمائنا أي مشكلة!

- ما دام المقابل إشرافاً على بحث تخرّجك ودعماً ربما في ترشحك لسلك الدكتوراه؟

- ممكن، ظهور اسمي من عدمه تفصيل ثانوي لا يهمني حالياً، ما دامت أهدافي أكبر.

- تعجبني صراحتك! طيب، هل سمعْتِ أو شاهدتِ ما يؤيد اتهامه بالتحرش؟

- أبداً. فريد النوري أيقونة شعبة الأدب المقارن، مكانته تسبقه، وتصرفاته تشي دوماً بالدقة والأناقة. أقصد أنه أذكى من الوقوع في فخ كهذا...

الطالبة الثالثة: جميلة بولنوار (31 سنة)

- ما رأيك في الأستاذة حنان الطالبي؟

- إنسانة معقدة، تكره الجميع بلا سبب واضح، ربما لأنها

تجاوزت الأربعين دون زواج، وعجزت عن لفت انتباه الراحل فريد النوري إليها...

- مهلاً يا آنسة. سألتك عنها بصفتها أستاذة جامعية، لم أطلب رأيك في حياتها الشخصية!

- سامحني يا حضرة الضابط، لكنها انفعالات طبيعية، قد تصادفك كلما طرحت اسمها. يصعب أن تجد في الكلية من يحبها. إنها مجنونة، لا يعجبها شيء، ولم نرَ أبداً ابتسامة على وجهها.

- ربما لتفضيلها التعامل مع وظيفتها بجدية وصرامة؟

- لا يختلف اثنان على علو كعبها في تخصصها، لكن الزمن تغير، وأساليبها بالية، كما أن بخلها في منح النقط لا يطاق.

- حسناً، يقال إنك مقربة للغاية من الأستاذ عزيزي، ما قولك في ذلك؟

- هذه مجرد افتراءات يطلقها فاشلون ينهش الحسد قلوبهم، ولا يعجبهم تفوّقي البيّن. علاقتي بالأستاذ جمال عزيزي محترمة للغاية. إنه رجل فاضل، يسعى للنهوض بشعبة الأدب المقارن، والوقوف في وجه من يستغلون الكلية خدمة لمصالحهم. شخصياً لم أرَ منه إلا كل خير.

- طيب، ما تعليقك على تهمة التحرش التي لاحقت الأستاذ النوري، ثم انتحاره فيما بعد؟

- صدمني الخبر كما الجميع، لكنني لا أستطيع نفي أو تأكيد شيء. لكل إنسان حياته الشخصية، التي قد تشبه أو تختلف في سرها عما نعرفه عنها في العلن.

الطالبة الرابعة: نجوى العمري (25 سنة)

- أنا متأكّدة أن الأستاذ فريد لم ينتحر. عندما شاركته، أنا وبعض

زملائي وزميلاتي، برغبتنا في تأسيس ناد للمسرح الجامعي، أيّد الفكرة ووعد بدعمها. لطالما شجعنا على ما أسماه «تحدي الواقع».

- مفهوم، وهل ظهر عليه، في الفترة الأخيرة قبل وفاته، ما يدل على يأسه أو اكتئابه؟

- ما أعرفه أنه اختفى تماماً بعد فضيحة التحرش التي لاحقته، لكنني متأكدة من أن الانتحار يناقض مبادئه.

- وماذا عن معاملة الأستاذ عزيزي التفضيلية لعدد من زميلاتك؟ هل هناك ما يتجاوز الحدود الطبيعية للعلاقة بين أستاذ وطالباته؟

- اعذرني يا حضرة الضابط، لكن أرجوك. أنا طالبة مسالمة، اعتدت دوماً على الابتعاد عن المشاكل. لا أريد سوى اجتياز امتحاناتي والحصول على معدلات جيدة تمكنني من مغادرة الكلية والبحث عن وظيفة. لا رغبة لي بالتورط في مشاكل مع أحد.

- تتحدثين قبل قليل عن تأسيس ناد للمسرح، ثم تراوغين الآن في الإجابة، ما هذا التناقض؟

- لا أدري. آسفة يا سيدي. لا جواب لدي. يمكنك سؤال جميلة بولنوار، فهي أقربنا إلى الأستاذ عزيزي...

الطالبة الخامسة: بسمة سليمان (27 سنة)

- لم تكن معاملته لكل الطلبة على قدم المساواة. لم يُخفِ أبداً ميله إلى الطالبة سلوى عاطف...

- ماذا تقصدين بميله إلى هذه الطالبة؟

- كنت الأحقّ بالحصول على فرصة المشاركة في منحة ورشة الترجمة الأدبية ببروكسيل، لكنه فضّلها هي، ودعمها برسالة توصية أكاديمية.

- ربما يعني ذلك استحقاقها...

- أبداً. سلوى ممثلة محترفة، تتقن لعبة استدرار العطف، والعزف على وتر الفقر وضيق ذات اليد. أسلوبها رخيص ومحفوظ، في التواصل المستمر مع الأساتذة والتذلل إليهم بحثاً عن أي منفعة.

- وماذا عن الأستاذ جمال؟ ألم يكن بإمكانه دعمك في البحث عن ورشة أخرى مثلاً؟

- للأستاذ عزيزي علاقاته بالطبع، لكنه لا يوظفها إلا لمصلحة جميلة وشلّتها...

الطالبة السادسة: هالة فحصي (24 سنة)

- أنا على استعدادٍ تام للتعاون يا سيدي. لا يستحق الأستاذ فريد ذلك المصير المأساوي.

- أتعتقدين أنه بريء تماماً من تهمة التحرّش؟

- بصراحة، لا أدري. لكن الباحثة الإسبانية كانت فاتنة بحق. كم استمتعت بمتابعة لمعان عيون الطلبة والأساتذة في كل مرة تظهر فيها أدريانا أمام بوابة الكلية.

- هكذا إذن. أتقصدين بكلامك أن الأستاذ فريد وقع ربما تحت تأثير فتنتها؟

- لم أعنِهِ هو بالذات.

- ولماذا قلت إنه لا يستحق ذلك المصير المأساوي؟

- قصدت الانتحار. قوة الأستاذ فريد في حضوره، وطريقة كلامه، وتفكيره، وتأمله، وقدرته على التحليل والاستنباط. كان الراحل مهيباً، يفرض عليك احترامه حتى وإن كانت نواياك سيئة تجاهه. يصعب تقبّل فكرة انتحار رجل مثله.

- أعلم أنك صديقة الطالبة جميلة بولنوار، وأن بعض الإشاعات تلاحقها هي وشلّتها، بالتقرب المبالغ فيه من الأستاذ جمال عزيزي، ما تعليقك؟

- لا يجمعني بالأستاذ عزيزي داخل الكلية سوى إشرافه على بحث تخرّجي...

- وخارجها؟

- لا شيء طبعاً.

الطالبة السابعة: سماح العبدلاوي (25 سنة)

- لا أعتقد أنني فقدت برحيله أستاذاً متميزاً فحسب، بل أباً، أو أخاً أكبر بتعبير أفضل.

- إلى هذه الدرجة؟

- لن أطيل عليك يا سيدي، سأكتفي فقط بالقول إنني يتيمة، وإن القراءة ثم الكتابة شكلتا درعي الوحيد أمام تقلبات الحياة.

- مفهوم، وما علاقة الراحل بكلامك هذا؟

- لم أجسر يوماً على مشاركة كتاباتي مع أي كان، ما توزع بين قصائد شعرية وبعض القصص القصيرة، بل ومشروع رواية كتبت منها فصلين، إلى أن وجدت في نفسي الشجاعة على عرضها عليه. وعدني بالرد، وقد تأخر، حتى أيقنت أنه نسي أمري. ثم أتت الفضيحة وتبعاتها، واختفى هو عن الأنظار. إلى أن فوجئت ذات مرة برسالة إلكترونية رائعة منه، يناقش فيها كتاباتي بصبر واهتمام، ويثني على موهبتي، بل إنه وعدني بعرض نصوصي على أحد الناشرين، ثم صُدمنا جميعاً بخبر انتحاره بعدها بأيام قليلة فقط...

- يقال إنه كان يستغل نفوذه، بحكم قرابته من العميد، خدمة لمصالحه. ما رأيك؟

- لا أدري صراحة، ولا أعتقد أن أياً من الطلبة سيجيبك عن هذا السؤال.

- لماذا؟

- بغض النظر عن مدى مصداقية تلك الأقاويل، مَن منا سيهتم؟ نحن لا نريد سوى اجتياز الامتحانات بنجاح، ومن ثم الحصول على الشهادة والمغادرة. لكننا نتذكر جميعاً ذلك المشهد الغريب، يوم صفقت الأستاذة حنان الطالبي باب قاعة الاجتماعات بقوة، وغادرت جناح الشعبة باكية تقريباً، قائلة بصوت مسموع إنها لم تعد قادرة على تحمّل كل هذه القذارة، قبل أن يلحق بها الأستاذ فريد، ويمسك بيدها، ثم يربت بيده الأخرى على كتفها، فاستكانت على الفور، ومسحت دموعها وعادت معه إلى القاعة، حيث يتواجد العميد وباقي الأساتذة. كان مشهداً لافتاً، تنافس الجميع يومها في صياغة نكات ساخرة حوله.

- حسناً، وماذا عن تهمة التحرش التي وجّهتها إليه الباحثة أدريانا نافاس؟ وكيف كان ردّ فعلك عندما بلغك خبر انتحاره؟

- دُهشت، ثم تذكرت فوراً تكليفه إياي ذات مرة بإعداد دراسة مقارنة حول أعمال أدباء عالميين، انتهت حياتهم بالانتحار، لكنه مجرد ربط عابر فرضته اللحظة. كيف يكتب لي رسالة مفعمة بالثقة والأمل في موهبتي، بل ويعدني بالدعم والتواصل مع ناشر، ثم ينتحر بعدها؟

*

ملاحظات الضابط مراد بنصالح:

- تؤكد إفادات الطالبات نشوب خلافات محتدمة بين الأساتذة في

شعبة الأدب المقارن. (احتمال وجود علاقة بين هذه الصراعات المعقدة والقضية الرئيسية).

- لا وجود لأدلة ملموسة على استغلال الأستاذ (ج. ع) للطالبات (قضية فرعية؟)، لكن المراوغات والهروب المتعمد من الإجابة يدفع نحو ضرورة مواصلة البحث. (استدعاء الطلبة الذكور).

*

طلبة شعبة الأدب المقارن

كلية اللغات والآداب والفنون - جامعة ابن بطوطة - طنجة

*

الوفاة ناتجةٌ عن تسمّم دوائي مقصود، يندرج تحت مفهوم الانتحار.
التقرير الرسمي للطبيب الشرعي (ص 7)

*

الطالب الأوّل: حسام الغالي (24 سنة)

- السلام عليكم، أستاذ...أقصد حضرة الضابط.

- وعليكم السلام، مرحباً، تفضل اجلس.

- شكراً جزيلاً، أنا رهن إشارة العدالة، وكلّي ثقة بقدرتكم على الوصول إلى الحقيقة، لم نعهد من مصالحنا الأمنية إلا الاحترافية واليقظة، حفظكم اللّه ذخراً لنا، و...

- تمام، تمام، شكراً جزيلاً لك. صف لي علاقتك بالأستاذ الراحل، فريد النوري.

- بوفاته خسرت الكلية أستاذاً رائعاً وملهماً، رحمه اللّه. تستحق محاضراته القيّمة سلسلة كتب تخلّدها. كانت فضيحة التحرش صادمة للغاية. هل تأكدتم من أن الانتحار هو سبب الوفاة؟

- هذا ليس من شأنك. أنا من يطرح الأسئلة هنا.

- سامحني يا سيدي، لن أتجاوز حدودي مرة أخرى...

- ممتاز. سمعت أن علاقتك به لم تكن جيدة على الدوام. بل إنه لمّح ذات مرة، وأمام باقي الطلبة، إلى أن موقع هذه الكلية ليس برلين الشرقية حتى يجند فيها عملاء الستازي الجواسيس. وصرح البعض أنه يقصدك أنت، لأنك محسوب ربما على صف الأستاذ عزيزي. ما قولك في ذلك؟

- سوزي؟ شازي؟ كذب بكل تأكيد يا سيدي. أنا أعامل كل أساتذتي على قدم السواء، فمن واجبي احترامهم وتقديرهم، كاد المعلم أن يكون رسولا...

- طيب، يقول البعض أيضاً إن عزيزي لا يتواصل إلا مع شلة طالبات تتزعمها جميلة بولنوار، ولا يهتم بأحد من الطلبة الذكور سواك. هل هذا صحيح؟

- معذرة يا سيدي، لكنني لا أعرف أي شلة، أحترم كل زميلاتي وزملائي، وأهتم بدروسي وتحصيلي العلمي والأكاديمي، ولا شأن لي بأحد.

- وماذا عن الإهانة الصريحة التي وجّهتها إليك الأستاذة الطالبي، عندما قالت إن أفعالك الرخيصة تناقض اسمك العائلي، وإن انبطاحك لجمال عزيزي لن يقودك إلا إلى حتفك؟

- سامحها اللّه، يعلم الجميع أنها مضطربة نفسياً، فتقلباتها المزاجية غير خافية على أي كان. لا أحد يأخذها على محمل الجد، فالمهم أن تمنحنا المعدل الموجب للنجاح. أليس كذلك؟

الطالب الثاني: أسامة الشيخاوي (25 سنة)

- أسأل اللّه العفو والمغفرة للأستاذ فريد، فقتل النفس ذنب عظيم.

- أتعتقد أنه تحرش بالباحثة الإسبانية؟

- أستغفر اللّه. لا علم لدي بأية تفاصيل. لم يثبت عن الأستاذ فريد تصرف مماثل من قبل. لكن النفس أمّارة بالسوء.

- يقال إن أدريانا كانت تلفت الأنظار كلما حلّت بالكلية، هل هذا صحيح؟

- كنت حريصاً على غض بصري يا سيدي، لكن قولك في محله. لا أدري لماذا تعمدت الإسبانية دوماً لفت انتباه الجميع إليها، بتسريحات شعرها الغريبة، وملابسها غير المحتشمة، والمنافية تماماً لما يفترض أنها ضوابط جامعية. لكن من يهتم؟ فهي لا تختلف في ذلك عن مجموعة من زميلات الدراسة، ممّن يعتقدن، بملابسهن الفاضحة، أنهن يتنافسن في مسابقة لعرض الأزياء...

- أتقصد جميلة وشلّتها؟

- لا أهمية للأسماء يا سيدي. لطالما سعيت للقيام بواجبي في محاولة نصحهن، بكل احترام، فكان جزائي السخرية والاتهام بالرجعية والتخلف والتطرف. وقد استدعاني الأستاذ عزيزي إلى مكتبه ذات مرة، وأمرني بتركهن وشأنهن، مهدداً إياي بحساب عسير. أسأل اللّه الهداية للجميع.

- مفهوم. طيب، بعيداً عن كل هذا، وبالعودة إلى الأستاذ النوري، أتعتقد أنه انتحر فعلاً؟

- لا أنكر أنني تابعت دراستي في تخصص الأدب المقارن اضطرارياً، لا عن قناعة أو شغف مسبق، لكن نظرتي إلى آداب الغرب وباقي الأمم تغيرت كثيراً بفضله، خاصة الأعمال التي لا تتعارض أفكارها مع ديني وبيئتي. هذا لا ينفي امتعاضي أحياناً من تحدثه بإعجاب عن عدد من العدميين الملحدين، ممّن اختار الغرب تنصيبهم على عرش

آدابه وفلسفته، كالمُدعو سيوران على سبيل المثال: ربما سمح لروحه بالتلوث بالأفكار المسمومة لهؤلاء، فقتل نفسه في لحظة ضعف. لكنه مجرد احتمال، وليس ظناً، لأن بعض الظن إثم.

الطالب الثالث: أشرف شهيد (23 سنة)

- أبهرنا الراحل دوماً بقدرته على ربط كل تفاصيل الحياة بالأدب، لك أن تتخيل يا سيدي، أنه لم يسخر من ولعي المعروف بممارسة تمارين اللياقة البدنية، ومتابعة مباريات وأخبار كرة القدم، بل إنه اقترح عليّ فكرة لطيفة: إعداد عرض يقدم نبذة قصيرة عن أعمال أدبية لبلدان المنتخبات المشاركة في كأس العالم بالبرازيل. وأذكر أن الطلبة تفاعلوا مع العرض بشكل طيب.

- ولم تحظوا بمعاملة مماثلة من جمال عزيزي؟

- حصصه جلسات تعذيب نفسي. تشعر أنه لا يأتي أصلاً إلا على مضض. تخلو دروسه من أي شغف، ويكتفي خلالها باستعراض دروس قديمة، ربما لم يغير مناهجها من سنوات طويلة. أو يقترح العمل على نصوص نقدية بالية ومملة، يقول زميلنا منير الحسناوي، وهو بالمناسبة أفضلنا وأوسعنا اطلاعاً، إن أصحابها أصدقاء جمال عزيزي، أساتذة يدرّسون في جامعات أخرى.

- هناك من يتحدث عن شلة فتيات تتزعمها جميلة بولنوار، وتحظى بمعاملة خاصة من عزيزي.

- الأقاويل كثيرة، ولا أستطيع تأكيدها أو نفيها. وقتي موزع بين المحاضرات والواجبات والتدريبات الرياضية، ولا شأن لي بأحد. لكنني أستطيع وصف المشهد المتكرر بحذافيره في حصة الأستاذ عزيزي، يوم الإثنين على الساعة الثانية بعد الزوال: جميلة وصديقاتها في الصف

الأمامي، بتنانير قصيرة وضيقة (حتى في عز فصل الشتاء) وهنّ يتبادلن الضحك والمزاح العابث معه، فيما يتبعه حسام الغالي كظله، ويحمل عنه حقيبته، مبرراً تصرفاته المضحكة بأن احترام الأساتذة وتقديرهم واجب.

الطالب الرابع: خليل آيت القاضي (29 سنة)

- ليست المشكلة في انتحار الأستاذ فريد أو تحرشه بالباحثة الإسبانية. المنظومة كلها فاسدة، وهذا يستلزم تغييراً تاماً، أو بالأحرى انقلاباً جذرياً.

- ماذا تقصد؟

- يقول المفكر الإيطالي أنطونيو غرامشي في **دفاتر السجن**: إن المنظومة التعليمية ليست مطالبة بنقل المعارف التقنية فقط، بل بالسعي إلى تكوين شامل للطالب، بما ينمي حسه النقدي ووعيه الأخلاقي.

- وما علاقة هذا بالقضية؟

- كل شيء مرتبط ببعضه. إن المنظومة الجامعية الفاسدة، التي تستهدف توفير روبوتات مستهلكة، لا بشراً واعين بحقوقهم وواجباتهم، تساهم بالتأكيد في خلق نماذج معطوبة، تعيد إنتاج دائرة القهر، كما سمّاها مصطفى حجازي في كتابه **التخلف الاجتماعي - سيكولوجية الإنسان المقهور**.

- اسمعني يا هذا. استدعيتك هنا للتحقيق، لا لتقديم مرافعة حول واقع التعليم العالي في المغرب. أجب عن سؤالي بشكل مباشر: هل تعتقد أن الأستاذ فريد النوري تحرش بالباحثة الإسبانية أدريانا نافاس؟

- لا.

- شكراً، يمكنك الانصراف...

الطالب الخامس: عبد المولى مقروف (28 سنة)

- أرجوك يا حضرة الضابط. أنا لا أعرف شيئاً ولا علم لي بشيء. لا شأن لي بمتحرشين أو فاسدين أو مجانين. مستقبلي على المحك، لأنني أكرر هذه السنة، ولا رغبة لي في مشاكل مع أحد. أريد الحصول على المعدل، والمغادرة في أقرب وقت ممكن.

- مفهوم، مفهوم، ولماذا البكاء إذن؟

الطالب السادس: عصام المسعودي (23 سنة)

- استمتعت دوماً بالدخول إلى صفحته على الفايسبوك. كان نشيطاً على وسائل التواصل الاجتماعي، يكتب مراجعات أنيقة عن كتب قرأها، ويشارك اقتباسات من بعضها، ولا يدلي برأيه في كل شيء وأي شيء كما يفعل البقية، كما قد يشيد أحياناً بأحد طلبته السابقين، ممّن حققوا نجاحاً معيناً، أكاديمياً أو مهنياً، فيشعرك ذلك بالثقة والأمل في المستقبل.

- يقال إنه حرص على إدامة التواصل مع هؤلاء الطلبة السابقين، من الناجحين مهنياً، بهدف تكوين شبكة علاقات متينة، تمكنه من تحقيق مصالحه الشخصية...

- لا أدري، ولكن ماذا في ذلك يا سيدي؟ لا أعتقد أن في هذا ما ينافي القانون، مصالح متبادلة يستفيد منها الجميع ولا تضر أحداً!

- حسناً. وماذا عن الأستاذة حنان الطالبي؟ هل كنت تتابع حسابها أيضاً؟

- حساب عادي. قد تكتفي بمنشور واحد كل عدة أسابيع، تشارك فيه اقتباساً، أو إعلاناً عن نشاط أكاديمي جديد في الكلية. لكنها لم تتوانَ يوماً عن وضع علامات الإعجاب على كل منشورات الراحل.

الطالب السابع: منير الحسناوي (27 سنة)

– سمعتُ عنك الكثير، يقال إنك ألمع طلاب شعبة الأدب المقارن. ما رأيك في فريد النوري؟

– لا أعتقد أن البحث عن البياض الناصع أو السواد الحالك في شخصية وماضي الأستاذ الراحل سيقود إلى شيء. هو لم يكن ملاكاً طاهراً ولا شيطاناً رجيماً، ولا يمكن وصف شخصيته بالمعقدة حتى إنه ببساطة رجل فهم جيداً معادلة النجاح كما يعرفها قاموس واقعنا: الموهبة وحدها لا تكفي، ما لم يتقن صاحبها الرقص على الحبال، خاصة اللامرئية منها...

– أي رقص؟ وأي حبال؟ وضّح كلامك...

– ستجد أكثر من تأويل لكل خطوة قام بها الراحل. دعم طالباً مثلاً في الحصول على منحة أو فرصة تكوين في جامعة أوروبية؟ سيعتبرها أحدهم واجباً أكاديمياً طبيعياً، فيما سيصر آخر على أنه لم يفعل ذلك إلا خدمة لمصلحة شخصية لا يعلمها إلا هو. رغم أن التفسير الحقيقي أبسط من ذلك بكثير: الوضع في تلك الكلية شبيه برواية **المحاكمة** لفرانز كافكا، عندما تجد نفسك في قلب متاهة معقدة من القوانين الهلامية، ثم تتذكر فجأة أنك لا تعرف سبب وجودك هناك أصلاً. استطاع الأستاذ فريد تدريب نفسه على التعايش مع غرابة هذا الوضع، بل وتحكم بكل خيوط أريان بيده، مطمئناً إلى قدرته على الخروج متى شاء، لكنه أخطأ ربما في حساباته، وخانته ثقته الزائدة، فوجد وحش المينوتور بانتظاره.

– لا أريد حذلقة من فضلك. نحن نبحث عن أجوبة صريحة ومباشرة هنا. ما رأيك أنت، الطالب منير الحسناوي، في هذا الأستاذ؟

– لا أخفي استمتاعي الشديد بكل محاضراته، أذكر أنه كان يدرسنا مادتين بعد ظهر الثلاثاء، فلا أشعر طوال أربع ساعات بذرّة ملل.

الواضح أن الأستاذ فريد أحب مهنته، وكان شغوفاً بما يفعله، لكن هذا شيء، والسعي للحفاظ على المكانة في صراع العروش داخل الكلية شيء آخر...

- لكن علاقته بالعميد متينة، أي أنه في مأمن. أليس كذلك؟

- هذا ليس كافياً، هناك أيضاً لعبة توازنات حزبية لا بدّ من أخذها بعين الاعتبار. أتت فترة تقاعد فيها أساتذة قدامى، فجرى إغراق الكلية بآخرين جدد، في مباريات شكلية استبعدت خلالها ملفات قوية لمترشحين مميزين، مقابل توظيف حفنة من الكسالى، بعضهم لا علاقة له حتى بالتخصصات المطلوبة. فانتقلت الكلية إلى مرحلة جديدة عنوانها التهريج: أستاذ يوزع على الطلبة نصوصاً أدبية للتحليل، ألّفتها امرأة فيما يعتقد هو أن الكاتب رجل. أستاذة لم تقرأ حرفاً لكاتب يفترض أنها أنجزت أطروحتها عن أعماله. أستاذ يستعرض بالنقطة والفاصلة درساً حمله من موقع إنترنت ونسبه لنفسه، رغم أن مؤلفته الحقيقية ما زالت على قيد الحياة. والكثير من النكت الأخرى، حتى يخيل إليك أن معيار توظيف كل هؤلاء لم يكن الكفاءة، بل الغباء. ولا حاجة للقول إن ما يجمع بينهم أيضاً الانتماء إلى حزب العميد، أو أحزاب أخرى متحالفة معه.

- وماذا كان موقف باقي الأساتذة من كل ما تحكيه؟

- ربما حاولت الأستاذة الطالبي الوقوف في وجه هذا العبث، لكنها أضعف من أن تفعل شيئاً، فيما فهم فريد النوري قواعد اللعبة قبل الجميع، فسعى للاستفادة منها وتوظيفها لمصلحته، بالتأييد حيناً، وبالحياد أحياناً أخرى.

- على ذكر الأستاذة حنان، هناك تضاربٌ كبيرٌ حول تعقيد شخصيتها، ويقال إنك مقرب منها. هل هذا صحيح؟

- الأستاذة حنان صعبة المراس، لكن أحداً لن يستطيع التشكيك في مدى عمق ثقافتها وحرصها على مبادئها الأكاديمية. مشكلتها ربما أنها راديكالية في مثاليتها، التي لا تناسب تلك الكلية. وهذا ما جر عليها السخرية والانتقادات الدائمة. أفهم سر انجذابها الفكري نحو الأستاذ فريد، لشعورها ربما أنه الوحيد الذي يفهمها، لذلك ستجدها شرسة في الدفاع عنه، وقد تتجاوز حتى ما يفعله في الكواليس، أو تبرره، لأنه ظل الأقدر دوماً على مواكبة مستواها الفكري المتميز، أما قربي منها فلا يتجاوز أي إطار أكاديمي.

- وماذا عن جمال عزيزي؟

- رجل لا يثير في نفسي سوى الغثيان. يعامل الطلبة الذكور باعتبارهم كائنات لامرئية، ويتصرّف كأنه وليّ نعمةٍ على الطالبات. يوفر لهن فرص المنح والابتعاث، لكن بشروط. أسمع الكثير عن محاصرته لبعض البريئات، لإجبارهن على الخضوع له، مقابل مسايرة أخريات له بأسلوبٍ براغماتي، يستهدف تحصيل المكاسب دون أدنى اعتبار للكرامة أو الشرف. يتهامس البعض عن حفلات سرية ماجنة، تلعب فيها جميلة بولنوار دور الوسيطة. لكنها أقاويل لا أستطيع تأكيدها.

- تبدو عليماً بالكثير من خفايا الشعبة والكلية، ما سر هذا الاهتمام؟ ألا يفترض بك التركيز فقط على تحصيلك العلمي، والسعي للحصول على معدلات متميزة؟

- لم تكن لي شجاعة إحدى زميلاتي، حتى أكتب القصص والقصائد مبكراً مثلها. فضّلت التريث، والتركيز على محاولة فهم المجتمع، بما يمكنني من الكتابة عنه مستقبلاً، فكافأني القدر بهذه الكلية، باعتبارها نموذجاً مصغراً جاهزاً، يقدم كل ما يحلم به أي روائي ناشئ.

– مفهوم. سؤال أخير، ما تعليقك على الضجة التي أثارتها أدريانا نافاس؟

– قد يكون في رأيي تأثراً واضحاً بالأدب البوليسي الذي أحبه، لكنني أعتقد أنها أتت بتكليف خاص، لأداء مهمة محددة، تستهدف الأستاذ فريد النوري شخصياً. ما طبيعة هذه المهمة؟ ولماذا هو بالذات؟ وفي حال ثبوت انتحاره، لماذا فضّل هذا الخيار عوض المواجهة؟ أعتقد أن الوصول إلى حقيقة ما جرى يستلزم طرح الأسئلة المناسبة أولاً، قبل السعي إلى البحث عن إجابات.

*

ملاحظات الضابط مراد بنصالح:

- تلخص الأسئلة التي طرحها الطالب (م. ح) كل تعقيدات هذه القضية (ضرورة استدعاء الباحثة الإسبانية) (وإن لم يكن تبرير الطالب لمعرفته العميقة بكل تلك التفاصيل والأسرار حول الفساد المستشري في الكلية مقنعاً البتة).

*

أدريانا نافاس

(باحثة في الشعر الأندلسي - 30 سنة)

*

يوصى بالاعتماد على فرضية الانتحار، خاصة مع تأكيد عدم توفر أدلة جنائية أخرى، تتناقض مع العناصر المعتمدة في هذا التقرير.

التقرير الرسمي للطبيب الشرعي (ص 7)

*

تقدم الضابط مراد بنصالح بطلب رسمي لرؤسائه لاستدعاء أدريانا نافاس، مصرّاً على أن القضية ما زالت بحاجة إلى بحث معمق، وإن أكد تقرير الطب الشرعي انتحار الأستاذ فريد النوري، ومغادرة الباحثة الإسبانية للتراب الوطني.

ما يعني حرفياً إغلاق الملف...

أتى الرد مقتضباً وصريحاً، بأن القضية انتهت، وأن انتحار الأستاذ دليل فعلي على اعترافه بالمنسوب إليه، كما أن إثارة ضجة جديدة لن تكون في مصلحة أحد.

أحسّ مراد بغصّةٍ في حلقه، فبعد استدعائه لكل من جمعتهم علاقات مختلفة مع الأستاذ الراحل، ووقوفه على جملة من التناقضات في أقوالهم، مع لجوئهم إلى الحل التقليدي بنفي التهم عن أنفسهم وإلصاقها بالآخرين، وميل معظمهم إلى استبعاد فرضية وقوع أستاذ

بمكانة وذكاء فريد في فخ التحرش بباحثة أو طالبة أو زميلة في الكلية، وجد الضابط نفسه بحاجة ماسّة إلى مواجهة أدريانا بتحقيق جديد، يضع النقاط على حروف طبيعة علاقتها بفريد، وما جرى فعلياً قبل خروجها بهذا الاتهام المدمر، لكنه وجد نفسه أسير توجيهاتٍ تمنعه من المضي قدماً نحو هدفه، بالوصول إلى ما اعتبرها حلقةً مفقودةً كبرى؛ تتعالى التحذيرات كلما اقترب منها.

إزاء هذه القيود، قرّر مراد العودة إلى الملفّات السابقة، وخاصةً محضر التحقيق الأوّل الذي أُجرِي مع أدريانا نافاس، قبل تسلمه مهمة متابعة القضية، إثر وفاة الأستاذ النوري.

تصفّح الضابط دفاتر المحاضر القديمة على مكتبه، وصولاً إلى إفادة أدريانا، التي دوّنها ضابطٌ سابقٌ في الشرطة القضائية.

ورد في نصّ التقرير:

«أقرّت أدريانا نافاس، الباحثة الإسبانية في مجال الأدب المقارن، أنّ علاقتها الأكاديمية مع الأستاذ فريد النوري بدأت قبل حوالي سنة من تقديم الشكاية، حين وافقت اللجنة البحثية في كلية اللغات والآداب والفنون (جامعة ابن بطوطة – طنجة) على استقبالها، بصفتها طالبةً زائرة، تعدّ أطروحة دكتوراه حول موضوع يمكن ترجمة عنوانه إلى العربية بـ [التقاطعات الثقافية والسياسية في تطور الشعر الأندلسي خلال العصر الموحدي]. وبعد أشهر شهدت تنقلات متقطعة إلى طنجة ومدن مغربية أخرى، بدأت مشكلاتٌ شخصيةٌ بينها وبين الأستاذ فريد بسبب توالي ما وصفته بالتجاوزات خلال لقاءات واجتماعات الإشراف الجزئي على أطروحتها».

تابع مراد القراءة بتفصيلٍ أكبر، حيث وردت أقوال أدريانا عن واقعةٍ محدّدة:

«دعاني الأستاذ فريد، ذات أمسية، إلى لقاءٍ في مكتبه بعد انتهاء الدوام، بحجّة رغبةٍ في مناقشة تفاصيل بحثي. كنت مترددةً، لكني وافقتُ أخيراً. بدأت الجلسة هادئة كالمعتاد، تحدثنا عن بعض المصادر التاريخية، وناقشنا مضامين بعض المؤلفات المتعلقة بإطار بحثي. فجأةً، تغيّر أسلوبه، وصار يعبّر عن إعجابه العميق بي، بحسب وصفه، هذا قبل محاولته التقرب مني بطريقةٍ فظّة. سعى للإمساك بيدي أولاً، وعندما أبعدتها ونهضت بسرعة، لحقَ بي محاولاً إغلاق الباب، لكنني تمكنت من المغادرة...».

انتقل مراد إلى الصفحات التالية:

«تواصل معي الأستاذ فريد النوري بعد واقعة تلك الأمسية بأيام، معتذراً وطالباً الصفح. تحدث عن مروره بفترة عصيبة أفقدته شيئاً من اتزانه، خاصة مع توالي صراعاته في الشعبة (لم يحدد طبيعتها)، ونزاعاته الشخصية مع زوجته، فتفهمت الأمر، وقررت نسيان ما جرى...».

ثم تطرقت أدريانا إلى تفاصيل أخطر:

«في اللقاء الموالي، مرة أخرى بعد انتهاء الدوام، قدّم لي فنجان قهوة كابتشينو، كما أحبها، تعبيراً ربما عن رغبته في فتح صفحة جديدة معي. بعد لحظاتٍ، اجتاحني صداع غريب، لا أدري إن كان بسبب التوتر أم شيئاً آخر، لكنه تمادى وقرّبني منه عنوةً، ملامساً الجزء العاري من فخذي، لأنني كنت أرتدي تنورة. دفعتُه بأقصى ما استطعت، محاولةً الفرار، خاصة مع تحول الصداع إلى ما يشبه الخدر الخفيف في أطرافي، لكنه أمسك بمعصمي بشدةٍ أحدثت لي كدمة. صرخت وهدّدته، لكنه لم يتراجع، فاستجمعت ما تبقى من طاقتي ودفعته مرة أخرى، فسقط واصطدم رأسه بالأرض، ما دفعني إلى الاعتقاد بفقدانه الوعي، أو حتى موته، لكن رغبتي في الهروب كانت أقوى...».

وبعدها قرأ مراد تعليق الضابط السابق في المحضر:

«لاحظتُ على المدّعية علامات رعبٍ وإجهادٍ أثناء سردها للوقائع، مع مزجها بين العربية الفصحى والدراجة المغربية ولغتها الإسبانية الأصلية، كما عرضت بواسطة هاتفها المحمول صورةً لكدمةٍ على يدها. لم تُخفِ المدعية رغبتها في مغادرة البلاد فوراً، دون أن تغفل الإشارة إلى إمكانية استعانتها بوالدها، باعتباره موظفاً كبيراً في القنصلية الإسبانية بالمدينة، لتسريع الإجراءات. قالت إنها تحمل ذكريات جميلة عن طنجة، التي قضت فيها عشر سنوات من طفولتها، واعتادت على زيارتها بانتظام، قبل الأطروحة وبعدها، لكنها لا تفكر في العودة إليها بعد ما جرى...».

وانتهى المحضر بتوقيع أدريانا نافاس وختم الضابط المحقّق.

لاحظ مراد أنّ المحضر يكاد يخلو من الأسئلة المعمّقة المألوفة في قضايا مماثلة، مثل السؤال عن وجود شهودٍ في الكلية، أو فحوى الرسائل المتبادلة بين الطرفين. بدا التحقيق مقتضباً أكثر من اللازم، وكأنه حُسم بسرعةٍ دون التعمّق في التفاصيل.

أغلق مراد الملف، وأخذ يدوّن ملاحظاتٍ جديدة في مذكرته الصغيرة:

- لماذا لم يتمّ التطرّق إلى كاميرات المراقبة في ممرّات الكلية؟ وهل أظهرت دخول (أ. ن) إلى مكتب (ف. ن) يومئذ؟ أم إن تأخر موعد اللقاء (بحسب إفادة المدعية) يعني عدم توفر تسجيلات واضحة؟

- أين إفادة حارس أو حراس مبنى الكلية؟ لماذا تم إسقاط هذه الجزئية المحورية؟

- لماذا لم يرد في المحضر أيّ تساؤلٍ حول تحرّكات (أ. ن) في الأسابيع السابقة للحادثة؟ وهل هناك شهودٌ آخرون بإمكانهم تأكيد معاملة (ف. ن) إياها بطريقة غير لائقة كما تزعم؟

- تحدّثت (أ. ن) عن كدمةٍ في معصمها، لكن الملف يخلو من أي تقريرٍ طبيٍّ مفصّل. فقط صورة هاتفٍ محمولٍ تشير إلى كدمة، دون أي تدقيق في مصداقيتها وتوقيتها.

- لماذا لا تبدو قصة فنجان الكابتشينو مقنعة؟ صارت ثلاثية المخدر والمشروب والاغتصاب من الماضي، ولم تعد تغري أحداً أو توقع بأي كان.

شعر الضابط بنصالح أنّ عدم تمكّنه من استجواب أدريانا شخصياً يُفقد التحقيق فرصةً ذهبيةً لتحديد مدى مصداقية روايتها المعتمدة، وبالتالي تأمل القضية بشقيها (التحرش والانتحار) من زاوية أخرى مختلفة، وتذكّر هنا الشهادات السابقة التي مالت في عمومها إلى استبعاد احتمال تحرّش فريد النوري بأدريانا نافاس. (مع فتحها مدخلاً آخر إلى كوارث ومصائب تطحن تلك الكلية وطلبتها...).

إذا تم أخذ فرضية اتهام فريد زوراً بعين الاعتبار، فمن له المصلحة في تلفيق تهمةٍ خطيرةٍ كهذه؟ وهل كانت أدريانا نافاس عقلاً مدبراً أم مجرد أداة؟

لم يغب عن بال مراد، في خضم تدقيقه ومراجعته لكل التفاصيل، تأكده من تحركه في هامش ضيق للغاية. من مصلحة الجميع الآن نسيان الموضوع، فلو ثبت أنّ أدريانا أطلقت اتهاماتها دون دليل دامغ، فقد تثار ضجةٌ تُحرج إسبانيا ووسائل إعلامها، التي تجاوزت كل حدود المعقول في هجومها الذي اتخذ (كالعادة) بعداً عنصرياً، كما أن العكس صحيح: فلو ثبت أنّ فريد حاول اغتصابها، فستتفاقم الضغوط السابقة. وفي كلتا الحالتين، ستتخذ الأزمة منحى أخطر...

الواضح إذن أن هذا الانتحار المباغت أتى كهدية من السماء، أنقذت الجميع...

لكن مراد لم يعتد أبداً على إغلاق ملف أي قضية إلا بعد استنفاد

كل الجهود الممكنة، وإن عوّدته تجربته الطويلة على أن الواقع مختلف تماماً عن الأفلام والمسلسلات البوليسية، فما أكثر القضايا التي ظلت هكذا بلا حل، لتتكدس ملفاتها في مصلحة الأرشيف، عرضة للرطوبة والغبار...

أخذ على نفسه عهداً بالمضي في التحقيق وفق ما تسمح به الظروف، أي الاكتفاء بالأدلة المتوفرة والشهود المحليين، والتنقيب بين الملفات المهملة، لعله يصل إلى جديد لم يهتد إليه غيره.

عاد إلى مذكرته الصغيرة، رفيقته الدائمة، مواصلاً تنظيم أفكاره:

- هل يمكن لملفات (ف. ن) الشخصية (مراسلاته، بريده الإلكتروني، هاتفه الشخصي، حاسوبه المحمول) أن تقود إلى ما خفي من علاقته بـ (أ. ن)؟

- هل بإمكانه التفكير في أسلوب مختلف للتواصل مع (أ. ن) بعيداً عن القنوات الرسمية؟ (ماذا عن القنصلية الإسبانية حيث يعمل والدها؟).

- وسط فوضى الصراعات والنزاعات حول كعكة المصالح والصفقات، واستغلال الطالبات، وتهميش الطلبة، داخل أسوار تلك الكلية، تطل جزئية ثانوية لم يلتفت لها أحد: موضوع الأطروحة التي تعمل عليها (أ. ن) (التقاطعات الثقافية والسياسية في تطور الشعر الأندلسي خلال العصر الموحدي)، لماذا اختارت (ف. ن) بالذات؟ (محاولة فهم هذا التخصص ومجالات اشتغال وبحث الأستاذ الراحل...).

حمل مراد مذكرته، وأعاد ملف التحقيق الأول إلى مكانه، دون أن يفلح في تجنب صورة فريد النوري المعلّقة في الصفحة التعريفية للملف:

ابتسامةٌ غامضةٌ لرجلٍ يبدو للوهلة الأولى عادياً للغاية. لا تشي

ملامحه بأي وسامة لافتة أو تفاصيل مميزة، بل يمكن القول إنك قد تقابل مثله أكثر من مرة في أي جولة بشارع باستور.

لكن الدهاء المتفرد، والبادي في عينين تؤطرهما نظارات أنيقة، ما كان ليخفى على ضابط متمرس في الاحتكاك بمختلف شرائح البشر، وأشدها غموضاً واختلافاً...

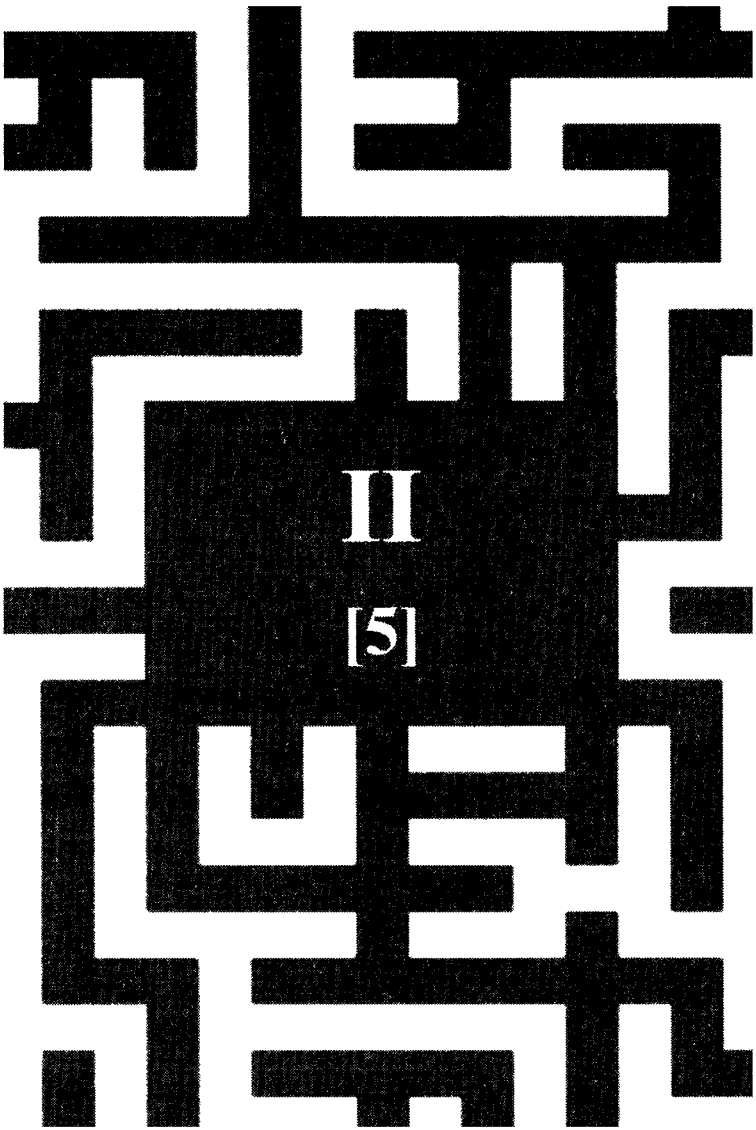
من هو فريد النوري؟

قال ذلك الطالب المتحذلق والمعتد بنفسه، إن الراحل رجل أتقن الرقص على كل صنوف الحبال.

فهل أخطأ فريد في رقصته الأخيرة، أم ربما في اختيار حلبتها المناسبة؟

خارج الدائرة الأمنية، ومع استعداد مراد للمغادرة والذهاب إلى بيته (حيث تنتظره زوجته التي غاب عنها لأيام)، ازدادت شدة رياح الشركي، فتمايلت بعض الأشجار، حتى يخيل للرائي أنها على وشك السقوط، وأعلنت أمواج الشاطئ عن غضبها، وكأنّها تحتج مجدداً على رغبة طنجة الدائمة في احتضان أسرار لا رغبة لأحد في الإفصاح عنها...

*


II
[5]

II

[5]

ما لا تعرفه لوسيا

(1936)

«عند قراءة مسرحية **عطيل**، ندرك أن الثيمات الإنسانية الكونية، مثل الغيرة والصراع على السلطة وهوس الهيمنة، تتجاوز عصر كتابة المسرحية لتجد لها صدى عميقاً في حياتنا المعاصرة. ألا يمكننا اعتبار وسائل التواصل الاجتماعي، على سبيل المثال، مرادفاً لشخصية ياغو، مع تلاعبها بيقينياتنا، ومساهمتها في نشر الفتن، وتعزيزها للشك المرضي في كل شيء؟ ألا تعكس مأساة **عطيل** وديدمونة، طبيعة الروابط الإنسانية اليوم، حيث يمكن لسوء فهم بسيط أن يدمر علاقات تبدو أصلاً هشة وغير متماسكة؟ لقد قدّم لنا شكسبير عدسة مقربة لفهم جملة من التحديات العاطفية والأخلاقية في عصرنا هذا».

رشيد بناصر – المحاضرة الثانية – الأربعاء 11 فبراير 2015

1

ما لا تعرفه لوسيا:

يقول خوان إنه قرر العودة إلى مسقط رأسه في مدريد، مع زوجته جوزفين وابنته روزا، لتفاؤله ببوادر التغيير القادم في إسبانيا، لكن السبب الحقيقي لمغادرته باريس أكثر دقة وبساطة من هذا الشعار الفضفاض: ما عاد الرسام الإسباني الموهوب قادراً على تحمّل تجاوزات كاتب أميركي متعجرف، يزور العاصمة الفرنسية من حين لآخر، ويصر بوقاحته البغيضة في كل مرة على ملاحقة زوجته وإغواء ابنته المراهقة في الآن ذاته...

*

لا يمكن إخضاع الحياة لأي منطق، وإلا كان مصير المتعنت الشقاء...

هذا ما استغرقت لوسيا تسعة عشر عاماً ماضية، بين ولادتها ونشأتها في حي غويا بمقاطعة سالامانكا المدريدية، لفهمه. لكن دروس الواقع -وللأسف الشديد- لا تقدم أبداً بالمجان.

هي ابنة أسرة تتلمس طريقها في عالم الطبقة الوسطى الناشئة، أواسط ثلاثينيات القرن العشرين: الأب رئيس مصلحة المحاسبة في إدارة حكومية، يعتبر أن عدم حصوله على أبناء ذكور ابتلاء، لن يتحرر منه إلا بزواج ابنتيه ومغادرتهن للبيت، فيما الأم ربة بيت، توزع وقتها بين

المطبخ والحياكة والبكاء بسبب أو من دونه، أما كارلا، الأخت الأكبر سناً، فلم تجد في ذاتها قدرة أو حتى رغبة في مواصلة الجلوس الطويل على مقاعد الدراسة، فاختارت ملازمة البيت، بعد الاكتفاء بسنة جامعية واحدة، وانتظار إشارة من إصبع أي عريس يطرق باب بيتها.

أسرة ملتزمة، تجتمع عند العشاء وتبدأه بـ «بارِكْنا، يا ربّ، وبارِكْ هذا الطعامَ الّذي نتناولُه من جودِكَ، بارك مَنْ أعدَّه، ومنْ سيتناوله، وأعطنا أن نشارك الآخرين من خيراتك»، كما لا تتخلف أبداً عن قداس الأحد في كنيسة سانت إيمانويل، ولا تفوت فرصة للاعتراف للأب فرناندو بكل الخطايا والذنوب، طمعاً في البركة والغفران.

أسرة محافظة، لا يسمح فيها للفتاتين بارتداء فساتين بألوان براقة، أو تنانير تكتفي بالركبة أو ما فوقها حداً لها، كما يمكن لتأخير عن موعد العودة إلى البيت، وإن لم يتجاوز بضع دقائق، أن يكون مبرراً لعقاب لا تتمناه أي منهما.

نشأت لوسيا في هذه الأجواء الشبيهة بفقاعة كبيرة مصمتة، ما أبعدها لسنوات عن طرح أي نوع من الأسئلة، وأقنعها أن كل ما يختلف عن أسلوب حياتها شذوذ لا قِبَل لها به.

لكن تلك الفقاعة تعرضت ربما لأول شكة دبوس في سنتها الثانوية الأخيرة، عندما تعرفت إلى روزا، الفتاة التي التحقت بمؤسسة ديل بيلار متأخرة، إثر انتقال والديها إلى حي رامون دي لا كروز القريب، لتولد بسرعة صداقة غريبة جمعت كل المتناقضات.

تتبع الثانوية مجمع الإخوان المريميين، ولا تضم سوى أشباه لوسيا مظهراً وجوهراً، فبدت روزا، بثقافتها الواسعة، ولغتها الفرنسية المتقنة، بالإضافة طبعاً إلى فساتينها الجريئة، ومكياجها اللافت، نشازاً لا مكان له داخل المؤسسة الخاصة المحافظة.

خشي الجميع التقرب منها، باستثناء لوسيا، التي انبهرت بحديثها ذات مرة في الفصل عن السريالية، في معرض شرحها لتطور تاريخ الفن، رغم علامات امتعاض ارتسمت على وجه الأستاذ، ففضّل مقاطعتها، والانتقال بدرسه إلى بر بعيد عن أية زوابع محتملة.

رأت لوسيا في روزا لغزاً دفعها الفضول لمحاولة فك غموضه، فتقربت منها أكثر، دون أن تواجه صداً من الفتاة المتحررة، فعلمت منها أنها ابنة رسام إسباني ومغنية فرنسية، التقيا في باريس وأغرما فيها ببعضهما، وعاشا فيها جنون ما بعد الحرب العظمى، ورغبة الجميع في طي صفحة فظاعات السنوات الدامية، ليثمر الحب الملتهب بين الفرنسية والإسباني هذه الفتاة، التي عادت معهما في نهاية المطاف إلى إسبانيا.

لم يكن الانبهار وحده بداية، عنوان ما جمع لوسيا بروزا، بل الحذر أيضاً، إذ ظلت صداقة الفتاتين محدودة ومحكومة بمقاعد الدراسة في الثانوية، ولم تتجاوز ذلك الإطار، رغم تقاطعات حيَّي غويا ورامون دي لا كروز.

السبب هو ما سمعته لوسيا من والدتها في البيت، عن امتعاض جيران الأسرة الوافدة الجديدة من التصرفات المتحررة لأفرادها، وتخلفهم جميعاً عن حضور أي قداس، ما دفع لوسيا إلى الخشية من معرفة أي كان، خاصة والدها، بوجود علاقة من أي نوع، تربطها بالفتاة التي تلاحقها الأقاويل.

في المقعدين المتجاورين في الفصل، سمعت لوسيا، ولأول مرة، كلاماً غريباً عن الحرية، وإرادة الإنسان، وقدرة الفن على تغيير الواقع، ورغم أنها لم تستوعب معظمه بداية، إلا أنها أدركت بحق محدودية معرفتها بالعالم، وإن تمسكت بخوفها من التقدم بخطوة غير محسوبة،

تحيد عن المسار الذي ارتضته لنفسها، فكانت روزا تكرر في كل مرة جملتها الأثيرة:

- يتردد العصفور طويلاً قبل مغادرة القفص المفتوح، وقد يبلغ به الخوف حد العودة إليه طلباً للأمان...

لم يكن ولوج الجامعة خياراً موضوعاً على طاولة المستقبل المخطط سلفاً للوسيا، فكانت تمارين الطبخ والحياكة المكثفة، و«دروس» الأسرار الأنثوية الخاصة، بالإضافة إلى السنة الثانوية النهائية، أكثر من كافية لإعدادها للزواج، وربما بدأ والدها بالفعل في إعداد قائمة بالمرشحين المحتملين.

أما أن يسمح لها باستكمال دراستها فذاك ضرب من خيال جامح، لم يتسلل يوماً حتى إلى أسوأ كوابيسه...

- لقد حوّل اليساريون والاشتراكيون والفوضويون، وكل هؤلاء الذين يعارضون تعاليم الكنيسة، الجامعة إلى وكر لهم، يبثون فيها أفكارهم ومبادئهم وتعاليمهم الهدامة، واسألي شقيقتك كارلا، التي اكتفت بسنة واحدة قبل أن تولي هاربة. كيف سوّلت لك نفسك مجرد التفكير في ذلك؟

تساؤل استنكاري تحوّل إلى مقدمة نقاش طويل، استخدمت فيه لوسيا سلاح دموعها دون جدوى، مطالبة بحقها في ولوج الجامعة كما فيران ابن عمها، والحصول على شهادة تمكنها من العمل في مستوى يليق بها، مؤكدة أن ذلك لا يتعارض بأي حال مع تعاليم الكنيسة.

لجأت إلى هذا التذكير، رغم إدراكها صعوبة فصل والدها بين «تعاليم الكنيسة» و «أوامر الأب فرناندو» الذي يبجله ويشركه في خصوصياته، ويطيع أوامره بلا نقاش.

- المدعو فرناندو مجرد أفّاق خبيث، يستغل طيبة الناس

وسذاجتهم لتحقيق مآربه، لا أحد يدري ما الذي يفعله بكل الشابات والفتيات اللواتي أقنع آباءهن بإلحاقهن بسلك الرهبنة في دير سان خوان دي بوتيستا، كما لو أن خدمة الرب لن تتم إلا هناك، في منطقة نائية تبعد عن مدريد بعشرات الكيلومترات، وليس هنا، أمام أسماع الجميع وأنظارهم...

كلمات أصابت لوسيا بالرعب، لأنها بدت معاكسة تماماً لكل ما ألفت سماعه طوال سنوات، لكنها مسّت بالفعل وتر الشك الكامن في أعماقها، بسبب طبيعة الأب فرناندو، التي وجدتها دوماً ضبابية، وأمْيَل للمداهنة والمراوغة، بما يتعارض كلياً مع سير الشهداء والقديسين، كما سمعتها في الكنيسة والبيت.

– حسناً، وماذا عن متابعة دراستي، ما الذي بوسعي فعله؟

تذكرت يومها ابتسامة غامضة، ونظرة واثقة، منحتا ملامح روزا شكلاً غير مألوف، وهي تقول:

– لن يمر وقت طويل، وسينتهي المطاف بوالدك إلى قبول ولوجك إلى الجامعة، رغماً عنه.

*

2

ما لا تعرفه لوسيا:

عاش رامون طفولة بائسة في أحياء مقاطعة كارابانتشيل الفقيرة، تلاحقه كوابيسه المحمّلة بصور الأثاث المحطم، وجسد والدته المسجى أرضاً وسط بركة دماء، وعلامات الذهول على وجه والده، الذي حملت يمناه نصف زجاجة خمر مهشمة، فيما تعالت طرقات رجال الشرطة قبل استعدادهم لاقتحام الشقة بالقوة...

*

أحدثَ مقالٌ نشر باسم مستعار زلزالاً في مقاطعة سالامانكا، وربما في مدريد كلها، حيث جرى الكشف فيه بالدلائل والبراهين القاطعة عن تورط الأب فرناندو في مجموعة من الاختلاسات الخاصة بهبات مرتادي الكنيسة، ولا يدري أحد كيف استطاع صاحب المقال الوصول إلى وثيقة تثبت حصول فرناندو على عقد ملكية أرض في سانتاندير التي لا يعرفه فيها أحد.

انقسم الجميع بين مصدق ومشكك في فحوى ما قرأ، لكن كاتب المقال الأول لم يسمح لأحد بالتقاط الأنفاس، وألقى قنبلة ثانية...

مقال آخر، يحمل شهادات (بأسماء مستعارة أيضاً) لفتيات تتهمن فرناندو باستغلالهن في دير سان لورينزو، شمال غرب مدريد، وقد انتقلن إليه بناء على توصيته للعائلات الراقية المحافظة في سالامانكا،

فتعالت الأصوات أكثر، خاصة مع خروج إحدى الفتيات إلى العلن للكشف عن حقيقة ما يرتكبه من أفعال.

ورغم محاولات الكنيسة تجاهل الفضيحة ثم استيعابها، إلا أنها اضطرت للانحناء للعاصفة في نهاية المطاف، ومعاقبة فرناندو بالطرد والحرمان الكنسي، فاختفى ذات ليلة عن الأنظار، وذاب كما لو لم يكن له أي وجود حقيقي على الإطلاق.

وبذلك مثلت هذه الحادثة جواز العبور السهل للوسيا إلى الجامعة.

أُسقِط في يد والدها، وانهار خط دفاعه الأخير، بعد احتمائه طويلاً بتعاليم الأب فرناندو، وإن وضع في المقابل سلسلة من الشروط الصعبة، بحثاً عن تعويض ما أهدر من كرامته وسطوته أمامها.

تضمّن ذلك متابعة جدول المحاضرات، وتجنب التأخير، وحساب المدة الزمنية التي قد تستغرقها المواصلات أو السير على الأقدام، بين المدينة الجامعية والبيت.

لم يكن لأي من هذه الشروط أن يثبط من عزيمة لوسيا، التي أقبلت على العالم الجديد في الكلية بنشاط جم، وبانبهار أو ربما اضطراب خفف من حدته وجود روزا، التي بدت كالمعتادة على تلك الأجواء، رغم أنها أيضاً سنتها الأولى في الكلية.

استغرق الأمر منها وقتاً لاستيعاب كل تلك الحرية، والإقبال المندفع على الحياة، والبحث المستمر للطلبة عن إرضاء رغبة فهم كل شيء، وتجربة أي شيء، فوجدت نفسها مندمجة تدريجياً في ذلك العالم الغريب، مع الاعتماد كلياً على «خبرات» روزا...

وهكذا تابعت المحاضرات باهتمام، وتعلمت كيف تراوغ رقابة والدها، للمشاركة في أنشطة أخرى نظمها الطلبة المتحمسون، لمناقشة

كل ما يتبادر إلى أذهانهم من أسئلة، عن الفلسفة وحقيقة الوجود، والفن ودوره في تهذيب النفس، وصولاً طبعاً إلى الوضع السياسي القائم.

شعرت بداية بالانزعاج، لعجزها عن متابعة وفهم كل ما يقال، إلا أنها تعلمت كيف تحوّله إلى عزيمة ورغبة عارمة في فك شفرات ما تسمعه، وبالفعل، تأكد لها بسرعة أن الجامعة ستشهد ولادتها الثانية، بعد سنوات بددتها في حياة لم تشعر فيها بذرّة سعادة حقيقية على الإطلاق.

حياة جديدة، دخلها رامون على حين غرة...

بحلول الربيع، أعلن نادي المسرح الجامعي عن تنظيم تجارب أداء لقبول ممثلين جدد. لم يكن لذلك أي وقع يذكر على لوسيا، إذ لم تجد في أعماقها يوماً تلك الرغبة المحمومة في الوقوف على الخشبة، فلم يبدُ على وجهها أي تفاعل يذكر مع الحماس المسيطر على روزا.

- إنها فرصة رائعة! شعرت دوماً بأنني سأكمل ثالوث الفنون مع رسم أبي وغناء أمي، وقد حضرت عروض العديد من المسرحيات في باريس، فأيقنت وأنا طفلة أن مستقبلي سيكون فوق الخشبة.

- حظاً سعيداً إذن، لا يمكن للنصوص المسرحية الباردة والمملة التي نضطر لتحليلها في المحاضرات إلا أن تشعرني بالنفور التام مما يقع فوق الخشبة أو حتى تحتها.

- أنت مخطئة. للخشبة قدرتها على جذب من تشاء إلى حضنها، حتى من يحسب أنه لن يطأ أرضيتها بقدمه أبداً. تظل الموهبة كامنة في أعماق صاحبها، دون أن يدري هو نفسه بوجودها، إلى أن تختار هي اللحظة المناسبة للتعبير عن نفسها!

قبلت لوسيا مرافقة صديقتها على مضض، حيث ستنظم تجارب

الأداء في قاعة فسيحة فارغة، فاوض أعضاء النادي إدارة الكلية طويلاً للحصول عليها.

اندهشت لوسيا مما رأته، خلية نحل يعمل فيها الجميع بلا كلل، كما لو أن الأمر يتعلق بمهمة مقدسة، بين المنشغلين بإعداد الديكور، ومن يدققون في فوضى كومة من الملابس، ومن يذرعون الغرفة جيئة وذهاباً، إما صامتين، أو صادحين بكلام ما بنبرة مفخمة، أو حتى باحثين عن ضبط إيقاع تنفسهم، وكل هذا في تناغم، لم تمنعها الإضاءة الخافتة من تبيّن وجود مسؤول واحد عنه، أدار ظهره، وانهمك في إصدار التعليمات والتوجيهات والنصائح، وقد أبان الجميع عن أقصى درجات الانتباه والإصغاء أمامه.

- ما رأيك؟

همست روزا في أذن صديقتها، لكن ما أرادته همسة بدا أقرب للصراخ، مع تصاعد الجلبة في القاعة، فاستدار الشاب ببطء...

والتقت عيناهما لأول مرة.

وجدت لوسيا أمامها شاباً يكبرها ببضعة أعوام، يرتدي قميصاً أبيض وسروالاً أزرق بحمالات، وحذاء نظيفاً رغم قِدمه الواضح.

- يبدو أن أنشطتنا لا تروق للآنسة البورجوازية المدللة...

صعب عليها تحديد شكل ملامحه بداية، فاستغلت ضرورة افتعال الغضب رداً على تصرفه، لتتطلع إليه للحظات، كانت كافية لتحويل ارتباكها إلى اضطراب حقيقي لم تجربه من قبل.

- ماذا... ماذا تقول؟

فشل سؤالها الاستنكاري في إظهار أية علامة على الحنق، فيما اجتمعت كلماتها ونظراتها وحركاتها للتأكيد على اضطراب عميق،

لم تنقذها منه سوى روزا، التي سألته بتلقائية مَن تعرفه منذ سنوات طويلة:

- أهلاً رامون، هل ما زالت تجارب الأداء متاحة؟

واصل تفرسه في ملامحها بعينين أوهماها بحيازتهما القدرة على النفاذ إلى أعمق نقطة في قلبها، بل وربما قراءة كل ما يدور في رأسها من أفكار، قبل أن يجيب روزا:

- أجل، لم أقتنع بعد بكل مَن حاولن الفوز بدور ديدمونة...

- إذن فما سمعته صحيح، تريد إعادة تقديم عطيل شكسبير في ثوب مسرحي جديد، يا لها من فكرة رائعة!

بدا أن حماس روزا قد أجبره على الالتفات إليها:

- رغم سهولة الدور ظاهرياً، إلا أنني لم أقتنع بعد بكل المترشحات، وإن تمتعن أحياناً بموهبة مميزة. أبحث عن وجه ببراءة خالصة، غير متصنعة، تكاد تقترب من السذاجة المطلقة...

رفعت لوسيا حاجبها الأيمن مستغربة، وقد انتقل اضطرابها إلى خانة الدهشة، مع عجز تام عن فهم مغزى كلامه، فحاولت التفاعل مع الحوار بعبارات أو جمل واضحة، لكن لسانها لم يطاوعها سوى على التفوه بهمهمات لا معنى لها، فأعفاها من الحرج، عندما رفع يده ناحية الخشبة، رداً على نداء أحدهم.

- سررت بلقائكما، أعتقد أن أعضاء النادي منشغلون الآن ببعض تفاصيل الديكور، لذا سنستأنف تجارب الأداء يوم غد، وساعتها سنرى إن كان الدور سيعثر أخيراً على صاحبته...

ثم ختم اللقاء السريع بنبرة ساخرة:

- لا مكان للبورجوازيين بيننا صراحة، لكننا قد نمنح هذه الشقراء المتلعثمة استثناء خاصاً!

راقبت لوسيا خطواته الواثقة نحو الخشبة، ورغم معرفتها باسمه عبر صديقتها، إلا أنها تظاهرت باللامبالاة متسائلة:

- من يكون هذا المغرور؟

- هل تسخرين مني أم ماذا؟ لقد جلس إلى جانبك الآن ظاهرة كلية الآداب في مدريد، وحلم كل طالباتها! اسمه رامون فاسكيز، طالب في السنة الثالثة، يقال إنه قادم من الأحياء العمالية المهمشة في كارابانتشيل، لكن هذا لم يمنعه من إظهار مواهب لافتة، في كتابة المقالات وإلقاء الخطب النارية، إلى جانب التفوق الدراسي والثقافة الموسوعية المذهلة. ولأنه يتمتع بشخصية قيادية، فقد فاز برئاسة نقابة الطلبة بالإجماع، رغم المعارضة الخفية التي أبداها العميد وبعض الأساتذة، وما قيل عن سعيهم الحثيث لعرقلة ترشحه، لإدراكهم حجم ثقله في أوساط الطلبة، بما سيسمح له بفرض الشروط في أي اجتماع تفاوضي يهم مطالبنا.

قطبت لوسيا جبينها، ورسمت بشفتيها دائرة صغيرة دالة على الامتعاض:

- لا أثق بمتصنّعي الكمال. تتحدثين عنه كما لو كان ملاكاً بلا خطايا أو نقائص، وأمثال هؤلاء مدعاة للخوف والشك، لا الانبهار الذي يغلف كلامك عنه...

ابتسمت روزا بسخرية، وقد ركزت ناظريها نحو نقطة ما خلف صديقتها:

- ربما معك حق، ولا أدل على ذلك من أن كارهي رامون ليسوا قلة، بل ويمثلون جناحاً لا يستهان به في صفوف الطلبة، يتزعمه شخص تعرفينه جيداً...

مرت ثانيتا تساؤل، قبل أن يتزامن فهم المغزى مع سماعها صوتاً حازماً ومستنكراً خلف ظهرها:

- مرحباً لوسيا، ماذا تفعلين هنا؟ ما الذي أتى بك إلى وكر هذا الوضيع وأتباعه؟

صوت ما كانت بحاجة إلى الالتفات هذه المرة، حتى تتعرف إلى صاحبه...

*

3

ما لا تعرفه لوسيا:

تعود جذور العداوة بين رامون وفيران إلى سنة دخولهما إلى الجامعة عام 1934، على خلفية إضراب أكتوبر الرافض لانضمام الاتحاد الإسباني لليمين المستقل إلى الحكومة الجمهورية. انسحب الوضع المضطرب على أروقة الكلية، فحشد كل طرف أنصاره، وتمكن رامون، بقدراته الخطابية والجدالية، من إسقاط غريمه في أكثر من مناظرة سياسية، شهدت كلها حضوراً طلابياً غفيراً. انحسرت حدة الصراع لبعض الوقت، ولئن اعتقد كلاهما أنها هدنة ستطول، لم يتوقع أي منهما أن دخول لوسيا إلى الجامعة، بعد عامين فقط، سيغير حياة الثلاثة إلى الأبد...

*

عندما استعارت لوسيا من مكتبة الكلية نسخة مترجمة إلى الإسبانية من مسرحية **عطيل** (خفية عن روزا)، وعادت بها مسرعة إلى البيت، لم تسأل نفسها عن سر حماسها المستجد لخوض تجربة الأداء، بعد رفضها الأول، وإن كان ذلك نتاج فضولها تجاه رامون أم رغبتها في تحدي فيران، أو حتى مزيجاً بين هذا وذاك...

لم تكن مهتمة أبداً بربط علاقة من أي نوع مع ابن عمها فيران، ربما لأنها لم تستلطفه يوماً، وأيضاً لأنها شعرت، بحاستها الأنثوية الغريزية،

بوجود ميل ما من شقيقتها كارلا نحوه، ففضلت الحفاظ على مسافة معينة بعيداً عنه، ولم تستخدم اسمه إلا في معرض سعيها القديم لولوج الجامعة، لإدراكها مبالغة والدها في احترامه. لذلك فوجئت صراحة بتدخله السافر والمباغت في شؤونها، بعد شهور اكتفى خلالها بتحيات مقتضبة، إن شاءت الصدف والتقيا في إحدى جنبات الكلية مترامية الأطراف، ولم تستسغ محاولته منعها من دخول عالم رامون، أو حتى الاقتراب منه بأي شكل من الأشكال.

لم تكلف نفسها أيضاً عناء البحث عن الأسباب، وصدّته بحزم أذهله هو وروزا في الآن ذاته، ما أجبره على التراجع، وإن ظلت عيناه الناريتان مسلطتين على رامون، غير المكترث لوجوده أصلاً.

ظلت يومها مستيقظة حتى الثالثة فجراً، وهي تقرأ فصول مسرحية، أخذتها بأحداثها بعيداً، فنسيت حتى غرضها الأول من القراءة، واندمجت في أتون أجواء غريبة عنها، عنوانها الدسائس والمؤامرات والحسد المفضي إلى الموت.

أخفت لوسيا نواياها عن صديقتها، عندما رافقتها في اليوم الموالي إلى القاعة، وأدهشتها قدرتها الذاتية المستجدة على التحكم بانفعالاتها.

انهمك رامون في إعطاء التعليمات والتوجيهات حول تفاصيل إعداد المسرحية، وعندما رآهما ابتسم بهدوء، وتقدم صوبهما مرحّباً:

- أهلاً بالصديقتين، سعيد جداً بالرغبة الواضحة في الانضمام إلينا...

ثم أضاف بسخرية مبطنة وعيناه تتابعان كل ما قد يبدر من لوسيا:

- رغم أنني تلقيت تحذيراً شديد اللهجة، بشأن الاقتراب من البورجوازية الشقراء...

لم يكن المعنى بحاجة إلى الشرح، فلمعت عينا روزا، وهي تعيد

تصفيف خصلات ثائرة من شعرها، بحركة أقرب للإرادية، فيما وجدت لوسيا نفسها مندفعة نحو رد مضطرب:

- إن كنت تقصد فيران، فأنا آسفة للغاية. لا علاقة لي بكلامه، ولا تعنيني تصرفاته، لأنني...

لكنه قاطعها بسرعة مَن لا ينتظر أو يأبه بما ستقوله:

- فيران ابن عمك كما سمعت. مرحى، هذا يضيف للقصة بعداً دراماتيكياً فريداً!

ثم تجاوز الشابتين، متوجهاً نحو الخشبة بخفة، ليصفق بيديه مرتين، قائلاً:

- هيا، مَن ستجتاز اختبار الأداء أولاً؟ سنناقش موضوع الحفظ فيما بعد، لا بأس الآن في الاستعانة بالنص المكتوب للمسرحية.

اندفعت روزا نحو الدرجات، صعوداً إلى الخشبة، ثم وقفت في مواجهة رامون، قائلةً بثقة:

- أنا أحفظ كل مقاطع ديدمونة عن ظهر قلب، وجاهزة للاختبار في أي لحظة، أما لوسيا فغير مهتمة بالموضوع.

عقد رامون حاجبيه، مانحاً ملامحه جدية أكبر، وطال صمته للحظات، ثم قال:

- حسناً إذن، فلنذهب مباشرة إلى المشهد الأول في الفصل الثاني من المسرحية، حيث يعبّر عطيل لمحبوبته عن مدى حبه لها، فترد هي بالتعبير عن سعادتها وأمنيتها بأن تبقى شعلة العشق بينهما متقدة إلى الأبد.

استمتعت روزا بذلك الاهتمام الذي يفرضه رامون على كل مخاطبيه، والتفتت يمنة ويسرة متسائلة:

- طيب، أنا مستعدة، أين هو عطيل؟

عادت تلك الابتسامة الغامضة إلى شفتيه، وهو يجيب:

- عطيل أمامك يا عزيزتي، أنا من سيلعب دوره...

بذلت روزا جهداً كبيراً لإخفاء ارتباكها، بعد إعلان رامون عن لعبه دور عطيل، وتظاهرت باستسهالها المهمة، عندما استعارت أسلوبه قائلة:

- أوه، ممتاز، هذا يجعل التحدي أكثر متعة، هيا إذن، لنبدأ!

بدت الجملة طبيعية ومتناسقة، وحدها لوسيا التي استشفت بين ثناياها اضطراباً عميقاً، فجلست على مقعد، كما فعل آخرون من أعضاء نادي المسرح، في انتظار ما سيأتي.

التقط رامون نَفَساً عميقاً، دخل بعده مباشرة في صميم المشهد المطلوب:

- إذا ما أبدت الدنيا شكها في سعادتي، فتأمّلي هذا الوجه، ولاحظي كم يشع فرحاً وحبوراً، لأن قلباً طاهراً أناره. ما عدت أدري إن كنت عطيلاً، أم نجماً يحرس هذا الكنز الثمين. لا يخفق قلبي بقربك إلا عشقاً لك واعتزازاً بك، أنت حياتي ودنياي يا ديدمونة...

تابعته روزا كالممسوسة، متحولة بدورها إلى متفرجة، تترصد حركاته المدروسة، ونطقه المتقن، وأنفاسه المضبوطة، مع موهبته الواضحة في التفاعل مع النص المطلوب.

ظلت مشدوهة للحظات طويلة بعد صمته، ما اضطره للتدخل هامساً:

- آنسة روزا، لقد حان دورك، عطيل وجميع الحاضرين بانتظارك!

انتشلها صوته العميق من قعر شرودها، فردّت بحزم سريع:

- أجل، حسناً، أنا جاهزة...

ثم بدأت:

- آه يا زوجي العزيز، كم يملأ قلبي كل هذا...

قاطعها سعال عابر، كررت بعده:

- كم يملأ قلبي كل هذا الحب الذي تكنّه لي...

تلاحقت أنفاسها المبهورة، تائهة بين استظهار النص وإتقان التعبير:

- كل هذا الحب الذي تكنّه... لي... فلتدم... فلتدم هذه السعادة إلى الأبد، ولتكن صورة، فلتدم هذه السعادة إلى الأبد، ولتكن صورة مجسدة لحبنا، ملؤها الحنان... ملؤها الحنان والشغف...

ران الصمت للحظات، قبل أن يعود رامون إلى لهجته الطبيعية المألوفة، حيث يجتمع الهدوء والسخرية بطريقة ما:

- يقدم شكسبير هنا شخصية أنثى هادئة وسعيدة، لكنها ساذجة وبلا خبرة. تبدو قدرتك على الاستيعاب جديرة بالاهتمام، كما تملكين مقومات مناسبة للمضي قُدماً في المسرح، لكن النص وحده لا يكفي فوق الخشبة. لا بدّ من انغماسك في الدور كلياً، وإن كان مختلفاً أو حتى معاكساً تماماً لشخصيتك الحقيقية، أريد أمامي ديدمونة، لا روزا التي تحاول أن «تؤدي دور ديدمونة».

ضغط على حروف الكلمات الأخيرة في جملته، لإيصال المعنى المطلوب، ففهمت روزا أن اختبارها قد انتهى، وغادرت الخشبة خائبة.

احتارت لوسيا بين ضرورة مواساة صديقتها، ورغبتها في خوض التحدي بدورها، فحسمت أمرها، وصعدت الدرج بثبات ظاهري، أمام النظرات المذهولة وغير المصدقة لروزا.

اصطكت ركبتاها، مع إحساسها فور وقوفها على الخشبة بارتكابها خطأً فادحاً، فتراجعت خطوات إلى الوراء مترددة، لكن رامون اختصر المسافة بينهما بقفزة واحدة، واستوقفها بسرعة، هاتفاً بغضب:

- إلى أين؟ عودي إلى مكانك!

ثم مد يديه نحو كتفيها، مجبراً إياها على الركوع أرضاً، فأطلقت صرخة خوف واستنكار، تجاهلها مردفاً بكلمات بقسوة:

- ابقي راكعة، لم يحن وقت وقوفك بعد، لأنني سأحطمك بأسئلتي، يا مَن تخونين فراشي، ما قولك في ذلك؟

كادت الدموع تطفر من عينيها، وشلت نظراته المتقدة جسدها من شدة الرعب، فيما اختار عقلها التفاعل مع كلامه بطريقة أخرى، وإعادة رسم ما قرأته الليلة الماضية بالحرف، فجرى لسانها بما لم تتوقعه:

- كلا، أقسم لك، بحياتي وروحي. ابعث مَن يبحث عن كاسيو لإثبات براءتي.

لمعت عينا رامون، مع تراجع حدة نبرته قليلاً:

- هراء، كل ما ستتفوّه به شفتاه كذباً للدفاع عنك، سيدينك أكثر، ويلتف حول عنقك مثل حبل مشنقة، أو يحرقك مثل نار متقدة.

اندمجت لوسيا في المشهد تدريجياً، قائلة باستسلام:

- أيها الرب القدير، فلتغفر خطايانا!

فرد رامون بمرارة مَن دمرته الخيانة:

- صار قلبي حجراً، هذا ما تشعر به أعماقي. ها هو يزداد صلابة، وما عادت الدماء تسري فيه. لا أبناء لي. كفّي عن هرائك، فقد انكشف عارك. الوداع! يا مَن تناسبك الوقاحة جيداً.

ردّت لوسيا مدافعة عن كرامتها المهدورة:

- كل هذا كذب وافتراء. فليتوقف قلبي عن النبض مقراً بضعفه. هل لي بتحمّل حياة مريرة إذا عبرت تنهيدة ما شفتي؟

كوّر رامون قبضته مقترباً منها أكثر.

- حاذري مما تقولين، سيحرمك حد سيفي من الحياة إذا ما واصلت كذبك.

لم تتراجع خوفاً هذه المرة، بل تقدمت متحدية:

- فليشهد ملاك ما على إيماني، وليثبت براءتي، وليظهر لك كذب شكوكك.

انتظرت مواصلة رامون لهجومه، كما تخيلت التفاصيل عند قراءتها للنص قبل ساعات، لكنه اكتفى بما قدّمه، وعلى وجهه ابتسامة رضى حقيقي، ولم تستعد وعيها الكامل بما يحيط بها إلا عندما اخترقت التصفيقات الحارة لكل الحاضرين سمعها، مع تردد صداها طويلاً في القاعة.

كلهم صفّقوا، باستثناء روزا، التي كادت تتعثر في خطواتها السريعة، مغادرة المكان...

*

4

ما لا تعرفه لوسيا:

لم يعد نشاط فيران مقتصراً على الكلية وحدها، إذ تأكد له هو وعدد من زملائه وأتباعه أن التغيير يستلزم الانتساب لهيكلية أقوى وأكبر، فلبّوا بسرعة دعوة الانضمام إلى صفوف الفلانخي، وساهموا في تأسيس الخلايا المكلفة بمراقبة أنشطة اليساريين والاشتراكيين والفوضويين، خاصة في أحياء مدريد المهمشة.

*

ما كانت اللحظات التي تقاسمتها لوسيا مع رامون فوق الخشبة مجرد إيذان ببروز موهبتها في التمثيل، بل اكتشافاً لقدرة جبارة ومجهولة على الحفظ والاستظهار، اختارت تلك المناسبة بالذات للإعلان عن نفسها، وأيضاً اختباراً لقدرتها على التعامل مع وضع جديد لم تحسب له أي حساب من قبل:

مرارة الاختيار، بين الصداقة والحب، بين روزا ورامون...

لأن الجمع بينهما كان من سابع المستحيلات.

- أتريدين إقناعي بحجة تافهة، مفادها أن تلك «المسرحية داخل المسرحية» كانت عفوية، وغير مخطط لها، ربما باتفاق مسبق بينك وبينه؟

- صدقيني، أنا...

- أنت ساذجة وبلا خبرة، رغم إقراري بتقدمك، وإن بخطوات قليلة، في عالم الدهاء الأنثوي الفعال. مَن سيصدق أنك اكتشفت فجأة «موهبة» ما في الحفظ؟ قولي إنك أعددت نفسك جيداً للاختبار، رغبة منك في إثارة إعجاب رامون، مع تجنب إخباري خشية التأثير على حظوظك.

حاولت لوسيا الدفاع عن وجهة نظرها، لكن حدة لهجة صديقتها دفعتها إلى الاستسلام للصمت.

- عندما حدثتك عنه، نسيت إضافة جزئية قد تكون بالغة الأهمية الآن: إنه متخصص في تحطيم قلوب طالبات الكلية، ومهما أوهمك بتفردك واختلافك عن الأخريات، فسوف يتخلص منك عند أقرب فرصة!

وكان ذلك آخر حوار بينهما، قبل أن تولي الأدبار، حتى دون كلمة وداع...

لكن شعور لوسيا بسقوطها في دوامة الفراغ والفقدان لم يدم طويلاً، إذ سرعان ما انتشلتها يد رامون، بل وأطبقت عليها بقوة كان لها مفعول الخدر اللذيذ.

أن تعيش في وسط حوّله الأب إلى ما يشبه الثكنة العسكرية الصارمة، حيث قائمة المحظورات أكبر من أن تستوعبها ذاكرة أي إنسان طبيعي، فهذا معناه أن تحديد مفهوم الرجولة نفسه صعب للغاية بالنسبة لشابة مثلها، لكن شيئاً ما في دواخلها، قد يكون صوتاً أو صدى أو حتى هلوسة، أخبرها أن صاحب العينين البنيتين واللحية النابتة والابتسامة الهادئة هو التجسيد الأمثل لهذه الرجولة، التي يهفو إليها قلب أي أنثى، مهما سعى ألف حاجز لوأد هذه الرغبة وإجهاضها.

انضمت لنادي المسرح الطلابي رسمياً، وبدأت التداريب التي

استهدفت تقديم عرض خاص أمام جمهور الطلبة وأساتذة الجامعة وموظفيها مع نهاية السنة الجامعية، فيما اقتربت علاقتها برامون من تلك الحافة المنطقية، التي انتظرتها وخشيتها على السواء، بعد سلسلة من التلميحات المتبادلة.

ظلا بمفردهما ذات أمسية، لمراجعة حوارات الفصل الثاني من المسرحية، عندما قاطع رامون أداءها فجأة، قائلاً بسرعة مَن يسعى للتحرر من حمل ثقيل:

- لا مجال للمراوغة بعد الآن. أعلم أن ما سأقوله قد يؤدي إلى تعقيد كل شيء، لكن الصمت ما عاد يُجدي نفعاً. لست مجرد طالبة أو ممثلة موهوبة في نظري. أنت مصدر إلهامي وضياعي، فمن ذا الذي سيعثر على طريق خلاصه بعدما وقع في غرام عينيك؟

كادت لوسيا تطير فرحاً، وقد أتت اللحظة التي انتظرتها طويلاً.

لكن حديثه عن «تعقيد كل شيء» قيّد حركتها قليلاً، فردّت بصوت مرتجف، مثقل بالانفعالات:

- رامون، لست أدري إن كان المسرح هو ما غيّرني أم وجودي بقربك، لكنني أشعر بما لا أجرؤ على تسميته...

وضع إصبعه على فمها برقّة، مانعاً إياها من المواصلة.

- أعرف، أنت لا تختلفين عن ديدمونة في شيء. فور مغادرتك للخشبة، يعود وجهك البريء إلى طبيعته، ككتاب مفتوح يشي بكل ما تخفيه أعماقك، لكن المشاعر وحدها لن تكفي لكتابة قصة حب بيننا، فأنا وأنت ننتمي لعالمين متباعدين ومختلفين تماماً، قد لا يمضي وقت طويل حتى تندلع شرارة الصدام بينهما.

لم تفهم قصده، واعتراها الاضطراب، في محاولة منها لتبين حقيقة مشاعره، فاختصر كل ما كان يود قوله بسؤال سريع:

- ما رأيكِ في نزهة قصيرة؟

كانت تلك أول مرة تدخل فيها حي كارابانتشيل العمالي الفقير، فهالها ما رأت، من فوضى عارمة، وأزقة موحلة، وملابس مرتقة، وأحذية ممزقة، ولم تجد أمامها سوى كوكبة من الوجوه الكالحة، والعيون الذابلة، والابتسامات المشوهة، دون أن تتمكن من استيعاب فكرة وجود مثل هذه التناقضات الطبقية الصارخة، في المدينة ذاتها التي أبصرت فيها النور وعاشت طوال حياتها.

- مَن ترينهم هنا هم وجه إسبانيا الحقيقي، وروحها المنهكة. بالكاد يكافحون لتأمين قوت يومهم، ولا يفهمون شيئاً في دهاليز السياسة أو صراعات أحزاب اليمين واليسار، لكنهم مجمعون على كراهية مَن أغرقهم في وحل البؤس، ويعولون على أمثالي للوقوف في وجه كل من حرمهم من أبسط حقوقهم.

تزامنت جملته الأخيرة مع انتباه لوسيا لنظرات متلصصة صوبهما، تتأرجح بين احترامه وازدرائها، ما فسرته هي بأناقة ملابسها الزاهية، فكادت تلتصق به من شدة الرهبة، فيما أضاف هو ببطء:

- لكن هذا الوضع المعطوب لن يستمر إلى الأبد، الغضب الهادر هنا وقود رغبة عارمة في إحراق وتدمير كل شيء، بما في ذلك أنفسهم، لا لشيء إلا لتحقيق مبتغاهم.

- وما الذي يريدونه بالضبط؟

- ما حرمهم منه قومك: المساواة، العدالة، والحرية...

لم تستسغ تعبير «قومك»، مع ما يحمله من نبرة اتهام صريح، فاندفعت قائلة:

- وما علاقتنا، أنا وأنت، بكل هذا؟ ألا يجدر بنا استفتاء القلب أولاً؟

أخرسته بسؤالها البسيط والمباشر، فسمح لها بالالتصاق به أكثر، وقد ضمّها إلى صدره، كمن يحميها من خطر لا يدري أيهما كنهه.

ومضت شهور، انزلقت خلالها لوسيا بكامل إرادتها في دوامة علاقة محكومة بالتعقيد منذ بدايتها، لكن تفجر عواطفها المحمومة أنساها طبيعة المخاطر المحدقة بحبها الوليد، فأعادت تعريف السعادة، لتصبح تسلسلاً من لحظات الحميمية المسروقة، في كواليس المسرح، وأروقة المكتبة الجامعية، ودروب كارابانتشيل المظلمة.

إلى أن حلّ فصل الصيف، فقرر القدر الصعود إلى خشبة الواقع، عوض النسخة الجديدة من مسرحية **عطيل**، التي لم يكتب لها أن تعرض أبداً...

بلغت الأزمة السياسية (لم تكلف لوسيا نفسها عناء متابعة تفاصيلها) نقطة اللاعودة، فاتخذ فرانكو ومولا وجنرالات آخرون قراراً بتنفيذ انقلاب عسكري، لم ينجح كلياً، كما لم يفشل تماماً، لتغرق البلاد في حرب أهلية مدمرة، شطرت إسبانيا إلى منطقتي نفوذ، تتغير حدودهما باستمرار، متخطية دماء المتقاتلين وأشلاءهم.

ولا أسوأ من هذا التوقيت بالذات، لاكتشاف لوسيا حملها بذرة رامون في رحمها...

*

5

ما لا تعرفه لوسيا:

ما كانت إيزابيلا بغافلة عما جرى من فظائع في كنائس وأديرة أخرى، لكنها ظلت حائرة بين واجبها الأخلاقي والديني تجاه الراهبات الناشئات، ومضمون تقرير توصلت به من الكنيسة الكاثوليكية الإسبانية، ويفيد بقرب بدء هجوم قومي منسق، شمال وغرب وجنوب العاصمة، مع توصية خاصة بمنح الأولوية لتهريب محتويات المكتبة السرية في ديرها الصغير، ما يعني حرفياً ترك الشابات لمصيرهن المحتوم.

*

نزعت لوسيا بطانيتها الرمادية المرقعة، ثم غادرت فراشها الخشن بصعوبة، متأثرة بالصداع القاسي نتيجة استيقاظها المفاجئ وساعات نومها القليلة، لكنها لم تجد بداً من الامتثال للنبرة الصارمة الجافة في صوت الراهبة إيزابيلا:

- هيا أيتها الكسولات، لقد حان وقت العبادة والعمل، أي جيل هذا الذي يتثاقل عن خدمة المسيح بكل ما أوتي من إخلاص وقوة؟ فليرحم الرب إسبانيا، لقد اختطف الملحدون بلدنا بأفكارهم الخبيثة الهدامة!

العبارة نفسها، المتكررة فجر كل يوم، وإن تغير ترتيب جُملها أحياناً، لكنها لا تعني سوى بداية يوم شاق آخر في دير نويسترا سينيورا دي لا كونسولاسيون.

اصطفت الراهبات الناشئات، في خط مستقيم أمام إيزابيلا، فوزعت عليهن المهام اليومية، بين الغسيل والطبخ والزراعة وتوفير الكلأ للماشية والعناية بحدائق الدير وكنيسته، وعندما تفرقن، ظلت لوسيا وحدها واقفة أمامها، منتظرة أمرها بالتحرك، لكن الراهبة الخمسينية صمتت، لدقيقة واحدة أو يزيد.

- ما زلت حائرة بشأنك، فخطيئتك لا تغتفر، ما يعني بالتالي ضرورة توقيع عقوبة قاسية عليك...

زفرت بحرارة مكملة:

- لكنني في الآن نفسه غير قادرة على تحميلك ما لا طاقة لك به، تجنباً لإثارة الشبهات، كما أوصى بذلك والداك، وابن عمك، الوطني الشهم والملتزم.

تعلمت لوسيا الصمت، وتجنب مقاطعة إيزابيلا لأي سبب كان، فتابعت الأخيرة بحزم من اتخذت قراراً لا سبيل لمعارضته:

- أفكر في مهمة تناسب وضعك هذا، شريطة الاحتفاظ بتفاصيلها سراً، وإلّا كان حسابك عسيراً، وسيعلم الجميع حينها أنك جئت إلى هنا لمداراة حمل ناجم عن علاقة محرّمة، مع جمهوري ملحد.

هاجم الصداع رأس لوسيا، فتمنّت لو تنزع غطاء شعرها، لكنها لم تجد بداً من الامتثال للراهبة:

- اتبعيني...

سارت لوسيا خلف إيزابيلا كالمنوَّمة، حائرة بين ذكريات حياتها الماضية، وتساؤلها الحاضر عما تعدّه لها الراهبة من عمل شاق، عودتها الأسابيع الماضية على أنه سيكون أصعب بكثير مما تصفه الأخرى بكلامها.

لم يكن الدير كبيراً جداً، فاحتاجت لوسيا إلى أسبوع واحد حتى تتفقد كل أركانه، الكنيسة والمطعم والمكتبة والمطبخ والمراقد، ثم غرف التعبد الفردية الأشبه بالزنازين، والإسطبل، كما تبينت موقعه الرائع في واد تحيط به التلال المطلة على بلدة بيراليخو.

هيمن عليها الاستغراب إذن، عندما فتحت إيزابيلا باباً مغلقاً بالقرب من المذبح، ثم دعتها إلى الدخول، ونزلتا عبر درجات من رخام، وسارتا في ممر حجري ضيق، لا يسمح بمرور شخصين متجاورين، حيث تردد صدى خطواتهما الثقيلة، إلى حين وصولهما إلى نهايته، عند باب خشبي صغير، فسلّمتها الراهبة الفانوس، ثم أخرجت من جيب ردائها الرمادي سلسلة مفاتيح اختارت منها واحداً، دسّته في الثقب، فأصدر المفتاح صريراً لم تفسره الشابة سوى بعدم استخدامه منذ فترة طويلة للغاية.

ارتعشت فرائص لوسيا، وتحوّل تساؤلها إلى خوف مما ينتظرها، وقد راودها احتمال إيداعها سجناً سرياً، فاضطربت، وكادت تُسقط الفانوس، فيما حدجتها إيزابيلا بنظرة بدت مرعبة مع انعكاس الظلال، ثم فتحت الباب ودخلت.

انهارت كل توقعات لوسيا مع دخولها، إذ انتظرت رائحة عطن قوية تثير غثيانها، أو طبقة من الغبار تستفز رئتيها، أو حتى منظر جثث أو هياكل عظمية تُفقدها الوعي، لكن عينيها أبصرتا في المقابل، غرفة بإضاءة جيدة ومرتبة بعناية، تحيط بجدرانها عدة رفوف مليئة بالكتب، وتتوسطها طاولة عريضة استقر فوقها كتاب مفتوح، وستة مقاعد انحرف أحدها عن الخط المستقيم الذي شكلته الأخرى، بما دل على وجود أحد ما هنا قبل فترة قصيرة، فيما وجدت خمسة صناديق خشبية كبيرة في زاوية قريبة من الباب.

ما الذي يعنيه ظهور هذه المكتبة المخفية عن الأعين، رغم وجود

أخرى معروفة في الأعلى، تتلقى فيها المتعبدات الناشئات دروساً وتوجيهات تحضّرهن لمستقبلهن «الأبدي» هنا؟

واصلت المفاجأة ضغطها على لسان لوسيا الحبيس، لتسألها إيزابيلا بهدوء مَن تنتظر إجابة واحدة فقط:

- هل أنت مستعدة؟

خيّل إلى لوسيا أن إيزابيلا تمزح، عندما أمرتها بنقل الكتب المتراصة على الرفوف إلى الصناديق الخشبية الخمسة، وفق ترتيب معيّن يحترم الأبجدية.

مهمة أبسط بكثير مما انتظرته من «عقاب»، ولن تتطلب منها جهداً كبيراً، بالنظر إلى وضعها الصحي خلال شهور حملها الأولى، لكن طباع إيزابيلا الجافة، واعتيادها على توزيع المهام الشاقة على الجميع، أبعدا عن ذهنها هذا الاحتمال.

ثم أوقعتها الأيام الموالية في فخ عذاب أكبر وأقسى: السؤال الذي لم تحررها إيزابيلا من ثقله...

أي سر يحيط بهذا المكان؟

امتثلت في البداية بلا نقاش، وخلال أسبوعين، نقلت الكتب والمجلدات إلى الصناديق بعناية كبيرة، وسهّل من مأموريتها أن الترتيب محترم أصلاً، عبر العناوين اللاتينية والإسبانية القديمة المذهبة، أعلى كعوب الكتب والمجلدات، ومع تلقيها بعض مبادئ اللغة اللاتينية في المدرسة، فقد استخدمت ذاكرتها وحدسها في تتبع الحروف ومطابقتها مع الترتيب الأبجدي الحديث.

إلى أن دفعها الفضول لفتح بعض المجلدات وتصفّحها، ففوجئت بأوراق مصفرة، وحروف ولغة مختلفة تماماً عن العناوين.

- أمرتك بترتيب الكتب والمخطوطات ووضعها في الصناديق، لا تصفّحها.

- ولكن...

- لا أسئلة، وإلّا غيّرت رأيي ودفعت بك إلى الإسطبل لجمع روث الماشية.

- بأي لغة كُتبت تلك المخطوطات؟

استشاطت إيزابيلا غضباً، فتوقعت لوسيا أن تهاجمها وتصفعها أو تنزع غطاء شعرها بأظافرها، لكنها اكتفت بالتراجع والمغادرة، بعد إغلاق الباب بقوة، أحدث صداها رجة مرعبة في المكان.

لو أن للدير فائدة واحدة، لكانت في سكونه التام، ربما لحسن اختيار موقع بنائه قبل أزيد من قرنين تقريباً، وهو سكون انسحب على ساكناته، حيث اعتدن بسرعة على الصمت، وتنفيذ الأوامر بلا نقاش، ما دام المقابل صفاء روحياً، قلّما وفّرته المدينة بحركتها اليومية وصخبها الدائم.

اعتبرت لوسيا ذلك تفسيراً منطقياً ومريحاً لعدم محاصرتها بأسئلة باقي الراهبات الناشئات، خاصة خوليا وماريا، حول طبيعة المهمة التي كلفتها بها إيزابيلا، وسر غيابها الطويل يومياً عنهن، وما قد يعنيه ذلك من إعفائها، هي دون غيرها، من قائمة الأعمال الشاقة التي تثقل كاهلهن.

لكن يقينها تبدد ذات ليلة، أنهت فيها مهامها، بعد مرور أسبوعين على انطلاقها، فلجأت إلى فراشها متعبة، باحثة عن ساعات نوم هانئة.

وحده النوم قد يجنبها قسوة التفكير في حاضر خسرت فيه الكثير، وماض دفعت فيه ثمن طيشها، ببطن لن تمضي أسابيع أخرى حتى يصبح أكثر بروزاً، وجنين لن يساهم سوى في تعقيد مستقبلها...

- يقال إن إيزابيلا تصحبك إلى مكتبة الدير السرية، هل هذا صحيح؟

جمدها صوت فلورا الهامس، والقادم من الفراش المجاور، ولولا تأكدها من نوم كل الأخريات، وقد تعالى شخير بعضهن، لحسبته سؤالاً جماعياً ينتظرن إجابته حالاً، وبلا إبطاء...

تظاهرت باستغراقها في نومها، مستفيدة إلى حد ما من رداء الظلام النسبي، لكن فلورا واصلت:

- يتداول البعض خبر رغبة الكنيسة في نقل كل كنوزها ومخطوطاتها ونفائسها بعيداً عن مناطق القتال. يقترب الوطنيون من مدريد، مع نية محاصرتها من عدة محاور، وإجبار العدو على الاستسلام، لكن هناك خشية من تعرض الأديرة والكنائس للتخريب والتدمير، كما جرى في بارباسترو وغيرها، وقد يفصح بعض الرهبان، تحت ضغط التعذيب أو التهديد بالاغتصاب والقتل، عن أماكن إخفاء هذه الكنوز...

انكمشت لوسيا في فراشها أكثر، بحثاً عن حماية ما، فيما ظهر الخوف جلياً على لهجة فلورا المضطربة:

- لا تريد إيزابيلا ولا غيرها الاعتراف بأن خطراً شديداً يهددنا، ومن كلا المتحاربين، فحتى وإن كان الوطنيون في صفنا، فهل يعني هذا قدرتهم على السيطرة على برابرة الجانب الآخر من البحر المتوسط، ممن استعانوا بهم في جيشهم؟ هؤلاء وحوش آدمية، تقتات على الجنس والدماء. صدقيني، إذا لم ننفذ بجلدنا في أسرع وقت، فلن يرحمنا أحد!

وفيما بدا أنه رد صريح من القدر على مخاوفها، اخترق سكون الليل صوت إطلاق رصاص كثيف، أتى من بعيد...

*

6

ما لا تعرفه لوسيا:

رغم كل الاحتياطات التي اتخذها والد لوسيا في تعامله مع القوميين، خاصة بعد تمكّنه (بمساعدة فيران) من تسهيل مغادرة ابنته الحامل للعاصمة، إلا أن اعتراض رسائل متبادلة بينه وبين ابن أخيه المقاتل في صفوف الفلانخي أدى لاعتقاله وسجنه، قبل أن يلقى حتفه في سلسلة مذابح باراكويوس، التي نفّذتها القوات الجمهورية بحق سجناء قوميين ويمينيين وبورجوازيين ورجال دين، مع اقتراب تطويق العاصمة.

أقسم فيران على الانتقام، بعدما بلغته إشاعات تفيد بوجود رامون في مواقع الإعدامات، وتولى قيادة مجموعة من المقاتلين الإسبان والمغاربة الساعين لإحداث أول اختراق في دفاعات الجمهوريين عبر جبهة الإسكوريال.

*

أصيبت الفتيات بما يشبه الخرس أو العته المؤقت، لكن الثواني الخمس التي صمت فيها الجميع كانت كافية لسماع الرصاص الكثيف، وقد صار أقرب من المرة الأولى، فيما خالطته حشرجة محرك شاحنة محاذية لجدار المهجع، فعاد الهرج على حين غرة، ووجدت لوسيا نفسها مستسلمة للموجة البشرية الصغيرة المتلاطمة.

اقتحمت إيزابيلا المكان، واكتفت بصوتها الجهوري لإحداث الأثر المطلوب:

- يعيث الملحدون فساداً في كل مكان، لأنهم يخشون التقدم القومي الكاسح صوب مدريد. سوف نؤمّن خروجكن من هنا، لكن إياكنّ وافتعال الضوضاء، أو ارتداء ملابس الرهبنة، أو حتى إشعال عود ثقاب واحد، وإلا انكشف أمرنا...

توالدت صرخات رعب امتزج بذهول الاستيقاظ الفجائي، ولولا نور القمر الخافت، لتسبب الظلام في تعميق الفوضى، باصطدام المغادرات لأسرّتهن ببعضهن، مع عجزهن عن تحديد مواقعهن.

وبالكاد سمعت لوسيا ما أضافته إيزابيلا:

- تنتظركن شاحنة يقودها شاب مسيحي مخلص، يعرف هذه الأنحاء جيداً، كما يحفظ كل أحياء مدريد، وسيتجنب الطرق الخطيرة أو المشبوهة، خاصة في المداخل الغربية والشمالية للعاصمة، لإعادتكن سالمات إلى المدينة.

حركت رغبة النجاة الملحّة الجميع، فلم تطرح أي من الفتيات سؤالاً منطقياً عن مصيرهن بعد إدخالهن أو بالأحرى رميهن في العاصمة، إذ لسن كلهن منحدرات منها، وقد تغيّر فيها الكثير بعد اندلاع الحرب، كما أن من الفتيات مَن لا عائلة ولا مأوى لها سوى الدير، بمن فيهن إيزابيلا نفسها، التي رسخ في الأذهان وجودها في المكان منذ تشييده قبل قرون.

عندما فتحت لوسيا حقيبتها الصغيرة، لم تجد ما تضعه فيها، باستثناء صليبها الذهبي، ونسختها الخاصة من الكتاب المقدس، ورداء الرهبنة (وإن شكت في إمكانية ارتدائه من جديد)، ثم توقفت لثانيتين

أمام تلك الأوراق المصفرة التي أخفتها بين طيات ردائها الكنسي، قبل إغلاق الحقيبة.

أوراق لم يكن هناك أي سبب واضح للاحتفاظ بها، سوى اعتبارها تذكاراً من المكتبة الغريبة، بعد عجزها عن فهم سرّها، كما لم يكن هناك ما يميزها بالذات (وقد سقطت من مجلد ضخم بلا اسم)، غير قِدم واضح، قدّرته هي بقرون تفوق ربما عمر الدير نفسه، ولغتها العجيبة، التي لم تستطع فك رموزها، ولا سؤال إيزابيلا عنها.

ما أثار انتباهها وقتها هو بقعة كبيرة غطت ما يقارب ثلاثة أرباع مساحة الأوراق، وجعلت تبين محتواها (غير المفهوم أصلاً) أكثر صعوبة، مع امتزاج اللونين البني والأصفر، في غموض ضاعف من حيرتها، حول طبيعة المهمة الموكلة إليها.

بمغادرتها للدير، اكتشفت وسط ليل ريف مدريد الحالك، ونور القمر الخافت، وجلبة المغادرات، وجود شاحنتين، لا واحدة، انقضّت عليها الفتيات والشابات في هياج خائف، خشية عدم الحصول على مكان آمن داخلها، لكن هتافاً حازماً من إيزابيلا كان كافياً لإيقافهن، رغم ضبابية اللحظة وضغطها، وتبدد كل الخشية القديمة من سلطوية الراهبة:

- إلى اليمين، لا شأن لكنّ بالشاحنة الأخرى! هيا!

دسّت جسدها بين باقي الفتيات، وجلست على الأرض، ضامة ركبتيها وحقيبتها الصغيرة إلى صدرها، وأغمضت عينيها، باحثة عن أي هروب من الكابوس الذي حلّ بيقظتها...

لم تكن خبيرة يوماً بتضاريس أرياف مدريد أو خبايا مداخل العاصمة ومخارجها، خاصة مع اضطراب الوضع الحالي، وتحوّل كل اليقينيات إلى مجرد احتمالات مشكوك في صحتها، لكن معرفتها البسيطة بالجغرافيا أكدت لها أن أقرب طريق من الدير للدخول إلى

مدريد سيكون عبر الشمال الغربي، ما يعني حرفياً المرور عبر المدينة الجامعية، التي غادرتها قبل أشهر، تاركة فيها ماضيها وروحها.

ساد الصمت داخل الشاحنة، حيث ساهم الخوف في صمود كل الفتيات أمام إغراء الثرثرة، وقد بدت أشكالهن غريبة، بملابسهن غير المتناسقة، وخصلات شعر بعضهن المتناثرة تحت البيريهات السوداء، كتمويه بسيط يوحي بانتماء الركاب إلى الجمهوريين.

ثم هز انفجار ضخم كل الأنحاء، وتبعته أصوات إطلاق النار من جديد، فاضطربت الشاحنة، كما لو أن الأرض قد زلزلت من تحتها، ولم يجد سائقها بداً من مضاعفة سرعتها، هرباً من خطر وشيك لا يدري أحد كنهه، فكان ذلك أشبه بفتيل حرّر مارد الكلام من قمقمه:

- هل وصل الوطنيون إلى مشارف العاصمة؟

- مَن المسؤول عن هذا التفجير؟ الوطنيون أم الملحدون؟

- الملحدون ربما، لو كان الوطنيون على مقربة منا لما غادرنا بتلك السرعة!

مكتبة
t.me/soramnqraa

- هذا ليس مبرراً كافياً...

- هل هاجموا الدير؟

- أعرف هذا المسار جيداً، نحن نقترب من دخول مدريد عبر كاسا دي كامبو...

- كاسا دي كامبو؟ هذا يعني ضرورة المرور عبر المدينة الجامعية...

- سمعت ذات مرة من إيزابيلا أن المدينة الجامعية تحولت إلى موقع متقدم للملحدين!

- هل جنّ السائق أم ماذا؟

- لماذا منعتنا إيزابيلا من ركوب الشاحنة الثانية؟ وما سبب وجودها أصلاً؟

- هل غادرت إيزابيلا الدير أم بقيت فيه منتظرة مصيرها؟

- ألم تسمعن ما قيل عن مذابح الأرياف؟ لقد اغتصبوا الراهبات ثم أحرقوهن أحياء!

- ماذا لو ظهر الآن حاجز توقيف من العدم، كيف سنقنعهم بالسماح لنا بالمرور؟

طرحت ماريا السؤال الأخير، ولم يدر أحد وقتها إن كان السائق قد سمعها، أم ربما هو القدر أو حتى الصدفة التي تفاعلت مع استفسارها، إذ خففت الشاحنة من سرعتها الكبيرة، قبل أن تتوقف تماماً.

تعالت بعض الأصوات الغريبة في الخارج، فعاد الصمت ليخيم على الشابات، فيما استرقت لوسيا السمع معهن.

- مرحباً، من أنت؟ عرّف بنفسك!

- أهلاً، اسمي رودريغو رييس، أنتمي إلى السرية الرابعة في مجموعة جيوش المنطقة الوسطى. تفضلوا، هذه أوراقي الثبوتية. أحمل معي عدداً من المتطوعين المخلصين للجمهورية، والقادمين من عموم الوحدات المنسحبة من باداخوز للدفاع عن مدريد.

هيمن السكون مجدداً، إلّا من احتكاك كعوب الأحذية بالحصى، ما منع القابعات في الشاحنة حتى من تحديد أعداد المتواجدين في حاجز التوقيف، قبل أن يتحول الاحتكاك إلى خطوات واضحة لشخص واحد، واصل اقترابه، قبل أن يفتح الغطاء الخلفي على حين غرة، ويسلط مصباح غاز على الوجوه المترقبة المذعورة.

لم تدم حركته سوى ثوانٍ قليلة، لكنها كانت كافية لتجتاح الفضاء الضيق رائحة نفّاذة قوية، لم تدر لوسيا (ولا الأخريات ربما) مصدرها أو كنهها، لكن الأهم هو أن الرجل لم يبدُ حتى مهتماً بتفحّص الوجوه الماثلة أمامه، بل أعاد الغطاء بسرعة، كمن أعياه تكرار العملية أكثر

من مرة مع أكثر من شاحنة، فأطلقن جميعهن زفرات ارتياح كاد يسمع صوتها من شدة حرارتها.

- حظاً موفقاً يا رودريغو، وبالمناسبة، تفضل، هذه هدية منا لك: لفافة محشوة بعشبة غريبة، عثر عليها خوان وخيرالدو في جراب بربري ميت. ستشعر بنشوة لا مثيل لها.

ثم تعالت الضحكات، بما فيها الضحكة المفتعلة لسائق الشاحنة، الذي أدار المحرك من جديد، استعداداً لمواصلة طريق الدخول إلى العاصمة، لكن صوتاً صارماً، مختلفاً ومفاجئاً، بدد جو المرح السائد بسؤاله:

- مهلاً، ما هي كلمة السر للعبور؟

ران الصمت لبعض الوقت، ثم رد السائق بتلعثم بين:

- آ... كلمة السر... إنها **لوركا**.

رد الصوت الصارم بسرعة مَن اكتشف أمراً مريباً:

- كانت هذه كلمة السر القديمة، قبل تغييرها في التاسعة مساء، وقد جرى تعميم كلمة السر الجديدة على كل وحداتنا...

ثم واصل:

- ما هي كلمة السر الجديدة؟ وإلّا سأمنعك من المرور!

كاد رأس لوسيا يصطدم بجدار الشاحنة، التي ضغط سائقها على دواسة الوقود، فانطلقت بأقصى سرعة، وسمعت هي والأخريات صوت ارتطامها بحاجز، قد يكون خشبياً على الأغلب، وسط صرخات كل أولئك الذين تعالت ضحكاتهم قبل قليل:

- خيانة!

- اللعنة على أبناء العاهرات! إنها طلائع هجوم الفاشيين على مدريد!

ثم انطلق الرصاص، قليلاً بداية، من بنادق الطلقة الواحدة أو الطلقتين، وهو ما بدا أن الشاحنة قادرة على تجاوزه بأقل الأضرار، مع ابتعادها بمسافة كافية، لكن كثافة النيران تضاعفت وصارت أكثر سرعة وقوة، فتعقد الوضع أكثر، واختلطت صرخات الشابات داخل الشاحنة، ما ظنته لوسيا (التي كادت تبتلع لسانها من شدة الرعب) نتاج خوف، قبل أن تتكشف حقيقة الكارثة بعد بضع ثوان:

- ماريا؟ يا يسوع المسيح!

- لقد أصيبت لويزا برصاصة في صدرها!

ولم تنته الفوضى عند ذلك الحد، بل واصلت جنونها بانفجار هز الجانب الخلفي الأيسر، فانحرفت الشاحنة، واختل توازنها، حتى كادت تنقلب، ثم أجبرها اصطدامها بجسم ما على التوقف.

اختلطت الصرخات بالأنين، فيما غطى طنين قوي أذني لوسيا، وغام بصرها حتى فقدت القدرة على التمييز بين الواقع ونقيضه، فتمسكت بحقيبتها الصغيرة، وبحثت عن موطئ قدم، وسط رفيقاتها اللواتي حاولن مغادرة الشاحنة بأقصى سرعة، وبالفعل، نجحت في ذلك، وانطلقت راكضة لا تلوي على شيء، بل وغير آبهة حتى بمن أفلحن مثلها في الهروب، ومَن أخفقن.

لكن جسد أي امرأة حامل أضعف من أن يحتمل كل ذلك، فتراخت قدماها، وسقطت أرضاً، بعدما انقطع آخر خيط يربطها بوعيها...

*

7

ما لا تعرفه لوسيا:

تحولت كلية الآداب إلى موقع جمهوري متقدم في خطة الدفاع عن مدريد، يبدأ بحدائق كاسا دي كامبو، ثم جسر الملكة فيكتوريا، الذي يربط ضفتي نهر مانزاناريس، وصولاً إلى المدينة الجامعية، حيث صارت المكتبة غرفة العمليات الرئيسية ومقر قيادة المدافعين، ومبنى الإدارة مخزناً للذخيرة والمؤونة، والمسرح القديم مستشفى ميدانياً لعلاج جرحى المعارك المحتدمة.

هناك حمل رامون بندقيته، التي صارت امتداداً لجسده، تغذيه ما يراها إرادة مقاومة الغزاة، طوال شهور من القتال في تخوم العاصمة وضواحيها، وقد تضاربت مشاعره إثر انقطاع أخبار لوسيا، منذ اختفائها بالتزامن مع اندلاع الحرب.

*

خشبة المسرح...

هناك حيث وُلد حب لوسيا، وماتت صداقتها، واكتشفت جزءاً خفياً من قدراتها...

لكن ما معنى وجود كل تلك الأسرّة الضيقة، وصخب الأصوات المتراوحة بين الأنين والصراخ، والحركة الدؤوبة لرجال ونساء، يذرعون مجال بصرها جيئة وذهاباً؟

ثم ما الذي يفعله وجه روزا، التي تتطلع إليها من فوق، بملامح منهكة وابتسامة باهتة؟

أيقنت لوسيا لحظتها أنها تعيش حلماً، تداخلت فيه كل ذكرياتها الماضية، فاستسلمت لخدر تفسيرها، وعادت لتغمض عينيها، لكن النبرة الساخرة التي تعرفها جيداً نطقت:

- استيقظتِ أخيراً؟ لقد طال نومك أكثر من اللازم...

سيطر على لوسيا الاضطراب، فاعتدلت في فراشها، وفتحت عينيها، ساعية للتخلص من وعثائها رغماً عنها، مع استماعها لما تقوله صديقتها السابقة:

- مفاجأة، أليس كذلك؟ لكن لا بأس. لا يمكن لمن يواجه أشكالاً مختلفة من الأهوال كل يوم أن يحتفظ بقدرته الإنسانية الطبيعية على الشعور بالدهشة. الواضح أن مَن أرسلوكن إلى مدريد لم يسعوا سوى إلى التخلص منكن بأي طريقة، يا لها من حقارة...

تمتمت لوسيا:

- ما... ما الذي جرى؟

تابعت روزا بالنبرة ذاتها:

- المفارقة أنك كنت أضعفهن، ببنيتك الضئيلة، وشهور حملك، لكنك الوحيدة التي ظلت على قيد الحياة، فيما لقين جميعهن حتفهن، أو تُركن لمصيرهن جريحات، ينزفن حتى الموت. هل رق قلب المقاتلين لأمرك، ومنعهم حملك من الإجهاز عليك؟ لا إجابة لدي، ولا ثقة لي أصلاً بالتزامهم جميعاً بالمبادئ الإنسانية في هذه الحرب القذرة. لكن الأكيد أن شيئاً ما، لا أحب تسميته قدراً ما دمت غير مؤمنة به، قادك إلى المستوصف الذي احتل مكان المسرح السابق، وأتطوع فيه الآن مع

طالبات اخترن ارتداء وزرة التمريض، أو حتى حمل السلاح مع رفاقهن. تتساءلين ربما لماذا؟

لم تجبها لوسيا، العاجزة عن استيعاب سيل الكلمات المتتالية، فواصلت:

- منهن مَن تدافع عن قناعات فكرية وسياسية راسخة، وبعضهن مثلي، لا يحملن في أعماقهن سوى الرغبة العارمة في الانتقام. أتذكرين الأب فرناندو، الذي رفعه والدك إلى مرتبة القداسة، وكان يطيع أوامره بلا نقاش؟ لقد ظهر فجأة من العدم، مع اندلاع الحرب، واستغل الفوضى لقتل أبي وأمي، لأنهما المسؤولان عن كتابة المقالات التي فضحت جرائمه، ثم هرب كالجبان. حملتُ البندقية وقاتلت في أكثر من معركة، إلى أن منعتني إصابة بليغة في ذراعي من المواصلة، لكنني مصرّة على البحث عن ذلك الحقير، و...

استعادت لوسيا جزءاً من ثباتها، فقاطعتها على الفور:

- أين هو رامون؟ أخبريني، روزا، أتعرفين أين هو؟

تنهدت مخاطبتها، وكأنها تصارع أمواج خيبة متلاطمة في أعماقها، ثم أشارت بيدها إلى جهة مدخل المسرح:

- إنه هناك، في المكتبة، حيث يقود عملية الدفاع عن كلية الآداب، وباقي محاور ومداخل المدينة الجامعية، ضد زحف أرتال الجنرال فاريلا. لقد أتى إلى المستوصف بلهفة واشتياق، للاطمئنان عليك، لكنه تراجع، وولى هارباً، فور معرفته بحملك.

أجابتها لوسيا بتصميم، وهي تغادر سريرها صوب حقيبتها المرمية جانباً:

- لن أتخلى عنه هذه المرة أبداً، ولو كلّفني ذلك حياتي. لا شأن

لي بيقينياتك، لكنني مؤمنة فعلاً بالقدر، وبأن سبباً واحداً فقط أبقاني على قيد الحياة: أن أراه...

سمحت لها روزا بالمغادرة، فأكدت لها خطواتها البطيئة المتثاقلة تدريجياً أن جسدها المرهق يعلن صراحة رفضه لمكابرتها، لكنها واصلت التقدم صوب المكتبة الجامعية الكبيرة، مصدومة بالتغير الكبير الذي طرأ على كلية الآداب، في غضون أشهر قليلة منذ اندلاع الحرب.

أيعقل أن المكان الذي لطالما احتضن شغب الطلبة وأحلامهم وشجاراتهم وحماسهم، قد صار ساحة حرب حقيقية، حيث تكسّر زجاج معظم النوافذ، وتهدّمت بعض السقوف، وزيّنت ثقوب الرصاص المباني المتهالكة، كما وتناثرت أكياس الرمل هنا وهناك، يتحصّن خلفها شبان يغشى ملامحهم الذهول من شدة الجوع والأرق؟

إنها الفوضى العارمة...

سارت لوسيا بين الممرات الطويلة والمتشعبة، تتحاشى الأنظار المسلطة على بطنها الصغير، ودون أن تمنع نفسها من قراءة ما كُتب على الجدران:

Viva la República

(عاشت الجمهورية)

No pasarán

(لن يمروا)

Gloria a la libertad !

(المجد للحرية!)

Muerte a la iglesia !

(الموت للكنيسة!)

ابتلعت ريقها في اضطراب، مع اصطدامها بالشعار الأخير، وقد

تخيلت جحوظ عيني إيزابيلا من شدة الرعب، إثر قراءتها للمكتوب، لكنها سرعان ما أغمضت عينيها، هاربة من المشهد المتخيل.

عند وصولها إلى باب المكتبة، المزين بعلم الجمهورية، بألوانه الصفراء والحمراء والبنفسجية، وعلم آخر يجمع بين اللونين الأسود والأحمر، استجمعت قواها ودخلت، لتجد نفسها في خضم تجمّع بشري، بالكاد استطاعت الجنبات الفسيحة للمكان استيعابه.

شابات وشبان في بداية العشرينيات، بسراويل غامقة واسعة، وقبعات سوداء في معظمها، وقمصان بيضاء وسماوية ملطخة، أو معاطف مهترئة، وأحذية تغطيها طبقات من الطين.

شعرت لوسيا بالاختناق، رغم انخفاض درجات الحرارة خلال شهر نوفمبر، واحمرّت أذناها الصغيرتان خجلاً، في مواجهة سهام النظرات المسلطة، وراودتها بالفعل فكرة مغادرة المكتبة، بل وتقدمت بخطوة نحو باب الخروج، لكن الصمت عمّ المكان فجأة، فالتفتت، لتجد كل الأعناق وقد اشرأبت نحو رامون، وقد اعتلى ما يمكن اعتبارها منصة أعدّت على عجل.

لم تكن هيئته تختلف في شيء عن كل الحاضرين، بقبعة سوداء وقميص أبيض تربطه بالسروال الرمادي الواسع حمالات طويلة، لكن لوسيا استطاعت تمييز مسحة تعب علت محيّاه، وربما أضافت سنوات إلى عمره، فقط في بضعة أشهر.

كما تأكدت من تمتّعه بحظوة خاصة في الوضع الجديد، مع سكوت الجميع وانتباههم.

تنحنح رامون، قبل أن يتكلم بصوت ردّدت جدران المكتبة وأروقتها صداه:

- أغلقت شرفتي، لأنني لا أريد أن أسمع البكاء...

كلمات قليلة، كانت أشبه بزناد ضغط عليه، لتكمل حناجر كل الحاضرين، باستثناء لوسيا:

- وراء الجدران الرمادية، لا يسمع شيء غير البكاء، ملائكة قليلة تغني، كلاب قليلة تنبح، يسقط ألف كمان في راحة يدي، لكن البكاء كلب ضخم، البكاء كمان ضخم، الدموع تكمم فم الريح...

وتختم بخشوع جنائزي، لمعت معه عيون بعض الشبان، فيما انسابت دموع معظم الشابات:

- ولا يسمع شيء غير البكاء.

راقبت لوسيا المشهد بانتباه ذاهل، شاعرة في قرارة نفسها بغرابة هذا التأثر الجماعي، لكنها ركزت ناظريها على حبيبها، الذي انتظر عودة الجموع إلى هدوئها النسبي، قبل أن يبدأ كلامه:

- عندما أقدمت قوات الغدر والخيانة، على إعدام رمز الكلمة الحرة، شاعرنا العظيم فيديريكو غارسيا لوركا، اعتقد الجبناء، مرة أخرى، أن رصاصهم سيُسكت صوت الحق المسلوب. لكن هيهات، فما ترديدنا لكلمات قصيدة الراحل قبل قليل إلا للتأكيد على أنه سيظل حياً في قلوبنا، بكلماته ومواقفه، وانحيازه الدائم لنهضة إسبانيا، وتخلّصها من أغلال الرجعية.

تعالت التصفيقات الحماسية المؤيدة لما قاله، فتلاحقت أنفاسه وزادت نبرته حدّة بعد ذلك:

- لماذا قررنا اختيار المكتبة مقراً لقيادة جبهتنا ضد الهجوم الفاشي القادم؟ لنقول بصريح العبارة، إن الحرب التي بدأها مولا وفاريلا وفرانكو ومَن معهم لا تستهدف البشر، وإن قتلوا منهم الآلاف، بل تستهدف هذه المكتبة، وكل مكتبات إسبانيا. لا يريد الخونة وأعوانهم ومَن يقفون خلفهم لإسبانيا أن تلحق بركب الحداثة والتنوير. يكرهون

الأدب، يحتقرون الفن، يخشون الفلسفة، يستخفون بالعلم، ومن مصلحتهم القضاء على جيلنا، الرافض لهيمنة جهل استفادوا منه لقرون.

ثم ترك المنصة بقفزة واحدة، متوجهاً نحو أقرب الرفوف إليه.

أفسح له الحاضرون المجال، فالتقط مجلداً ضخماً، ثم رفعه بيده اليسرى عالياً وهتف:

- سوف نتصدى لهم بكل قوة، سنفدي المدينة بأرواحنا، وندافع عن مستقبلنا ومستقبل إسبانيا. إن استعانوا هم بقوى الفاشية والنازية والبربرية المتوحشة، فإن الشرفاء المتعاطفين مع قضيتنا قادمون من جميع أنحاء العالم لمساندتنا، وستكون هذه الكتب حائط صدّ ضد العدو.

التقط أنفاسه للحظات، استجمع خلالها قواه، ليحوّل هتافه إلى صيحة هادرة:

- سندحرهم، لن يمروا، لن يمروا!

رفع الحاضرون قبضاتهم المضمومة، وتوحّد هتافهم الذي بدا قادراً على اختراق سقف المكتبة والوصول إلى عنان السماء:

- لن يمروا، لن يمروا!

اعترى جوارح لوسيا شعور عارم بالفخر، عند متابعتها للأثر الذي خلّفته كلمات رامون على الحاضرين، وخفق قلبها بقوة، مع التفاتته، وتجاوزه غابة الأذرع المرفوعة، لرؤيتها، فارتعشت أصابع يدها اليمنى فوق بطنها، وكادت ساقاها تخونان توازنها، وقد تأكد لها بالملموس أن حكايتهما لم تصل بعد إلى نقطة نهايتها.

بل إنها لم تخض كل تلك الأهوال إلا سعياً لإعادة كتابتها من جديد...

ما كاد قلب لوسيا يهدأ إلا لحظات وجيزة، حتى شق صوت رامون

القويّ طريقه بين الجموع، آمراً بالحزم والانضباط، ومحذراً الطلبة المقاتلين من احتمال بدء العدو هجوماً مباغتاً، ثم، وفي غمرة الفوضى الصاخبة، اصطدمت نظراتهما أخيراً، مشوبة بتردد غريب.

سارت نحوه بحذر، كمن يستكشف أرضاً مجهولة، ورانت بضع ثوانٍ من الصمت بينهما، قبل أن يقطعه رامون بنظرةٍ حملت من اللهفة ما يفوق الاضطراب.

همس بصوت مبحوح بفعل هتاف خطابه:

- لوسيا، حبيبتي. لقد عدتِ أخيراً. أ... أنتِ حامل فعلاً؟

لم يكن لسؤاله أي داع، مع بروز بطنها، لكنها أومأت برأسها، وقد تملكتها رهبة المواجهة معه بعد كل تلك الشهور، ولم تغفل الرعشة الخفيفة في يده مع محاولته لمس ذراعها.

بدا عاجزاً عن إيجاد كلماتٍ مناسبة، فتاه ببصره نحو الرفوف الطويلة المثقلة بالكتب، لتتشبث عيناه بغلافٍ مهترئٍ لرواية قديمة، كأنه وجد فيها مهرباً من ثقل الحقيقة.

- لوسيا... أنا... سامحيني، لكنني لم أجد في نفسي القدرة بعد على الاستيعاب. ستبتلعنا الحرب جميعاً، ولا أدري إن كنت قادراً على حماية نفسي، فكيف بحماية طفلٍ في جحيم كهذا؟

لمع في عينيه خوفٌ خاطف، اخترق صدر لوسيا كالطعنة.

لطالما تخيلتْ لحظة إخباره بالخبر السعيد مختلفةً تماماً عن هذا المشهد الموجع، فرمقته بنظرة لومٍ، قبل أن تقول بصوتٍ خافت لا يخلو من حزم:

- الحرب هي الحرب، ولن يعفينا القدر من السعي إلى التمسك بالحياة مهما كلف الأمر. لم أندم على حملي بطفلك، ولن أتراجع عن مواصلة طريقي بجانبك.

همَّ بالرد، فقاطعته أصوات الرصاص في الخارج، ومعها صراخ الطلبة المترامي في الأرجاء:

- استعدوا للقتال، لقد بدأ الموروس زحفهم باتجاه المدينة الجامعية!

تطلع إليها رامون بعينين متعبتين، ثم تمتم كالمعتذر:

- أرجوك، ابتعدي عن خط النار، فهذا ليس مكانك...

تشبثت به في إصرار يائس:

- كلا يا رامون، لقد واجهت الموت سابقاً، ولن أتركك مرة أخرى أبداً!

لكنه دفعها برفقٍ نحو ممر جانبي، يقود عبر ممرات أخرى إلى قاعةٍ صغيرةٍ خلف المكتبة. توسلت عيناها بالسماح لها بالبقاء بجانبه، فرد بالمغادرة، مهرولاً نحو ساحة الكلية، حيث ارتفع غبار المعركة. معلناً بدء مواجهاتٍ شرسةٍ بين الطلبة والموجة الأولى من الجنود القوميين، يتقدمهم مقاتلون مغاربة، استقدمهم فرانكو لدعمه في حربه على الجمهوريين.

اصطفت البندقيات، وخلفها رجالٌ أشداء في تصميمهم على صد الهجوم، وإن غزا الهزال والتعب أجسادهم، فصارت الفوهات مشرعةً على كل نافذةٍ وركنٍ.

تتابعت طلقات المدافع الرشاشة، وانفجرت القنابل، فاهتزت المباني القديمة للكلية، وتهاوت أجزاءٌ من الجدران فوق رؤوس المدافعين، فيما امتزجت هتافات الطلبة بصيحات المغاربة، الذين اجتاحوا ساحات المدينة الجامعية وممراتها ومدرجاتها.

انفلتت لوسيا من الملجأ الضيق، مصممةً فيما يشبه الجنون اللحظي

على البحث عن رامون وسط المعارك المحتدمة، محكمة قبضتها اليمنى على صليبها الذهبي الصغير، وعبرت الردهات المتفحمة، متجاوزةً الأنقاض والأجساد المتكومة، المتحركة منها والساكنة. وعندما بلغت مدخل المكتبة، وجدتها خاليةً تقريباً، وقد أضحت معبراً احتياطياً لانسحاب المدافعين، أو لإعادة التمركز.

تناثرت الكتب على الأرض، واحترق بعضها، فتحولت الصفحات المصفرة إلى رماد يتطاير في الهواء المثقل برائحة البارود، لتتحقق نبوءة رامون أسرع ربما مما توقع...

وفجأةً، تهاوت قذيفةٌ قرب باب المكتبة، فامتد الدمار إلى سقف القاعة الفسيحة، وانهارت أجزاءٌ منه على الطاولات والممرات والرفوف.

سقطت لوسيا أرضاً، ضامّة حقيبتها الصغيرة إلى صدرها، في حركة غريزية لا معنى لها، وعضّت شفتها السفلى، شاعرة بألم ممضّ في ساقها اليسرى. فيما تطاير الغبار في كل الأرجاء، ما عادت ترى أمامها سوى بعض الظلال المتداخلة بما يشبه الغيمة الكثيفة. زحفت لبضعة سنتيمترات عندما وجدت لنفسها ركناً خلف منضدةٍ مقلوبة، تحتمي به من تساقطٍ محتملٍ للأحجار والشظايا. وما إن انجلى الغبار نسبياً، حتى شهقت برعبٍ.

هيئتان تتعاركان قرب الرفوف المنهارة، في أقصى زاوية من القاعة المدمرة...

تساءلت، مع بُعد المسافة، إن كان أحدهما رامون، فتحاملت على نفسها، رغم الآلام والإرهاق الذي حوّلها إلى حطام بشري، ونهضت متقدمة بخطى متمايلة نحوهما.

لم تتصور، ولو للحظة واحدة، أن مَن يصارع رامون، المنهك والنازف من كتفه، ويتبادل معه الضربات العنيفة، هو ابن عمها فيران،

الذي لم تره منذ إيداعها في الدير، وقد ارتدى زيّاً قاتماً يحمل شارة الفلانخي، وحمل بندقيةً طويلة الماسورة.

- فيران! ماذا... ماذا تفعل هنا؟!

صرخت لوسيا، فأتى صوتها المتوسل ضعيفاً، لكنهما استمرا في الالتحام، تفصل بينهما كراهيةٌ متجذرة، ويحفزهما إصرارٌ متضادٌّ على النصر.

الواضح أن فيران قد اكتسب خبرةً أكبر في القتال، إلى جانب قوات أفضل تنظيماً وتسليحاً من الميليشيات الجمهورية الفوضوية، إذ احتجز ذراع رامون ومال خلفه، ثم جثم فوقه، موجهاً ماسورة البندقية إلى رأسه.

- ها قد وصلت إليكما، بعد جهد ودماء. حسبتما أنني لن أعرف مكانكما، وعيوني مبثوثة في كل مكان؟ حان الوقت لتدفعا ثمن كل ما جرى بسببكما...

ثم صوّب فوهة كلماته الغاضبة نحو لوسيا:

- بطنك هذا سيجلب إلى عائلتنا عاراً أبدياً، لن يغسله أحد سواي.

ارتعدت يداها في فزع، مع تصاعد ثورته، فحاولت الاقتراب، لمنعه من الضغط على الزناد، وصرخت متوسلة:

- أرجوك يا فيران...هذا ليس حلاً! لن ينتهي الخراب بإراقة الدماء!

- ألا تفهمين أيتها العاهرة؟ لقد قتل هذا الوضيعُ والدك وتسبب في تشريد أمك وأختك!

صفعتها صرخته، فالتفتت إلى رامون متسائلة، لكن فيران لم يمهلها أكثر، وضغط على الزناد، لتخترق رصاصةٌ رأس رامون، فانهار جسد الأخير أرضاً، وقد فغر فاهه في صمتٍ مميت.

تجمدت لوسيا في مكانها، وقد شعرت بشظيةٍ من رصاصة القتل

تنغرس في أعماقها هي، قبل أن يباغتها هول الصدمة، فهرعت إلى جثة رامون، وجثت على ركبتيها بجواره، متناسية آلامها، وضمّت رأسه الدامي إلى صدرها، غائمة العينين، جراء الدموع والخوف. والأنقاض تحيط بها من كل جانب.

انقضّ عليها فيران، وقد انفلت وحش الحقد في أعماقه من وثاقه:

- قلت لكِ إن هذا العار لن يغسله أحد سواي، ولم أكمل مهمتي بعد...

ورفع بندقيته مجدداً، بفوهتها اللامعة، إثر ضوءٍ شاحبٍ اخترق فتحةً في السقف المتهالك. وجهّز إصبعه للضغط على الزناد، ثم تراجع بحركة فجائية، كأنما غيّر رأيه، وأدار البندقية، ليهوي بكعبها على وجه لوسيا، فسقطت من جديد، واصطدم رأسها بقوة، بنتوء جزء من السقف المنهار.

أدركت لوسيا عندئذ أن ما بقي من حياتها لا يتعدى لحظات معدودة، وتسللت رائحة الدم والبارود إلى رئتيها، ممتزجةً بعبق الكتب القديمة. فتشبثت ببطنها الصغير، وغشاوة الضعف والقهر تخنقها.

أما فيران، فقد جثا بجسده فوقها، ساعياً إلى تمزيق ملابسها، مواصلاً في هياج:

- لا يمكن لتلك النطفة القذرة أن ترى النور أبداً!

فقدت لوسيا أي قدرة على تحريك جسدها، أو حتى استيعاب ما يفعله ابن عمها، واستسلمت بالمطلق، فلم تفهم حتى سر تلك الطلقة المباغتة، التي دوّت من مكانٍ ما، واخترقت رأس فيران لتقضي عليه في لحظةٍ خاطفة، أجبرت كامل جسده على الانهيار فوقها، بلا حراك.

ترددت أصوات انفجاراتٍ جديدة، ونداءاتٍ مذعورة تنذر بموجة أخرى من الهجوم القومي الكاسح. لحظتها، توقف الزمن أمام عيني

الشابة المحتضرة، في مشهدٍ فاجع: المكتبة المدمرة بكل ما ضمّته في الماضي من رموز الفكر والمعرفة، وجثتان، إحداهما فوقها، والأخرى بالقرب منها.

في الخارج، تعالى الصراخ، ولم ينقطع دويُّ القذائف. وعلى أرض المكتبة الباردة التي تحولت مرقداً لنهاية أحلامٍ عديدة، لفظت لوسيا آخر ما تبقّى من أنفاسها، متأثرة بجراح روحها قبل جسدها، وحلمٌ يتيمٌ بقدرة الحياة على الاستمرار مهما اشتدّ أوار الحرب يتلاشى، كالدخان المتصاعد في كل أرجاء المدينة الجامعية.

*

ما لن تعرفه لوسيا:

ثلاثة أيام، لم يذق فيها إلا شربتَي ماء، وكسرتَي خبز، وساعتَي نوم، فصار إذن على بُعد خطوتين من فقدان عقله...

مدّ يده نحو قب جلبابه، باحثاً عن أي فتات يشاغل به جوعه، فلم يجد سوى خزانة رصاص، تخلص منها بغلّ وكراهية لا مبرر لهما، في ميدان قد يفاجئه فيه الموت الزؤام في أي لحظة.

موت قد يكون على هيئة عدو، أو حتى صديق، لكن هذا ليس مهماً...

تجاوز منذ زمن بعيد حصار السؤال الملحّ في ذهنه، حول سبب وجوده هنا، في أرض لا يعرفها، مخاطراً بحياته دون فهم لما يجري، ولم يعد يرى في نفسه سوى جسدٍ، أو بالأحرى جثة، مهمتها التقدم فقط إلى الأمام، وإطلاق النيران، بلا تفكير...

لم تمض إلا أيام على وصوله إلى هذه الأرض المجهولة حتى أدرك بسرعة أن كل ما سمعه في قريته كان كذباً صرفاً...

وعدوه بأنهار من اللبن والعسل في الضفة الأخرى، تقيه جوع أرضه وقحطها، فوجد هنا حقولاً سوداء، احترق شوكها وحنظلها...

حدّثوه عن قتاله المنتظر في صفوف راية تدافع عن الدين، ما دام

فرانكو قائد جيشه قد أشهر (كما قيل) إسلامه وأعلن حربه ضد الكفار الملحدين، فاحتفظت عيناه وذاكرته بمشاهد متكررة من القتل والهمجية والتنكيل، مما لم يستوعبه فهمه البسيط عن الدين قط...

وها قد منع هنا، قبل قليل، اغتصاباً وحشياً، كاد ينفّذه مريض مجنون بحق شابة يدل بطنها المنتفخ قليلاً على حملها...

هل كان الوحش الذي يحمل سكيناً ينوي اغتصابها أم شق بطنها؟

وما الذي تفعله شابة حامل في موقع قتالي كهذا؟

لا أهمية للبحث عن إجابات، ما دامت الأيام والأسابيع الماضية قد عوّدته على تجاهل المنطق، لكنه يدرك جيداً سبب قتله لذلك الحيوان.

لطالما أهانه ذلك الحقير، هو وكل رفاقه، مجبراً إياهم على التقدم إلى الصفوف الأمامية، وتحويلهم إلى دروع بشرية، تحمي الإسبان من رصاص القناصة أو غدر القذائف والألغام المزروعة في كل مكان.

ولطالما سخر رفاقه فيما بينهم من اسم هذا الإسباني: فيران، لأن لفظه يكاد يطابق بالدارجة جمع كلمة «فأر»...

لن ينسى أبداً يوم بصق عليه، بكل صلف واحتقار، لا لشيء إلا لأنه لم يفهم أمره الصارم بتفقّد أنقاض منزل محترق في الأرياف.

وقد حانت لحظة انتقامه، فأرداه قتيلاً في الوقت المناسب، قبل أن ينفّذ جريمته القذرة، أيّاً كانت تفاصيلها، اغتصاباً أم شق بطن امرأة حامل...

دفع جثته بقدمه، لكن الأوان قد فات، بعدما أسلمت الشابة المحتضرة روحها بدورها، متأثرة بجراح غائرة في رأسها، فاكتفى بإغماض عينيها، واستحضار صوت إمام مسجد قريته في ذهنه، عندما كان يتلو سورة الفاتحة بصوته الرخيم.

مدّ بصره، فوجد جثة رجل آخر، يرتدي معطفاً ثقيلاً، نزعه منه

بسرعة، ثم ارتداه، شاعراً بدفء لا يقاوم، كاد ينساه مع تيبّس أطرافه، واستحالة العثور على ما يرتق به ثقوب جلبابه المهترئ.

لم يكن المعطف الرمادي في حال أفضل، ببقعه الطينية القذرة، لكن صقيع الخريف لا يرحم...

كما أن الحي أبقى من الميت، أليس كذلك؟

لم يعبأ بالرفوف والأوراق الممزقة أو المحترقة في كل حدب وصوب، فداس بعضها بلا اكتراث، متابعاً تفقّده للمكان.

ثم أبصرت عيناه تلك الحقيبة الملقاة بعيداً عن جثة الشابة الحامل.

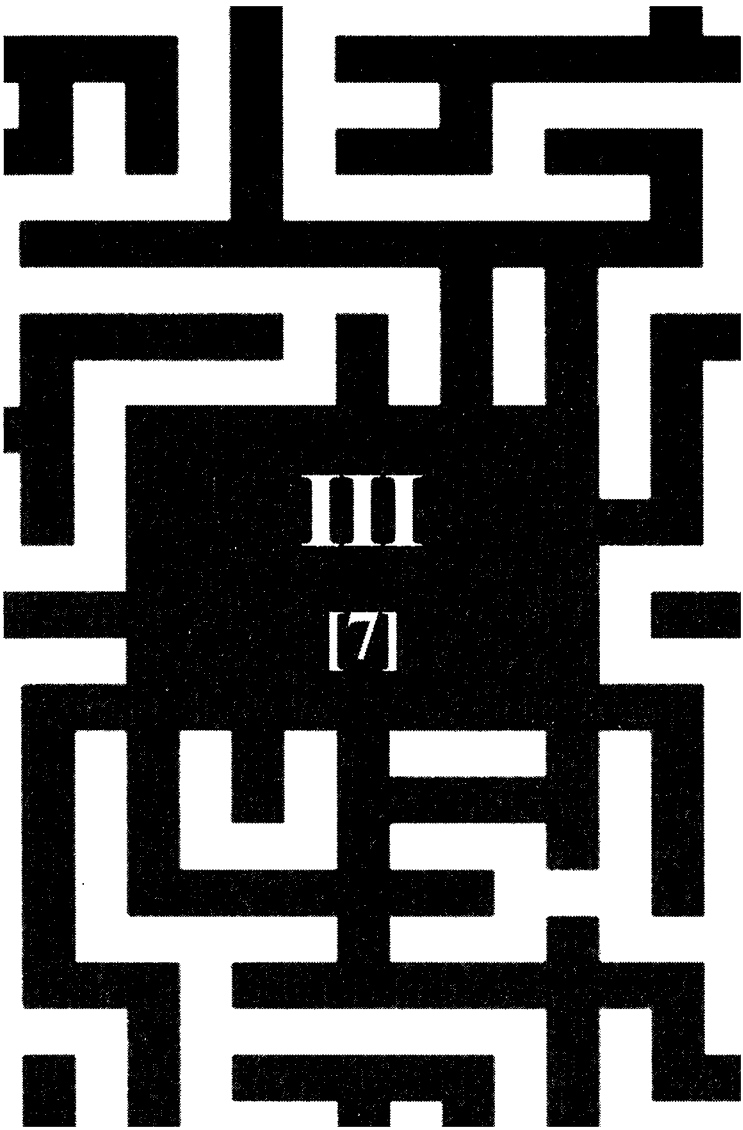
انقضّ عليها بأقصى سرعة، ممنّياً النفس بالعثور أخيراً على ما يُسكت جوعه، لكن أمله خاب فوراً: كتاب صغير يحمل غلافه صليب النصارى، ورداء وغطاء رأس رماديان...

وأوراق مصفرة بالية، توقف عندها طويلاً...

هو لا يحسن القراءة بالطبع، بعدما ساهمت السنين في نسيانه لما تعلّمه خلال أسابيع قليلة قضاها في كتّاب قريته، لكنه تأكد من قداستها، ما دامت مكتوبة بخط كتابة الآيات القرآنية نفسه، كما في تلك الألواح التي حفظ عبرها في طفولته ما تيسر من سور قصيرة.

طوى الأوراق باحترام بالغ، ودسّها في الجيب الداخلي لمعطفه الجديد، ثم غادر قطعة الجحيم تلك، حاملاً بندقيته المحشوة، ومعدته الفارغة، وأمله الضعيف في العثور على كسرة خبز، تُبقيه على قيد الحياة، وإن لساعات أخرى إضافية...

*


III
[7]

III

[7]

علي، بومايي!

(1974)

«تجسد رواية **الصّخب والعنف** لوليام فوكنر بوضوح ما يعتمل في نفوس البشر، من صراع بين الإرادة الفرديّة والأخلاقيّات المؤطرة والرغبات الجامحة. قد تبدو الأحداث متجذّرةً ظاهرياً في الجنوب الأميركي، لكن مضامينها تتخطّى كل الحدود الزمانية والمكانية؛ ذلك أنّ أزمة الإنسان المعاصر لا تكفّ عن التعاظم كلما دفعت إرادته للاصطدام بحدود القيم الأخلاقيّة. تتنازع الرغبة والواجب، فتبرز أسئلة جوهرية حول المعنى والهوية. وهذا ما نلمسه اليوم في ظلّ التحوّلات الاجتماعيّة والتكنولوجيّة المتسارعة، حيث تزداد عزلة الفرد وتخبو قِيَم الرحمة والتضامن...».

رشيد بناصر – المحاضرة الثالثة – الأربعاء 18 فبراير 2015

الجولة الأولى:

محمد علي يخالف التوقعات السابقة ويتبادل لكمات مباشرة مع جورج فورمان.

أطبق السكون على شوارع طنجة الضيقة، في تلك الليلة المقمرة، وغابت الأضواء، باستثناء مصابيح باهتة، ألقت بظلالها المرتعشة على الأرض الرطبة...

ضجّ مقهى صغير، اعتاد على استضافة الغرباء، بجلبة غير مألوفة في ليالي الخريف الطويلة. تقارب الساعة الآن الثالثة فجراً، فيما أشارت اليومية العصرية المعلقة على الحائط إلى 30 أكتوبر من عام 1974، وإن بدا أن تبين أرقامها صعبٌ، مع تعالي سحابة من الدخان، غطت ما حولها، وامتزجت فيها روائح التبغ والنعناع والقهوة والكيف.

تصاعد الحماس والترقب، مع قرب انطلاق مباراة الملاكمة المنتظرة، بين محمد علي كلاي وجورج فورمان، التي ستجري أطوارها في كينشاسا عاصمة زائير، وستُبث عبر جهاز تلفاز قديم بالأبيض والأسود، انزوى في أعلى ركن المقهى.

من بين الحاضرين، رجل أشقر، اصطبغ شعره بلون أقرب للأبيض مع تقدمه في السن. يجلس على كرسيٍّ خشبيٍّ مهترئ، مستنداً إلى طاولة تتمايل قليلاً بفعل اختلال توازنها، وقد لف وشاحاً باهت اللون حول عنقه رغم دفء الجوّ. هو في أوائل الستينيات من عمره. حفرت

التجاعيد خريطتها الغامضة على محيّاه، لكنه احتفظ رغم ذلك بظهرٍ مستقيم، وقامة طويلة، ونظرات ضبابية، تتطلع إلى الشاشة بلا تركيز حقيقي. ربما يتظاهر بمتابعة النزال، فيما عقله يحلّق بعيداً، عن طنجة، أو حتى عن كينشاسا...

اسمه الحقيقي باستيان، باستيان شتاينماخر. غير أنّه اعتاد، طوال سنوات إقامته في طنجة، على اسم آخر، حمله جواز سفر مزوّر: كارل هارت. اسمٌ وهمي رأى فيه قناعاً يقيه ملاحقة ماضٍ ثقيل، تركه هناك في ألمانيا.

خدم كارل، أو باستيان، في وحدة الاستعلامات التابعة لقوات الأمن النازية الخاصة، وهو بعد في ريعان الشباب، حيث كلّفته قيادته آنذاك بمهماتٍ بالغة السرّية، لجمع مخطوطات وآثار نادرة، لفائدة الرايخ.

يذكر أن مهمته الأولى لم تكن بعيدة عن طنجة. فعندما اشتعلت الحرب الأهلية في إسبانيا، أواسط الثلاثينيات، تلقّى كارل أوامر صارمة بالوصول إلى مخطوطاتٍ قيّمة، أشيع أنّها هُرِّبت من أديرة ومتاحف، مع اشتداد المعارك بالقرب من مدريد. حمل في دواخله وقتها حماساً أيديولوجياً عميقاً؛ إذ ظنّ أنّ الحصول على تلك التحف والمخطوطات خدمة جليلة للرايخ. ولم يعبأ، ولو للحظة، بما رآه بأم عينه، من كوارث دمّرت المدن والقرى الإسبانية، وعمّقت معاناة العالقين وسط نيرانها، وبمساهمة مباشرة من سلاح الجو النازي، الذي تدخّل وقتها لدعم جيش فرانكو، في حربه الطاحنة ضد الجمهوريين.

ربما اضطربت مشاعره لأوّل مرّة عندما وجد نفسه بين أطلال المكتبات والأديرة المدمّرة، يبحث تحت الركام عن صفحاتٍ تاريخية نادرة، فيما أُجبر الأبرياء البسطاء على ترك منازلهم وقراهم تحت وطأة

الخوف والدمار. رأى كارل وقتها عيون الأطفال والنساء والرجال تحمل تساؤلاتٍ لم يكن يجد لها جواباً سوى الأوامر التي تحيط بعنقه كسلسلة توشك على خنقه. ورغم ذلك، واصل تنفيذ التعليمات بحذافيرها: جمع المخطوطات ونقلها سراً، وتجنّب إثارة أي انتباه.

وعندما اندلعت الحرب العالمية الثانية، تنقّل كارل بين مواقع عديدة في أوروبا، من بولندا إلى هولندا، مروراً ببلجيكا والنمسا، وصولاً إلى جبهة الرعب، داخل الأراضي السوفييتية، عندما قرر هتلر شن حملة بربروسا المجنونة، عوض التركيز على إخضاع لندن بالكامل. فكانت مهمة كارل أوسع وأعقد، لتشمل البحث عن كنوزٍ وأعمالٍ فنيّة تاريخية تزخر بها المدن والقرى الروسية المتباعدة، وفي ظروف أشدّ قسوةً: شتاءٌ روسيٌّ قارس أطبق على الجنود الألمان، مع ندرةٍ في الإمدادات، ومقاومةٌ شرسة من الجيش السوفييتي. يذكر كيف بدت مساحات الثلوج الممتدّة مسرحاً صامتاً لمعارك ضارية. وبين أصوات المدافع وغبار الدبابات، خسر باستيان العديد من زملائه، ممّن أجهزت عليهم نيران العدو أو أودت بهم قسوة الطبيعة.

ليال مظلمة طويلة، انقشعت فيها غشاوة الإيمان المطلق بإعجاز الرايخ، واصطدمت روح كارل بالواقع المأساوي، لتتراءى أمام عينيه صور الأديرة الإسبانية والمتاحف الهولندية والخزائن الروسية القديمة، التي نبشها باحثاً عن مخطوطاتٍ أو تماثيل أو لوحات نادرة. ورغم أن أصوات الرصاص والقنابل قد حلّت محل قرع أجراس الكنائس أو موسيقى القرى الهادئة، فقد ظلّت ذكرى تمزيق صفحات التاريخ، وسرقة معالم حضارات الآخرين، محفورةً في ذهنه.

وعندما هُزمت ألمانيا في نهاية الحرب، وتسابق السوفييت والأميركيون على من يدخل برلين أولاً، نجح كارل بفضل علاقات

قديمة مع أصدقاء إسبان في الفرار إلى إسبانيا، ثم ركوب سفينة صغيرة عابرة لمضيق جبل طارق، ليصل إلى طنجة، الخاضعة آنذاك لإدارة دوليّةٍ شبه مستقلة، باعتبارها محطة أساسية للمخبرين والجواسيس وتجار السوق السوداء، وأيضاً للمنفيين السياسيين. قرّر الذوبان وسط سكان المدينة، مختلطاً بالغريب والعجيب من البشر المتقاطرين على هذه البقعة المتوسطية الفريدة.

لكن كارل لم يغادر ألمانيا هكذا خالي الوفاض...

حمل الضابط السابق معه مقتنيات نفيسة؛ مخطوطاتٍ تاريخية ووثائق نادرة، حصل عليها بطرقٍ ملتوية من مواقع مختلفة، واحتفظ بها لنفسه، مستسلماً وقتها لإغراءات تتجاوز تنفيذ المهمات الرسمية، فكذب بشأن مصيرها في تقاريره، مستشرفاً ربما قدرتها على إنقاذه من غموض المجهول.

ومرّت سنوات طويلة، افتتح خلالها بازاراً صغيراً، يبيع كل ما يريده السيّاح القادمون إلى طنجة من أصقاع الأرض، مع المتاجرة سرّاً بتلك المقتنيات، بعرضها على فئات خاصة من السيّاح الأثرياء، أو المهتمّين بالتحف النادرة، مع الاستعانة أحياناً ببعض الوسطاء الذين يتعاملون مع خبراء السوق السوداء في المدينة.

لم تكن تجارته مزدهرة دائماً، لكنها ضمنت له مستوى معيشياً مقبولاً، وإيجار بيت صغير وجميل، في حيّ متوارٍ عن الأنظار بالمدينة القديمة. متنكراً في شخصية كارل هارت، الأوروبي المهاجر، ذو السجل «النظيف»، والباحث فقط عن الدفء والهدوء.

لكن زبائنه الأوروبيين والأميركيين الأوفياء، الذين سكنوا طنجة طويلاً، يتناقصون الآن، وما يدور في الأعماق لا شك مختلف عما تبوح

به الملامح والابتسامات، فعوض الاطمئنان لواقعه، غرق يوماً بعد يوم في عزلته وخوفه من انكشاف أمره فجأة. لطالما تناسلت الإشاعات عن اصطياد عدد من النازيين المتخفّين، خاصة في أميركا اللاتينية. وكلما بلغت هذه الأقاويل مسامع كارل شعر بوخزٍ عميق في صدره، وكأنه جرحٌ يلتهب، محرراً مارد نوبات الأرق والكوابيس من القمقم.

عاد ضجيج المقهى ليخترق أفكاره. علت بعض الهمهمات الحماسية من حاضرين ارتدى معظمهم جلابيب صوفية ثقيلة، تتراوح ألوانها بين الرمادي والأخضر والأسود. يتنقل بينهم طفل نشيط، يمسح الطاولات ويغيّر كؤوس الشاي بخفة، ويختلس، كما الجميع، النظرات والضحكات الساخرة، المصوبة إلى شابة هيبية عشرينية، يكاد شعرها الطويل يلامس أسفل ظهرها، وقد انشغلت بالتحديق في الفراغ بعينين خاويتين، فيما اكتفى رجل أربعيني يرتدي معطفاً رمادياً طويلاً، ويضع قبعة جعلته أقرب لرجال المافيا الأميركية في أفلام الخمسينات بالنظر إلى ما حوله بازدراء مبالغ فيه، غير آبه بشاب نحيل متردد، يراقبه من موقع منزوٍ، بمزيج من الخشية والاهتمام.

على شاشة التلفاز، ارتفع صوت المذيع شيئاً فشيئاً؛ فقد صعد الملاكمان إلى الحلبة، وبدأت الجولة الأولى من النزال. مال كارل بجسده قليلاً إلى الأمام، متظاهراً بالاهتمام. لم يفهم تماماً رمزية محمد علي في عيون محبيه، لكنه عجز عن منع نفسه من استحضار الدعايات النازية التي صورت الأعراق غير الآرية في مرتبةٍ أدنى. وها هو الزمن يغيّر قواعده الآن؛ إذ أصبح بطل الملاكمة الأشهر في العالم رجلاً أسود البشرة، يحتفي به أنصاره في كل مكان.

في تلك الأثناء، تسلّل إلى المقهى رجل قصير أقرب للبدانة، وجلس إلى طاولةٍ بعيدة. أخذ يتلفّت يمنة ويسرة. توقّف بصره للحظة

على كارل. وعندما تلاقَت النظرات، شعر الألماني برعشةٍ قوية تسري في جسده.

الرعشة القديمة ذاتها، التي تجتاحه كلما أحسّ بأنّ أحدهم يراقبه أو يتعرّف إليه...

يدرك أنه الآن مجرد عجوز أشقر، هرمت ملامحه بما يكفي لتختلف تماماً عن صورته في أيام شبابه العسكري، لكن الحذر واجب طبيعي في عُرف ضابط سابق في قوات الأمن النازية الخاصة.

هل هذا هو الوسيط الذي اقترحه إدريس بشأن الصفقة الجديدة؟ أم إنه عميل مخابرات متخفٍّ، جاء ينشد رأسه؟ ومن يدري، قد يكون خليطاً من هذا وذاك...

حاول إشغال نفسه بكأس الشاي أمامه، متأملاً بخاره المتصاعد، لكن أفكاره وهواجسه حاصرته، كما يحاول فورمان، في سعيه لإخماد فورة بدايات محمد علي فوق الحلبة.

*

الجولة الثانية:

محمد علي يعود إلى خطته المعروفة بمراوغة خصمه واستفزازه، متجنباً لكماته القوية.

إلى إحدى الطاولات الخشبية التي تنبعث من جوانبها رائحة يصعب تحديد أصلها أو مصدرها، جلست شابة في منتصف العشرينيات، ترتدي ثوباً فضفاضاً بنقوشٍ هيبيّة، وتحيط منبت شعرها الأشقر الطويل بشريط مزركش. تحتسي شاياً مغربياً أخضر، في هدوءٍ يخفي توتراً، ودهشة لا تنقطع أمام مشاهد المدينة الليلية وأصواتها.

وصلت ليندا إلى طنجة قبل أيام قليلة، قادمة من السويد، مع عدد من أصدقائها الراغبين في الهروب من صقيع شمال أوروبا، واكتشاف كل ما سمعوه عن القارة التي لطالما امتزجت في أذهانهم بالسحر والغرابة، منصّبين الشابة على رأس مجموعتهم، لا لشيء، إلا لأن والدها عاش سنوات قليلة في المدينة، قبل عقود خلت، بل وقبل ولادتها أصلاً...

فقدت طنجة بعضاً من وهجها الدولي القديم، لكنها احتفظت بروحها العابرة للأعراق والثقافات. وظلت، في مطلع السبعينيات، قِبلة للباحثين عن الحرية أو الخوض في تجارب الحياة خارج الأطر التقليدية المعتادة.

لمع اسم طنجة، ورنّ في الآذان كنداءٍ مُغوٍ لكل من راودته رغبة

كسر الحدود، حيث تختلط أجناس وصنوف من البشر، وتتمازج اللغات، ليتشكل عالم قائم بذاته، منفصل ومستقل عما سواه.

منذ صغرها، سمعت ليندا من والدها حكاياتٍ شائقة عن المدينة: عندما كانت آنذاك مركزاً عالمياً، تجذب الفنّانين والكتّاب والمغامرين من كل حدبٍ وصوبٍ. حكى لها أولاف عن جلوسه في مقاهٍ متناثرة، شبيهةٍ بهذا المقهى، حيث انهمك في تدوين وتلخيص أفكاره حول فيزياء الجسيمات والذرات، والتقى بأدباء ومتسكعين ونصّابين غريبي الأطوار، وتأمل الأفق المفتوح على بحرٍ يفصل بين قارتين متباعدتين ظاهراً، ومتداخلتين واقعاً.

عندما رحل والدها إلى مثواه، متحسراً على ما يراه ظلماً بيّناً، منعه من الظفر بجائزة نوبل في الفيزياء، ترك لها دفتراً ورقيّاً مكتظاً بسطور مكتوبة بخطّه الدقيق، تلخص نظرياته، بالإضافة إلى رسومات فيزيائية ومعادلات ناقصة. مع إشارة إلى مقامه بالغرفة رقم 11 في فندق يحمل اسم: فندق قرطاجنة.

لم تجد ليندا إلّا هذه الإشارة، فقررت شدّ الرحال صوب طنجة، علّها تضيف إلى مغامرتها العابثة مع رفاقها، نبشاً ما في جزء من حياة والدها، أو ربما تُكمل صفحات نظرياته المبهمة المنقوصة، التي لم تفهم منها شيئاً أبداً...

ظنّت في البداية أنها ستستكشف آثار والدها بسرعة، وتواصل المسير صوب الديابات، ملتقى الهيبيّين وتجمّعهم الأشهر، قرب الصويرة. لكنها وجدت نفسها مأخوذةً بجمال طنجة وغرابتها الآسرة. فكانت تقضي ساعات النهار على الشاطئ أو وسط أسواق المدينة القديمة، تشمّ روائح التوابل والجلود، تسمع صيحات الباعة ونعيق النوارس، فيما تمتد أمام عينيها صور يختلط فيها الحاضر بالماضي.

دون أن تجد لفندق قرطاجنة المذكور في دفاتر والدها أي أثر...

اختارت ليندا ذلك المقهى العتيق لمواجهة ما تعتقده وجهاً آخر من وجوه طنجة المتعددة، إذ سمعت من أحد رفاقها أن الباب قد يكون مشرعاً أمامها لتجارب مختلفة مع الكيف، الذي يدخنه المغاربة عبر أنبوب طويل، ينفث مسحوق نبتة القنب الهندي المغربلة. قال صديقها إن الأجانب مقبلون بشكل متزايد على تعاطي هذه المخدرات المختلفة تماماً عما ألفوه، مع حديثهم عن قدرتها على توسيع ما سمّاه وعيهم الروحي، بما يتوافق تماماً مع نزعتها الهيبيّة، ورغبتها في خوض غمار أي تجربةٍ تخلصها من قيود، لم توجد أبداً إلا في خيالها. لكنها شعرت في الآن ذاته ببعض التحفظ المشوب بالخوف؛ ربما لإدراكها أن المدينة وإن بدت سهلة المنال، تخفي في ثنايا أزقتها سراديب مظلمة.

أين هو كريستنسن؟ لماذا تركني وحدي هنا؟ لا شك في أنه غارق في أحضان روزي أو ماغدالينا...

تطلعت إلى ما حولها، فوجدت بالفعل تجمعاً متنوعاً. هناك أشقر في الستين ربما، يجلس وحيداً، يقلب كأسه الفارغ بين أصابعه وكأنه يطرد أفكاراً ثقيلة، وهناك أربعيني يتحسس سيجارة طويلة بين أصابعه، ويبتسم في ازدراء وخيلاء، وشاب تظهر عليه علامات قلقٍ أو اضطراب؛ عيناه شاردتان، وكأنه غارق في دوامة أفكار، يلتفت أحياناً نحو التلفاز قبل التلصص من حين لآخر على صاحب السيجارة الطويلة، ثم أصحاب جلابيب صوفية اختاروا التحلق قريباً من التلفاز المعلق في زاوية السقف لمتابعة نزال الملاكمة.

إلى طاولةٍ قريبة من ليندا جلس رجل بدين قصير القامة، بملامح تشي بدهاء أخافها رغم شرودها. رجل بلا عمر واضح، يحرك عينيه بسرعة، مترصداً الوافدين والمغادرين، كما لو أنه يبحث عن فريسة،

ويرسم ابتسامة مصطنعة كلما اصطدم بنظرات أحدٍ ما في المقهى.

في المقابل، أراحتها حيوية ذلك الطفل، أو ربما المراهق، الذي يتنقّل بين المقاعد في خفة، يقدم كؤوس الشاي أحياناً وينادي المارّة في الخارج أحياناً أخرى، متحسساً قطعاً نقدية جاد بها كرم الزبائن، ودسّها هو في جيبه بسعادة غامرة.

تشجعت، فلوّحت له بحركة من يدها، وعندما اقترب منها، أشارت بطرف خفي إلى رجل يدخن عبر الأنبوب الطويل، ووضعت سبابتها ووسطاها على شفتيها، فابتسم متفهماً، وانطلق بسرعة نحو شاب اختار البقاء خارجاً، تحدث معه لبضع ثوان، قبل أن يعود حاملاً السبسي المطلوب، مع علبة معدنية صغيرة، فتحها لتظهر قطعة بنية نفّاذة الرائحة.

شكرته بحرارة، وهي تضع في يده أوراقاً مالية أوشكت على إفقاده الوعي من شدة الفرحة، لكنه سرعان ما استسلم لنظرة صارمة حادة من عجوز يقف خلف المشرب، فعاد لتنقلاته المراوغة بين الطاولات.

في تلك الأثناء، بدأ صوت المذيع يعلو من التلفاز القديم، مع توالي أطوار نزال محمد علي كلاي وجورج فورمان. تعالت همهمات الحاضرين في المقهى، وأخذ بعضهم يُلوّح بقبضته في الهواء متحمساً لفكرة أن البطل محمد علي سيخوض تحدياً جديداً في أفريقيا.

لوهلةٍ، خفّ التوتر بين الغرباء في المقهى، وتوحّدت الأنظار نحو الشاشة التي يختل صفاء صورتها أحياناً. هتف الطفل النشيط «علي! علي!»، لكن أحد الذين يرتدون الجلابيب نهره بقسوة، فاندس مبتعداً في خجل.

تعاملت ليندا مع محتوى العلبة المعدنية وأنبوب السبسي بذكاء، مستحضرة رؤيتها لكريستنسن أثناء إعداده بصبر ودقّةِ أستاذٍ يستعد لشرح تفاعل كيميائي لطلبته، وعندما أشعلت الأنبوب تذوّقت الدخان

الممزوج بالحشيش في رئتيها، مستسلمة لبوادر دوارٍ لذيذٍ يُغريها بمغادرة الواقـع، وقد شعرت أن إدراك حواسها يتسع، ليلامس ما غاب عن استيعابها قبل لحظات.

اختلطت أصوات الحاضرين في ذهنها، وكأن سرعة دوران عقارب الساعة تباطأت. تذكّرت دفاتر أبيها ومحاولاته الغريبة لفهم ميكانيكا الكمّ، وربطها بطريقة غير مألوفة مع ما سمّاها المفاهيم الروحانية الشرقية. وكأنها في تلك اللحظة بين عالمين: عالم الواقع الفيزيائي الذي يدرسه العلماء مثل والدها، وعالم الإحساس الباطني الذي يبحث عنه الحالمون مثلها.

أي سر ذاك الذي لاحقه أبي في هذه المدينة؟ أم تراه عجز عن الاقتراب من حافة ما أحياه الآن بكل لذة واستمتاع؟

شعرت ليندا أن وجوه المقهى صارت أكثر شفافية، قرأت في تجاعيد الأشقر العجوز حكايات فشلٍ وخيبات قديمة، وفي عينَي ذي القبعة سيلاً من العجرفة والتعالي غير المفهوم. أما القصير البدين الذي يحرك عينيه في كل اتجاه، فقد بدا لها فجأةً ككوميديا سوداء تُجسّد سعي الإنسان للاستغلال. صار الطفل الذي ينتقل بين المقاعد في نظرها رمزاً للبراءة الحالمة التي لم تُلوثها دروب الحياة بعد. ولم تفسر ملامح الشاب المضطرب، إلا باعتبارها مرآةً تعكس مخاوفها هي، واستحضارها قلقاً خفياً من مواصلة رحلة لا تعرف نهايتها.

صرخ المذيع مع ما بدا أنها لكمة مفاجئة وجّهها محمد علي لغريمه؛ فقفز بعض ذوي الجلابيب من أماكنهم في بهجةٍ مكتومة. فراقبتهم ليندا لا تدري إن كانت ابتسامتها إعجاباً بقوة محمد علي وقدرته المفاجئة على قلب الموازين، أم أن شيئاً ما في داخلها هي ينقلب في هذه الليلة.

لا بدّ لها من الاستمرار في البحث هنا عن إرث والدها الخفي؛

فالمدينة القديمة والدفتر الغامض وحكايات الفيزياء غير المكتملة كلها خيوطٌ لا بدّ لها من التمسك بها وصولاً إلى بر المعرفة، يقودها صوتُ والدها الهامس في أذنها: «في طنجة، قد ترين العالم كله في لمحة عابرة، وقد لا ترين شيئاً على الإطلاق... الأمر كله يعتمد عليك».

*

الجولة الثالثة:

محمد علي يجمع النقاط بتوجيهه لكمات دقيقة إلى خصمه، مستغلاً افتقاده للتركيز.

حملق في الأنوار الخافتة المنبعثة من مصابيح مشبّعة بدخان السجائر وروائح التبغ الممزوج بالحشيش، ثم تقدّم بخطوات متثاقلة نحو طاولةٍ في الزاوية، قريباً من جهاز التلفاز القديم. تبعته نظرات مُرتادي المقهى: مغاربة بجلابيب مختلفة الألوان، عجوز أشقر بدا غارقاً في أفكاره، امرأة هيبية بشعرٍ أشقر طويل. لكنه لم يهتمّ بنظراتهم؛ وقد بدا مشغولاً بتأمّل المكان بقدر لا يخلو من التعالي.

اسمه تيودور لانسر، وإن كان يعجبه الاكتفاء بلقب تيد. لا يدري إن كان وصف الكاتب الأميركي الشهير منطبقاً عليه حتى الآن. فقد عُرف لبعض الوقت بروايات أثارت جدلاً واسعاً في الستينيات، تمحورت كلها حول التمرّد والجرأة وانتهاك كل الممنوعات.

لكن ما يشتهر في الولايات المتحدة بسرعة الصاروخ، يخبو ويقذف به في غياهب النسيان بسرعة البرق. لذلك، انتبه هو للأمر بسرعة، وهرب من ضغوط الصحافة والنقاد، بسياط التكرار وجفاف القريحة، قبل الإجهاز عليه بمطرقة التجاهل.

اختار طنجة تحديداً؛ مدينة سمع عنها الكثير من الحكايات: فهي ملتقى التائهين، وبوابة ما يتخيله شرقاً. سحرته فكرة الاحتفاء بالحياة

كما تُعاش، بلا قيود تذكر، واستهوته صور المشاهد الاستشراقية التي رسمتها مخيّلته مسبقاً. ومنذ أتى، انغمس في الملذات التي وفّرتها له المدينة، ومغامرات التسكّع في المقاهي الرخيصة، لرؤية وتجربة كل ما قد يتبادر إلى ذهنه.

لم يرَ في أهل طنجة سوى خلفية شاحبة لروايةٍ لم يُنهها بعد. لم ينظر إليهم بوصفهم أشخاصاً من لحمٍ ودم، بل أبطالاً في مسرحيةٍ شرقيةٍ قديمة، مهمّتهم تأدية دور الإمتاع أمام عينيه. ولطالما كره فترات الهدوء، عندما يتبدّد دخان الحشيش مختلطاً بزحمة كلماتٍ دارجة لا يفهمها بالكامل.

ساعتها فقط، يشعر أنّه دخيلٌ على عالمٍ لا يعنيه حقّاً...

تقدّم إليه طفل مغربي، يرتدي أسمالاً، ويتكلم بإنجليزية متكسرة مضحكة، سائلاً إياه عمّا يرغب في تناوله. طلب تيد فنجاناً كبيراً من القهوة الأميركية، وهو يعلم جيداً أنها غير موجودة. ولمّا رد الطفل باستغراب عن الشاي المغربي والقهوة السوداء العادية وبعض المشروبات الغازية فقط، هزّ الكاتب كتفيه بلا مبالاة، مكتفياً بقهوة عادية.

التفت تيد نحو الشاشة، مطلقاً ضحكةً قصيرةً لا تخلو من استهزاء. قال بصوتٍ خافت مع نبرةٍ يعلوها الاحتقار: «عراكٌ بين رجلين من أصلٍ إفريقيّ...لماذا كل هذه الضجة إذن؟». نظر إلى المباراة بوصفها «عنفاً بدائياً» لا يفهم المتحمّسون غيره، مرتاحين لعودتهم إلى عصور بالية حارب فيها مصارعون بعضهم بعضاً حد الموت، لا لشيء إلا لتسلية الجمهور.

أي رمزيةٍ إذن في «نضال» محمد علي أو في قيمته لدى الأميركيين الأفارقة والمقهورين في العالم بأسره؟

حوّل بصره إلى أصحاب الجلابيب المتحلقين حول التلفاز. ابتسم

ساخراً، مقلّباً في ذهنه الخطوط الأولية لرواية مقبلة، يضع فيها هؤلاء الرجال كأدوات في حبكةٍ ما. لطالما استهواه إلباسهم ثوباً محدداً، يمنح نظراتهم وتعابير وجوههم بعداً كئيباً، لا يشي سوى بالذهول المستمر والغباء.

التعرّف إلى حياتهم أو مشاكلهم الاجتماعية والاقتصادية؟ لا يعنيه ذلك كثيراً. المهم أن تبقى طنجة كما تخيلها، أو بالأحرى أقنع نفسه بالصورة التي صنعها لها: أزقة ضيقة ملتوية، رجال فاغرو الأفواه، ونساء فاتنات لا تظهر أعينهن إلا من وراء الحُجب، رغم أنّ للمدينة واقعاً مختلفاً قد لا يناسبه الاعتراف بوجوده.

لفت نظره، غير بعيدٍ عنه، حوارٌ قصير بين الشقراء والطفل الذي أعاد تلقيم أنبوب السبسي بعدما استسلمت هي لنوبة سعال. راقبها تيد بنظرةٍ متفحصة، وقد وجد فيها تجسيداً مزدوجاً لإثارةٍ جنسيةٍ ونزعةٍ تحرريةٍ، أعادت إليه ذكريات شبابٍ متمرّد في بروكلين.

همس لنفسه: «الهيبيّون حفنة من المدللين الأغبياء، يعتقدون أنّ المخدرات ستُسعفهم على إيجاد سلام داخلي مفقود، هراء...». دون أن يمنعه هذا من إجبار عينيه على مراقبة حركاتها وانحناءات جسدها بفضول شهواني.

أوشك على مناداتها بلطفٍ مصطنع، لكنّه تراجع، مفضّلاً الاكتفاء بمراقبتها، والتلذّذ بصورة انفصالها التام عن الواقع. ثم رفع فنجان القهوة إلى شفتيه، متذوّقاً مرارة القهوة السوداء بازدراء بالغ.

على مرمى بصره شابٌ مغربيٌّ، تبدو عليه علامات الاضطراب، يلتفت حوله بين الحين والآخر، كأنه يبحث عن شيءٍ ما. أو يتردّد في مخاطبة أحد. لم يغفل تيد نظراته المترددة نحوه. فأيقن أن الشاب يسعى للتقرب منه.

قال في سرّه: «أيظنني باب عطاءٍ مفتوحاً. حسناً، لقد اعتدت على هؤلاء المتسولين». ثم ابتسم نحوه مشجعاً، كأنما يدعوه للتقدم نحوه.

كبّل الحماس أعصاب المغاربة الجالسين حول التلفاز، مركزين الأنظار على محمد علي بحركاته الراقصة في الحلبة، مقابل جورج فورمان المتحفز لتوجيه لكمات قوية يتلقاها محمد علي على ساعده.

تعالت ضجةُ الجمهور فجأة عندما بادر فورمان بهجومٍ مباغت، وكاد الطفل يقفز صارخاً: «علي يا علي!»، لكن محمد علي تمكن من تفادي اللكمات.

العالم ليس بخير أبداً: ما معنى أن يتحول محمد علي إلى أيقونة تتجاوز الحدود الأميركية، فيما يحكم على مسيرتي أنا بالتقهقر والأفول؟

في خضمّ الصخب والضوضاء، التقت عيناه بعينَي العجوز الأشقر الجالس في ركنٍ مظلم. أحسّ بأنّ هالةً من الحزن أو الخوف تحيط به، وأخذه الفضول للحظةٍ كي يتساءل عن قصته، وسرعان ما تجاهل الأمر، معتبراً إياه كائناً آخر يؤثث خلفية مشاهد طنجة الليلية.

لا يدري كيف تسللت رائحة البحر المالحة التي تهبّ مع نسيمٍ شتويٍّ خفيف إلى أنفه، في مكان يكاد سقفه ينهار من وطأة سحابة الدخان، لكنه زفر في ضيق، ملامساً في ذلك النسيم، حقيقياً كان أم وهمياً، ما يستنهض ضميره الغافي. لطالما أراد هذه المدينة حلبة متعة وانعتاق، لكنها تصر بين الحين والآخر على التأثير فيه بما يشبه مرايا عاكسة؛ تذكّره بانطفاء نجمه، وانتهاء سنوات شبابه المتمرد، وعجز إقامته الطويلة في المدينة عن الإتيان بروايةٍ جديدةٍ تُحقّق ضجة يستعيد بها ألقه.

فكر في المغادرة والعودة إلى بيته. سيصبّ لنفسه كأساً، ويواصل السهر. محاولاً كتابة بضعة أسطرٍ في الرواية التي لم تتضح معالمها بعد.

وفي الصباح، عندما تشرق شمس يوم جديد على أسوار طنجة القديمة، سيستيقظ متأخراً كعادته، منهكاً، ليجد نفسه غارقاً في دوّامةٍ لا قرار لها من الملل وتكرار الملذّات. مواصلاً في الآن ذاته سخريته من كل ما لا يشبهه، وناظراً بعين الاشمئزاز إلى كل ما يرى فيه دونية لدى الآخرين.

وعلى رأسهم ربما هذا الشاب الذي توشك عيناه المتوسلتان على إقناعه بالبقاء...

*

الجولة الرابعة:

جورج فورمان يواصل ضغطه على محمد علي، الذي يباغته بلكمتين خاطفتين.

طوى ميلوش سيجارته الرخيصة، وألقى بعقبها على الأرض، حيث تراكم رماد سجائرَ لا تُحصى. تطلّع إلى وجوه الحاضرين في المقهى بنظراتٍ حادة: مجموعة من المغاربة متحلقون، تشرئب أعناقهم نحو التلفاز بتركيزٍ كاملٍ، ويتابعون نزالاً في الملاكمة. كاتب أميركي لطالما رآه في أكثر من مكان، ولّت أيام شهرته دون أن يتخلى عن غروره الفارغ. صبي يروح ويجيء بين الطاولات، يناول الشاي والقهوة، متحركاً بخفة عجيبة. وشقراء هيبّية متهالكة على كرسيٍّ في الجانب الآخر، تسبح في عالم يخصّها وحدها.

اعتاد ميلوش إشباع فضوله دون إبداء نية واضحة في التلصص. لطالما أجاد الموازنة بين مراقبة الأشخاص وبين إظهار انشغاله بأمر آخر، كفرك أصابعه أو تقليب أوراقه أو التظاهر بالشرود.

وفي لحظةٍ خاطفة، استقرت عيناه على أشقر مسنٍّ يعتزل الجميع. تميز وجهه تجاعيد عميقةٌ، ونظراتٌ قلقة. بدا كمن عاش قصصاً ثقيلةً لا يجرؤ على البوح بها.

أدرك ميلوش أنّ هذا الرجل هو هدفه المنشود؛ فواصل مراقبته بطرف عينه، منتبهاً إلى أن الأشقر يخفي بين طيات معطفه شيئاً ما: ملف

أو دفتر أو ربما المخطوط القديم، موضوع الصفقة المنتظرة.

تداخلت شظايا الأفكار في رأس ميلوش. يعلم جيداً أن بعض الأوروبيين القدامى اختاروا طنجة للاختباء من ماضٍ مُريب، أو من عدالةٍ لم تتحقّق، أو حتى للتجارة في كل ما لا يمكن بيعه في الأسواق الظاهرة، مثلما يفعل هو بالضبط. وارتفع منسوب الشكّ بتذكّره صيت المدينة التي استضافت على مدار عقودٍ أنماطاً من السياسيين الفارّين والجواسيس السابقين وتجار الآثار النادرة.

على مدار سنوات، انتقل بين عدّة بلدانٍ أوروبية شرقية وغربية، تاجر في أغراضٍ لا تخطر على بال: ذهب مسروق، كتبٌ نادرة، قطع أثرية مزوّرة، وثائق رسمية مزيفة، وحتى المخدرات إن تطلب الأمر. يظنونه رومانياً لكنه ليس كذلك. لا شأن له بخلفيات أو دوافع من يتعامل معهم؛ فالأهمّ عنده هو الربح السريع والمضمون. وعندما بلغته أخبار ازدهار السوق السوداء في طنجة، انسلّ إلى المغرب بجوازِ سفرٍ مزيّف، وحرك شبكة اتصالاتٍ هامشية.

بمرور الوقت، تشكّلت لديه قناعة أنّ في طنجة مَن يخفون كنوزاً من الوثائق والمخطوطات، ويرغبون في تصريفها بأعلى سعرٍ ممكن. قد يكون بعضها ذا قيمة تاريخية أو فنيّة كبيرة، وبعضها مجرد مقتنياتٍ تافهة يتوهم بعض المبتدئين أنها تساوي الملايين. لكنّ مكر ميلوش وحنكته مكّناه من تجنّب السقوط في فخ أي صفقة خاسرة.

تظاهر ميلوش بالاهتمام بنزال الملاكمة، لكنه حوّل انتباهه نحو الأشقر المسنّ. لا يمكن للقاء أن يتم مباشرة وبسرعة هكذا، فقد يتراجع الآخر بسرعة وحذر. لاحظ في حركة يد العجوز رجفة طفيفة، وكأنّ توتره يتضاعف كلما علا صخب الحاضرين في المقهى. فاستنتج

بسهولة أن الرجل يخشى مطاردة ما، أو تمكن أحد ما من التعرف على هوية حقيقية يخفيها.

توقف بث المباراة للحظات، إثر تشويشٍ ما على إشارة التلفاز، فارتأى ميلوش أنها الفرصة المناسبة للتحرك. أشعل سيجارةً جديدةً، واقترب من طاولة الأشقر بخطى مدروسة، ملقياً تحية سريعة باللغة الإنجليزية، وبلكنة واضحة. ردّ العجوز برفع رأسه قليلاً، ثم أومأ دون حماس. قال ميلوش بنبرةٍ خافتةٍ: «مباراة حماسية، أليس كذلك؟». لم يبدُ العجوز مهتماً بالرد، متمتماً بكلماتٍ متقطعةٍ وهو ينظر حوله.

انتبه ميلوش إلى الملف الجلدي البارز خلف معطف العجوز. فركز نظره على هدفه: قد تكون بداخله خرائط قديمة، رسائل، مخطوطات دينية أو تاريخية، تُباع في السوق السوداء بسعرٍ باهظ. فما أكثر المسروقات المهربة التي يجدها قادمون من أوروبا في مناطق نزاعات وحروب، آنية أم قديمة، ولا تقدر قيمتها بثمن.

استعان ميلوش بخبرته في اقتناص زبائنه. وحاول الخوض في مواضيع عامة: أجواء طنجة، وتعاطي الأدباء والفنانين مع خصوصيتها، ودس بعض المصطلحات الرنانة كـ «الجمال المستتر»، و«أشعة الشمس الذهبية» و«ملتقى القارات والحضارات»، لعله يظهر بمظهر المثقف العارف. لاحظ أنّ الأشقر يتجاوب معه بكلمات قصيرةٍ جافة.

تشجّع ميلوش قائلاً: «ما الذي يحتويه هذا الملف؟ لا تقلق، أنا أسألك فقط، وإن كنت تطلب ثمناً للجواب فلا مانع لدي...».

برز توترٌ مفاجئ في ملامح الرجل، فأدرك ميلوش أنه أصاب الوتر الحساس بدقة. سحب الأشقر الملف من معطفه، وكأنه يعتصم بحقيبة أسراره. ومع ذلك، لم ينكر. قال بصوتٍ متقطّع: «ربما... لكن لا رغبة لي في التفاوض، حالياً على الأقل».

ابتسم ميلوش في أعماقه. رأى في هذا الامتناع أول مدخلٍ لمساومةٍ قد تثمر لاحقاً. لم يشأ الإلحاح مفضّلاً ترك الفكرة، ريثما تتخمّر في ذهن العجوز المتوجس. مكتبة سُر مَن قرأ

تضاعف انفعال المشاهدين مع تطورات المباراة، ومباغتة محمد علي لخصمه ببعض اللكمات السريعة. لم يبدُ الأميركي مكترثاً، بقدر ما كان ساخراً من انفجار هذا الحماس. فيما لاحظ ميلوش انفراج شفتي الهيبية بكلماتٍ غير مفهومة، لربما شاركت الجمهور سعادتهم على طريقتها.

وسط هذه الضجة، التفت ميلوش إلى الأشقر قائلاً بابتسامةٍ هادئة: «أعرف زبائن مهتمّين بكل ما هو قديمٌ ونادر. كتب، مخطوطات، وثائق... إن تسنّت لك الرغبة في السماح لي بإلقاء نظرة، فأنا مستعد».

اكتفى العجوز بنظرة واحدة، رد بعدها بهمس هو أقرب للتحذير: «اتركني وشأني. لا رغبة لي في ذلك الآن».

اختلطت ضحكات ذوي الجلابيب بالتصفيق، وقفز الطفل في الهواء كمن يتمنى إسناد محمد علي في سعيه لإسقاط فورمان. فتطاير بعض الشاي من فوق الكؤوس بفعل الحركة المفاجئة.

تراجع الأشقر في مقعده متوتراً. بدا لميلوش أنّ انكشاف العجوز أكثر من ذلك يهدّد راحته أو حتى رغبته في مناقشة العرض، فقرأ الوضع بسرعة: لا داعي للضغط عليه أكثر. ففي هذه الصفقات المراوغة، يحتاج الطرفان إلى جلسةٍ أخرى هادئة، وبعيدة عن أعينٍ فضوليةٍ وأنوف لا تندس إلا في كل ما لا يعنيها.

اعتذر ميلوش عائداً إلى مقعده، دون أن يتخلى عن مراقبة مشروع صفقته الجديدة بصمتٍ محسوب.

سأجد سبيلاً للقاء هذا الأشقر ثانيةً. ستعيده دروب طنجة وأزقتها إليّ، إن كان ما يحمله ذا قيمة فعلاً...

اتّسعت ابتسامته على نحوٍ لا يراه أحد في عتمة الضوء الخافت، ثم استجمع شتات أفكاره ورتب في ذهنه مواعيد غامضة أخرى تنتظره في اليوم الموالي.

هو يدرك تماماً أنّ طنجة مدينة التخفي واللقاءات السرية؛ سيجد طرقاً ويتواصل مع الوسطاء من جديد قبل خوض جولة إقناع ثانية مع العجوز الحذر، فليس هناك كنزٌ أفضل في نظره من مخطوطاتٍ أصليةٍ تُهرّب تحت جنح الظلام إلى تجارٍ أثرياء.

وما دام موجوداً هنا، فإنّ الصفقات لن تنضب، والفرص في انتظاره دائماً، طالما واصلت هذه المدينة عزف لحنها الخاص، بين الأمل والخداع؛ ولا أحد غيره يتقن فن التمييز بينهما...

*

الجولة الخامسة:

تراجُع حدّة لكمات جورج فورمان، وميل النزال عامة إلى التوازن.

بدا ليلتها وكأنه بعمر رجل نضج على عجل. يجول بين الطاولات بخطواتٍ رشيقة، بيدٍ ترفع صينيةً عليها كؤوس الشاي، فيما تمسح اليد الأخرى حبات عرق على جبينه. تتابع العيون المتلألئة للحاضرين تفاصيل نزال محمد علي وجورج فورمان، فيما عيناه هو تحللان حركات محمد علي بإعجاب مَن يشاهد حلماً شخصياً تسنى له أخيراً أن يُترجَم على الشاشة.

بخطواتٍ سريعة لكنّها حذرة، راح يتنقّل بين طاولات زبائن المقهى المعتادين، بالإضافة إلى عجوز أشقر انزوى في ركنه، وأجنبي آخر معتدّ بنفسه ويرتدي معطفاً وقبعة، وشابة هيبية لافتة بشقرتها ونحافتها، ورجلٍ بدين وقصير القامة بملامح مُريبة، وشابٍ مغربيٍّ قلقٍ يحدّق في الفراغ.

وبين جولةٍ وأخرى في خدمة الجميع، يختلس ثوانيَ خاطفة لإلقاء نظرة نحو التلفاز، لكنه يُطيل تدقيقه في تحرّكات محمد علي الرشيقة، مردّداً في قرارة نفسه: «سأصبح مثله يوماً ما...».

يحدث كل هذا فيما يحمل الصينية، موزعاً الطلبات بدقة. فيما تنبعث هتافات التشجيع متقطعة؛ بعضهم يصرخ بحماس كلما تقدّم

محمد علي نحو فورمان، فيما يزفر آخرون بخيبةٍ مع تراجع بطلهم أو تلقّيه لكمة قوية.

اسمه أيضاً علي، أطلقه عليه أبٌ غائبٌ، رحل إلى حيث لا يدري أحد، ليجد نفسه يتيماً مع وقف التنفيذ: لا أثر لوالده، ولا يكاد يتذكر حتى ملامح والدته، بعدما انتقل للعيش مع عائلةٍ متواضعة في الدرادب، تمنحه المأوى، وتسخّره في المقابل لمزاولة أعمالٍ متعددة قصد تأمين المال. ما بين بيع المناديل، وتنظيف أحذية المارة في الأزقة، والتنقل بين محلات البقالة وربات البيوت. يحمل حقيبة مدرسيةً رثة صباحاً، ويلتحق بالمقهى مساءً لمضاعفة دخله. ومع حلول الظلام، يمضي ساعاتٍ إضافيةً في تلبية حاجيات الزبائن الساهرين.

مذ عرف علي اسم كلاي، وهو يرى في ذلك الملاكم الأسطوري تجسيداً لحلم راوده بملامح غامضة.

«صار محمد علي بطلاً وهو الأسود القادم من خلفية فقيرة. لِمَ لا أنجح مثله؟» هكذا يفكّر محاولاً تقليد حركات بطله الراقصة في خياله.

يرسم في ذهنه لحظةَ دخوله إلى حلبةٍ في مكان ما، تسلط عليه الأضواء وتحيطه هتافات الجمهور؛ وهو يلوّح بقفّازيه بجرأة...

لكنه سرعان ما يصطدم بقهر الواقع: لا وقت للتدرب، ولا مال لديه حتى لسدّ رمقه، فما بالك بشراء قفازاتٍ أو حذاء رياضي محترم، أو العثور حتى على مكان مناسب ليتمرن.

تسربت رائحة البحر، مع نسمات خفيفةٍ شقت طريقها عبر الباب المتهالك للمقهى. وكلما اقترب منه علي ارتجف قليلاً من البرد، فيعود إلى حركاته النشيطة والسريعة لبث الدفء في أطرافه واستغلال امتلاء المقهى بمتابعي النزال للاحتماء بذلك الدفء البشري الخالص،

متحاشياً إثارة غضب زبون أو حنق صاحب المقهى، متجاهلاً في الآن ذاته ضغط سحابة الدخان التي توشك على تدمير رئتيه الصغيرتين.

عاد تشويش التلفاز لإزعاج المتفرجين، فاستغلّ علي الفرصة لاعتلاء طاولة وضرب التلفاز بلطف لعله «يتوب إلى رشده». توقف لحظةً أمام الشاشة، محدقاً في صورة محمد علي وهو يتلاعب بخصمه بحركاتٍ راقصة مستفزة، هامساً: «يا لها من براعة... في يومٍ ما...».

لكن الزبائن الغاضبين قاطعوا شروده بصراخهم وأوامرهم له بالابتعاد عن الشاشة التي يغطيها برأسه، فقفز من الطاولة بسرعة، حريصاً على تجنب إفساد مزاج الحاضرين، ممّن قد يجودون عليه بدراهم إضافية.

أحياناً، يفضل الليل المدلهم والطقس المتقلب إجبار معظم الزبائن على الاحتماء ببيوتهم، فيجد علي نفسه مضطراً لمزاولة أعمال قد تكون مشبوهة أحياناً: إيصال «بضاعة» ملفوفة إلى زائرٍ أجنبي، أو تمرير رسالةٍ غامضةٍ إلى رجلٍ قد يتواجد في حانةٍ قريبة.

يعلم جيداً أنهم يستغلون طفولته وبراءته لمزاولة أنشطة تهريب صغيرة، أو إيصال برقيات سرية غير مفهومة، وما كان له أن يتجرأ أبداً على الرفض. فمن أجل المال، لا ضير في تنفيذ كل الأوامر...

كلّما زاد احتكاكه بعالم المقهى والغرباء، اكتشف أن الحياة أشدّ تعقيداً ممّا قد يحتمله عقله الصغير. فهنا تختلط جنسياتٌ وأسرار. واليوم حضر غرباء غير مألوفين، يحيا كل منهم في حيزه الصامت.

وجّه محمد علي لكمة لفورمان كادت تُفقده توازنه، فتعالت صيحات الحاضرين وتفاعلهم العميق مع اللقطة، مطالبين كلاي بالمزيد. تحولت رجفة برد الطفل إلى رعشة لذة، وكأن تفوّق بطله يسري في عروقه، كإنجازٍ شخصي.

مع كل صيحةٍ صدرت من متابع أو تعليق تلفّظ به أحدهم، غاص هو أكثر في حلم يقظة، حيث يهمس محمد علي في أذنه: «ثابر، وسيكون مستقبلك أفضل مني بكثير...».

ثم ينتزعه الواقع من خيالاته: ما زال مجرد فتى نحيل، لم تعرف معدته الشبع إلا لماماً. يجوب المقهى لجمع الكؤوس الفارغة. سيعدّ بعد نهاية النزال حصيلة ليلته من دراهم إضافية، واعياً أنّ حياته لن تتغيّر فجأة. ما إن يغادر المقهى حتى يجد الشارع نفسه بانتظاره، ليعود لاحقاً إلى بيت ضيّقٍ لا يكفي قاطنيه، وبالكاد يجد له فيه مساحة صغيرة يتكور فيها كقط، باحثاً عن سويعات نوم لم تكفه أبداً، لتنتظره في الصباح مدرسة يضطر للتهرب منها أحياناً ليدبّر مصروف يومه.

عاد بصره من جديد إلى الهيبّية الشقراء التي طلبت منه مساعدتها على تجربة تدخين الكيف. تعالت رائحة الحشيش حتى خيّل إليه أنها تشكل ما يشبه الهالة حولها. كانت تضع على عنقها قلادة خشبية. عيناها شبه مغمضتين، تتراقصان على وقع هدوءٍ خاص، كأنها تسبح وحدها في عالمها الموازي.

بدت بهيئتها الفريدة وشعرها الأشقر الفوضوي أشبه بلوحةٍ غربية خطفت فضوله، فانعطف نحوها متردداً. حدّق في الدخان الرمادي المتصاعد، وتسارعت ضربات قلبه متسائلاً في قرارة نفسه إن كانت تريد شاياً، أم تركها وشأنها فقط.

هزّت رأسها أخيراً مغمغة بلغة لا يفهمها، قبل أن تضيف بدارجة مضحكة: «أتاي» فالتقط الكلمة وابتسم.

ما إن وضع كأس الشاي أمامها حتى التفت صوب الأجنبي صاحب المعطف، ليكتشف أنه يصوب نظرات مريبة نحوه، وكأنه يفكّ شيفرةً ما أو يتفحّصه بحثاً عن سرّ. شعر الطفل بتلك الوخزة غير المريحة في

صدره؛ لا يحب أن يحدّق إليه أحدٌ بهذا الشكل، خاصة عندما أضاف الأجنبي إلى نظراته ابتسامة لزجة مزعجة.

تحاشى علي نظراته، وواصل تنقّله السريع بين الطاولات، متجاهلاً أوجاع الحياة الصغيرة، وحازماً أمره على مواصلة التشبث بأحلامه.

سينتصر بطله، هذا مما لا شك فيه، وسيغادر المقهى في العتمة المنكسرة على ضوء المصابيح الصفراء القديمة، وسيجد نفسه مجدداً في مواجهة واقع يفرض عليه الاستمرار في الركض خلف فرصٍ مبهمة، تُبقيه على قيد الأمل.

لكنه، وفي ومضة يقين خاطفة، خاطب نفسه: «سيأتي يوم وأقف في حلبة تخصّني، وسيهتف الجمهور باسمي، مثل كلاي...».

*

مكتبة
t.me/soramnqraa

الجولة السادسة:

يبحث فورمان عن فرصة لتوجيه ضربة قاضية لمحمد علي، الذي يواصل استنزاف خصمه.

لم يكن سالم شغوفاً بالملاكمة حقاً، ولم يهتم كثيراً بمعرفة أي تفاصيل عن النزال التاريخي الذي تجري أطواره في كينشاسا، بل إن الدخول إلى هذا المقهى لم يكن أصلاً في حساباته...

لكنه تيد، تيد لانسر، الكاتب الأميركي الشهير، من يشغل باله ويدفعه إلى ترصد خطواته واللحاق به أينما ذهب.

قرأ الكثير عن الرجل الذي اختار طنجة مقراً جديداً لإقامته وإبداعه. تخيّل نفسه جالساً بقربه، يجمعهما حوار عميق عن الكتابة والأدب والمعاني الوجودية، يتفحّص بعده تيد مسودة سالم قائلاً بصوتٍ ملؤه الثناء: «يا لها من موهبةٍ فذّة!».

الشهرة والتألق في سماء الأدب، هذا ما يتوهّج في ذهن سالم أكثر...

يبلغ الثلاثين من عمره تقريباً، طويل القامة نحيل البدن، يحمل حقيبةً جلديةً عتيقة، يضع فيها نسخة جيب مهترئة من رواية **الصخب والعنف** لوليام فوكنر، ومسوداتٍ رقنها بضربات متتالية ومرتعشة على لوحة مفاتيح آلة كاتبة عتيقة. وبدلاً من ارتشاف الشاي ومتابعة جولات نزال محمد علي وجورج فورمان مثل بقية مرتادي المقهى، التزم

الصمت، مكتفياً بالتهام وجه الأميركي بنظراتٍ فاحصة، متحيّناً اللحظة المناسبة والمنتظرة للاقتراب منه.

بدأ سالم محاولاته الأولى في الكتابة منذ سنوات. استلهم عالم الروائيين الكبار الذين سكنوا طنجة فترةً من الزمن. قرأ سِيَر وإبداعات كتابٍ غربيين اتخذوا من هذه المدينة مكاناً للعيش والكتابة والهروب من قيود بلدانهم، وترسّخت في ذهنه فكرةٌ واضحة:

وحدهم هؤلاء مَن يملكون مفتاح الشهرة الأدبية، خاصة الأميركيون من ذوي النفوذ في دور النشر الكبرى...

انزعج كثيراً عندما صدرت العام الماضي بالإنجليزية رواية ألّفها مغربي، يراه هو فاقداً لأدنى مقومات الموهبة والخبرة، لكنها أحدثت ضجة ضخمة دفعت به فوراً إلى أضواء العالمية.

تساءل في قرارة نفسه: لماذا يصر هؤلاء الأميركيون على احتضان حكائين شبه أمّيين، لا مقومات ولا خبرات أدبية حقيقية لديهم، ويتجاهلون مواهب حقيقية مثله؟

أليس الأجدر بهم الالتفات لموهبته هو؟

إنه يكتب بفرنسية أنيقة، وبأسلوب عذب يستلهم روح فلوبير وبلزاك وبروست، كما أن اطلاعه الثقافي الواسع مكّنه دوماً من ابتكار حبكات أصيلة، ورسم شخصيات وأحداث غير متوقعة.

فلماذا يكابد حتى الآن قسوة التعثر والفشل؟

الحل إذن في لقاء مع كاتبٍ أميركي شهير مثل تيد، قد يفتح له أبواب دور النشر العالمية، أو يعبر به المحيط نحو آفاق المجد.

لكنه يدرك أيضاً أن المسافة بينه وبين ذلك الأميركي شاسعةٌ، فمن المعروف أن تعالي تيد وعجرفته مما لا يطيقه أي كان. غير أنه لم يعدم تدبير الخطط لمحاولة التقرّب منه.

سيعرض عليه مسوّدته الأولى، أو يقدّم له نفسه بوصفه مترجماً متعاوناً قادراً على مساعدته في فهم المجتمع المحلي، أو ينفّذ له طلباتٍ خاصةً إن أراد، أيّ شيءٍ من شأنه كسر الحاجز بينهما.

التف روّاد المقهى بحماسٍ حول التلفاز القديم المعلق، ومنهم من يهتف بحيوية: «اهزمه يا علي، هيا...»، فيما يتحرك بينهم طفل نشيط يجمع الأكواب بخفة وحذرٍ. وفي الخلف، يجلس عجوز أشقر منعزل، يبدو مسكوناً بالقلق والتكتم، ورجل بدين قصير القامة، يُحرّك بؤبؤي عينيه في مكر، بوجود سائحةٍ أوروبيةٍ شقراء بتجليات الهيبيّين.

مكّنته عينه الخبيرة من تفحّص هذه النماذج البشرية، لربما أوحت له ببناء شخصيات روائية، لكنه ليس في مزاج مناسب لذلك الآن...

بدا تيد ممتعضاً من كل ما يحيط به، فأدرك سالم أن هذا التأفف الواضح سيفسح له مجالاً للتدخل، لعله يعرض مساعدة ما.

عندما مرّ الطفل بالقرب منه، وقدّم إليه كأس الشاي، التقطه بنصف انتباه، منشغلاً أكثر بهدفه. فتح حقيبته القديمة، وأخرج أوراق مسوّدته الملطخة بعلامات وكلمات وفقرات وسطور أضيفت بقلم حبر أزرق، وظل يتصفّحها، وكأنه يراجع صفحات ينوي مشاركتها مع لانسر.

بعد تردّدٍ بسيط، ونظرة بدت له مشجعة من الكاتب الشهير، نهض من مكانه وتوجّه نحوه بخطواتٍ حائرةٍ.

قال سالم بإنجليزية سليمة، وبصوتٍ خافتٍ أقرب للهمس: «مرحباً، سيدي... هل تسمح لي بالجلوس؟».

رفع الكاتب عينيه، حدّق في سالم ببرودٍ، ثم هزّ رأسه: «اجلس».

تصاعدت دقات قلب سالم، وهو يلتقط الكرسي ويجلس بحذرٍ مقابل رجل أيقن أنه جسره نحو الشهرة المنشودة. بادره بالسؤال عن رأيه في طنجة وأجوائها، لكن الأميركي أبدى تبرّماً واضحاً، وكأنّه يكره

المدينة ومَن فيها. وبدل أن يُبدي تحمساً لتجاذب أطراف الحديث، اكتفى بقوله: «مدينة صاخبةٌ، مرتع أوهام، تماماً كما توقعت...».

تجنّب سالم إظهار انزعاجه، واستعجل الكلام عن شغفه بالأدب والكتابة قائلاً: «أنا كاتبٌ أيضاً... يشرفني أن أعرف...رأيك».

باغته الكاتب بنظرةٍ حادة، قال بعدها باستهزاء متعمّد: «كاتب؟ في هذه السن؟ ماذا كتبت؟».

أوشك سالم على استعراض أوراقه، لكنه شعر ببرودٍ غامض يغلّفه، فتردّد.

التوقيت غير مناسب ربما، كما أن هذا المقهى الصاخب هو آخر مكان يصلح لتجسيد اللحظة المنتظرة، بعرض مسوّدة الرواية التي كلّفته وقتاً وجهداً عظيمين، على عرّابه المستقبلي.

لكنه مقتنعٌ أنّ هذا الرجل بالذات يحمل مفتاح تحقيق أحلامه. ستعجبه الرواية فيتوسط له عند دور نشر مرموقة في نيويورك. ولا بأس بالاكتفاء بدايةً بمجلات أميركية عريقة، تنشر بعض قصصه القصيرة.

وبما أن الوعود لا تُصان إلا بدافعٍ، فقد خالجته فكرة استعداده لتقديم أي خدمةٍ يطلبها عرّابه المستقبلي، الباحث غالباً عن اكتشاف المزيد من أسرار مدينة ربما لم يعجبه وجهها الظاهري المألوف.

في تلك الأثناء، علت صيحات المتفرجين؛ فقد تبادل محمد علي وفورمان لكماتٍ قوية، وتعثّر فورمان للحظة، أشعلت حماس الجميع، فاهتزّ المقهى بصيحات وهتافاتٍ متداخلة.

تطلّع إليهم الكاتب الأميركي بلا اكتراثٍ، ثم التفت إلى سالم قائلاً بسخرية: «أغبياء...».

حاول سالم مجاملته، قائلاً: «محمد علي بطل معروف، إنه...»،

لكن الأميركي قاطعه: «مهما يكن، لا يهمّني أمره. أنا هنا للبحث عن الحرية، ولا شأن لي باقتتال العبيد...».

اقترح سالم بخجلٍ: «أعتقد أنك لم تتعرف بعد على كل جنبات طنجة وأسرارها. لعلك ترغب في رؤية أحياء المدينة ليلاً. أعرف مكاناً غير مألوف، يوفّر إطلالة ساحرة وملهمة على الميناء. كما يمكننا... يمكنني... توفير كل ما تبحث عنه».

بدا ارتباكه جليّاً، لكنّه أصرّ على التلميح إلى تمتّعه بقدرات ومواهب خاصة...

هنا رفع تيد حاجبه باهتمامٍ مفاجئٍ، وكأنه وجد ضالّته، إذ نظر إلى الشاب مليّاً، ثم قال بنبرةٍ هامسةٍ: «متأكد؟».

شعر سالم باقترابه من هدفه، وإن راوده شك بشأن طبيعة ما قد يطلبه، لكنه أومأ برأسه مؤيداً.

تعالت الهتافات من جديد، وقد بدا أن فورمان يستدرج محمد علي إلى فخٍّ تقنيٍّ يسبق الضربة القاضية.

وجّه تيد نظرات طويلة ومتعمدة إلى الطفل النشيط، الذي ضمّ قبضتيه في خوف وتفاعل أقرب للصوفي مع أحداث النزال، ثم التفت إلى سالم قائلاً بابتسامة مقيتة وغمزة سريعة: «مفهوم؟».

تراجع الشاب في مقعده بذهول واضطراب متمتماً: «كلا، مستحيل...».

لكن تيد لم يمهله: «اسمعني جيداً، قد لا أكتفي فقط بقراءة مسوّدتك هذه، بل يمكنني عرضها فوراً على وكيلي الأدبي، وهو سيتكفل بالباقي، ما رأيك؟».

تصبّب العرق من جبين سالم غزيراً، حتى خيّل إليه أنه يوشك على فقدان وعيه، وقد شعر بالخدر التدريجي يُغلّف رفضه الأول القاطع. فها

هي الأماني تأخذ شكلها الملموس المباشر، مع تحدّث الأميركي بلهجةٍ حاسمة.

لكنه لم يتخيل أبداً أن يكون طلبه بمثل هذه الخطورة...

يعلم جيداً أن تيد اشتهر بكتابات تخترق كل الممنوعات، كما عدد كبير من كتّاب جيله المتمرد، وهو ما أثار إعجاب سالم، المتبرّم من وضعه، والممتعض دوماً من سيطرة ما يراها تقاليد بالية على سلوكيات مجتمع يعتبره تجسيداً لأدنى دركات التخلف.

لكنه لم يفكر أبداً في اجتياز الحاجز الواضح والفاصل بين الإنسان والوحش...

حاصره الأميركي بابتسامته المخيفة، فبلغ اضطرابه منتهاه.

أجل، قد يدفع سريان إدمان الأضواء في العروق بصاحبه إلى البحث في أقذر الزوايا وأكثرها سواداً، لتبقى درجة يقظة الضمير الفيصل الوحيد في قرار التقدم بخطوة نحو المجهول...

*

الجولة السابعة:

تراجُع حدّة لكمات فورمان، مع تصاعد هتافات الجمهور في زائير: «علي، بومايي!».

أتى بعضهم من الأحياء القديمة القريبة، فيما حل آخرون بطنجة، قادمين من قرى الضواحي، لزيارة أقارب أو تصفية أعمال. جلس أكبرهم سنّاً وسط المجموعة، اسمه الحاج الطيب؛ رغم أنه لم يزر بيت اللّه الحرام بعد. رجلٌ في أواخر الخمسينيات، بلحيةٍ خفيفةٍ وعينين تشعّان حزماً، لطالما تمتّع بنبرةٍ مهيبةٍ تغلّفها الجدية في أغلب الأحيان. إلى جانبه رجلٌ نحيفٌ يرتدي جلباباً بهت لونه الأخضر، ينادونه بقاسم، رجلٌ يُكثر من المزاح دوماً. تحيط بهم مجموعة صغيرة من كهول في منتصف أو أواخر الأربعينيات من العمر، تميزهم فسيفساء جلابيب مختلفة الألوان.

تبادلوا فيما بينهم حديثاً خافتاً عن محمد علي. أبدى أحدهم اعتزازه بالبطل الذي أشهر إسلامه، فيما أشار آخر إلى رمزية سواد بشرته وتصدّيه للعنصرية والحرب في فيتنام، ما جعل منه نموذجاً لكفاحٍ عالميٍّ ضدّ الظلم والقهر. سمع ثالث الكلمتين الأخيرتين فلكزه، منبهاً إلى خطورة التفوّه بما قد يذهب بهم جميعاً إلى الجحيم المعلوم، فيما لجأ رابع إلى أسلوب التهكم للفت انتباه مستمعيه، وقلّد طريقة كلام كلاي في مؤتمراته الصحفية، منتزعاً ضحكاتهم الساخرة.

وبين كل جولةٍ وأخرى، أطلق هؤلاء الرجال تعليقاتٍ مزجت بين إعجابهم بمهارة محمد علي وخشيتهم من هزيمته أمام بطل اشتهر بقسوة لكماته؛ وكلما تعالت حدة الجدال، تدخّل الحاج الطيب ملوّحاً بيده: «ركّزوا على اللكمات بدل تضييع الوقت في الثرثرة!» مستدركاً في الآن ذاته: «لو أن ولدي مثل علي، ظل هنا ودافع عن كرامته وقضيته، عوض الهروب إلى الضفة الأخرى، لكان ذلك أفضل لنا وله...»، فأحس المتهكم أن الوقت ليس مناسباً لاستحضار حسرة الحاج المعتادة على ابنه المهاجر وقال بسخرية مدروسة: «اطمئن يا حاج، سيعود إلى طنجة بسيارة مرسيدس، وإلى جانبه ألمانية أو فرنسية بارعة الجمال، تحسن نسل أحفادك، شرط ألا تكون بضاعة مستهلكة، تنافس في نحافتها وغبائها تلك الهيبية الشقراء...».

انفجروا ضاحكين، فيما بدا مدخلاً أساسيا قبل الانتقال إلى النميمة المعتادة، ما دام المقهى حافلاً الليلة بوجوه غريبة حقاً.

تناقلوا الغمزات والتعليقات، وهم يراقبون بين الفينة والأخرى ذلك الرجل الأربعيني، الذي يرتدي معطفاً سميكاً وقبعةً أميركية الطراز: «يبدو كاتباً أو صحفيّاً...»، «لكنه يبالغ في غطرسته...»، «ما الذي أتى به إلى هنا؟»، «لهؤلاء مقاهيهم بل وأحياؤهم الخاصة، بعيداً عنا...»، «إنه جاسوس يعمل لمصلحة مخابراتهم، لعلهم يترصدون تحركاتنا بدقة...»، «وماذا سيكتب عنك في تقريره؟ أنك بطل العالم في تدخين الكيف؟»، «أعتقد أنه أحد هؤلاء الكتّاب الذين لا يأتون إلى طنجة إلا للكتابة عنا بسوء واحتقار...»، «المهم أنه يبدو أحسن حالاً من ذاك الأشقر العجوز الحذر. عجيبٌ أمره، ربما يعاني من خلل عقلي».

ثم حوّلوا نظراتهم إلى الشاب المغربي المتردد، والساعي للتقرب من الأربعيني. تذكّر أحدهم أنه سبق أن رآه متأبطاً تلك الحقيبة ذاتها،

في مكان قريب من المفوضية الأميركية، وقال: «من الواضحُ أنه يلصق نفسه بهذا الأجنبي بحثاً عن فرصة». فردّ آخر: «المساكين، يظنون أن مستقبلهم بيد الغرباء». هزّ الحاج الطيب رأسه وتنهّد: «لو أدركوا أنّ الأجانب يسعون خلف مصالحهم أولاً، لَوفّروا وقتهم وخصّصوا جهدهم لما ينفعهم أكثر». تحاشى معظمهم تذكيره بأن ابنه أيضاً سلك هذا المسار للرحيل، لكن أحدهم، ويرتدي جلباباً أزرق، أضاف بنبرةٍ هادئة: «الأمل وحده يكفي أيّاً كان للسعي وراء تحقيق أحلامه، المصيبة الحقيقية هي في استسلام شبابنا لليأس...».

أمّا الطفل الذي يمرّ بين المساحات الضيقة بخفّة، يلمّ كؤوس الشاي ويُعيد مسح أو ترتيب الطاولات، فقد نال نصيبه من أحاديثهم. رأوا فيه همّةً ونشاطاً يفتقر إليهما مَن يكبرونه سنّاً. علّق أحدهم قائلاً: «رأيتُه قبل ساعةٍ يقلّد حركات محمد علي، ويرفع قبضتيه كأنه في حلبةٍ حقيقية! لو وجد اهتماماً ورعاية، لربّما صار بطلاً حقاً». عندها رد قاسم بسرعة: «وسيكون نزاله الأول ضد الحسين صاحب المقهى...»، فضحكوا، قبل أن يتساءل الحاج الطيب إن كان يواصل دراسته، أم إنه تركها مثل عدد لا يستهان به من أبناء الحي. ليردّ ذو الجلباب الأزرق: «ما دام يعمل حتى الثالثة فجراً، فاللّه وحده يعلم كيف يشقّ طريقه...».

عادوا مرة أخرى إلى الأشقر العجوز. عندما قال أحدهم إنه صاحب بازار صغير، يعرض فيه ما يهوى السيّاح ابتياعه من طنجة. تناقلوا كلاماً عن جنسيته الألمانية، وهمس ذو الجلباب الأزرق متسائلاً عن سر بقائه في طنجة متوارياً منذ سنوات، وحيداً دون زوجة أو أبناء. ليردّ المتهكم فوراً:«وما شأنك أنت؟ هل تنوي تزويجه إحدى بناتك؟». فتدخّل الحاج الطيب بثقة: «هذا رجلٌ يخفي أسراراً. نظراته ممتلئةٌ خوفاً؛ كأنه يخشى مطارداً خفيّاً». جملة دفعت بخيالهم جميعاً إلى أقصى الحدود. مَن قال

إنه فارٌّ من جريمةٍ كبيرة، ومَن توقع متاجرته في الممنوعات، ومَن أكد تنفيذه لمهمة تجسّسية طويلة. دون أن يخلصوا إلى جوابٍ، وإن اتفقوا جميعاً على غموض ماضيه.

وبإشارةٍ مباغتةٍ من الحاج الطيب، تحوّلوا للحديث عن ذلك البدين القصير، الذي يطوف بنظراته في المقهى كمن يترصّد فريسة بعينها. قال أحدهم: «احذروا هذا الروماني الماكر، يقولون إنه قادر على بيع وشراء أي شيء». فأكمل قاسم بسرعة: «قد يشتري منك جلبابك القديم هذا بنصف ثمنه، ثم يعيد بيعك إياه بثلاثة أضعاف سعره». ضحكوا بينما يضيف ذو الجلباب الأزرق: «هو يفضل القدوم إلى هنا بين الحين والآخر. أتذكّر أنه حاول ذات يوم بيع خرائط قديمة لسائح أوروبي، مدّعياً أنّها من عهدٍ عتيق. من يدري؟ ربما باعه ورقاً لا تتجاوز قيمته ثمن فنجان قهوته!». ضحكوا بخفوتٍ، وبنبرة حذرة. فقد اعتادوا على وجود نماذج مماثلة، تتنقل بين أزقة طنجة ودروبها، للبحث عن ضحايا مفترضين.

في تلك الأثناء، تعالى صياح المعلّق التلفزيوني وصخب باقي الحاضرين: إنها جولةٌ حاسمةٌ، بدأت تظهر فيها أخيراً معالم تفوّق محمد علي. تناسوا الأحاديث الجانبية، ووقف بعضهم بحماسٍ مفاجئٍ، هاتفين بصوتٍ واحدٍ: «علي! علي!». حتى الحاج الطيب تخلى عن وقاره الظاهري، وبدا مشدوهاً بما يراه، رافعاً يده ومعلقاً بصوتٍ مبحوح: «هيا يا بطل!» فيما لوح قاسم بقبضته في الهواء مثل مشجعٍ عتيد.

طغى على الأجواء شعورٌ عارم بالتضامن مع محمد علي، الذي أخذ زمام المبادرة، مع اقتراب الجولة السابعة من نهايتها، وتدفق الحماس في عروقهم جميعاً، كلٌّ منهم يرى في علي جانباً من انتصارات مستحيلة، أو مؤجلة في أفضل الأحوال.

غيّبتهم تلك الدقائق عن عالَم السيّاح والهيبيّين والنصّابين والجواسيس المحتملين؛ فصاروا جميعاً خلف بطلٍ يجسد أحلامهم في لحظة المواجهة مع الواقع.

وجّه محمد علي لكمة قوية مباغتة إلى خصمه، كاد يسقط على إثرها أرضاً، فهدرت موجة تصفيق. التفت ذوو الجلابيب إلى بعضهم ببهجةٍ. هتف أحدهم: «ألم أقل لكم؟ لا أحد يهزم محمد علي، إنه منصور من اللّه!». ليردّ آخر: «للإنسان كلمته الفاصلة متى آمن بقدراته، فما بالكم برجلٍ يحوز أيضاً موهبة فائقة وإصراراً عجيباً». ويعلّق ثالث: «حتى لو كنت فقيراً، أو منتمياً لأقليةٍ مُضطهَدة، يمكنك بعزيمتك التغلب على كل متجبر». فقفز قاسم لإغلاق فمه بيده، وسط ضحكاتهم جميعاً...

*

الضربة القاضية:

بدا أنّ المباراة، بدخولها جولتها الثامنة، قد شارفت على نهايتها.

في الخارج، تراقصت أنوار الشوارع الخافتة، لتنعكس على وجوهٍ قلقة وأعينٍ مشدودة.

أما في المقهى، فقد بلغ الاندماج مع أطوار النزال منتهاه، إثر كلّ هجمةٍ من محمد علي ضد خصمه. وعندما سقط فورمان أخيراً، تحت وقع ضربة كلاي القاضية، تعالت صيحات الفرح وهز الأرجاء زئيرُ انتصارٍ.

وفي غمرة هذا الحماس المتفلت، انطلقت شرارة خلافٍ غامض...

لا أحد يدري طبيعة ما حدث بالضبط: ربّما تسرّبت كلمةٌ ساخرة من النصّاب البدين إلى أذن العجوز الأشقر، أو فجّرت السويدية غضبها المكتوم في ردّ فعلٍ عنيف، أو توارى سببٌ آخر في نظراتٍ خفيّة تبادلها الشاب المغربي والكاتب الأميركي. وفي ركنٍ شبه معتم، بدا الطفل الذي طاف طوال الليل بين الطاولات، لتقديم كؤوس الشاي أو سحبها، وقد اعتراه قلقٌ مفاجئ. تحدّث بعضهم لاحقاً عن محاولةٍ من الأميركي للإمساك به عنوة، وأنّ الشاب المغربي تواطأ بنظرةٍ أو إشارة، أو تجاهلٍ متعمد.

تفاقم التوتر على نحو مباغت؛ فتطايرت الكلمات المهينة، وامتقعت الوجوه، وكأنّ روح الملاكمة انتقلت من الشاشة إلى القاعة.

اندفع أحدهم، فانقلبت طاولةٌ خفيفة، عمداً أو عرضاً لا فرق، فوقعت كؤوس الشاي على الأرض، محدثة رنيناً تردّد صداه في أركان المكان. صاح مسير المقهى في غضب هادر، مطلقاً بلسانه رشاشاً من الكلمات النابية. حاول رجلٌ مسن، له هيبته ومكانته، التوسّط وتهدئة النفوس، فإذا به يجد نفسه محاصراً بين متصارعين، أحدهما يصرخ مهدداً ومطالباً في الآن ذاته بالهدوء، والآخر لا يُلقي بالاً لنداءات التعقل.

ارتطم كرسيٌّ قديم بساق العجوز الأشقر، فدفع البدين عنه بقوة مفاجئة، وغادر متألماً يتمتم بكلماتٍ غامضة، محتضناً ملفه الأثير. ثبّت الأميركي قبعته على رأسه، ثم ولى الأدبار، مطلقاً ساقيه للريح، فيما ظلت الهيبية في مكانها، مستمتعة بتحول ابتسامتها الحالمة إلى ضحكة بلهاء.

انهار الشاب المغربي باكياً، مع تناثر أوراق مسوّدته على الأرض، وتحوّلها إلى ما يشبه عجيناً سحقته أقدام قطيع من الثيران، ثم رفع عينين حمراوين بلون القهر، تشيان باستعداده لارتكاب مجزرة في حق أقرب جسد له.

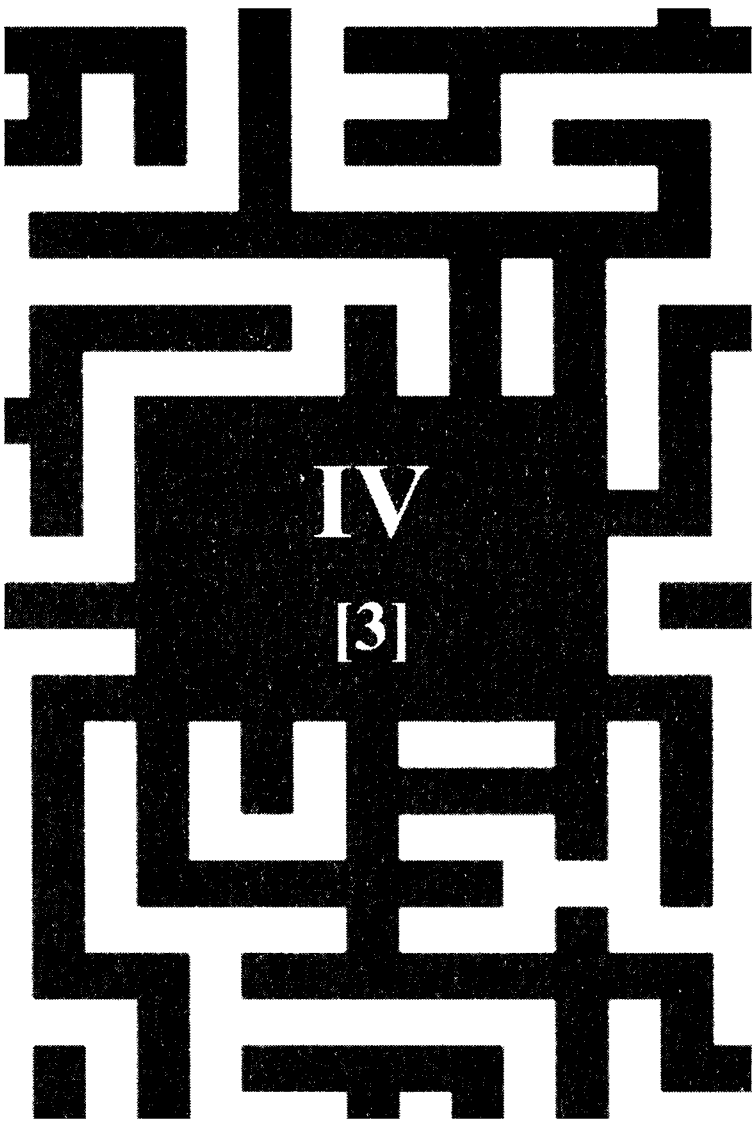
لمح الطفلُ الخطرَ يدنو منه، لكنه رفض التراجع؛ ورفع قبضتيه محاكياً لكمات بطله، محمد علي، ودافع عن نفسه بخطواتٍ مرتعشة، لكنها مليئة بالإصرار، وكأنّه استلهم من كلاي دروساً في الصمود.

بدا أن النيران المتأججة في صدور الحاضرين قد وجدت لها متنفّساً في الفوضى، مع تجاهل الجميع لتتويج كلاي رسمياً بالفوز، فالعراك الذي بدأ بهمسةٍ خافتة، أو ربما لمسة بذيئة غامضة، تحوّل إلى حصة طويلة من تبادل اللكمات والنظرات المشحونة بالغضب والشك في تلك المساحة الضيقة.

وهكذا غاص المقهى في دخانٍ كثيف، واختلط صوت زجاجٍ يتحطّم بذكرى الضربة القاضية على الشاشة.

وفيما ارتسم الصخب والعنف، باعتبارهما العنوان الختامي للمشهد، ترسّخت في الأذهان صورةُ ليلةٍ لا تُنسى، تناثرت فيها الحكايات وتناسلت حول سببٍ ظل مجهولاً، لا يعلمه ربما سوى طفل صغير، دفع عنه خطراً محدقاً بقبضتين صغيرتين، فأشعل عراك القرن في أحياء طنجة القديمة.

*


IV
[3]

IV

[3]

أسفار الغسّاني السبعة

(1690)

«لا يمكن لقصة **حي بن يقظان** لابن طفيل إلا أن تظل حية في زمننا هذا، إذ تقدِّم لنا مثالاً فلسفيّاً فريداً حول رؤية الإنسان وفهمه للوجود، بمعزلٍ عن المؤثرات الخارجية. كما ترصد رحلة بطلها من الطفولة إلى اكتشاف الحقائق عبر التأمل العقليّ. هي تتقاطع إذن مع جملة من الأسئلة الإنسانية الكبرى في عصرنا الحالي: البحث عن الهوية، والعلاقة بين العقل والوحي، ومصاعب رحلة المعرفة الذاتية، في ظل تسارع وتيرة الحياة الحديثة. تسائل عزلة «حيّ» وصمته الطويل أحياناً، أمام تجليات الطبيعة من حوله، تيه الفرد اليوم أمام فوضى المعلومات وهيمنة الصورة، فيما يمثل سعيه إلى اكتشاف ذاته وربطها بمصدرٍ سامٍ للمعرفة، هدفاً محورياً وجوهريّاً، لا يتغير بتغير الزمن...».

رشيد بناصر – المحاضرة الرابعة – الأربعاء 25 فبراير 2015

سفر الكتمان

قيل لنا إننا أول قناة عربية تدخل هذه المكتبة التابعة للقصر الملكي الإسباني.

برنامج وثائقي - القناة الثانية المغربية - إنتاج عام 2007

*

بسم اللّه الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على سيدنا محمد أشرف المرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أحمد اللّه جل علاه الذي ساق إليَّ هذه المهمّة الشريفة، وأسبغ عليَّ من آلاء فضله ورحمته ما أستعين به على أداء الأمانات وإبراء الذّمم. وبعد:

فإني أنا العبد الضعيف، محمد بن عبد الوهاب الغسّاني الفاسي، سفير السلطان الشريف مولاي إسماعيل، أرفع قلمي اليوم لأسطّر ما رأيته وعاينته في رحلتي إلى ديار النصارى، تلك الرحلة التي انتدبني إليها مولانا السلطان افتكاكاً لأسرى المسلمين وردّاً لمظالمهم، وسعياً في شأن مكتبة زيدان السعدي النفيسة، التي انتُهبت أيام الفتن والأهوال.

وقد آثرتُ أن أبوح في هذا السّفْر ببعض ما لم يجرِ به قلمي في الكتاب المرفوع إلى جناب السلطان؛ والمعنون بـ«رحلة الوزير في افتكاك الأسير»، إذ إن شأن الدولة وأمنها قد يقتضيان، في

بعض الأحايين، كتمان بعض الأسرار. وإنها والله لأمانةٌ ثَقُلت على صدري، لا أودُّ الخوض فيها لولا أني أخشى أن تضيع حقائقُ حقيقٌ بأهل العلم والأدب والفضل أن يعرفوها.

وردني أمر السلطان، بالتأهُّب للمسير نحو بلاد النصارى، حيث يقيم طاغيتهم، وكان الغرض الأول عتق رقاب الأسرى من إخواننا المسلمين الذين تناهت إلينا أخبار تشرُّدهم بين سجون تلك الديار، يُساموا سوء العذاب وتُكال لهم شتى صنوف المهانة، فلا يجدون من يمدُّ يد العون أو يشفع لديهم.

ثم أمرٌ ثانٍ جلَلٌ، لا يقل شأواً عن أوله، وهو استعادة المكتبة التي سُلبت من بلادنا، وحُملت إلى الإسكوريال، وهي موطنٌ عظيم لمخطوطات نادرة وذخائر فريدة. ولقد حدَّثني ثقةٌ من رجالات السلطان أن فيها من نوادر الكتب ما لا يوجد في أقصى المشارق ولا في ديار الأندلس القديمة التي باد ظلُّ سلطانها.

ولما تهيأتُ للسفر جمعتُ من أسباب العدَّة ما تيسَّر، وعزمت على تدوين ما تراه عيناي في كتابٍ أرفعه إلى السلطان بعد العودة، وانتخبت معي من الأصحاب من أثق بحزمه وفطنته، ليهوّنوا صعوبة الدرب ومخاطر الأسفار في البر والبحر. فرحلة البحر، وإن قصُرت، تحمل من الأخطار ما لا يخفى، لكثرة القراصنة وجند النصارى، ممّن ينظرون إلى المسلمين بعين العداوة، ويستطيبون سلب أموالهم وقتل رجالهم واستحياء نسائهم.

أمَّا سببُ سكوتي عما لم أرفعه في كتابي المعلوم للسلطان، فهو خشيتي من انكشاف سرّه، وذيوع أقاويلَ عنه قد تفتن عامة الناس، أو تدفع بحساد إلى الطعن فيه. وإنما فضَّلتُ التزام الحيطة حتى يتبيَّن لي رأي سديد أو حكم من كبار علمائنا فيما يجب فعله

حيال ما رأيت، صوناً لسمعة دولتنا وحفظاً لأسرارها.

وإني بما دوَّنته هنا إنما أردتُ وضع بداية لما سأكتبه عن خلاصة مهمّتي في بلاد النصارى، ما يشي بجملة مسائل سكت عنها كتابي المعلوم، وما بحت بها حتى لصحبي المقرَّبين. فأذكر عجباً من أخبار ذلك المخطوط، الذي كاد السعي إليه يُفقدني حياتي، ومعه سائر ما لقيتُه من أهوال في الإسكوريال.

وإني لأرجو من اللّه التيسير في استعادة المخطوط وسائر الكتب التي ضاعت، فقد آن الأوان لأن تعود تلك الذخائر إلى حضن أمة الإسلام، فتنتفع بها ناشئة الدهر الحاضر، وتجلو لأعينهم صورٌ باهرة مما تركه الأسلاف من علومٍ وآثارٍ. وما كنت لأقبل أن يُعزَّ على المرء طلب كتابٍ من كتب التراث بهذه الشدة، لولا ما شهده عصرنا من غلبة للنصارى في البحر، ومسارعتهم إلى سرقة كل نفيس وصالح عند المسلمين.

يكفيني ما سجَّلته في هذه السطور من حديثٍ عن نية رحلتي، فما ذلك إلا للتمهيد والتقديم، وإلا فعندي من عجائب ما رأيتُ ما يدهش العقول ويبعث في النفوس الرهبة.

ونسأل اللّه أن يبارك لنا في مساعينا لاسترجاع الحق المغصوب، وأن يكفينا مكر الأعداء في البر والبحر، وأن يسدّد خطانا ويمنّ علينا باستكمال هذه المهمّة على أكمل وجه.

هو مولانا ونعم النصير.

وحرّر في شهر رجب، من سنة اثني عشر وألف، وسلامٌ منّا على من اتّبع الهدى.

والحمد للّه ربّ العالمين.

*

سفر البر والبحر

وهذا مع تسجيل صعوبة الوصول إلى المخطوطات المغربية هنا عموماً...

برنامج وثائقي - القناة الثانية المغربية - إنتاج عام 2007

*

بسم اللّه الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على سيدنا محمد أشرف المرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

بعد مشاورةٍ مع بعض مَنْ خَبِرَ سبل البحر، استقرّ الرأي على ركوب السفينة، إذ قيل إنّ الرياح مواتية في تلك الأيّام. وحقّاً ركبنا بحراً هادئاً نسبيّاً، وهبّت نسائم طيّبة أعانتنا على قطع المضيق في أقصر وقت، تخلّله من القلق والخوف ما يعهده البحّارةُ من غوائل الموج، وأسبغ اللّه علينا ستره حتّى وصلنا البر سالمين.

عند رسوّنا على تلك السواحل، وجدنا في استقبالنا بعض النصارى، ممّن بَدا أنهم قد أُخبروا بمجيئنا سلفاً، فاستقبلونا بما جرت به عاداتهم من تحيّةٍ ومراسمَ وصفٍّ للعجلات التي تجرّها الخيول، ذاهبين بنا نحو عاصمة ملكهم، وهو ما وسعت في تفصيله في الكتاب.

ومع أنّ في ذلك مظاهرَ من الحفاوة، فإنّي بقيتُ على حذرٍ؛ فقد خبرتُ من قبل مكر النصارى ومراوغاتهم حين يتعلّق الأمر بنا.

طال بنا السفر إلى عاصمتهم مدريد بضعة أيام، مررنا خلالها بأراض شتّى، ورأينا الكروم والبساتين والحصون المشيّدة على التلال. وقد لاحظتُ عناية القوم بالتحصين وإبراز القوة، فهم لا يغفلون قطّ عن جعل الحراس والقلاع في كلّ موضع. ولمّا رأيتُ اتساع أراضيهم وخصبها، تذكّرتُ تاريخ المسلمين في الأندلس ومجدهم، وحزنتُ لزوال ذلك العزّ وانقشاع شمسه، لكنّ السنّة الماضية في الخلق أنّ الأحوال لا تدوم.

ما إن بلغنا مدريد حتّى أقمنا في دار أعدّوها لوفدنا، وقيل لنا إنّ طاغيتهم سيقابلنا بعد حين، ريثما يرتّبُ مراسيم الاستقبال. بدأنا نسأل عمّا يشغل بالنا: وضع الأسرى المسلمين في قبضة النصارى، وأحوال المخطوطات والنفائس المحتجزة في خزائنهم، فقد سمعتُ كلاماً يتردّد عن أماكن احتجاز إخواننا، وأنّ حراسةً مشدّدةً تحيط بدير نصراني، تُخزَّن فيه مخطوطاتنا وكتبنا.

دخلنا على طاغيتهم في قصره الكبير المزيّن بالصور والزخارف. وطُلب منّا تقديم خلاصة مطالبنا: إطلاق الأسرى أو مبادلتهم، وردّ ما سُرِق من كتبٍ ثمينة، أولها مكتبة زيدان السعدي.

أبدى هدنا، ويقال له كارلوس بلغتهم، رغبته في الحفاظ على استقرار الحال مع السلطان، لكنّي لم أغفل في أعين وزرائه وكبار حاشيته: أنّهم لا يَطمئنّون كلّ الاطمئنان للإفراج عن أسرانا وردّ ما في حوزتهم من نفائس.

جمعونا بعد لقاء طاغيتهم في مكان فخم بقصرهم، وقدّموا لنا ألواناً من الطعام والحلويات، وهم يشربون الخمر ويدور الكأس بينهم، فلا نذوق منها شيئاً التزاماً بديننا وحذراً من الشبهات. تحدثوا بكلام معسول بداية عن رغبتهم في إدامة الصلح بيننا، ثم

أعدنا سؤالنا عن المخطوطات والأسرى، فأظهروا الحجج وردّوا الأمر إلى أطرافٍ أخرى في بلاطهم، مؤجلين الكلام بما يشبه التسويف. فمنهم من قال إنّ قسماً أكبر من مكتبة زيدان السعدي فُقِد في حرائق قديمة، وزعم آخرون أنّ تلك الكتب محفوظةٌ في الدير المسمى بلغتهم الإسكوريال، لكنّها تحت الفهرسة، يدرسها رهبانهم ويُجرون فيها بحثاً.

ولمّا طلبتُ الدخول إلى أقسام الإسكوريال المنعزلة، قالوا هذا لا يصحّ لأحدٍ إلا بإذن من الملك أو الكنيسة، فهي إرث لملوك عباد الصليب وحدهم. أدركتُ أنّ وراء الأبواب ما لا يريدون لنا معرفته، وربّما كانوا يستغلّون تلك المخطوطات في دراسة علومٍ نجهلها. وازددتُ يقيناً بأنّ استعادة تلك الذخائر لن يكون بالأمر الهيّن.

أمّا أمر الأسرى، فكان أشدّ حساسيةً؛ إذ يعاني إخواننا من ويلات الحبس والتهديد، وبعضهم يعمل في الحقول والبناء دون أجرٍ يُذكَر.

طالبنا بإطلاقهم أو مبادلتهم، فردّوا بشروطٍ تلمعُ إلى تعنّت، وقالوا لنا أبقوا بعض الأسرى عندنا ضماناً لتنفيذ اتفاقنا، أو أَمهِلونا بعض الوقت لنستوثق من عددهم وأسمائهم. قدّمتُ إليهم ما استطعتُ من حججٍ، لكنّني علمتُ أنّ القرار لا بدّ فيه من الرجوع إلى رأي السلطان.

رأيتُ بعض أعنيائهم يطمعون في فتح باب التجارة معنا، فيعرضون بضائعهم ويطلبون بضائعنا، وقد وافقتُ على مبدأ المفاوضة، دون توقيع اتفاقٍ بلا استئذان. وما رأيي إلا أن في توسيع التجارة منفعةً ظاهرةً، لكنّنا لا نأمن غدر النصارى، إن هم وجدوا بديلاً أو طمعوا في السيطرة على ثغورنا، وما حربنا معهم في ثغر العرائش ببعيدة.

بعد أيامٍ طوال من أخذٍ وردٍّ، اتّضح لي أنّ مهمة السفارة لن تُحسَم في حينها. لا ريب في أنّ عقد اتفاقٍ مع النصارى ممكنٌ إن هم وجدوا فيه منفعةً لهم، لكنّهم يماطلون في شأن الأسرى، ويتكتّمون على أمر مخطوطاتنا. ولقد رأيتُ في هؤلاء القوم من الذكاء والدراية بشؤون السياسة ما يجعلهم شديدي المراس، لكنّي لاحظتُ تبايناً في آرائهم؛ فمنهم مَن يجنح إلى السلم معنا، ومنهم مَن يضمر لنا العداء أبد الدهر، رافضاً أيّ تقاربٍ.

عزمتُ على المتابعة والصبر، والتزام ما تقتضيه الأمانة في مثل هذه المهمّات. فما خرجتُ من بلادي إلّا سعياً إلى نصرة الرعايا، واسترداد ما نُهِب من كنوزنا. واللّه المستعان في كلّ حال، فهو الذي يردّ كيد العدا، ويهيّئ لنا من الأسباب ما فيه صلاحٌ وفلاح، ولا حول ولا قوّة إلا به.

وحرّر في شهر رجب، من سنة اثنتي عشر وألف، وسلامٌ منّا على مَن اتّبع الهدى.

والحمد للّه ربّ العالمين.

*

سفر الإسكوريال

اقتصرت قراءة الكتب العربية وترجمتها على خاصة الكنيسة، ولم يكن يُسمح لغيرهم بالاطلاع على محتويات الخزانة.

برنامج وثائقي - القناة الثانية المغربية - إنتاج عام 2007

*

بسم اللّه الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على سيدنا محمد أشرف المرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

انتظرنا إذناً ثانياً لمقابلة طاغيتهم في قصره المهيب. وقد مضت عليَّ عدّة أيام، لا أخرج فيها مع صحبي إلا لقضاء حاجاتنا، والأعداء يترصدون تحركاتنا وإن أظهروا لنا الحفاوة والود.

ترى في عاصمتهم مدريد الأحياء الفاخرة التي تشعّ منها مظاهر الأُبّهة والقوة، وتجد على أطرافها أحياء أكثر تواضعاً يقطنها الفقراء والحرفيون. تتجاور كنائسهم مع دور مستطيلة، ويسير الناس في حركةٍ دائمة، فلا تجد ركوداً إلا إذا أدركهم الليل وأُطفئت الأنوار.

وإنّي قد لحظت في أزقّتها أحياناً لفيفاً من الغرباء، ممن يُحكى أنهم جاؤوا من بلاد نصرانية أخرى؛ وتحيّنت الفرصة لعلّي ألتقي بأحد إخواننا، ممن يخفون إسلامهم اتقاءً لبطش الرهبان وديوان التفتيش، ولم أجد لمبتغاي سبيلاً.

قدموا لنا أنواعاً من الخضر والفواكه التي لا ريبة فيها. لكنّي

لم أطمئن لمطابخهم ونواياهم، فآثرتُ أن أكتفي بما حَلِمنا مصدره، كالعسل وبعض البقول والزيت. وعرضوا علينا ترجماناً، ينقل للخدم والبوابين ما نريد إفهامهم إياه، فاعتذرنا بما يقتضيه الأدب واحترام الضيافة، فأكثر مَن بيننا يتقنون لغتهم، فمن تعلّم لغة قوم أمن شرهم.

أتى من يخبرني أخيراً بأنّ طاغيتهم قد أذن لي بزيارةٍ إلى دير الإسكوريال، حيث يخفون مخطوطاتنا. أظهرت سروراً لا يخلو من حذر، إذ لا يُسمح للمسلمين ولا حتى لعامّتهم عادةً بدخول تلك الخزانة المقدّسة لديهم، لما تحويه من أسرارٍ. فلا بدّ أنّ لهم غايةً أو حساباً من وراء ذلك. ما تأكد لي بمعرفة أن رجالاً من عسكره سيرافقونني ويضبطون حركتي هناك، وربما يمنعونني من الاطّلاع على كلّ الأقسام.

وذهبنا في صبيحة اليوم التالي إلى الإسكوريال، على بُعد مسافة معقولة من مدريد.

بدا لي البناء من بعيد، شامخاً في هيئة ديرٍ وحصنٍ، كأنّه مدينةٌ لحالها. أُقيمَ على تلٍّ مرتفعٍ تحيط به بساتين وأراضٍ شاسعة. وحين دخلناه من بوّابةٍ جانبيةٍ، رأيتُ صحناً واسعاً، تتقاطع فيه الممرّات الحجرية، وتصطفّ على جانبيه أعمدةٌ ضخمة. وهناك رهبانٌ بلباسٍ داكنٍ يسيرون بخطواتٍ هادئة، وكأنّهم ظلٌّ للأعمدة التي تسند هذا الصرح. نظروا إليّ شزراً، لكن أحداً منهم لم يتفوّه بكلمة.

وأمّا الخزانة في داخل الإسكوريال، فهي قاعةٌ طويلةٌ ذات سقفٍ مقوّسٍ ومزيّن برسومٍ ملونةٍ تحكي قصصاً من تراث النصارى. وعلى طول الجدران، انتصبت خزائنُ عاليةٌ من خشبٍ داكنٍ مصقولٍ، تُرتّب فيها الكتب والمجلّدات في نسقٍ بديع. وتحت كلّ

خزانةٍ عُلّامةٌ ورموزٌ، فهم يقسّمونها بحسب المواضيع. وبين الخزائنِ فسحاتٌ لرفوفٍ أقصر تحوي مجلّدات شتى، وأوراقاً مفردة داخل علبٍ جلديّةٍ منمّقة. وهناك شموع عالية، تَظهر الكُتبُ في ضيائها الخافت وكأنّها كنوزٌ من ذهب. وقد راقني في أجواء المكان عبقُ الورق المعتّق بمداد خطّاطين تركوا أثرهم عبر القرون.

رافقني في جولتي أحد رهبانهم، يقول إنّه عالمٌ باللاتينية وبعض العربية. ظل حريصاً على ألّا أبتعد عن طريقه قيد خطوتين، ينظر في كُلّ رفٍّ أقترب منه ويُعاجلني بشرحٍ عمّا يحتويه. لم أجد في حديثه ما يُسهّل عليّ العثور على ما جئتُ أبحث عنه: مكتبة المولى زيدان السعدي. سألته مراراً عنها، فلم يتلطف بجواب يسكت فضولي، فتارةً يقول إن بعضها قد يكون هنا، وتارةً يصرفني بقوله إنها ليست ضمن الفهرس الحاضر، وقد تكون في أقسامٍ مغلقة.

انقضت الزيارة المحروسة سريعاً، إذ لم يسمحوا لي بالبقاء في الخزانة إلا بضع ساعاتٍ. وعدتُ إلى دارنا في مدريد، ترافقني عيون البلاط وتربصهم بخطواتي.

أقبل الليل، وإذ نحن نتداول في شؤوننا، وما يتعيّن علينا لمواجهة كيد القوم ومماطلتهم، إذ أتى خادم يخبرنا برجل يطلب مقابلتنا ويلحّ. استفسرنا فإذا به غريب، ليس من حاشية طاغية النصارى أو خاصة بلاطه.

دخل علينا الرجل، وهو بزرقة عيونهم وسواد شعرنا، فتوجسنا منه خيفة، وأتى المترجم متظاهراً بعدم معرفتنا بلغتهم، لكنه نطق بلسان عربي متعثر، تخالطه لكنة إفرنجية. قال إن اسمه ألفنش أو ألفونسو بلغتهم، لكنه يخفي اسم عبد اللّه في قلبه. أبان أنّه من ذريّة أهل الإسلام في الأندلس، وأنه لم يزل مُصِرّاً على دين آبائه

وأجداده في الخفاء، رغم ما قد يلحقه من خطر رهبانهم إن هم كشفوا أمره.

حدثنا عن حياة أهله في ظل حكم النصارى، عن موت أمه وفرار أخيه، وعن تمكّنه من العمل في الإسكوريال في ترتيب بعض الرفوف والأوراق، حيث اطّلع على قائمةٍ فيها عناوين مجلدات عربيةٍ قديمةٍ. وسمع حديثاً بين الرهبان حول مخطوطاتٍ كانت ضمن مكتبة زيدان السعدي، لكنهم أخفوها في خزائن سرّيةٍ ملحقة، جعلها القوم مَخبأً لما لا يريدون له كشف نفائس الكتب والمخطوطات الخطيرة.

سألناه عن السبب، ونحن بعد نشك في أمره، ونخشى أن يكون من جواسيسهم، فقال إنه اندلاع حريق خزانة الإسكوريال القديم، الذي يتعللون به اليوم سبباً لاندثار كتبنا، إذ لمّا وقعت الفتنة واشتعلت النيران، عمد رجالٌ من خواصّ القوم إلى إنقاذ بعض الذخائر المميّزة ونقلها سرّاً، تخوُّفاً من أن تقع في يدٍ أخرى أو تضيع.

سألناه عن مكانها الخفي، ونحن حيارى، فردّ إنها حُوّلت بحسب الظنّ إلى ديرٍ صغير يقع على بُعد مسافةٍ من الإسكوريال فوق الأرض، غير أنّه متّصلٌ به تحتها عبر أنفاقٍ ودهاليزَ مستورة، لا ينتبه إليها سوى الخُلّص من رجالهم.

وقد أفادنا صاحبنا بأنّه رأى بعض الخرائط التي تُبيّن مواضع تلك الأنفاق، ويمكنه إدخالي إليها في إحدى الليالي إذا تشجّعت في وجه الخطر العظيم. فإن فعلنا، فقد تتاح لنا فرصةٌ للنظر في تلك المكتبة السرّية، وتفحّص ما حُفظ فيها من نفائس المسلمين ومخطوطاتهم.

غير أنّه نبّهنا إلى ضرورة الكتمان التامّ، وأن نظهر كأننا في

شؤونٍ أخرى، لأنّ أيّ غفلةٍ أو بادرة شكّ في أمرنا قد تودي بنا إلى ما لا تُحمد عقباه، خاصّةً ونحن في ديارٍ لا نأمن مكر أهلها، ولا نخدع بمظاهر التحايا والاحتفاء التي يظهرونها.

ولمّا رأى في أعيننا الشك، أقسم أيماناً مغلّظة أنّه لا غرض له إلا نصرة دينه وأهله، وأنّ ما يدفعه إلى ذلك هو أشواق الانتماء إلى آبائه الأقدمين، فشكرناه على صنيعه، ووعدناه بالرد بعد مداولة الرأي، وأن يتحقق لنا صدقُ قوله، فهزّ رأسه موافقاً، وقال إنه يثق بسفارة المغرب الأقصى لأنّها الأمل الأخير لمن تبقّى هنا من مسلمين.

بتُّ ليلتي تلك وقد جافى النوم عيني. خزائننا لا تزال مخفيّة عن العيون، والأعداء لا يرغبون في تسليمها بسهولة. وإذا حَدّث تلك المعلومات عن المخطوطات السرية، فربما نستطيع تهريبها بمساعدة عبد اللّه هذا أو مَن هو على شاكلته أو حتى الكشف عن مواقعها، لو تعذّر أخذ الأصل، لكنّ أيّ عملٍ من هذا لهو في حكم الخطير. فإن اكتشفونا في خطوةٍ غير مأذونٍ بها، فقد نُتّهم بالتجسّس أو التخريب.

رفعت الأمر إلى حكم العقل والمصلحة، وشاورت صحبي، فرأينا أنّه قد تكون لنا منفعةٌ في هذا السبيل، خاصّةً مع مراوغة هؤلاء في ردّ مخطوطاتنا المسلوبة. وعليه، قررنا استطلاع الحالة بحذرٍ شديد، وما علمت أنّ الأيام لتُبلي بما لا يستطيع عقلي تخيّله. وما ربك بغافل عما تعملون.

وحرّر في شهر رجب، من سنة اثني عشر وألف، وسلامٌ منّا على مَن اتّبع الهدى.

والحمد للّه ربّ العالمين.

*

سفر الشك واليقين

وهكذا صودرت أملاكهم ودورهم، وبقيت آثار حضارتهم إلى الآن.

برنامج وثائقي - القناة الثانية المغربية - إنتاج عام 2007

*

بسم اللّه الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على سيّدنا محمدٍ أشرف المرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

انتظرنا الليلة التي يعاود فيها ذلك الأندلسي التردّد علينا، بعد أن زعم أنّه سيُظهر لنا بيّناتٍ نطمئنّ بها إلى صدقه. وقد أبطأ بعض الشيء، فما عدنا نميّز: أكان إبطاؤه خوفاً من حرس النصارى، أم تردُّداً في أن يفصح عمّا لديه؟ وعلى الرغم من ارتيابنا في أمره، فإنّ قولَه بأنّه من أهل الأندلس ممّن أبقوا على الإسلام سرّاً، وأنّه يسمّي نفسه عبد اللّه في خلوته، أثار في نفوسنا لوعةً وأملاً. فنحن بحاجةٍ إلى من يدلّنا على مرادنا، وهو بحاجةٍ إلى أمانٍ يكفل له النجاة من بطش ديوان التفتيش لو افتُضِح أمره.

ترصّدناه خُفيةً في طرقات مدريد، حيث تسمح لنا التحوّطات بمراقبته من بُعد دون إثارة الشبهات. فمنذ أن تجرّأ ودخل علينا معلناً أنه أخونا في الدين، والشكوك تلعب بنا، إذ لا يُستهان بمكر أهل هذه البلاد، ولا يستبعد أن يلبسوا أقنعة شتّى للنيل من سفارتنا.

ترى هذا الموريسكيّ يخرج صباحاً في هيئةٍ أشبه بالقوم، يُخاطب الخدم والبوّابين بلغتهم، ويمرّ بسوقٍ مُتعرّجٍ سائلاً أهل الدكاكين عن بضاعتهم، كمن يسعى في شراء عابر. ثم يعاود المرور في الزقاق ذاته بعد برهة، كأنّه يستقصي أثراً أو يلتقط همساً. راقبناه في يومٍ ثانٍ فإذا به يتوارى عن الأنظار في نفقٍ ضيّق يمرّ تحت أسوارٍ قديمة، وهناك اختفى قليلاً قبل أن يعود من طريقٍ أخرى، في زيٍّ مباينٍ للذي خرج به أوّل النهار، ما زاد حيرتنا تجاهه.

ولم يغب عنا أن نتحرّى أحواله في مواطن أخرى، ونحن في ضيق من أمرنا، ما دمنا بدورنا محط حراسة عيون القوم. فسألتُ اثنين من ثقاتنا أن يحتكّا بالعامة في حوانيت المدينة، لعلّ أحداً يعرف هذا الرجل أو يذكر سيرته. فسمعوا همساً بأنّ اسمه ألفونسو حقّاً، ويُقال إنّه يضمر شيئاً في قلبه، ولا يُمازح الأصحاب على عادتهم، ويُسارع في الانصراف إذا سمع أحاديث الكنيسة أو حاملي الصلبان. وهذا يوافق ما حكاه لنا عن نفسه حين زعم أنه على ديننا.

جاءنا من طريقٍ أخرى صدى عن جيرانه، ففيهم من قال إنّ هذا الرجل يكثر السفر ويقلّ الكلام، ولا يزور الكنيسة إلّا حين تدعو الضرورة، وتكلّم بعضهم عن موت أُمّه منذ سنين بسبب ملاحقة الرهبان، لتمسّكها بشعائر خفية نُسبت إلى الكفار، ويقصدون بالكفار المسلمين قاتلهم اللّه. فقرّ في قلوبنا شيء من الشفقة عليه، وصرنا أَميَل إلى تصديقه.

أيقنّا بذلك أنّه ليس من أعوان الطاغية، بل هو أغٌ قذفته الأقدار بين أعدائنا. ومع هذا، لم أشأ التسليم التامّ لحديثه؛ فالدنيا مليئةٌ بمن يُحسن فنّ التمويه. طلبتُ من رفاقي أن يضربوا له موعداً آخر ليلاً، بعد أن نتبيّن عرضه، ونستوثق منه أن ما يرويه

عن الأنفاق والدير السرّي المتّصل بالإسكوريال ليس من قبيل الختل والاختلاق.

واتفق اللقاء عند فناءٍ مظلمٍ خلف دارٍ قديمةٍ قرب أطراف المدينة. أتيتُ ومعي ثلاثةٌ من صحبي، فجاء هو وحده، يسير بخطى متعجّلة وبصره يحوم في كل اتجاه خشية أن يلحظ وجوده أحد. ولمّا دنا منّا سلّم بتحية الإسلام، ثم اعترف لنا أنّه أرهقه الخوف من أن تنكشف صِلته بنا، وأنّ مجرّد مجيئه إلى منزل سفارةٍ مسلمةٍ قد يعرّضه للمساءلة إن رفع أمره إلى الرهبان، راجياً منا الإسراع في حسم مرادنا.

حدّثنا بعدها عن أمور دواوين التفتيش التي تُدار في السرّ والعلن، وكيف يُتَّهم الناس بأيّ لفظٍ يحيد عن تعاليم الكنيسة، أو يحاكي كلماتٍ عربية، فيُزجّ بهم في المحابس. وقال إنّ بعض كبار الرهبان يستغلّون نشاطهم في الإسكوريال للتدقيق في الكتب الإسلامية المنهوبة، فيفهمون من خلالها شيئاً من علوم المسلمين، ثم لا يتيحون لسواهم أن يطّلع على تلك الكنوز.

ذكر لنا أنّ وراء الأبواب المقفلة أقساماً لا تدخلها قدمُ غريبٍ إلا بإذنٍ خاصّ، ومع ذلك فقد امتد إليها بصره، حين أوكلوا إليه ترتيب بعض الرفوف البعيدة ووضع الرموز على الصناديق.

ومن هذه النوادر، تحدّث الأندلسي عن مخطوطٍ غامضٍ منسوبٍ لابن الياسمين عبد اللّه بن محمد، رحمه اللّه، ذاك العالم بالفقه والشعر والحساب. قال صاحبنا إنّه سمع من بعض رهبانهم أنّه يضمّ أشعاراً غريبة تُفسّر قوائم الأعداد وقواعد الحساب، وعندما سألهم عن مكانه، قالوا إنه كان في عداد ما أكلته النار، في الحريق العظيم الذي أتلف كثيراً من ذخائر الخزانة في سالف

الزمان. لكنه شك في مصيره؛ فربّما لم تنله النيران، وهرّبوه إلى المكتبة السرية تحت الأرض، بأمرٍ من رهبانهم وعلمائهم، بعد أن وقفوا على فرادة محتواه وخطره. زاعماً أنّهم اعتبروه أساساً لأمورٍ دقيقة لا يريدون إشاعة خبرها، فالأشعار تحوي طُرُقاً عجيبةً في المسائل الحسابية، يُقال إنّها تُسهّل ضبط الأموال والضرائب على نحوٍ يُدرّ لهم المنفعة.

سألته إن كان ما يقوله ضرباً من خيالٍ أو مبالغة. فأخرج ورقةً مطويّةً فيها كلماتٌ بلغة النصارى، وأشار إلى أسماء مصنّفاتٍ ومدوّناتٍ لعلماء من بلاد المسلمين، لا يعرفها إلا خواصُّ أهل العلم. ورأيته يضع إصبعه على مواضع غريبة مرسومة بخطٍّ ركيك، على ما يبدو أنه مخطَّطٌ للأقبية، يحاذي دهليزاً يوصل إلى ديرٍ ثانويّ. وقال إن هذا ما حفظه من عندهم. لخشيته من ضياعه إن جرى له مكروه.

اطمأننتُ حينها إلى أنّه صادقٌ في مسعاه. ومهما يكن، فأقلّ ما نبتغيه هو إشارةٌ تقودنا إلى مواضع مخطوطاتٍ أصرّوا على أنها مفقودة.

همستُ له بأنّنا لن نُقدم على هذه المغامرة دون إعدادٍ مُحكم، فأجاب إنه سيرافقني في ليلة يغيب عنها القمر، لندخل عبر الأنفاق دون أن يشعر بنا حراس أو رهبان. ومع فرحتي بتعهّده، لم أنسَ التذكير بأنّه إن خاننا في لحظةٍ أو باعنا للطاغية، كانت عاقبته وخيمة. فرفع يده يُقسم أنّه لا يرجو سوى خلاصه من هذه الأرض التي تعذب أهلها في دينهم، وأنّ مجيئه إلينا وحديثه هذا كلّه أقصى ما يملك.

اتفقنا أخيراً على يومٍ معلوم، يوافق يوم أحد، إذ تكتظّ المدينة باحتفالات دينيّة تستغرق جندهم وحُراسهم، فتخفّ وطأة المراقبة.

وأوصيناه بأن يتجنّب أيّ ظهورٍ علنيٍّ معنا كي لا يلفت انتباه رجال الكنيسة. ثم استودعناه رعاية الرحمن ورجع كلٌّ منّا في طريق مختلفةٍ عن الآخر، لتمويه من قد يقتفي أثرنا، مخافة أن يكون لأعدائنا جواسيس وسط العامة أو من الخدم الذين يتقصّدون معرفة تحرّكاتنا.

عدنا إلى الدار قبل بزوغ الفجر، وقد امتلأت خواطرنا بالحذر والرجاء. فهذا الرجل يفتح لنا باباً إلى كنزٍ عظيم من إرث أجدادنا، وأجزاء من مكتبة زيدان السعدي، يُخشى عليها من الضياع أو العبث. بيد أنّه جرّنا كذلك إلى مخاطرةٍ جسيمةٍ، فمحاكم التفتيش لا ترحم مَن يخالف تعاليمهم، فكيف بمن يلج ديارهم ويحاول كشف أسرارهم؟

لم أشأ صرف النظر والتخاذل، فما جئنا إلا طلباً لكتبنا وأسرانا، وإنّ نجاة إخواننا من القيود أو عودة المخطوطات إلى ديار الإسلام خيرٌ وأيّ خير.

أصبحنا ونحن نتداول الرأي بيننا في حجرةٍ ضيّقة، نخطّط لما سنفعل حين يهلّ الموعد، ونهيّئ أنفسنا للفشل أو كشف المسعى، وانتهينا إلى التوكل على العلي القدير، فلا حافظ غيره لمن ينصرون دينه أو يلتمسون رفع المظالم عن أهله.

وحرّر في شهر شعبان، من سنة اثني عشر وألف، وسلامٌ منّا على مَن اتّبع الهدى.

والحمد للّه ربّ العالمين.

*

سفر الدخول

وتُظهر حركة الترجمة والتحقيق هنا، أن الكثير من المعلومات ما زالت تختزنها المخطوطات العربية في مجالات الفن والبناء والمهن والتجارة والعلوم.

برنامج وثائقي - القناة الثانية المغربية - إنتاج عام 2007

*

بسم اللّه الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على سيّدنا محمدٍ أشرف المرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

لمّا دنا الموعد المضروب، تهيّأنا للخروج في غسق الليل، حيث ينشغل النصارى عنا. دلنا صاحبنا على مكانٍ بعينه، عند طريقٍ جانبيٍّ يفضي إلى نواحي الإسكوريال، يصعب أن يترصّدنا فيه الرقباء ولا مكان فيه لحراس الأسوار المشغولين باحتفالهم. فخرجتُ مع نفرٍ من صحبي، وكلّنا متخفّون تحت أرديةٍ داكنة، ونحمل في جرابنا شيئاً من الطعام وقناديل صغيرةً لا توقدُ إلا عند الضرورة.

وصلنا إلى ملتقانا والليل في أحلك سواده، وهناك لمحنا ظلّاً ينتظرنا. وإذ اقتربنا، سمعنا هتافاً خافتاً بالتكبير وحمد اللّه، فتأكدنا أنّه صاحبنا عبد اللّه. عانقنا بسرعةٍ ثم حثّنا على الإسراع خشيةَ من عيونٍ قد تتربّص بنا. وصعدنا تلالاً متعرّجة نحو الإسكوريال، ولم نلبث أن بدا لنا البناء العظيم، يلوح في عتمة السماء كسحابةٍ مظلمة في قمّة الجبل.

أشرفنا على مكانٍ موحشٍ يتكاثف فيه الشجر، ثم توقّفنا بجانب صخرةٍ عالية. ترجّل عبد اللّه وأشار إلينا أن نتبعه بين الأغصان الكثيفة، فسرنا بضع خطواتٍ حتى وصلنا إلى مدخلٍ ضيّقٍ أشبه بكهفٍ صغيرٍ. همس إلينا أنّه سيقودني عبر دهليزٍ تحت الأرض، يتصل بالدير الصغير، وقال إنّ باباً داخلياً يفضي إلى أنفاق تنتهي عند ما سمّاها المكتبة السرّية حيث يُخفون أسرارهم، فطلبت من صحبي التواري عن الأنظار.

ما إن خطونا خطوتين أو ثلاثاً داخل الدهليز حتى انغلق الظلام من حولنا، فاحتجنا إلى إضاءة شمعةٍ صغيرةٍ، حجبناها بردائٍ من جوانبه كي لا يشي ضوؤها بنا. لم يكون إلا من قطراتٍ ماءٍ تتساقط من سقفٍ صخريّ.

تلمّست الجدران بحذرٍ خشية السقوط في حفرةٍ أو مجرىً مائيٍّ، وعبد اللّه أمامي، في يده خريطةٌ دوّن فيها علاماتٍ، يلوّح بها ويقارنها مع مسالك الدهليز.

طالت المسافة وازدادت برودة المكان، ثم انعطفنا يميناً في ممرٍّ يصغر حتى كدنا نضيق به ذرعاً. ولولا أن رأيتُ بصيصاً يتسرّب من شقٍّ في أعلى الجدار عند ملتقىً آخر من الدهاليز، لظننتُ أنّنا تهنا.

عند ذاك الملتقى، توقّف عبد اللّه وقال إنّ الدير الصغير قابع فوق رؤوسنا الآن، وأنّ باباً سرياً خلف مذبحه يقود إلى ممرٍّ داخليٍّ نحو الإسكوريال. صعدنا سلّماً خشبياً متهالكاً منصوباً إلى الأعلى، حتى برزنا في قبوٍ تنبعث منه رائحة العطن؛ ورأينا حجارةً متآكلة وصناديق قديمة.

فتح عبد اللّه باباً كاد يندمج مع الجدار لشدة عتمته، وتسلّلنا

إلى رواق يشبه الموجود في المعهود من الأديرة، لكنه مهجور، وفي نهايته بوّابةٌ حديديةٌ تفضي إلى باحةٍ صغيرةٍ. أوصاني بالتمهل والإنصات، إذ إنّ مرور الحراس أو الرهبان غير مستبعد. وبعد برهةٍ من الإصغاء، سمِعنا حفيفاً هدأت بعده الأصوات. أشار لي بالعبور فحركت الباب، ووجدت فتحه سهلاً، لعلّ أصحاب المكان ما اعتادوا أن يدخل غريب من هذه الجهة، فتهاونوا في قفلها إحكاماً.

وجدنا أنفسنا في دهليزٍ آخر، لكنه أوسع، مضاء على فتراتٍ بفتائل زيتٍ معلقةٍ في فوانيس معدنية، وعليه آثار مرور حديثة.

ارتجّ القلب مع كل خطوة، خشية أن يأتينا أحدهم من حيث لا نحتسب. وبحمد اللّه لم يظهر إنسٌ ولا جانّ، حتى بلغنا باباً خشبياً بمسامير كبيرةٍ عتيقةٍ، فرفع عبد اللّه مزلاجاً حديدياً ثقيلاً ليدخل بنا إلى ما ورائه. وما إن نفخت حتى عمّت الظلمة ثانية، إلا من الشمعة إياها.

سرنا على رؤوس أصابعنا في قاعةٍ محدودة، امتلأت بأرففٍ وخزائنَ لا تُشبه في جمالها ما رأيته في خزانة الإسكوريال. لكن نظام مجلداتها ومخطوطاتها يوحي بعمل علمائهم ورهبانهم المستمر على تدارسها. رأيتُ مجلّداتٍ جلديّةً عليها نقوشٌ عربيةٌ منمنمة، وأوراقاً مفردةً بخطوطٍ مختلفة. رفعنا شمعتنا، فإذا بنا نقع على أسماء علماء من أهلنا وإخوتنا في الدين، بعضها يمثل أمام عيني منذ عهدٍ بعيدٍ.

ها هو جزءٌ من أحد مصاحف زيدان السعدي، ومجلّدٌ ضخمٌ يحوي شرحاً لبعض مسائل الفقه لا علم لي بمن وضعه. وعلى رفٍّ علويٍّ معلق إلى جدارٍ متشقق، رأيتُ عنواناً يشير إلى ابن الأبار القضاعي البلنسي، وقد بدأت أطرافه تتآكل. ومدّ عبد اللّه إصبعه إلى مصنف «حي بن يقظان» لأبي بكر محمد بن طفيل القيسي.

تعمّقنا أكثر في الأرفف الخلفية، فوجدنا مخطوطاتٍ طبّيةً عظيمة، تمزج معارف العرب واليونان، منها أجزاءٌ من ترجمة عليها شروحات قانون ابن سينا، وبالقرب منها أقساماً في علوم الفلك أشار إليها عبد اللّه، وقد رأى رسوماً للكواكب بخطٍّ أندلسيٍّ دقيق التفاصيل، وتعليقات بحبرٍ أحمر قديم.

لكنّ أشدّ ما أثار حيرتي هو مجلّدٌ صغيرٌ دوّن عليه بخطٍّ متشابكٍ اسم ابن الياسمين عبد اللّه بن محمد، هو نفسه ما ذكره صاحبنا الأندلسي في إثباته لنواياه.

سمعتُ من قبل ذكر ابن الياسمين، عالمٌ حذق في الحساب وبعض فنون الرموز. قلبتُ صفحات المجلد فإذا بعضها ملطخ بأثر قديم بهت لونه، ما أحسبه إلا دماً. وتحوي مزيجاً من الأرجوزات والحساب والخرائط والرموز والطلاسم. وعلى ضوء الشمعة، بدت لي الصفحات عامرة بأسرار لم يألفها عصر كاتبها، أو لعله قصد بها غايةً لا يدركها إلا ذوو بصيرةٍ في علم الجبر والأعداد. والختم في آخر صفحة عبارة عجيبة، أن من علم بهذا المكتوب، لا يبلغه سوء ولا يحيط به زمن.

هممنا بجمع مخطوطاتٍ، نُعيد ترتيبها لئلا يفضحنا أثرٌ، فوقع في سمعي صوتُ أقدامٍ في الممرّ البعيد خلف الباب.

أوجست في نفسي خيفة، إذ أدركنا أنّ واحداً من رهبانهم أو حراسهم سمع بحركتنا أو لمح ضوء الشمعة يتسرّب من شقوق الباب، فسارعنا إلى إخفائها وأعدنا بعض المخطوطات أقرب ما كانت، غير أنّ وهلة ما كانت لتفصلنا عن انفراج الباب.

دخل أحد الرهبان، ومعه مصباحُ زيت متواضع، ينعكس ضوؤه على عينيه. راح يُحدّق في الأرفف، ثم وقع بصره علينا، فدهش

وصاح بلغة قومه وأنا أفهمها، لعله يستدعي منهم أحداً، وأشار إلينا بعصاه الخشبية وصرخ محذراً.

لم نقوَ على الكلام، ذاهلين بما حسبناه بعيداً، ليصبح خروجنا من المكان سالمين غاية لا ينالها إلا تدبيرٌ عجيبٌ أو عنايةٌ من رب العالمين، ولا حول ولا قوة إلا به.

ولسوف أستكملُ إيضاح ما جرى، متى سمحت يد أعياها القلم، وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت، وإليه أنيب.

وحرّر في شهر شعبان، من سنة اثني عشر وألف، وسلامٌ منّا على مَن اتّبع الهدى.

والحمد لله رب العالمين.

*

سفر الخروج

عاد دون الظفر بالمكتبة التي طلبها، ولم يوضح لنا في كتابه، حيثيات فشل السفارة في هذا الشق.

برنامج وثائقي – القناة الثانية المغربية – إنتاج عام 2007

*

بسم اللّه الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على سيّدنا محمدٍ أشرف المرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

همس عبد اللّه الأندلسي متحدثاً بلسان القوم، ورأيته يلوّح بيديه منادياً الراهب باسمه لأنه عرفه، لكن هذا رد بشتمٍ لمحت فيه كلمات الهراطقة والكفار ودواوين التفتيش، رافضاً أي تفاهم.

رفعت كفّي كمن يُظهر المسالمة، لكن رجفته بانت أمام ناظري، رعشة من تملكته فورة غضب، وعبد اللّه يزداد انفعاله، يسعى لمقاطعة الراهب والتعليق عليه بكلامٍ ليّن، فلوّح هذا بعصاه حتى كاد يضربه على رأسه، فدبّ الرعب في قلبي، وما تبينت إن كان سيصمت أم يبادر للصياح مستقدِماً بقية القوم. ولو فعل، لكشف أمرنا مما لا تُحمد عواقبه.

جرب عبد اللّه حيلَ تفاوضٍ شتى، بيد أنّ الراهب أبدى عناداً قاسياً، وحوّل بصره إليّ مردّداً كلماتٍ عن العقاب الآتي، وخيانة عبد اللّه العظيمة، وعن إهدار دم من يتجرّأ على خزانة الكنيسة.

انتابني قلقٌ شديد، وأخذتُ أرمق الباب الذي ولجنا منه، لأتبين فرصة هروب، لكنّي خشيتُ أن يكون وراءه من الحرس من يسمعون أو يتحيّنون فرصة الإمساك بنا.

عزم الراهب على مجابهتنا؛ مواصلاً الوعيد والتهديد، عندما انقضّ عليه عبد اللّه، وهاجم يده التي تمسك العصا ليثنيه عن إطلاق أيّ نداء. تناولا بالأذرع، كلٌ يحاول إجبار غريمه على الصمت. فاختلّ توازن الراهب، وتدافع الاثنان صوب رفٍّ علويٍّ أصدر صريراً عظيماً عند ارتطامهما به، فتساقطت بعض المجلّدات والأوراق، وارتفع غبارٌ خفيف.

حاول الراهب التخلّص من قبضة عبد اللّه، فضربه بمرفقه في خاصرته، لكنّ عبد اللّه صمد، وقد أعماه الخوف والغضب معاً.

لم يدم التشابك إلا لحظات بدت لي دهراً. سقط الراهب أرضاً، وارتدّت عصاه التي يتوكأ عليها، فارتطم رأسه بحافّة رفٍّ حجريٍّ نتوءُه قاسٍ بدوي مخيف، يكفي لإزهاق الروح.

جمدتُ في مكاني، عاجزاً عن الإتيان بفعل، ولو يكلّمنا الراهب بعدها بكلمة، إنما فارق الحياة حينها أو بعد لحظاتٍ. وقد ظننا بداية أنّه أغمي عليه فحسب، لكنّ الدماء سالت من رأسه على البلاط البارد.

عمَّ فينا الذعر، فما كنّا نروم إراقة دمٍ، وما توقعنا أن يودي بنا الأمر إلى القتل. ودتُ لو أصرخ من هول المفاجأة، لكنّي عضضتُ لساني حتى لا يعلو صوتي. انكبّ عبد اللّه فوق الجثّة، رجّها بيديه يائساً يتفقد النبض أو بقايا رمقٍ، فما وجد إلا السكون. ولا سبيل لإعمال العقل والحكمة، فلو سمع أحدهم صراخ الراهب أو ارتطام المجلّدات، فأمامنا وجيز وقت قبل أن تهجم علينا قوةٌ من حراس الدير أو الرهبان الغاضبين.

نظرتُ في وجه صاحبي، فرأيتُ ارتعاشاً وحيرة. لا مناص من الخروج والنجاة، فالدير برمّته قد ينتبه لخطرٍ داهم مع غياب الراهب. ثمّ إنّ المخطوطات التي أعدنا ترتيبها في مواضعَ مريبةٍ قد تكشفنا أيضاً، ولا سبيل لإخفاء كلّ شيءٍ أو طمس آثار المعركة.

بادرنا إلى إعادة بعض المجلّدات التي سقطت على الأرض إلى أماكنها قدر المستطاع، على عجلٍ ودون تدقيق، ثمّ حملنا شمعتنا وأطفأناها، سالكين طريق العودة نحو الباب الخشبي الذي جئنا منه، وعبد اللّه بعدُ في صدمته، أسمعه يهذي ويستغفر ربّه، عاجزاً عن قبول ما اقترفته يداه، أو ما وقع بقضاء القدر.

ركضنا في الرواق ووصلنا إلى البوابة الحديدية التي عبرناها. فتحناها، وإذا بنا نعود للخلف، في الممرّ المعتم قبل الولوج إلى القبو المهجور، وشقّ علينا تبيّن الطريق، فقد ارتجّ عقلنا من هول ما حدث.

لكن عبد اللّه استجمع شتات فكره، وقادني في دهليزٍ طويلٍ إلى اليمين، ثم جذبني نحو سلّمٍ يهبط بنا إلى الأدنى، فرجعنا إلى الموضع حيث تبدأ الأنفاق.

مضينا نلهث، ننظر وراءنا كلّ بضع خطوات، نتخوف من أن يقتفي أثرنا أحد، وحين خرجنا أخيراً إلى حيث ينتظرنا رفاقي الحيارى بين خوف وقلق، كانت النجوم قد انكشفت من بين الغيوم، وأحسسنا برطوبة الليل تضرب جباهنا، وانطلقنا نمشي بموازاة تلالٍ منخفضةٍ، لا نتجرّأ على إشعال ضوءٍ حتى لا نلفت نظر من قد يتجوّل أو يرقب الإسكوريال، هذا وألمّ عظيمٌ يدق رأسي، إذ اختلط عليّ الفرح بالنجاة مع الأسى لما شهدناه من دمٍ لم نشأ إراقته.

سكتنا طوال المسافة حتى وصلنا قريباً من أطراف عاصمتهم،

فودّعنا عبد اللّه على وعدٍ بأن نلتقيه إن تسنّى لنا الأمر، لكنه أبدى التبرم، فليس يطيق تواصلاً معنا بعد الليلة، خشيةَ أن يترصّدوا أثره من خلالنا، ثم سلك طريقاً آخر بين الأشجار، وما زال طيفه يتوارى في الظلمة، ونحن ندعو العلي القدير أن يحفظه من عيون الأعداء وغضب رهبانهم.

ما كنت أتوقّع يوماً أن يلوّث سعيَنا في استعادة التراث دمُ إنسان، وإن كان من عدوٍّ يُضمر لنا الكيد. أما وقد سبق السيف العذل، فللّه الحمد على السلامة، ولا رادّ لما قد جرى إلا رحمته تعالى، ولا اعتراض على حكمة تصريفه لقدره. نسأله الستر والتوفيق، وأن يجعلنا من الذين يعملون لخير الأمة ولا يفرطون في دمٍ أو عرضٍ إلّا مُكرهين، وعسانا نجد طريقاً أخرى للوفاء بالأمانة، من دون أن ننحو منزالق الخطر الماحق.

وحرّر في شهر شعبان، من سنة اثني عشر وألف، وسلامٌ منّا على مَن اتّبع الهدى.

والحمد للّه ربّ العالمين.

*

سفر الرحيل

كل من قرأ قصة مكتبة مولاي زيدان، ينتابه شعور غريب، بقصة مبتورة، أو بلا نهاية، وربما لن تكون لها نهاية. وربما نكتشف مخطوطاً آخر للغسّاني، كتبه سراً، قبل وفاته...

برنامج وثائقي - القناة الثانية المغربية - إنتاج عام 2007

*

بسم اللّه الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على سيّدنا محمدٍ أشرف المرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

عجيب كيف تؤول الأمور حين تجتمع عليها الخيبات وتتصرف فيها المقادر. هذا ما وجدتُ نفسي عليه مع صحبي بعد تلك الليلة الرهيبة، التي شهدت فيها مصرع الراهب على يد عبد اللّه. ظننت وقد تهيّأتُ للسفارة أن استعادة المخطوطات والأسرى غاية ممكنة وإن كلّفتنا تنازلات يعرفها أهل المفاوضة والسياسة، لكنّ العاقبة لم تجرِ كما اشتهينا.

خشينا أن تشيع حادثة القتل، وأن ينتشر نبؤها في بلاط الطاغية، فيتخذها حُجّةً للتعنت والمماطلة أكثر. ولم تكد تمرّ بضعة أيّام حتى شاع بين العامة أنّ هناك جريمةً محيرة وقعت في أطراف الإسكوريال، وأنّ الراهب الحارس لغرفة مخطوطات سرية قد وُجد صريعاً في ساعةٍ من الليل، وأنّ ثمّة آثاراً لاقتحامٍ أو تسلّل، وراحوا

يتداولون الأخبار همساً، فتوعّد بعضهم الفاعل بعقوبةٍ صارمة، وأبدوا ارتيابهم في كلّ غريبٍ يحوم حول الإسكوريال أو الدير الصغير.

أما ملك النصارى وحاشيته، فقد دعونا لمجلس مفاوضةٍ نهائيٍّ لاختتام ما بدأناه من أحاديثَ حول المخطوطات. وكنا ننتظر تعهّداً جِدّياً بالسماح بنقل بعض أجزاء مكتبة زيدان السعدي، لكنهم اختلقوا أعذاراً وذرائع جديدة، عن الرهبان الرافضين لخروج أيّ كتابٍ مسّته أياديهم إلى بلاد الكفار، مؤكدين إصرارهم على عدم التفريط فيما يعتبرونه كنزاً لا قِبَل بتعويضه.

لم أرَ بدّاً من البقاء في موقفِ المراوحة والدفاع. كنتُ أخشى إن أكثرتُ الضغط أن يضربوا صفحاً عن كل شيءٍ، ويختلقوا تهماً لإلصاقها بنا، سيّما بعد تسللنا السرّيّ وإراقة دم الراهب. فصارت استعادة تراثنا المسلوب إلى سرابٍ، فانبريتُ أتظاهر باللين وتقديم حسن النيّة، بيد أنّي أيقنت في باطني تكبُّدَ الهزيمة.

أما شأن الأسرى المسلمين، فإنّ حكايتهم أشدّ إيلاماً. رفضت حاشية الطاغية استعادة أسرانا إلا بمقابلٍ عسير، وبشروطٍ قاسيةٍ أولها الإبقاء على نفر منهم لضمان حُسن تنفيذ معاهداتنا كما يزعمون، وما عرفت الأنام أشد منهم غدراً وخيانة للعهد، قاتلهم اللّه.

وعلى الرغم من استدلالنا بالمواثيق التي أقرّها أسلافنا مع النصارى من قبل، ازدادوا تعنّتاً بوصولِ أنباءٍ عن توتّرٍ لم أفهمه إلا بعد حين.

عرضنا عليهم ما كان في حوزتنا من عروضٍ للتبادل أو الفدية، فتكلّفوا الوعود الزائفة وأجّلوا النظر، واكتفوا بالكلام عن قلة قليلة من الأسرى، جلّهم لا يُمثّل لهم قيمةً، تاركين وراء قضبان الحبس

رجالاً ونساءً وأطفالاً لا يُحصى عددهم، فعدنا من البلاط إلى دارنا مغلوبين على أمرنا، وقد خبا في صدورنا عزمٌ حملناه معنا من بلادنا.

وبقيتُ أيّاماً في قلقٍ عظيمٍ خشية أن يقبض القوم على عبد اللّه أو يصلوا إلى معرفة علاقة له بنا. وحقّاً لم يطل الأمر حتى تسرّبت إلينا من بعض عيوننا همساتٌ تقول إنّ المشتبه فيه بالقتل قد وقع في أيدي رجال الكنيسة عند محاولته الهروب خارج مدريد، وقُبض عليه في أطراف إحدى قرى الضواحي. وقد جرى التعامل معه بعنفٍ هائل، وحُكم عليه بتهمة الخيانة والهرطقة وقتل راهبهم عمداً.

والعجيب أنّ الذين تسلّلت منهم الأخبار أقسموا أنّ عبد اللّه لم يفُه بأيّ اسمٍ يشير إلينا، بل تحمّل قهر العذاب وحده، وادّعى أنّه تسرّب بمفرده إلى الدير الصغير طمعاً في سرقة بعض النوادر، وأنّ الراهب رآه فوقع الاشتباك. لم يذكر اسم الغسّاني ولا أحداً من المغاربة. فحمدتُ اللّه في سرّي على وفاء ذاك الرجل وعدم كشفه أمر سفارتنا، وإن جزعت لهول المصير الذي ينتظره.

سمعتُ أنّه قد يُعذّب أو يُعدم سرّاً، وربما يُدفَن في أرضٍ حقيرة. فكان في ذلك خِتامٌ شنيعٌ لسفارة أردنا منها الخير لجمعٍ من المسلمين في الأسر، ولكنوز وعلوم فقدناها فامتدت لها يد الكفر، فإذا بنا نبتلى بهلاك رجلٍ من بني جلدتنا، في سبيل لم يُكلّل بالتوفيق.

أدركتُ أنّ المقام في أرض العدو ما عاد يجدي، وقد انقطعت السبل أمام مطالبنا. اجتهدتُ في البدء بتدوين سطور أرفعها إلى السلطان بعد عودتنا إلى الديار سالمين، أسرد فيها المداولات مع الطاغية، وأُبيّن قدر ما أمكننا تحصيله من عهود في باب الأسرى. أمّا مكتبة زيدان السعدي فلم يكن بوسعي إلّا القول

إنّهم رفضوا إعادة أكثر مخطوطاتها، ولم يُبدوا كبير اهتمامٍ بإبرام العقد أو العهد في هذا الشأن.

ثم أذنتُ لمن معي بالتهيؤ للرحيل، ورتّبتُ وسيلة الإياب بحراً. وما إن بزغ فجر يوم السفر حتى غادرنا أسوار مدريد، مكتفين بوداعٍ باردٍ مع رجال البلاط، أظهروا فيه المجاملة وحجبوا في قلوبهم ما لا يخفى. قد غدونا عندهم منبوذين إلى حين، فهم لا يأمنون سفارةً عرفتْ عن كثبٍ ما يُخفونه.

ولمّا عدنا إلى بلادنا، بذلتُ ما يجب في لقاء السلطان، ورفعتُ إليه الكتاب الذي عنونته بـ«رحلة الوزير في افتكاك الأسير»، موضحاً المساعي الكبرى التي قمنا بها، وما اعتراها من عقباتٍ مع طاغيتهم. ذكرتُ فيه زيارتي الأولى للإسكوريال، وأوجزتُ مظاهر تعنّت القوم وإصرارهم على الاحتفاظ بمعظم ما لديهم، وحرصتُ على كتمان بعض التفصيلات الخطيرة التي أخشى ذيوعها على الملأ، فسكتُّ عن حادثة مقتل الراهب، وعبد اللّه الأندلسي وما أوصله إلينا من معلوماتٍ، لما قد تجرّه علينا من تبعاتٍ جسيمة، ولأن السياسة لا تقوم إلا على الحزم والستر في أمور بعينها. فلم أُودعها إلّا في أسفاري الخفية، وقد جمعتُ فيها ما لو أذكره في الكتاب، عسى أن يأتي يومٌ تتهيأ فيه الظروف لإخراجها، أو تُدفن تحت رُكامٍ آخر إلى أن يشاء اللّه لها الظهور.

ورغم مرارة الفشل في تحقيق المراد من المخطوطات والأسرى، وقر في صدري أنّ ما عانيته وما أفاده صحبي هو درسٌ يعيننا على فهم طبيعة القوم وتجاربهم في المفاوضة والخداع. فتزيد خبرتنا بدسائسهم، ونُعدّ العدّة لزمانٍ نستعيد فيه ما ضاع، إن أذن الرحمن بذلك.

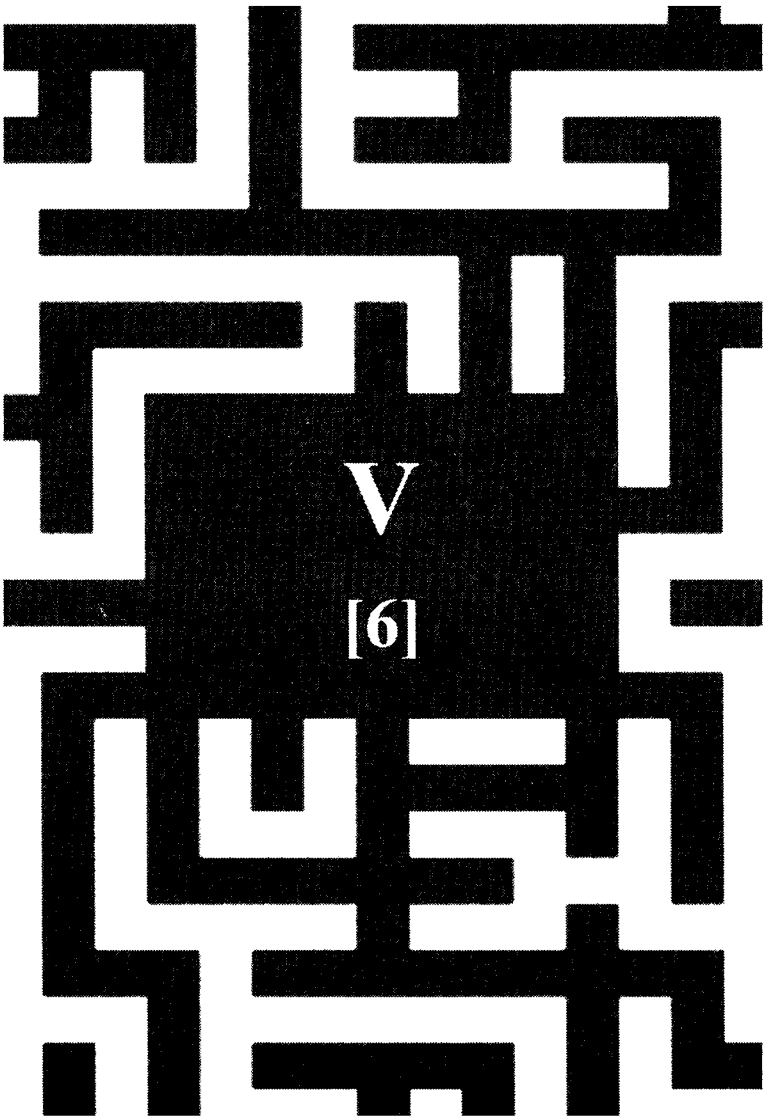
أمّا «رحلة الوزير في افتكاك الأسير»، فأودعها عند السلطان، رجاء أن تكون وثيقةً لما جرى، وتُذكّر من قرأ ما فيها بأنّنا سعينا في افتكاك الأسرى وصيانة التراث، ولو لم نبلغ المطمع كاملاً.

بهذا أختم ما خطته يداي وأملاه قلبي، راجياً من العلي القدير التوفيق والعفو، ومبتغياً رضاه في السعي لرفعة أمر الدين، وإعلاء كلمة رسوله الصادق الأمين.

وحرّر في شهر شعبان، من سنة اثني عشر وألف، وسلامٌ منّا على مَن اتّبع الهدى.

والحمد لله ربّ العالمين.

*


V
[6]

V

[6]

أيام في قرطاجنة

(1947)

مكتبة
t.me/soramnqraa

«أرى في رواية **الجبل السحري** لتوماس مان رحلةً تأمّليةً في معنى الزمن والحياة. واجه هانس كاستورب وأقرانه صراعاً داخليّاً عكس ما يجري في أوروبا آنذاك من تحوّلاتٍ وأزماتٍ ثقافية. في نظري، يخلق تزايد الضغوط النفسية والاجتماعية في عصرنا هذا مناخاً مماثلاً، يُعيد إلى الأذهان ما عانته شخصيّات توماس مان من أسئلة حول الغاية والمصير. إنه نص راهن في طرحه للفارق بين العزلة والحرّيّة، وبين حدود العقل ومساحات الروح. يذكّرنا بأنّ الإنسان سيواصل بحثه الحثيث عن معنى لا يفهمه، وطمأنينة لا يدركها، مهما اختلفت الأزمان...».

رشيد بناصر – المحاضرة الخامسة – الأربعاء 4 مارس 2015

الغرفة 8 – الطابق 2

آنا فان دير فارت

ظهر الخميس 10 يوليو 1947

تمنحني شمس طنجة طاقة غريبة، تدفعني دوماً إلى التقاط لوحتي وألواني والارتماء في فضاء المدينة، باحثةً عن رسم كل ما قد يجتذب ناظري.

نزلتُ إلى قاعة الطعام في الدور الأرضي، ففوجئت بجمال النور المتسلل عبر النوافذ الواسعة المطلة على الزقاق، وتابعت انهماك الخادم المغربي في ترتيب الطاولات ووضع الأطباق. شدّني هدوؤه ونشاطه؛ فهو يُنجز مهامه دائماً وكأنه في سباقٍ مع الزمن، دون أن يفقد شيئاً من رصانته.

حيّيته بلغتي الفرنسية الركيكة، فابتسم مواصلاً عمله.

نظرتُ إليه طويلاً، وقد تقرر في نفسي أن أبدأ يومي برسم سكتش سريعٍ له، وهو يعيد ترتيب إحدى الطاولات.

وبالفعل، جلست إلى طاولة أخرى جانبية، وانهمكت في عملي الصباحي المحبب، فلم أنتبه إلا بعد وقت لدخول أولاف، بوجهه الشاحب ونظراته القلقة المعتادة، والتفاته المتشكك الذي يوحي دوماً بخشيته من شيء ما. لوَّحتُ له بيدي، فردّ التحية هامساً ببضع كلمات، لا أدري إن كانت بلغته الأم أم بلغةٍ أخرى اخترعها لنفسه، المهم أنه

جلس إلى طاولةٍ منعزلةٍ في زاوية القاعة، وراح يُقلّب صفحاتٍ بدت من موقعي مليئةً بالرسومات والملاحظات. لكأنه يُجري أبحاثاً لا يدري أحد ما تفاصيلها.

ألقيتُ نظرةً على الكراسة التي رسمتُ فيها الخادم قبل لحظات، وأعجبتني بساطة الحركة التي التقطتها: كتفه المائل قليلاً، انحناء ظهره أثناء خدمته، ووسامة ملامحه اللافتة.

قفزت فجأةً صورة لورا إلى ذهني، ومحاولاتها المتكررة للتقرب من الخادم، واستماتتها في محاولة كشف سر صمته الدائم، مقابل توتر عارم لدى زوجها، وابتسمتُ خلسةً مستعيدة مشهد غيرتهِ الطافحة التي لم يُفلح في إخفائها. بدا لي حبّه لها واضحاً، مع مخاوفَ تُراوده ربما.

علّمني الرسمُ تتبُّعَ ملامح البشر وسبر أغوارهم فقط عبر ملاحظاتي الدقيقة، لذا تراقصت الأسئلة في أعماقي عن هذين الزوجين: ما سر زواجهما الغريب؟ وهل يمكن لشابة تتفجر أنوثة وحيوية ونشاطاً، أن تعيش زواجاً مفعماً بالسعادة مع رجلٍ يكبرها بعشرين عاماً أو أكثر؟

تعالت الجلبة لتنتزعني من أفكاري، ففهمت أن دونيا فاليريا قادمة، بصوتها القوي الذي يخفي حنواً مبطناً، وسعياً دؤوباً لإرضائنا.

لم تشغل بالها بإلقاء تحية روتينية، بل قالت بإنجليزية مفهومة وإن خالطتها لكنة بلدها:

- لا يمكن لرسامة أن تظل حبيسة الجدران، ابحثي عن إلهامك في تنوع هذه المدينة، رسماً وألواناً...

ابتسمتُ لها، فمنذ وصولي وأنا أشعر نحوها بمودةٍ خاصة، كأنها أمٌّ ثانية ترعانا جميعاً هنا، وما إن بدأ بيننا حديث حميمي حتى لمحتُ خلفها وصول الزوجين الإيطاليين مع طفلهما، الذي بدا متذمراً قليلاً،

ربما لأنه لم ينل قسطه الكافي من الراحة بعد رحلة طويلة قادت الأسرة إلى هنا.

أشارتْ لي الأم بيدها، وألقت تحيةً سريعةً بنبرتها الإيطالية المرحة، رغم أنني لا أعرف بعد اسمها، ولم نلتق إلا مساء أمس عندما حلّوا بالمكان ليلاً، ووجدوني مشغولة بكراسة رسمي في زاويتي المفضلة، لكنني ارتحت لنظراتهم العفوية المبهورة، وما يبدو تواضعاً ورغبة طبيعية في التعرف على الجميع، فعقدت العزم على تخصيص إحدى لوحاتي لهم.

عدت لسؤال دونيا فاليريا عن المفاجأة التي وعدتني بها، فأشارت بحركة من يدها إلى الخادم، موجهة سبابتها إلى أعلى، فاقترب مني، وعرض بعينيه مساعدتي في حمل أغراضي فشكرته، ليتقدمني عبر الردهة، وصولاً إلى ممرٍّ ضيقٍ يقود إلى سلّمٍ حجريٍّ متعرجٍ، لا علاقة له بسلّم الطوابق المعتاد.

انتهى السلّم بسطح النزل، فكدت أصرخ من شدة الفرح، بدا المشهد بديعاً: رمال البحر في الأفق، وبيوت طنجة البيضاء والزرقاء تعانق تلالاً خضراء، والضفة الأخرى تلوح على مرمى حجر.

مدّ لي الخادم كرسياً صغيراً ثم انسحب بهدوء، مكتفياً بابتسامته المعهودة للردّ على كلمات شكري.

أخرجتُ كراستي من حقيبتي، وقد خيّل إليّ أنني مثل جائع وضعوا أمامه طاولة عامرة بالأطعمة المتنوعة. احترت من أين سأبدأ، ولم أدر إن كنت سأركز اهتمامي على البنايات المتراكمة في الأفق، أو زرقة البحر ذاته، أو حتى ما بدا لي تناسقاً بين مآذن المسلمين وأبراج الكنائس، لعلّي أفلح في الإمساك بسر ذلك المزيج الغامض بين الشرق والغرب هنا.

يا له من إحساسٍ لم أعتده من قبل...

بعد مضي وقت غير معلوم، انسجمت فيه مع عالمي الصغير، سمعتُ خطواتٍ خلفي. التفتُّ فوجدتُ لورا، تقف بحذرٍ قرب الباب الحديدي لشرفة السطح، وتتأملني كمن يخشى إزعاجي. حيّتني بصوتٍ عذبٍ، وقالت إنها تحبّ متابعة عملي، قبل أن تضيف إنها تتمنى ألا يزعجني دخان سيجارتها.

رحّبتُ بها وسمحت لها بالانضمام إليّ. أعجبتُ في سري ببساطة فستانها، وجمال الوشاح الحريري الذي يغطي كتفيها.

تدحرج الحوار الودي بيننا بسلاسة. سألتُها إن كانت سعيدةً بهذه الرحلة، فرأيتُ في عينيها بريقاً وتردّداً معاً. قالت إن طنجة تشبع فضولها للاكتشاف، وقد أصرت هي على قضاء شهر عسلها هنا، ولكنها لم تسترسل كثيراً في الحديث عن علاقتها بزوجها، فقرأتُ في صمتها حيرةً أو ربما بعض الانزعاج، وقررت تغيير الموضوع سريعاً.

مع اقتراب الظهيرة، نزلتُ مع لورا إلى ردهة النزل، حيث جلس زوجها على أريكة جلدية، بالكاد استوعبت وزنه، وقد انخرط في حديث مهمّ مع هانس زوجي. ما كنت بحاجة للاستماع حتى أتأكد أن الموضوع هو مستقبل التجارة والأعمال في أوروبا بعد الحرب.

نهضَ الفرنسي فور رؤيتنا وابتسم للورا، لكني لمحْتُ في عينيه شيئاً من التوتر. ربما انتظرها طويلاً، أو لعله خشي استغلالها غيابه للقاء بالمغربي.

أعلنت دونيا فاليريا اقتراب موعد الغداء، فاجتمعنا حول مائدةٍ دائرية كبيرة، استقرت عليها الأطباق المغربية الشهية، ورائحة البهارات تعبق في الأجواء.

انهمكت عارضة الأزياء، الشقراء الروسية ناتاليا، في سؤال أولاف عن تفاصيل تجاربه العلمية، بلهجة مَن لا تفهم شيئاً لكنها تريد أن تبدو

بمظهر المهتمة، بينما انشغل الإيطاليان (واسمهما لويجي وفرناندا كما أسرّت لي دونيا فاليريا) بملاطفة ابنهما المشاكس، الذي تعلّم على ما يبدو كلمة «لا» بدارجة المغاربة، وراح يكررها ضاحكاً. انتقل حديث بول مع هانس إلى المقارنة بين الفنين الفرنسي والهولندي، ولورا تتناول لقيمات من طعامها بنظرات مشتتة.

وفي غمرة الأحاديث المتقاطعة، التفتُّ إلى الخادم المغربي، أثناء مناولته الصحون والكؤوس للحاضرين، شاعرةً بتجدد النظرات المتبادلة والخفية بينه وبين لورا. وهو ما لم تخطئه عيناي. بل إن لفتة سريعة مني نحو ناتاليا أكدت لي أنها تشاركني الظن، وكأن معظم الحاضرين يتابعون في سرّهم هذا الخيط الرقيق اللامرئي، بين الفرنسية والمغربي، دون أن يجرؤ أحدهم على ملامسته، أو لعلهم مستمتعون جميعاً بمشهد قد تبث تطوراته اللاحقة شيئاً من الحيوية في رتابة أجواء نزل قرطاجنة الصغير...

*

الغرفة 11 - الطابق 3

أولاف برناردسن

صباح الجمعة 11 يوليو 1947

أعلمُ يقيناً أنّني ذو عبقريةٍ لا تُضاهى، حتى لو تجرأ أولئك الحمقى على طردي من مجلسهم العلمي التافه، الذي تواضعت وانضممت إليه في لحظة ضعف.

لا يمكن للأغبياء فهم نظرياتي، وهم محرومون من حيازة رؤية ثاقبة مثلي، تمكنهم من تجاوز الحدود العلمية التقليدية، فكان من الطبيعي إذن أن يتفقوا على اتهامي بالجنون، لا لشيء سوى لأنهم عجزوا عن مواكبة قفزاتي العبقرية الهائلة.

فلينتظروا قليلاً، وليهنؤوا باحتقارهم وسخريتهم، فقريباً سيرون كيف سيغير اكتشافي وجه الفيزياء إلى الأبد.

يوفر لي هذا النزل الصغير ما أريده من هدوء وابتعاد عن أجواء المختبرات التي لا تحمل من صفتها العلمية سوى الاسم، حيث يمضي العلماء وقتهم في محاربة بعضهم، فلا يتحالفون إلا ضد أمثالي.

لكن لا أحد هنا من النزلاء له قدرة ما على استيعاب مدى أهمية عملي...

ينظرون إليّ دوماً باستغرابٍ، وقد يتحاشونني، بدءاً بمدبرة النزل، الإسبانية المدعوة دونيا فاليريا، وانتهاءً بكل الأزواج الأوروبيين الذين

يرمقونني بنظراتٍ بلهاء، تشي أحياناً بثقتهم في اعتباري مهلوساً يعيش في عالم خيالي يخصه.

لو يعلمون الحقيقة التي ستزلزل حاضرهم ومستقبلهم.

استيقظتُ باكراً اليوم، على وقع طرقات الرياح على النافذة الخشبية القديمة، فغادرت فراشي بسرعة، وذهني يستعيد آخر محطة توقفت عندها في تجربتي بالأمس.

سأواصل العمل على جهازي الذي شرعت في تطويره منذ سنوات، ومتى أتمكن من حل بعض المعادلات المستعصية، فإن هدفي برصد ذبذبات الكونية المتخفية سيتحقق، وسيفتح حينها الباب أمام ظهور مصدر طاقي جديد، تفوق قوته كل ما عرفه البشر حتى الآن.

وضعتُ الجهاز فوق الطاولة الخشبية، وبين أكوام الأوراق والرسوم الهندسية، شرعت في الضغط على بعض أزراره، وعيني على المؤشرات، ثم عدت إلى مفكرتي وسجلت بعض الملاحظات. أنا أقترب من هدفي، لكن حقلاً مغناطيسياً ملعوناً يمنعني من ذلك...

تتابعت دقات على باب غرفتي، وإذا بذلك الخادم الأخرس الأبله، يطلّ برأسه.

لا أدري لماذا تحتفظ به مدبرة النزل الشمطاء، بل إنها تفرض علينا التكيف مع طبيعته والاعتياد على فهم إشاراته.

أي مجنون هذا الذي يقرر الاعتماد على خادم أخرس في طاقمه؟

نظرتُ إليه بريبةٍ، وتقلصت عيناي محذراً. لن أسمح له بالدخول الآن وأنا في غمرة انشغالي.

أشعر أنه يراقبني أحياناً من حيث لا أدري، فهل يضمر النية لسرقة ابتكاري؟ هو مجرد مغربي أبله يستحيل أن يفهم ما أفعل، لكن أحداً ما قد يكلفه بهذه المهمة...

أراد التقدم بضع خطواتٍ نحو سريري، لكنني رفعتُ يدي بصرامةٍ وقلتُ بفرنسيتي الثقيلة: «ليس الآن! اخرج!»، فبدا عليه الذهول، وتراجع على الفور مغلقاً الباب.

بعد ساعةٍ من العمل المتواصل في البحث عن طريقة أخرى لتجاوز الحقل المغناطيسي، أحسستُ بالجوع، فقررتُ النزول إلى قاعة الطعام، حاملاً معي حقيبة أوراقي. هل أنا مجنون حتى أتركها ولو لدقائق معدودة؟

كل شيءٍ في هذا النزل قديمٌ جداً، الهواء نفسه يحمل رائحة غريبة مفعمة بالرطوبة. أطالع عند نزولي كل تلك الجدران حيث علّقت دونيا فاليريا صوراً عتيقة لمناظر تجسد أجواء طنجة.

أجل هي جميلة فعلاً، وقد أفكر في التجول في أزقتها وأحيائها فيما بعد، لكن ذهني مشغول الآن بما هو أهم...

دخلتُ قاعة الطعام فساد الصمت. تصنّع بعضهم التجاهل، فيما نظر آخرون نحوي بحذر.

رأيتُ الهولندية تمسك بدفتر رسمها، وتتطلع إليّ كما لو كنتُ تجسيداً للوحةٍ غريبة، من تحسب نفسها؟ هي مجرد رسامة فاشلة بلا موهبة، تستغل زواجها من رجل فاحش الثراء لكي تفعل ما تريد.

لولا صبري لضربت ذلك الولد الصغير، وقد تجرأ بالأمس على مناداتي بالساحر. أتحسب أنني لم أفهم لغتك، واهم أنت أيها الشقي...

أما الثري الفرنسي العجوز فقد جلس بجمود كعادته، عالماً أن النهوض سيكلفه جهداً لا قِبَل له به، وبجواره زوجته الشابة التي تنظر إلى الجميع بريبة، وترمق الأخرس بنظرات معسولة.

يا لها من أفعى لعوب، يبدو أنها تهوى ألعاب الخيانة الخطرة.

نعم، أنا عالم فيزياء، ومشغول طوال الوقت بأبحاثي، لكنني زوج أيضاً، وأفهم الكثير في ألغاز النساء...

عبرت سريعاً نحو طاولةٍ بعيدةٍ عن الجميع، وهم يتطلعون إليّ كما لو كنت حيواناً غريباً حبيس قفص.

أين ناتاليا؟ هي الوحيدة التي تبدي اهتماماً ولو مصطنعاً بي، لكنها مجرد شقراء مغفلة، لا شك في أنها غارقة بعد في نومها الطويل. تستحيل رؤيتها قبل منتصف النهار في أفضل الأحوال.

لا بأس...

عندما سأتمكن من وضع آخر اللمسات على جهازي، وبالتالي البرهنة على صواب نظريتي، سيتمنّون جميعهم التقرب مني، والتذلل إليّ، لكن الأوان قد فات، فقد ضيعوا فرصتهم.

بعد ساعة تقريباً، أحسست بالضيق، مع توالي تعسر حلول معادلاتي، وفك رموز قراءاتي الكهرومغناطيسية، فغيرت المكان، وقررتُ الجلوس قليلاً في الردهة.

سأمنح هؤلاء الحمقى نزراً من اهتمامي، وأؤكد لهم أنني لست بمعزل عنهم، وأنني قادرٌ على الاندماج متى أردت.

انهمكت آنا في متابعة الطفل الصغير وهو يلعب في الفناء. وعندما رأتني اقتربت مني وسألتني بالإنجليزية مبتسمة:

- ما طبيعة المشروع الذي تعمل عليه؟

ليس هذا من شأنك. أجبتها متحدّياً.

نظرتْ إليّ وكأنها تحاول فهمي، لكنها رأت في عينيّ ما أخافها ربما، وانسحبت بسرعة.

تريد هكذا، ببساطة، معرفة طبيعة مشروعي؟ يا لها من مغرورة...

كدت أصرخ وقد رفس الطفل الإيطالي قدمي وولى هارباً صوب

أمه، التي انطلق لسانها بكلمات إيطالية معتذرة، فتجاهلتها، وفي نفسي غيظ مكتوم، وسعي محموم للانتقام من هذا الشيطان الصغير.

أخيراً ظهرت ناتاليا، وهي في أبهى حلّتها. منحتني ابتسامة عذبة وهي تقول من بعيد:

- أترغب بمرافقتنا في جولةٍ بالمدينة؟

تباً، وهل يسمح وقتي بنزهة تافهة مع حفنة من البُله؟

اكتفيت بهزة من رأسي تفيد النفي، ثم عدتُ إلى غرفتي سعياً لإجراء محاولة أخرى في مكان مختلف، حيث قررت تجربة جهازي في سطح النزل، حيث توجد شرفة علوية مناسبة، بلا عوائق اسمنتية كثيرة قد تمنع الإشارات. حملتُ الجهاز بحرصٍ، وتسللتُ نحو الدرج الخلفي، متجنباً أعين الجميع.

وضعتُ الجهاز على أرضية الشرفة، وشرعت في وصل الأسلاك، وقد أوشكت رائحة البحر على إفقادي الوعي من شدة قوتها وقدرتها على منحي انتعاشاً لا يقاوم.

كيف أغفلت هذا الموقع الساحر قبل الآن؟

أدرتُ المفتاح الرئيسي، وضغطت على الأزرار وفق الترتيب المعتاد، فتألق مصباحان، وبدأت أسمع همهمة، وفجأةً، ارتفعت حدة الصوت، ثم انطفأت كل الأنوار.

اللعنة!

صرختُ وأنا أعيد ضبط الجهاز من جديد، وقد أمسكت نفسي عن ركله، عندما سمعتُ وقع أقدام تركض خلفي، فالتفتُّ مرعوباً، لأجد الفرنسية الشابة، وهي تلاحق الأخرس، وتسعى جاهدة للتقرب منه، فيما يتملّص منها هو بصعوبة.

راودهما خجل حقيقي عند رؤيتي، لكنني تظاهرت بعدم اهتمامي

بوجودهما، وجمعت أغراضي عائداً إلى غرفتي، باحثاً عن قيلولة سريعة قبل استئناف العمل.

ليست هذه أول مرةٍ أفشل فيها، لكنني لن أستسلم أبداً.

سمعتُ وقع خطواتٍ جديدةٍ في الممرّ، عمَّ بعدها السكون، قبل أن تبلغ مسامعي أصوات منتظمة مزعجة لصرير سرير حديدي في الغرفة المجاورة رقم 12.

ما هذا التهريج؟ أيحسبون أن عالم فيزياء عاجز عن تبين طبيعة انتقال الصوت عبر الجدران الخرسانية؟

أدركت أن النوم قد ضل طريقه إلى جفوني، فحدّقتُ في السقف، وعقلي يغوص في معادلاتي ونظرياتي، القادرة وحدها على نقلي من مكاني، إلى آفاق أخرى أرحب.

وما على الحمقى سوى الانتظار...

*

الغرفة 12 – الطابق 3

بول دو لامار

مساء السبت 12 يوليو 1947

هل أخطأتُ باتخاذي قرار الزواج من شابة تصغرني بربع قرن؟

أنا واثق من سيطرتي التامة على الماضي، بعدما تخلصت من كل دليل يمكن أن يقود إلى كشف تعاملي السري مع حكومة فيشي خلال الحرب، لكن الحاضر والمستقبل بيد هذه الفاتنة اللعوب.

أتطلع إليها فأحتار إن كنت مغرماً بها كامرأة استثارت مشاعر ورغبات ما كنت أدري بوجودها من قبل، أم متيماً بها باعتبارها ابنة مفترضة، تداعب حلم أبوة أصررت لسنوات على دفنه، مكرساً نفسي لعشق واحد وأكيد: المال.

ورغم شعوري العارم بالزهو، لأن هذه الأنوثة الطاغية كانت من نصيبي أنا، إلا أن القلق العابر الذي وأدته بسرعة كان في محله، إذ أصرّت كل الصحف الباريسية على نشر خبر الزفاف في اليوم الموالي، مع التلميح أو حتى التصريح بالتساؤل المنطقي عن مصدر الثروة الغامضة التي مكنتني من صرف كل هذه الأموال في بلد بالكاد ينفض عنه غبار الحرب.

يوم وضعت الحرب العظمى أوزارها (وقد اتفقت الآن كل الصحف والإذاعات الآن على تسميتها بالأولى، لتمييزها عن الثانية التي

انتهت قبل سنتين) لم أكن سوى جندي بائس، أعلن وطنه انتصاره في الحرب، فيما أعلن هو إفلاسه.

خسرت وقتها كل شيء، باستثناء حياة قُدِّر لها أن تطول، بعدما أنقذني جندي لا أعرفه، خلال معركة السوم الرهيبة، من رصاصة كادت تمزق صدري وترديني قتيلاً، ليكافئه الرامي على الجهة المقابلة برصاصة أخرى اخترقت ركبته.

اسمه بونوا، ولم أدرِ وقتها أن خنادق السوم التي غادرناها أحياء بأعجوبة، ستوحد مصيرينا إلى الأبد...

صحيح أنني كنت مفلساً بعد الحرب، لكنني حزت عقلاً راجحاً وسرعة بديهة، مكّناني من فهم ما يحتاج إليه بلد منهك، فاكتسبت خبرة كبيرة في ميدان البناء، ومعرفة واسعة بخطوط وسلاسل الإمداد، فبدأت وسيطاً، رأسماله لسانه وحسن تدبيره لعلاقاته، قبل أن أطور مهاراتي وأتمكن في بدايات عقد العشرينيات من افتتاح مكتب متخصص في استيراد ونقل بعض مواد البناء، لأصعد درجة في سلّم حلمي بالثراء.

لم تكن علاقتي ببونوا قد انقطعت بعد الحرب، بل بالعكس، إذ حرصت دوماً على التواصل معه، ومعرفة جديده، فوقعت أسير اضطراب مستمر، مع متابعتي لانغلاقه المتطرف على ذاته، واكتفائه بلعن الظروف التي حوّلته إلى أعرج لا رفيق له سوى عكازه، رغم أنه بالكاد في منتصف العشرينات من عمره.

لم يكن الراتب الهزيل بكافٍ طبعاً أمام شهوته المتعاظمة تجاه الشرب، فتحركت عقدة الذنب في أعماقي، وخصصت له ما يشبه الراتب الإضافي من أرباح المكتب، ليكون ذلك أشبه بالوبال الذي لم يحل المشكلة، بل عمّقها أكثر، خاصة وأن هذا الوبال قد تجسد على هيئة امرأة اسمها: جاكلين.

هل كان هذا اسمها الحقيقي أم اسماً «فنياً» مستعاراً؟ لا أدري...

المهم أن جاكلين كانت مزيجاً من كل شيء داخل هذا الملهى في حي مونمارتر، راقصة ومغنية وعارضة أزياء (إن كان بالإمكان اعتبار قطعتي ثوب متلألئتين بالكاد تخفيان أعضاءها الحميمية زيّاً)، ولا علم لي بتفاصيل الظروف التي جعلت علاقتها ببونوا تتوطد بتلك الطريقة الغامضة.

أفهم بشكل جلي سبب تسمية تلك الحقبة بـ«السنوات المجنونة»، لأن المنطق توارى إلى الخلف، عاجزاً عن فهم ما يجري، ليحل المال محله، ممسكاً بزمام الأمور، خاصة مع استيراد النموذج الأميركي بكل حذافيره، من إدارة الأعمال إلى نوعية الموسيقى الصادحة في الحانات.

تضاعفت أرباحي بشكل لم أصدقه أنا أيضاً، فيما بدا بونوا غارقاً حتى أذنيه في حياته الجديدة الغريبة، وقد ارتبط بجاكلين، غير آبه لفارق السن بينهما (الذي يتجاوز عشر سنوات)، وراضياً بدوره الضبابي في المزج بين مهمات العشيق والحارس الشخصي ومدير الأعمال، قبل أن يتعقد الوضع أكثر، بحمل جاكلين ثم ولادة طفلة رائعة الجمال، اختار لها اسم: لورا.

لم يجد نصحي آذاناً مُصغية، ربما لأن لتلك الحياة الليلية سحرها وسرها الخاص الذي لم أفهمه يوماً.

وقرر المنطق الذي صمت طويلاً التدخل أخيراً، لعله يضع حداً لكل هذا العبث.

لكنه اختار أسوأ طريقة ممكنة، عندما احتضن الملهى الليلي ضيفاً جديداً، علمت فيما بعد أن اسمه إرنست همنغواي.

لم أكن خبيراً يوماً بدهاليز النساء، لكن المآل الذي انتهت إليه الأمور جعلني واثقاً تماماً من أن جاكلين قد أدارت لعبتها بدهاء، إذ

بدأت بالتجاهل، ثم إبداء التبرم الصامت، فالانزعاج الصريح، قبل أن تتراجع تدريجياً، وصولاً إلى التماهي التام مع إشارات وتلميحات الأميركي.

وكل هذا أمام ناظري بونوا، الذي شعر لأول مرة بتهديد حقيقي للأسطورة التي بناها داخل أسوار ملهى مونمارتر.

رحلت جاكلين مع همنغواي، باحثة عن فرصة أو ذريعة لتعويض ندمها على التورط بالحمل وولادة طفلة ربما لم تكن مدرجة يوماً في حساباتها.

كان جرح كبرياء بونوا قاتلاً، فعادت حالته النفسية للتدهور، قبل أن تتفاقم بانهيار عضوي فسّره الطبيب الذي تابع حالته بوجود اضطرابات مفترضة في وظائف الكبد نتيجة الإفراط في الشرب، ومشاكل تنفسية ناجمة عن آثار استنشاق متهور قديم لكمية من غاز الخردل خلال الحرب، فكان الاحتضار بالتالي حتمياً.

- لورا، ابنتي، لا تتخل عنها، أرجوك...

غالبت يومها دموعي، والصغيرة ممسكة بيدي، غير مستوعبة لحقيقة ما يجري بعد دفن والدها، فيما استحوذ عليَّ شعور يشبه اليتم، وقد فقدت صديقاً فريداً من نوعه، لم يجمع بيننا شيء مما يميز باقي الصداقات، لكنني صرت أعتبر نفسي مسؤولاً عنه منذ اللحظة التي مزقت فيها الرصاصة ركبته، بعدما أنقذني من موت محقق.

ألحقتُ لورا بمدرسة داخلية في سويسرا، دون أدنى اعتبار للتكلفة الباهظة، معتبراً أن ذلك هو أقل واجب تجاه صديقي الراحل، وليقيني أن ذلك سيكون الحل الأنسب، ما دامت بلا أهل، وقد فضلت أمها نسيانها.

ومضت الأعوام، انتهى جنون عقد العشرينيات بأزمة اقتصادية

طاحنة، تسبب بها الأميركيون كالعادة، وكدت أفقد كل ثروتي، لكنني تمكنت من الإفلات بأقل الأضرار، ليدخل عقد الثلاثينيات ملبداً بغيوم الشك، وقد تأكد للكل أن رخاء الماضي قد ولى، وأن الحرب التي اتفقوا على نسيانها، قد تكون الحل الوحيد لإعادة ترتيب الطاولة الأوروبية من جديد.

فوجئت ذات يوم، من عام 1935، بمساعدي في المكتب يعلن رغبة إحداهن في لقياي، وبالفعل وجدت أمامي امرأة لا أعرفها، بدأ الشيب يغزو شعرها، فيما ارتدت أسمالاً بالية، وافتقد وجهها لأية ملامح مميزة قد تعرّفني بهويتها.

- أين هي ابنتي؟ أريد أن أراها!

كانت صدمة لا مثيل لها، فالحطام الماثل أمامي ما كان ليشبه جاكلين، التي اختفت قبل أزيد من عشر سنوات، بأي حال، لكن لحظات إضافية من التدقيق، مع بذل جهد إضافي في قمع دهشتي الظاهرة، أكدت لي ذلك بالفعل.

عجزتُ حينها عن الإتيان بأي تصرف مناسب، ففي نهاية المطاف هي والدة لورا (وإن لم تتحول علاقتها ببونوا إلى ارتباط رسمي)، وهي الأحق بها، لكنني خشيت على الفتاة من ضياع مستقبلها، إن هي غادرت المدرسة السويسرية الداخلية الراقية، وارتمت في أحضان المجهول، مع أم تخلّت عنها ماضياً في أول فرصة...

لكن اللقاء الذي جمعهما بعد عودة لورا من المدرسة، وأنهار الدموع التي سالت، جعلت موقفي ضعيفاً أمامهما، فتركت للفتاة حرية اتخاذ القرار، وقد كان متوقعاً بالبقاء مع أمها لبدء فصل آخر في حياتهما.

ثم اندلعت الحرب من جديد، كما كان متوقعاً، لكن بوتيرة أسرع، فانهار الجيش الفرنسي ببساطة، ودخل هتلر باريس بجيوشه الجرارة،

التي رفعت الصليب المعقوف في مشهد مخيف، مثّل خير تعويض للكبرياء الألماني الجريح منذ نهاية الحرب الماضية...

فهمت أن أي مجال للمقاومة لن يعني سوى سحقي بلا رحمة، والاستيلاء على ثروة أمضيت سنوات في جمعها، فتعاملت مع الواقع الجديد بحذر، فربطت الاتصال بالألمان والفرنسيين المتعاونين معهم، بحثاً عن صفقات قد تدر أرباحاً، أو تقيني شرّهم على الأقل.

لكن دون إثارة انتباه أو حفيظة طرف آخر يتحين الفرصة للنهوض والإعلان عن مواصلة القتال...

كانت أياماً معقدة، انشغل فيه كل بنفسه، لذلك لم تبلغني معلومة واحدة عن مآل جاكلين ولورا، إلى أن حلّت احتفالات رأس سنة 1943، وطالعتني في إحدى الصحف الناطقة بلسان الواقع الجديد، صورة تحتل صفحة كاملة في زاوية الإعلانات، تظهر جاكلين بكامل أنوثتها وإغرائها، كما كانت منذ ما يقارب عشرين عاماً، قبل أن تتضاعف دهشتي عندما قرأت اسم لورا، وإعلاناً عن حفل ضخم سيشهده ملهى ليلي معروف، يرتاده على الخصوص كبار ضباط الجيش النازي المتواجدون في فرنسا.

لم أتمالك نفسي، فحجزت طاولة في الملهى، وتعمدت القدوم متأخراً في تلك الليلة الصاخبة، لأرى أمامي ما كنت أخشاه بالضبط.

لورا، الطفلة البريئة التي أردت لها مستقبلاً مختلفاً، تكرر بالحرف مشاهد سبق أن جسّدتها أمها قبل عقدين، الفرق هو أن من يتابعونها الآن بعيون جائعة، وهي مستغرقة في غنائها الشهواني المثير للغرائز، ضباط مرعبون ببزاتهم الأنيقة، وقبعاتهم المزينة بجماجم لا دور لها سوى التأكيد على جبروتهم.

ظللت مشدوهاً، فلم أنتبه، مع مزيج الصخب والإنارة الخافتة، لمن تجلس بجانبي، وتمد لي سيجارة، فالتفتُّ لرفضها، لأجد جاكلين، التي

حوّلها تقدم السن والمكياج المبالغ فيه والإضاءة الملونة، إلى مخلوق آخر، بالكاد يحتفظ ببعض آدميته عبر ابتسامة لم تتغير مطلقاً طوال ما مضى من أعوام.

- لا شأن لك بابنتي، أنا لم أرغمها على شيء أصلاً، لكن الأمور جرت هكذا. أنا أدير الآن هذا الملهى، وأكسب به قوتي وقوت ابنتي، التي فهمت اللعبة جيداً، بل إنها تديرها ببراعة مدهشة، تفوق زمني الجميل. هي تعرف كيف تنال مرادها من أي كان دون أن يكلفها ذلك أي خسارة تذكر، ولعلك تفهم قصدي. والآن، لا داعي للمكابرة، غادر المكان وانس أمرنا إلى الأبد.

غادرت الملهى مذهولاً، دون أن أنسى الوقوف طويلاً، عندما حلّت تباشير الصباح، أمام قبر بونوا، وقد اخترت الصمت تعبيراً عن مدى عجزي عن الإتيان بشيء ذي قيمة.

لكن تلك السنة حملت بوادر تغيير حقيقي، فمع تعثّر حملة باربا‌روسا داخل الاتحاد السوفييتي، تصاعد اليقين بإمكانية هزيمة هتلر، بعد سلسلة انتصارات ساحقة أذهلت العالم بأسره، ثم دخل الأميركيون على الخط، فتزايدت الضغوط على المحور الألماني الإيطالي الياباني، وصولاً إلى النهاية التي يعرفها الجميع.

شيئاً فشيئاً، تضعضع وضع الألمان في فرنسا، وتصاعدت عمليات المقاومة، فأدركت أن نهايتهم وشيكة، وبدأت أعد نفسي لمرحلة قادمة لا بدّ لي من دخولها «نظيفاً».

تحررت باريس أخيراً، فانطلقت الأفراح والاحتفالات، وانتشر الجنود الأميركيون في كل مكان، مندفعين بخيلاء الأبطال الفاتحين، فيما اتفق الجميع على تجاهل وجه آخر، من قصة هذا التحرير الباهر.

أصر الزمن دوماً على ملاعبتي بأسلوبه الخاص، فتكرر مشهد

اقتحام مكتبي، لكنها لورا هذه المرة، مرتدية ثوباً ورديا ممزقاً، كشف نهدها الأيمن، فيما سالت الدماء من ذراعها، وانتشرت الرضوض في كامل ما ظهر من جسدها، واجتاحت الدمامل رأساً خيّل إليّ أن خصلاته قد انتزعت منه نزعاً.

- لقد قتلوا أمي دهساً بالأقدام، انتقاماً منها لتعاملها مع النازيين، وكادوا يجهزون عليّ لولا تمكني من الفرار. أنقذني أرجوك، بحق الصداقة التي جمعتك بأبي الراحل!

ما إن ذكرت والدها حتى استعدت رباطة جأشي، واستجمعت قواي، ثم أخفيتها في قبو سري خصصته دوماً لمعاملاتي التجارية الخاصة، ولم أجد أدنى صعوبة في إسكات مساعدي وعاملين آخرين كانا في المكتب لحظة دخولها، ببعض المال.

صحبتها مرة أخرى إلى سويسرا، حيث قضت عاماً كاملاً، تجاوزت فيه نسبياً كارثة مقتل أمها أمام عينيها، كما عولجت فيه على يد أمهر الأطباء، واستعادت نضارتها وشبابها بفضل الجو والهواء الجبلي النقي، وعندما حان موعد عودتها إلى فرنسا، كانت كمن ولدت من رحم الجبال من جديد.

شجعتني ما بدا لي أنها رغبة قوية في البدء من جديد على منحها إدارة مطعم جديد افتتحته، وأطلقت عليه اسم بونوا، تكريماً لروح والدها.

لكن سؤالاً ملحّاً أطلّ برأسه:

ما طبيعة العلاقة بيننا؟

لا يمكن لمن حُرمت من والدها مبكراً، وراوغت وتلاعبت برجال من مختلف المشارب والأعمار، في الملهى الذي أدارته والدتها، أن تميز الفرق بين الحاجة إلى أب والرغبة في وجود رجل بجانبها، كما

لا يمكن لمن يقترب حثيثاً من الخمسين دون وجود امرأة في حياته، أن يميز بين حاجته إلى أن تكون ابنته، أو رغبته في أن تكون حبيبته.

هنا اختلط كل شيء، وانقلبت كل الأدوار، فبدأت هي تُظهر ضعفها الأنثوي الطبيعي تجاهي، لكن بتوظيف أساليب الإغواء ذاتها التي أتقنتها في حياتها السابقة، فيما احتميت أنا بدور الأب، لكن بتهور وخوف فضحا جليّاً رغبتي فيها كأنثى، قبل أن تنتهي تلك المبارزة الخفية بيننا أخيراً بعرض الزواج، باعتباره حلاً سينهي التباس الأحاسيس بيننا.

هنا، وهنا فقط، تسللت الطفلة شيئاً فشيئاً لتستحوذ على تصرفاتها...

أصبحت كل طلباتها أوامر واجبة التنفيذ، بما في ذلك القدوم إلى هنا، إلى مدينة طنجة، على الجانب الآخر من المتوسط، لقضاء شهر العسل.

لكن السعادة التي ذقت طعمها لأول مرة بجوارها، بددت كل ما سواها، ولم يعكر صفوها، طوال الأسبوع الأول من مقامنا في هذا الفندق، سوى شعور عابر بالغيرة، وإن لم يكن يستحق مني ثانية اهتمام أو انزعاج.

أأغار أنا من خادم مغربي وضيع وأخرس؟

*

الغرفة 6 – الطابق 2

ماركو فيسكونتي

صباح الأحد 13 يوليو 1947

لقد مرّ يومان على وجودنا هنا، واليوم هو الثالث، وقد بدأتُ أتعوّد على شكل الفندق ورائحة الأكلات المغربية والأصوات العجيبة التي توقظني في الصباح.

أسمع كل يوم أصوات الناس يتكلمون بلغاتٍ مختلفة، وهذا يثير فضولي كثيراً.

أحبّ أن أركض في ممرات الفندق، لكن ماما وبابا يطلبان مني التزام الهدوء وتجنب إزعاج الآخرين.

استيقظتُ اليوم لأجد ماما تقول إن علينا الإسراع للحاق بوجبة الإفطار. أبي في الحمام، يُسرّح شعره ويغني.

نحن في عطلة، فلماذا نستيقظ باكراً؟ لكنني متشوقٌ لأرى من يسكنون معنا هنا. بينهم أشخاصٌ غريبون، يتكلّمون لغاتٍ لا أفهمها، ويرتدون ملابس مختلفة عمّا أراه في ميلانو.

أشعر بأنني أحيا في عالمٍ آخر!

عندما نزلنا إلى قاعة الطعام، رأيتُ الخادم يحمل صحوناً وكؤوساً على صحن كبير، ويحافظ على توازنها بكل براعةٍ، كأنه يقوم بعرضٍ بهلواني في سيرك. جرّبتُ أن أقول له «سلام» بلغة هذه المدينة، لكنني تلعثمت، فنظر إليّ مبتسماً في لطف.

حاولت كثيراً التكلم معه، لكنه يكتفي فقط بهز رأسه والابتسام، فلماذا لا يجيبني إذاً؟

سألت ماما فقالت إنه أخرس، أي أنه شخص يسمع ويرى، لكنه لا يستطيع أن يتكلم.

هل هذا معقول؟

ما معنى أن يوجد بشر عاجزون عن الكلام؟

رأيت مَن قالت ماما إنها مديرة هذا المكان. إنها امرأةٌ كبيرةٌ في السنّ، أكبر من ماما، لكنها تتحرّك بحيويةٍ مثلها. ترفع شعرها للأعلى بطريقة مضحكة، وتضع وشاحاً ملوناً. يخيفني صوتها أحياناً، لكنها طيبة. تسألني كل صباحٍ إن كنتُ قد نمتُ جيداً، وتقترح عليّ أطباقاً جديدة لتذوّقها.

كانت ترعبني، أما الآن فلا.

جلسنا جميعاً إلى طاولةٍ كبيرة، فشممتُ رائحة خبزٍ دافئ شهي، ورأيتُ صحوناً فيها مربّى وفواكهُ غريبةٌ وفطائر. انشغل بابا وماما بالحديث مع الرسامة وزوجها. لا أفهم كثيراً مما يقولونه، وأخبرني بابا أنهما من بلد اسمه هولندا. يتحدثون عن رسوماتٍ غريبة.

أدهشني عدد الأقلام الملونة وتلك الفرشاة الكبيرة التي تحملها المرأة، أحياناً تُخرج دفترها فجأةً وترسم شيئاً أمامها بسرعةٍ عجيبة، حتى إنها قالت لي البارحة إنها تريد أن ترسمني وأنا ألعب.

لكنني خجلتُ وهربتُ!

أما الأشقر ذو النظارات السميكة، فتلفت انتباهي غرابة ملابسه، هو أيضاً يمسك بدفتر يضم سطوراً ورسومات غريبة.

لا شك في أنه ساحر، لكنني أخاف الاقتراب منه، خاصة بعدما دهستُ قدمه عن غير قصد وأنا ألعب، فأحسست أنه يريد ضربي.

هل هناك علاقة بين هذا المكان ورغبة الجميع في الرسم؟

تعجبني الخالة ناتاليا، إنها جميلة، وشعرها أشقر يشبه الأميرات. تراني فتغمزني بعينها وتضحك، فأشعر بخجل غير مفهوم! كانت ترتدي فستاناً أزرق جميلاً، أشارت إليّ باتجاه زاويةٍ في الفناء، فرأيتُ قطةً رماديةً صغيرة، تقف خلف حوض النباتات وتنظر نحونا. فرحتُ جداً، فأنا أحب القطط كثيراً، لكن بابا وماما يمنعان تربية واحدة في البيت، لأننا نسافر كثيراً.

اقتربتُ منها بحذر ومددتُ يدي، فرفعت القطة ذيلها ثم هربت. ضحكتُ وركضتُ خلفها، لكنّها كانت أسرع مني، فجلستُ على الأرض ووضعتُ قطعة جبن. عادت القطة بحذر، أكلت قليلاً، ولمستُ رأسها بلطف.

أحسستُ بأنني حققت إنجازاً عظيماً.

هذا المكان يشبه المسرح، وأنا أراقب الجميع، وأحاول تذكر كل شيء، لأنني سأخبر أصدقائي في المدرسة عن طنجة والفندق الصغير والساحر والبهلوان والرسامة والأميرة والبدين اللطيف الذي تتأبط ذراعه امرأة جميلة. كلّ هؤلاء حاضرون في حكايات أعيشها هنا، في مكان لا يشبه أي مكان آخر عرفته.

أخبرني بابا أننا سنخرج في المساء، وسنحضر عرضاً في مسرح حقيقي، نسيت اسمه لأنه معقد، باناتيس أو سيناتيس، أو شيء ما كهذا، ففرحت، أخيراً سأرى طنجة في الليل: الأزقّة الضيقة، المحلّات القديمة، السيارات القليلة، والناس الذين لا أعرفهم.

صعدت عبر الدرج في سعادة، عائداً إلى غرفتنا للبحث عن سيارتي اللعبة، والعودة بها إلى القطة، فرأيت مشهداً محيراً لم أفهمه:

لماذا يضع زوج الرسامة عينه على ثقب مفتاح غرفة الخالة ناتاليا؟

*

غرفة بدون رقم - الطابق الأرضي

دونيا فاليريا خيمينيز

ليلة الإثنين 14 يوليو 1947

يصفني بعضهم بالصارمة، ويخشى آخرون حدّة نبرتي إذا تلكؤوا في دفع الفواتير أو تقاعسوا في احترام قوانين النزل من نظافة وهدوء، ولو علموا بما أحمله في أعماقي من جروح قديمة، لربما نظروا إليّ بعينٍ أخرى...

قبل زمنٍ طويلٍ، ومع قرب انتهاء الحرب الأهلية، تغيّر كل شيء في حياة أسرتي الصغيرة، ضاعت بهجة برشلونة وسط فوضى الهروب وصخب المعارك في الشوارع الضيّقة. شاهدتُ بعيني الرعب يكتسح الأحياء التي اعتقدناها آمنة، ودوت في أذني صرخاتٌ لا تزال كوابيسي مصرّة على استعادتها حتى الآن.

دخلوا المدينة إذن، واعتقلوا زوجي في حملةٍ عشوائيةٍ طالت الكثير من الرجال. لم نجرؤ حتى على البحث عنه، ولم يعُد إلينا أبداً. لا أدري هل رحل حينها عن دنياي أم نُقِل إلى مكانٍ آخر، كل ما أعرفه أنني ظللت بلا سندٍ يحميني مع أبنائي. استطاعت أمي إنقاذ جزءٍ من ثروةٍ صغيرةٍ احتفظ بها أبي، ورغم أن المبلغ لم يكن كبيراً، فقد أعاننا على الفرار من مدينة حوّلها فرانكو إلى جحيم.

تشتت أمرنا خلال رحلة الهروب، بين الشمال صوب الحدود

الفرنسية، والجنوب حيث اللامكان، فظل أبنائي مع عمّهم، لضمان أمنهم، فيما بقيت أنا مع أمي، لاستحالة تركها وهي في حالتها المنهكة. عجز جسمها المنهار عن متابعة الطريق، فماتت بهدوء، ودفنتُها على عجلٍ في قريةٍ صغيرةٍ، ورحلتُ وحدي إلى ذلك الميناء، حيث تجمهر الآلاف باحثين عن ربع فرصة للمغادرة.

خفتُ يومها من هول المشهد، ومن كآبة البحر الصامت، لكنها بدت الفرصة الأخيرة للنجاة. عبرتُ مع العابرين نحو طنجة، وقد انطوتْ داخلي أحزانٌ بحجم مدينة، لا بل بحجم بلد كامل مدمر.

وصلتُ إلى إفريقيا وما معي سوى حقيبةٍ سوداء مليئةٍ بأسمال قديمة، وصندوق النقود الفارغ الذي ورثتُه عن أبي، شاهداً ربما على كل ما جرى من أهوال.

احترت بين إجباري على فراق أبنائي، واطمئناني إلى أنهم بأمان، ما داموا سيعبرون الحدود، وقد يأتي وقت يتجدد فيه الاتصال.

لسنواتٍ عديدةٍ، عملتُ لدى عائلةٍ إسبانيةٍ ثريّةٍ في طنجة، تعلّمتُ كيفية تنظيم البيوت الكبيرة، ومهارات التعامل مع الزوار. عاملوني بلطفٍ إلى حد ما، ولم يتدخلوا أبداً بذلك السؤال المعتاد الذي مزق الإسبان لسنوات: هل أنت قومية أم جمهورية؟ وإن تواصل شعوري بأنني خادمةٌ غريبةٌ في أرضٍ جديدة.

أرض ما كان ليلها يشبه أي ليل آخر عرفته في حياتي. وقد رأيت فيها مزيجاً بصرياً غامضاً يصعب تفسيره، وخليطاً عجيباً بين رائحة البحر القوية وروائح التوابل العربية النفاذة.

كل نزهة في أحيائها كانت مدعاة للدهشة، وهي الأقرب لأجزاء مقتطعة من أوروبا، أُسقطت بسهولة على أرض إفريقية، فعندما كنت أسير في الشارع الرئيسي للمدينة يوم عطلتي، أتخيل فوراً أنني ما برحت

برشلونة قط. المباني وكأنها انتُزعت من شوارع برشلونة، بشرفاتها الحديدية ونوافذها المزخرفة، فيما تتراص المقاهي على جانبي الطريق، يرتادها الإسبان والفرنسيون والبريطانيون وأجناس أخرى، يثرثرون عن كل شيء وأي شيء، وبتداخل عجيب.

قد أسمع أحياناً موسيقى فلامنكو تتسرب من النوافذ المفتوحة في الليالي الدافئة، فأشعر للحظات أنني عدت إلى إسبانيا، بل وأوشك على نزع حذائي المهترئ والانخراط في الرقص بجنون، لولا أن البحر أمامي يعيدني إلى الواقع. ما زلت في إفريقيا، بعيدة عن أبنائي، وإن تأكدت من بقائهم على قيد الحياة.

أحياناً، كانت تستبد بي رغبة مباغتة في المغامرة، فأقترب من المدينة القديمة، حيث يقطن المغاربة، فتبدو كمتاهة من الأزقة الضيقة، تتراص فيها بيوتهم التقليدية الصامتة، الشبيهة بقلاع أسرار، فيما يعج سوقهم بالتجار المستعدين لبيع أي شيء.

أطل على مناطق المغاربة أحياناً فيخيّل إليّ أنني عبرت ما بين ضفتين، أو حتى زمنين، فهم يعيشون إيقاعاً مختلفاً، لا علاقة له بالحياة في الأحياء الأوروبية، ولا يذكّرك بوجودهم جميعاً على أرض واحدة سوى تداخل نداءات صلوات المسلمين مع قرع أجراس الكنائس، التي لم أزر أيّاً منها منذ وصولي، بل وربما منذ سنوات، عندما اعتبرت الكنيسة نفسها حليفاً وداعماً مباشراً للقوميين في حربهم المدمرة ضدنا.

وعلى ذكر الحرب، فما إن استقر اطمئناني إلى انتهائها وشعوري بالأمان والاطمئنان على مصير أبنائي، منتظرة الفرصة للمّ الشمل، حتى اندلعت حرب أخرى في أوروبا، سرعان ما ألقت بظلالها على طنجة، فاحتل فرانكو المدينة بعد شهور من اندلاعها، مستغلاً انتصارات داعمه الأول هتلر. فقدت المدينة صبغتها الدولية الأثيرة، وانصاعت بدورها إلى

الرعب الذي فرضه النظام الجديد على الجميع، طوال خمس سنوات، انتهت أخيراً بانهيار الرايخ، وانتصار الحلفاء، ليجد فرانكو نفسه مجبراً على إعادة المدينة إلى سابق عهدها. أنقذ ما تبقى

قرر رب عملي وزوجته العودة أخيراً إلى إسبانيا، فدبّ في قلبي الرعب، من إمكانية رميي في الشارع، وإعادتي إلى المجهول، لكنه طمأنني برغبته في تحويل منزله الكبير إلى نزل، يساير عودة طنجة إلى بريقها، وتقاطر الجميع إليها، وعرض عليَّ إدارته، مطمئناً إلى أمانتي وما اكتسبته من خبرة خلال خدمتي له، فوافقت طبعاً دون تردد.

لم يكن المكان بحاجة إلى تجديد كبير، فالمنزل الفسيح بطوابقه الثلاثة يتواجد أصلاً بموقع قريب من المدينة القديمة، التي نهوى جميعاً تلمّس حدودها وأسرارها، يتوسطه فناءٌ بنافورةٍ قديمة، وجدران عتيقة أضفتُ عليها خلال مباشرة الإصلاحات طلاء فاتحاً، وأعدت ترتيب الغرف على الطرازين العربي والأوروبي، احتراماً لاختلاف رغبات الزبائن، ثم سمّيت النزل: قرطاجنة.

لطالما حافظت على شغفي بجعله مكاناً دافئاً، ولم أتقاعس عن فرض قواعد صارمةٍ على النزلاء: أوقاتٌ محددة للإفطار والعشاء، منع التسبب بضوضاءٍ في أوقات متأخرة، والحرص التام على النظافة.

نظام ضروري لا بديل عنه، لضمان راحة الجميع.

أتعامل مع النزلاء، وأسمع قصصهم وأحاديثهم الجانبية، لكنني لا أمنح أحداً منهم ثقتي المطلقة. لا شأن لي بأسرارهم، ولا نية لي بإزعاجهم. هناك شخصٌ واحدٌ في هذا المكان، لم أشكّ أبداً في إخلاصه:

موسى، إن كان هذا اسمه فعلاً...

أخبرني رب عملي السابق أن شاباً فقيراً يبحث عن عملٍ، ويواجه مصاعب جمة بسبب إعاقته، دون أن يفصح عن المزيد.

تساءلت عن طبيعة هذه الإعاقة، وإن كانت ستؤثر على عمله، وفوجئت عندما علمت أنه أخرس. ترددت في البداية، فكيف سيتواصل معي ومع النزلاء؟ لكنني شعرتُ بتعاطفٍ كبيرٍ تجاهه، فهو يسمع ويرى بشكل ممتاز، ويبدو ذكياً للغاية، وقادراً على التعامل مع كل المواقف بسهولة. لم أعرف شيئاً عن عائلته أو الظروف التي أتت به إلى هنا؛ وأدركتُ جيداً أنني وجدتُ في صمته انعكاساً غريباً لصمتي القديم على آلام الحرب والتهجير.

وافقت إذن على توظيفه، بل إنني أعدت تنظيم أسلوب العمل بما يناسبه. وضعتُ لوحاتٍ صغيرةً عليها رموزٌ بسيطةٌ توضّح مهامه اليومية، وأعددتُ بعض الإشارات التي نتخاطب عبرها: إشارةٌ تعني «نريد مزيداً من الأغطية»، وأخرى «أحضر الماء»، وثالثة «تنظيف الغرفة رقم كذا»، وهكذا. وللمفاجأة، وجدته يستوعب هذه الوسائل بسرعةٍ مدهشةٍ، بل ويبتكر حركاتٍ جديدةً تُسهّل التواصل.

عام كامل تقريباً، لم ألمحه يوماً يسرق شيئاً أو يرتكب خطأ واحداً بحق أحد النزلاء. كنتُ أستلقي أحياناً في غرفتي هذه، في ليالي الشتاء الطويلة الدامسة، أو أجلس قرب النافورة، أتذكر أهلي وأبكي مصيري وشتاتي بحرقةٍ. وحده انتبه لدموعي ذات مرة عندما خانت حرصي، حيث وجدني في الفناء وحيدةً، دنَت عيناه القلقتان مني، ومدّ يده بهدوءٍ، كأنما ليقول: «لستِ وحدك».

لم تسعفني لغتي ولا إيماءاتي في شرح شعوري آنذاك. اكتفيتُ بالضغط على يده، فعلم كم أقدّر موقفه. ومنذ تلك الليلة، صرتُ أرى فيه تعويضاً عن جزء من وحشةِ فقدٍ تنهك قلبي.

أعلم أن أغلب النزلاء يتفاعلون معه بحذرٍ أو باستغرابٍ، بل وأحياناً باحتقار، خاصة عندما يشير إليهم بحركاته الخاصة لتيسير فهمه. قد يظن بعضهم أنه غريب الأطوار، أو أنه مغفل لا يفقه شيئاً على الإطلاق. لكنني أراقب وأرى أنه يستوعب كل شيء، بل إنه أذكى بكثير مما يتخيلون.

هو حقاً مصدر الثقة الوحيد الذي أمتلكه في هذه الدار.

أعرف ما الذي يعنيه فقدان مَن نحب، وأعي ألم الترحال بعيداً عن الديار. لا علم لي بتفاصيل ماضيه، لكن شعوراً ما يخبرني أنه لا يختلف عني كثيراً، ولعلنا نتشارك معاً كسراً عميقاً يوحدنا، فالقلبُ الذي مزقه قهر القذائف، لن ينكفئ عن البحث عمّن يضمّد جراحه، ودون أدنى حاجة للكلام...

*

الغرفة 4 – الطابق 1

ناتاليا غروشيف

مساء الثلاثاء 15 يوليو 1947

كم يعجبني أن أُقدّم نفسي للعالم باعتباري عارضةَ أزياءٍ روسيةً، تتنقل بين العواصم الأوروبية بحثاً عن الفرص والمشاركات في عروض الموضة بعد الحرب. هذا ما يراه الناس عموماً في وجهي الفاتن، وعشرات الصور اللامعة التي تتناقلها المجلات. لكن دائرة ضيقة جداً، لا تتعدى أصابع اليد الواحدة، تعلم حقيقة من أكون...

أنا عميلة استخبارات، أو بمعنى أبسط جاسوسة، كُلّفتُ بمهمة سرّية هنا، حيث تتلاقى أجهزة استخبارات قوية، وتتداخل مصالح دول كبرى.

أيام طويلة مضت منذ نزولي في هذا النزل القريب من المدينة القديمة، لم أتخل فيها عن ممارسة ما تدربت عليه لسنوات، حتى صار جزءاً من إنسانيتي...

كتمتُ أنفاسي، أراقب النزلاء بحذر، واعية أنّ لكلٍّ منهم سرّه الخاص. دوري الرسمي هو العارضة الفاتنة التي تلفِتُ إليها الأنظار، بفتنتها وإغرائها، لكنّ نظراتي مشحوذة لرصد حركات كل فرد. كل حركةٍ أو كلمةٍ قد تحمل دلالةً أو إشارة.

أحمل في حقيبتي الجلدية المخملية جهاز إرسالٍ صغيراً، أختلسُ

بضع دقائقَ كل مساءٍ لأبعث شفرةً ملخصة تستقبلها القيادة، وإن أزعجني وجود حقل ما، يمنع أو يؤثر على جودة اتصالي، ولم أشك للحظة أن السبب هو ذلك السويدي وجهازه المريب.

لا يتعلق الأمر به وحده، فمنذ وصولي، وأنا أشعر وكأنني مُحاطةٌ بجواسيس آخرين، يُشاركونني ذات اللعبة مع اختلاف الأقنعة.

وجدت السويدي أولاف جالساً في قاعة الطعام، يتفحص أوراقاً غريبةً على طاولةٍ صغيرة. يبدو أنه عالمٌ أو فيزيائي، لكنه شديد الاضطراب. كدت أستسلم لفكرة جنونه، لكن حدسي يخبرني بانتمائه لإحدى الوكالات السرية.

آنا وهانس يتبادلان الحديث. أشعر أنهما أكثر انسجاماً من العمل كثنائي استخباراتي، لكن لا شيء مؤكد، فأفضل العملاء يتوارون خلف مهنٍ بريئة.

ماذا عن الإيطالي؟ قد يكون عميلاً للمخابرات البريطانية متنكراً في هيئة سائح، من يدري؟

أما بول ولورا، فيثيران اهتمامي بشكلٍ خاص؛ لا يتعلق الأمر بفارق السن وحده، بل في توتر نظرات المسن، ومحاولة الشابة الدائمة للاقتراب من الأخرس كلما سنحت الفرصة، هل تكون عميلة مزدوجة؟

تدير دونيا فاليريا النزل بصرامة وإتقان، لكنها تذكّرني ببعض المشرفات اللواتي قابلهنَّ رفاقي في فنادقَ حدوديةٍ قرب الجبال السويسرية، كن يُخفين تحت أرديتهن وسائلَ تشفيرٍ أو رسائلَ سرية. أشعر بها تراقبني أحياناً من الطرف الآخر لقاعة الطعام، وتبتسم ببرود كلما تلاقت أعيننا.

لكن اللغز الأكبر بالنسبة لي هو ذلك الخادم الأخرس. إنه يُظهر تواضعاً وخدمةً مثاليةً لجميع النزلاء، خاصةً للورا، لكنني لمحتُه أكثر

من مرةٍ وهو يُلقي نظراتٍ سريعةً نحو حقيبتي أو مفاتيحي وأنا أمرّ بجانبه. لا بدّ من الشك في رجل غامض مثله، يعرف أسرار الفندق، يدخل غرفاً ويخرج منها دون رقابة.

تذرّعت بالصداع لترك قاعة الطعام، وصعدتُ الدرج متردّدةً، وبوصولي إلى ممرّ الغرف، بدا لي كأنني أسمع شخصاً يتجول أمام باب غرفتي. توقّفتُ وسمعتُ خطواتٍ خفيفةً تتوارى نحو الزاوية المؤدية إلى السلّم الخلفي. أسرعتُ لألحق صاحبها، فلمحتُ طرف رداءٍ أبيضَ يختفي.

دخلتُ إلى غرفتي بعصبيةٍ وفحصتُ حقائبي. هل سُرِق شيء؟ لا شيء مفقودٌ على ما يبدو. كل شيء في مكانه.

حتى النسخة الضخمة لرواية **الجبل السحري** لتوماس مان، التي أستخدم بعض جمل فصولها لتغيير شفرة التواصل، وأتظاهر أمامهم بقراءة بعض صفحاتها، مستقرة في مكانها دون أدنى تغيير.

من اقترب من غرفتي إذاً؟ هل زرعوا جهاز تنصتٍ أو سرقوا إحدى وثائقي السرية؟

لم يكشف جهازي إشارةً واضحة، لكن قلقي تضاعف...

مرّت نحو ساعةٍ وأنا في غرفتي، أقلب أدواتي وأراجع أوراقي. يتعلق جزء من مهمتي بلقاء عميل مزدوج سيوفر لي وثيقة مهمة مصدرها المفوضية الأميركية هنا، لكنّ خوفي من ملاحقة هؤلاء الغرباء قد يدفعني لتأجيل اللقاء.

ولكن مهلاً...

ماذا لو أثرتُ جلبةً تُربك الجميع وتُبعد الشكوك عنّي حالياً؟

سأستخدم أسلوبي الاستخباراتي الناجح دوماً، في اختراع حدث

ما، تسلط عليه الأنظار، بما يمكنني من التخلص من المتابعة اللصيقة من عملاء مفترضين، وبالتالي إعادة ترتيب أوراقي.

وقد يكون ذلك الأخرس هدفاً جيداً...

غادرت غرفتي وذهبتُ إلى ردهة الفندق، متصنّعةً الحيرة والاضطراب.

هانز وبول يثرثران. آنا الهولندية ترسم كعادتها، ودونيا فاليريا تراجع دفتر حساباتٍ.

اقتربتُ منهم فجأةً وصرختُ بنبرةٍ فيها انكسار:

- هل هذا هو الأمان الذي وعدنا به النزل؟ ما الذي يحدث هنا؟ مجوهراتي الثمينة مفقودة! كنتُ أضعها في علبتي الحمراء في غرفتي، والآن اختفت!

حدّق الجميع بي بذهول، وحاولتْ دونيا فاليريا تهدئتي بقولها:

- ماذا هناك؟ ما الذي حصل بالضبط؟

فتحتُ عينيّ على وسعهما، ونطقتُ:

- إنه خادمك الأخرس يا دونيا فاليريا، لقد رأيته في الممر قبل ساعةٍ، ربما أخذها...

علت وجوههم الدهشة، فأضفت بذعر مصطنع:

- أنا لا أتهمه بلا سبب، لكنه الوحيد الذي يتحرك باستمرار بين الغرف. تركتُ غرفتي مفتوحةً قبل نزولي، لاطمئناني للمكان، لكنني أخطأت في شعوري هذا.

انقلب وجه دونيا فاليريا، وتهدج صوتها قائلة:

إنه رجل موثوقٌ لدينا، يا ناتاليا، لكننا سنبحث طبعاً في الموضوع لمعرفة الحقيقة.

بعد بضع دقائق، دخل الأخرس إلى الردهة وملامحه مستغربة،

فلعبتُ دور الضحية الذي أتقنه، ووضعتُ يدي على جبهتي مصطنعة التأثر، فاحتقن وجهه، ونظر نحو دونيا فاليريا متوسلاً، فما كان منها إلا أن تقول:

- لا داعي لكل هذه الجلبة، سنحلّ الأمر بهدوءٍ. فلنفحص الغرفة ونرى إن كانت هناك آثارٌ لأي عبثٍ بمحتواها.

افترقنا إلى مجموعاتٍ صغيرةٍ وبدأنا نبحث عن العلبة الحمراء التي لن يجدوها أبداً، وقد خبأتها في مكانٍ آمنٍ آخر خلف مقعد غرفتي، وبعد وقت لا طائل منه، بدتِ الخيبة على الجميع، بل والتوتر. رأيت الأخرس على وشك الانفجار، كأن كرامته تُدهس، حيث تراجع إلى زاويةٍ وحده، مطأطئ الرأس، دون أن أعرف ما الذي يدور بذهنه.

خلال تلك اللحظات، التقطتُ عبر زوايا عيني نظراتٍ متبادلةً بين دونيا فاليريا وهانس. كأنهما يشكّكان في روايتي. هذا جيد، فشكّهم فيّ وفي قصتي يعني أنني نجحتُ في إلهائهم عن حقيقة تحرّكاتي الأصلية.

- الأفضل أن نبلغ الشرطة، فهم القادرون على كشف الحقيقة، وإلى ذلك الحين، فالأفضل أن يبقى المغربي محاصراً تحت أعيننا، لتجنب إمكانية هروبه، ما دام المتهم الوحيد.

أدهشني تدخّل بول المفاجئ، وكذلك لورا التي بدت غير مصدقة، لكن رأيه المنطقي نال فوراً استحسانهم، ما دام يبعدهم عن دائرة الشكوك، والأخرس عاجز طبعاً عن الدفاع عن نفسه.

نظر إليّ الفرنسي البدين بعينين تشيان بتواطؤ سرّي معي، ففهمتُ أنه وجدها فرصة سانحة للتخلص من الخادم الذي تميل إليه زوجته الشابة، فبادلته النظرة بابتسامة خفية، وقد تأكد لي أن بعض الخطط تسير أفضل مما نتوقعه قبل تنفيذها...

*

غرفة بدون رقم - سطح النزل
(موسى؟) الأخرس

بين فجر الأربعاء 16 يوليو وليلة الخميس 17 يوليو 1947

ركض هارباً من الفندق الصغير عند أول خيوط الفجر، مستميتاً في الإفلات من قبضة الاتهام الظالم الذي وُجّه إليه.

ارتعش جسده تحت وطأة الخوف، وقد تسارعت نبضات قلبه حتى كادت تُسمَع في أروقة الشوارع المظلمة. لم يلتفت خلفه إلا لماماً، ليتأكد من أن لا أحد يطارده بالفعل، وأنه تخلّص ولو مؤقتاً من عيون النزلاء الذين شهدوا تلك اللحظات الدرامية.

رآها بعينيه تهتزّ ثائرةً وتلوّح بأصابعها، وإن لم يفهم معظم كلامها، بينما هو عاجز عن الرد، ولا يمكنه الدفاع عن نفسه إلا بإشاراتٍ مرتبكةٍ، لم يهتم أحد بتفسيرها في خضم الضجيج والغضب.

كلّما تخيّل وصول الشرطة استبد به الذعر، فهو بلا أوراقٍ ثبوتيةٍ، وقد طرِدَ من قبلُ من عدّة مناطق، وعاش متخفياً لسنوات، متنقلاً بين أعمالٍ منخفضة الأجر كي يُمكنه المبيت على الأقل في غرفٍ مهجورةٍ أو سطح النزل الذي فرّ منه كأفضل خيار مر به، إذ يعرف تماماً أنّ أيّ احتجازٍ سيقوده إلى مصيرٍ غامضٍ، وسيتعرض للسجن بتهم ملفّقة.

على طول الطريق الحجري المؤدي إلى حي خلفي، ضم ياقة سترته إلى عنقه. لا يحمل شيئاً، لا نقوداً ولا أوراقاً ثبوتية، لكن يقيناً خفياً بالنجاة اعتراه فجأة.

أجل، فقَدَ كل شيء في غمضة عين، لكنه تأكد من أن تلك الأوراق القديمة، بخطوطها التقليدية الشبيهة بما عاينه في طفولته بالكتاب، موجودة في جيبها المعتاد، بالقرب من قلبه.

إذن فكل شيء سيكون على ما يرام...

هو أمّيّ، لم تسعفه أسابيع قليلة في كتّاب القرية بالحفاظ على ما تعلّمه خلالها، لكن يقيناً لا يكاد يفارقه يثبت أنها آيات قرآنية، منذ عثر عليها وهو مؤمن بقدرتها على حمايته، وشفاء كل ندوب روحه، واحتضان وجعه المتراكم طوال سنوات شقائه.

عندما نقلوه مع أصحابه إلى إسبانيا، وهو بالكاد في السادسة عشرة أو السابعة عشرة، شارك في معارك طاحنةٍ دون أن يعي أو يفهم أبداً سببها، وهناك، بين الطرق الجبلية والسهول القاحلة، شاهد مآسي الضحايا ودمار المنازل، وارتعد قلبه بتساقط رفاقه أمام ناظريه الواحد تلو الآخر، فتأكد حينها أن دوره قادم لا محالة.

يتذكر كيف عثر على تلك الأوراق في حقيبة امرأة تحتضر، فأراد التخلص منها بداية، لكنه استشعر شيئاً غريباً في نفسه وهو يُقلّب الكلمات المكتوبة بخطّ قديمٍ بديع، كأنه بصيص رجاءٍ غامضٍ سكن قلبه المحطم آنذاك، فاحتفظ بها.

وبالفعل، كلما تعاظم الرعب من حوله، وضعها على صدره شاعراً بقوةٍ روحيةٍ تسنده، وهكذا ظل يؤمنُ بأن هذه الآيات أنقذته في اللحظات الحرجة، خلال الحرب وبعدها، عندما هام على وجهه طويلاً، باحثاً عن مستقبل غير منظور.

عندما حطت رحاله بذلك الفندق، لقي قبولاً عند مدبّرته الإسبانية، التي ذكّرته بتلك الشابة الميتة في ضواحي مدريد.

منحته عملاً متواضعاً ومكاناً دافئاً يقيم فيه، ولم تسأله قط عن سبب

عجزه عن النطق، أو عن ماضيه الغامض. لكن أقدار الحياة لم ترحمه مرّةً أخرى؛ فها هو يُتّهَم بالسرقة كذباً، ويجد نفسه مضطراً للهرب من جديد...

تابع تقدمه على امتداد الزقاق حتى بلغ صومعةً قديمةً متاخمةً للميناء. هناك تلفّت بنظراتٍ حذرةٍ، وتقدّم بحذرٍ أشدّ إلى بابٍ مهترئٍ فوقه مصباحٌ. هنا يتواجد عبد القادر، صديقه الوحيد، الذي يحمل معه ذكريات الموت والرعب من أيام معارك إسبانيا، ووجد لنفسه حياة بين السفن، ولطالما نصحه أكثر من مرة بالانضمام إليه في ميناء طنجة، لعل البحر يمحي ما فعله به التراب.

وحده عبد القادر يعرف وضعه، ويفهم شيئاً من تاريخه. أدخله الرجل إلى الداخل، وأجلسه في غرفةٍ ضيّقةٍ تتخللها رائحة ملح وسمك. ناوله كأس ماءٍ أزال عن فمه جفافه، وعندما فهم تقريباً ما حكاه صاحبه بالإشارات، أمره بالبقاء هنا في هذه الغرفة، ريثما يجهز الترتيب اللازم. ثم ذكّره بأنّ أيّ مواجهةٍ مع الشرطة لن تقود إلى أي نتيجة.

قضى الأخرس يومين بالغرفة في زاويةٍ موحشةٍ، بالكاد يرى أشعة شمس عبر شقوق الخشب في النافذة. تناول خبزاً يابساً وحبات زيتون أحضرها عبد القادر، وظل يترقب كل غروب تحسباً لقدوم رجال الشرطة، فلا شك أن قيامتهم قد قامت في الفندق، واعتبروا هروبه دليلاً قاطعاً على جريمة لم يرتكبها.

اللعنة على النصرانيتين، إحداهما راودته عن نفسه أكثر من مرة، والثانية اتهمته بالسرقة...

ومع اقتراب حلول ليلة اليوم الثاني، جاءه صديقه بفرج سريع، فهناك سفينةٌ صغيرةٌ راسية بالميناء، يعمل فيها صديق عبد القادر، وجهتها

مدينة الصويرة، وستغادر عند منتصف الليل، كما أشار إلى وجود عدد من رجال الشرطة في الميناء، لسبب غير معلوم.

سلّمه عبد القادر ورقةً صغيرة كتب عليها رقم السفينة، وأشار إلى مكان رسوّها. انعقد حاجباه في تساؤل، لكن عبد القادر بدد خوفه قائلاً إن الأرقام في الورقة واضحة، ولن يجد صعوبة في مطابقتها مع الأرقام المصبوغة اللامعة على جانب السفينة الراسية.

سرى صوت البحر أكثر قوةً في أجواء المدينة الهادئة. خرج متخفّياً تحت عباءةٍ طويلةٍ، بعد توديعه لعبد القادر، وأسرع الخُطى نحو هدفه.

تشابهت أمامه السفن الراسية في المرسى، فعادت إليه رهبة اللحظة. لن يكون التأكد من الرقم المكتوب على الورقة هيناً في هذا الظلام، كما أن تجول بعض رجال الشرطة على بُعد مسافة يسيرة منه أصابه بالخوف.

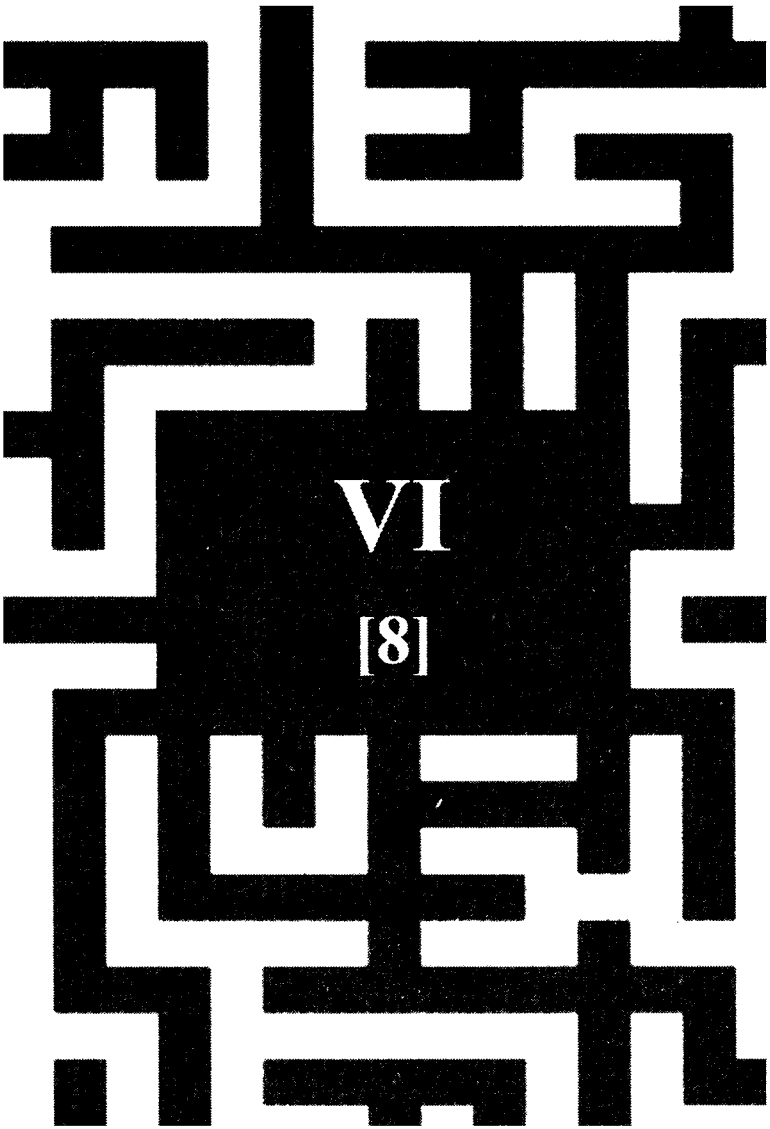
لا متسع إذن للتفكير.

لاحت له السفينة المقصودة أخيراً، فأشكال الأرقام هي نفسها في الورقة كما في جانبها: 718 و781 كما أنها ليست ضخمة كثيراً، وتشبه إلى حد ما السفينة التي أعاده بها الإسبان إلى بلاده بعد الحرب.

تملّكه القلق، فوضع يده على قلبه، حيث تستقر الآيات الحامية، باحثاً عن استعادة طمأنينته المفقودة.

لحظات قليلة، سيبحث فيها بين الوجوه عن صديق عبد القادر، كما وصف الأخير ملامحه، وسيساعده على ركوب السفينة، ليبدأ حينها فصلاً جديداً من حياته، تتحرك فيه عجلة القدر إلى حيث يشاء اللّه...

*


VI
[8]

VI

[8]

أجراس السراب

(1988)

«تبدو رحلة روبرت جوردن في رواية **لمن تقرع الأجراس** رمزاً لصراع الإنسان المعاصر في سعيه إلى إثبات ذاته وخدمة قضيته، سواءٌ أكان ذلك في ساحات النضال أو في مجتمعاتٍ تنشد التغيير. تجسد الرواية أهوال الحرب الأهلية الإسبانية كما عاينها إرنست همنغواي، وغيره من الأدباء والصحفيين الذين تقاطروا على البلد الممزق بين القوى المتنازعة، لكن ما تنبض به سطور العمل من تساؤلات حول واجب الفرد تجاه مجتمعه، واستعداده للتضحية حين يشتد الخطر، تعكس واقعنا اليوم، حيث لا تنفكّ الأسئلة الأخلاقية تفرض نفسها على قراراتنا وأفعالنا».

رشيد بناصر - المحاضرة السادسة - الأربعاء 11 مارس 2015

وحدة الاستعلامات - وزارة أمن الدولة
برلين الشرقية - جمهورية ألمانيا الديمقراطية

ملفات المراقبة والتتبع

الملف رقم: 549033
الدرجة: سري.
الاسم الكامل: بيرجيت كولر

سنة إيداع الأرشيف: 1988

معلومات عامة:

الاسم الكامل: بيرجيت كولر.

تاريخ الازدياد: 25 يوليو 1954.

مكان الازدياد: بوينس آيرس - الأرجنتين.

الجنسية: ألمانية - أرجنتينية.

تاريخ الدخول الأول إلى الجمهورية: 16 ديسمبر 1976.

المهنة: باحثة في اللغات والحضارات اللاتينية - قسم الآداب والعلوم الإنسانية - أكاديمية الفنون - برلين الشرقية.

الحالة العائلية: متزوجة وأم لثلاثة أبناء: هيلموت (1979)، آنا (1981)، توني (1983).

درجة الولاء للحزب: مشكوك فيها.

- **ملاحظات إضافية:**

- تتقن الإسبانية كما الألمانية، كما تركز أبحاثها على دراسة اللغتين والتأثيرات المتبادلة بين الحضارتين الجرمانية واللاتينية، وأيضاً تاريخ وحيثيات الهجرات الألمانية المتتالية إلى أميركا الجنوبية بين نهايات القرن التاسع عشر وما بعد عام 1945.

- باستثناء ما ورد في السجلات الرسمية، لا معلومات واضحة عن حياتها السابقة في الأرجنتين قبل قدومها إلى الجمهورية، ولم يصل التقصي حول ماضيها أو جذور نشأتها الأرجنتينية إلى نتيجة ملموسة، ما يجعلها هدفاً طبيعياً للمراقبة.

*

التقرير رقم: 6-549033

المكلف بعملية الرصد: أدريان ستريش.

درجة القرابة: زوج.

الإثنين 19 سبتمبر 1988:

06:57 : استيقاظ - نظافة شخصية واستحمام.

07:30 : إعداد وجبة الإفطار - إيقاظ الأبناء (هـ) و (أ) و (ت) - مساعدة الأبناء في تحضير الذهاب إلى المدرسة - الاستماع إلى نشرة الأخبار في الإذاعة الرسمية (*)

(*) ابتسامة استهزاء تعليقاً على خبر افتتاح الرفيق الأمين العام للحزب لتعاونية زراعية في منطقة براندنبورغ.

07:50 : ارتداء الملابس والاستعداد لاصطحاب الأبناء إلى مدرسة الحي ثم انتظار حافلة الخط رقم 3 للذهاب إلى مقر العمل.

08:13 : الشروع في تفتيش محتويات غرفة المكتب وفق الإجراء الروتيني اليومي أو نصف الأسبوعي - لا جديد. (*)

(*) الوثائق والملفات المرتبة نفسها حول اللسانيات الجرمانية واللاتينية (سبق أن تم تصويرها ونقلها كاملة عبر الميكروفيلم وفق الأمر السابق).

17:37 : اللقاء أمام بوابة المدرسة الابتدائية - عودة جماعية للأسرة إلى البيت.

18:13 تناول وجبة خفيفة - انشغال الأطفال بمتابعة الرسوم المتحركة.

18:35 : رغبة المعنية بالانفراد بنفسها في غرفة المكتب (العلامة: إغلاق الباب) - طلب مواكبة الواجبات المدرسية للأبناء - انبعاث صوت مقطوعة شاكون على الكمان لباخ - غياب أي صوت للآلة الكاتبة.

20:20 : مغادرة غرفة المكتب والتوجه إلى المطبخ لإعداد وجبة العشاء.

21:05 : الاجتماع حول طاولة العشاء - إبداء التبرم من نقص بعض المواد الأساسية في متاجر التموين، بما يتعارض مع المبادئ الماركسية للدولة وينحاز للدعاية الرأسمالية الغربية. (*)

(*) نص ما قالته المعنية: «اعتقدنا أن أزمة القهوة في نهاية السبعينيات مجرد ذكرى بعيدة، لكنها ما زالت حاضرة، بل بالعكس، هناك نقص في مواد أخرى، على رأسها مسحوق الحليب. لا يوجد سمك، والدجاج نادر وباهظ الثمن، لا تنويع في المشروبات الغازية، وقد مللنا من فيتا كولا بطعمها الرديء. يعاملوننا كما لو كنا في حالة حرب، بقي فقط أن يتم حثنا على الصبر كما الجيش الأحمر في ستالينغراد! ما لنا وهؤلاء؟ لقد تغير الزمن! من يسمع ويعي بطبيعة الحياة في الغربية سيدرك أننا شبه أموات. أي حياة هذه حيث لا مجال للترفيه أو الترويح عن النفس؟ أريد كتباً ولا أجد في المكتبة سوى ما يمجّد النظام والبروليتاريا! ما هذا الجنون؟».

ملاحظة: لا يمكن إدراج التعليق في خانة الاضطرابات النفسية الأنثوية «الطبيعية» وفق التفسير الإمبريالي الرأسمالي الساعي لتبرير تقاعس الطبقة العمالية النسائية عن أداء وظيفتها المجتمعية.

21:46 : تحضير الأطفال للنوم وقراءة قصص لهم. (تم التأكد

مسبقاً من مطابقة فحوى القصص للإيديولوجيا الماركسية).

22:19 : عودة المعنية إلى غرفة المكتب - انبعاث صوت مقطوعة جوبيتر (السيمفونية 41) لموتسارت - غياب أي صوت للآلة الكاتبة.

23:10 : دخول المعنية إلى غرفة النوم - حالة نفسية هادئة مقارنة بعصبية وجبة العشاء - اعتذار مقتضب عن كلامها السابق.

23:20 : علاقة حميمية - فك عقدة لسان المعنية بالحديث عن تفاصيل مرتبطة بعملها في أكاديمية الفنون. (*)

(*) نص ما قالته المعنية: «هل سبق أن شعرت أنك بلا قيمة يا أدريان؟ أنك لست إنساناً، بل مجرد ترس في عجلة عملاقة تدور منذ عقود دون أي هدف محدد؟ أذهب إلى مكتبي في الأكاديمية منذ التاسعة صباحاً وحتى الخامسة مساء، دون مهام تذكر. المفروض أنني باحثة في اللغات والحضارات اللاتينية، لكنني فعلياً بلا أدوات عمل حقيقية، ومع ذلك أعد أبحاثاً وأنشر مقالات علمية، بجهدي الذاتي طبعاً، في مجلات أكاديمية بائسة، لا يهتم بها أحد. لقد قرر بلدنا الانغلاق على نفسه، والاكتفاء بعلاقاته المتكلسة مع من يماثلونه في توجهاته، فصرنا أسرى حلقة مفرغة منذ سنوات. أسافر إلى موسكو وبلغراد وبوخارست وهافانا، إذا ما أتيحت الفرصة طبعاً، فأشعر أنني لم أغادر برلين قط. العقليات والأفكار ذاتها، وذلك الإحساس الممض أن الجميع يحصون أنفاس الجميع، وأن التعبير عن أي رأي، مهما بلغت تفاهته، قد يكون جريمة لا تغتفر. لا تلمني إن بدوت لك شديدة العصبية مؤخراً، لكنني أشعر بضياع أفضل سنوات عمري، وتبديد طاقتي الذهنية في مهام لا تستحق مني ذلك. أحبك كثيراً، وأعشق أبنائي، لكنني أحمل بداخلي يأساً لا حدود له».

ملاحظة: ضرورة إدراج التعليق في خانة «خطير للغاية» وذلك في إطار عملية جمع الأدلة حول انحراف المعنية عن خط الولاء المطلق للحزب.

23:45 : التأكد من استغراق المعنية في النوم - مغادرة الفراش والتسلل إلى غرفة المكتب - إجراء بحث دقيق في الوثائق والملفات المرتبة - الوصول إلى النتيجة ذاتها: لا جديد.

*

خلاصة:

- شكوك حول إخفاء المعنية سرّاً خاصاً (بناء على الحرص المتكرر على إعادة ترتيب الوثائق والملفات الشخصية) في انتظار تحديد طبيعته ومدى خطورته.

- التوصية بضرورة زرع جهاز تنصّت داخل غرفة المكتب للمساهمة في أنشطة التحقيق.

*

التقرير رقم: 549033-8

تفريغ بكرات التنصت على الاتصالات الهاتفية

الهدف: بيرجيت كولر

التاريخ: السبت 8 أكتوبر 1988

المكلفون بعملية التنصت تواليـاً (حسب توزيع الأدوار):

- الرقيب أول: أوتو هاسلر.
- الرقيب: توماس أوغنتالر.
- الرقيب: كلاوس بوشوالد.

*

الاتصال رقم 1: من يان فولكروغ إلى بيرجيت كولر.

التوقيت: 09:12 **المدة:** 03:45

*

ي. ف: هاللو.

ت. س: هاللو، من أنت؟

ي. ف: هاللو، من معي؟

ت. س: أنا اسمي توني، ما اسمك أنت؟

ي. ف: تشرفنا يا صغيري، هل يمكنك مناداة والدك؟

ت. س: بابا نائم، هل أنادي ماما؟

(صمت طويل، ثم همس: الهاتف ليس لعبة يا توني، هيا عد إلى غرفتك حالاً!).

ب. ك: هاللو، المعذرة، من معي؟

ي. ف: أهلاً، معك قسم الصيانة في مصلحة الربط بالكهرباء والماء الصالح للشرب. تلقينا شكاية بشأن وجود تسرب في قنوات المياه، أضر بالشقق 6 و7 و13 و17 في مجمعكم السكني، هل هذا صحيح؟

ب. ك: لا علم لي بذلك. أنا أقطن في الشقة رقم 3.

ي. ف: أليس هذا رقم هاتف السيد غيرد ألوفز؟

ب. ك: كلا، لا أعرف أحداً بهذا الاسم.

ي. ف: أوه، المعذرة سيدتي، يبدو أنني أخطأت الرقم.

ب. ك: لا بأس، بالتوفيق.

ي. ف: مع السلامة.

*

الاتصال رقم 2: من بيرجيت كولر إلى ستينا براند.

التوقيت: 17:23 **المدة:** 08:33

*

ب. ك: هاللو.

س. ب: هاللو، أهلاً بيرجيت، كيف حالك؟ أدريان وهيلموت وآنا وتوني بخير؟

ب. ك: كيف حالك أنت يا عزيزتي؟ كالعادة، أنا من تبادر بالاتصال في كل مرة!

س. ب: آسفة بيرجيت، أدرك جيداً حجم تقصيري، لكنها أعباء الأمومة المستجدة، بيرند الصغير يتحول بسرعة مذهلة، من رضيع بريء إلى آلة للصراخ والتهام الطعام، مثل والده بالضبط!

ب. ك: لا تبالغي، لو أن للهدوء تجسيداً في القاموس لاقترحت صورة كارل زوجك.

س. ب: مَن؟ كارل؟ إنه ممثل بالفطرة، ضل طريقه من المسرح إلى مصلحة مراقبة استقرار العملة في البنك المركزي. هو يحسن الفصل بين صورته العامة أمام الجميع، وخصوصيته معي، ولولا تأكدي من إخلاصه لي لشككت في وجود صورة أخرى لا أعرف عنها شيئاً...

ب. ك: لا، لا، دعك من كل تلك الأوهام، ولا تستسلمي لحالة البارانويا الجماعية السائدة، المهم أنك تحبينه (صمت)، وأنه يؤدي واجباته تجاهك على أكمل وجه، أليس كذلك؟

س. ب: (ضحك) يا لك من لئيمة، كم تعشقين تحميل كلامك ألف تفسير (صمت)، دعينا منه وحدثيني عنك، ما جديدك؟

ب. ك: (تنهد يعبّر عن الضيق) وهل من جديد في بؤرة الرتابة هذه؟ يفقد هيلموت حماسه للتعلم بشكل تدريجي، مقارنة بسنوات ما قبل دخوله إلى المدرسة الابتدائية. آنا صورة طبق الأصل مني، لكن تصرفاتها لا تمتّ لي بأي صلة. توني شديد الالتصاق بي، بما يتجاوز الحد الطبيعي. أدريان كعادته، يعود من عمله الممل في مصلحة التواصل بوزارة التعليم، ليستمتع بعدم فعل أي شيء، وهو مستعد للحفاظ على هذا الروتين الخامل لخمسين سنة قادمة. كسول، لا مبالٍ، وأرى دوماً في عينيه إقراراً بعدم فهمه لتخصصي، بل وربما عالمي كله. أشعر أحياناً أن غياب المشاكل هو مشكلة بحد ذاته، فأسعى لافتعال أي شجار معه، بسبب أو بدونه!

س. ب: أوه، مهلاً، مهلاً، أسألك عن جديدك، فتحدثينني عن زوجك وأبنائك! ماذا عنك أنت يا عزيزتي؟ هل تفكران في طفل رابع؟

ب. ك: قطعاً لا، لقد أنهكتني الولادات المتعاقبة. وأبدو كمن تقترب بسرعة فائقة من الخمسين. أتذكرين كيف ندبنا حظنا ونحن نتصفح مجلة الموضة المهربة، حيث تضع العارضات مكياجاً رائعاً،

ويرتدين أثواباً زاهية تبرز أنوثتهن، فيما نعاني نحن لنميز أنفسنا عن الرجال؟

س. ب: (همس مضطرب) اصمتي أيتها المجنونة...

ب. ك: (ضحك مسترسل) ربما بدأت أفهم سر مراوغتك، وتصميمك على عدم الإنجاب قبل الثلاثين، ما دمت قد استطعت الحفاظ على شبابك وأنوثتك لأطول فترة ممكنة! (صمت طويل) على أي حال، اتصلت بك لأخبرك بأنني سأسافر إلى بودابست بعد يومين، و...

س. ب: أوه ممتاز، ها هي فرصة أخرى تتاح لك للسفر، كم أنت محظوظة!

ب. ك: سبق أن ذهبت إلى بودابست مرات عديدة، لذلك لا أشعر بأي حماس يذكر، مجرد مؤتمر ممل آخر حول مجال عملي. لنقل إن الفضول هو ما يحركني أكثر، بشأن قصة غريبة سأشاطرك تفاصيلها فيما بعد. على أي حال، سأطلب منك معروفاً صغيراً...

س. ب: العناية بتوني خلال فترة غيابك؟ اطمئني، سيسعد بيرند كثيراً بصحبته. بالكاد يتعلم الكلام الآن، لكنه يوشك على حفظ اسمه!

ب. ك: ما أجملك يا عزيزتي، لولا يقيني من عجز أدريان عن إدارة شؤون ثلاثة أطفال وحده، لما حمّلتك هذه المسؤولية. لكن مدة غيابي لن تتجاوز ثلاثة أيام، هي مدة فعاليات مؤتمر اللسانيات الأوروبية، في العاصمة المجرية.

س. ب: أنا رهن إشارتك دوماً، كما أنها فرصة سانحة لمعرفة ما ينتظرني مع بيرند عند بلوغه سن الخامسة. (ضحكة قصيرة).

ب. ك: شكراً جزيلاً ستينا، موعدنا يوم الإثنين القادم إذن.

س. ب: سأكون في انتظارك في الشقة، بعد عودتي من الحضانة، في تمام السادسة مساء.

ب. ك: اتفقنا، إلى اللقاء.

س. ب: إلى اللقاء.

*

الاتصال رقم 3: من بيرجيت كولر إلى غيردا مولر.

التوقيت: 17:48 **المدة:** 01:58

*

غ. م: مصلحة الحجوزات في خطوط إنترفلوغ الجوية، مرحباً.

ب. ك: أهلاً، اسمي بيرجيت كولر، وأريد تأكيد حجز باسمي في رحلة برلين شونيفيلد - بودابست فيريهغي.

غ. م: حسناً، متى موعد الرحلة؟

ب. ك: بعد غد الإثنين، على الساعة التاسعة والربع ليلاً.

غ. م: رقم الحجز من فضلك؟

ب. ك: لحظة (صمت) G54398

غ. م: (صمت) بالفعل، الحجز مؤكد باسمك (صمت) المقعد C15.

ب. ك: شكراً جزيلاً.

غ. م: في الخدمة، تحياتي.

*

خلاصة:

- التواصل مع شبكة المتعاونين بقسم الصيانة في مصلحة الربط بالكهرباء والماء الصالح للشرب، والتأكد من حقيقة وجود تسرب في قنوات المياه، أضر بالشقق 6 و7 و13 و17 على التوالي.

- في حال إثبات عدم وجود أي تسرب، يتم استدعاء الموظف يان فولكروغ للتحقيق في طبيعة علاقته بالمعنية، ومغزى اختياره لهذه الأرقام. (احتمال: قد تكون شفرة سرية بين الطرفين).

- وجوب استدعاء المدعوة ستينا براند للتحقيق في موضوع تهريب مجلات الغرب الإمبريالي الرأسمالي إلى داخل جمهورية ألمانيا الديمقراطية، وفحوى ما سمته المعنية بـ«القصة الغريبة» المرتبطة بسفرها إلى المجر.

- التواصل مع مكتب الاستعلامات الخارجية في بودابست لتفعيل إجراءات المراقبة الدقيقة للمعنية فور وصولها وإلى حين مغادرتها.

*

التقرير رقم: 11-549033

سلسلة المراقبة والتتبع - وحدة الاستعلامات الخارجية

(مكتب بودابست - المجر)

الهدف: بيرجيت كولر

الثلاثاء 11 أكتوبر 1988:

- **إرنو ليتز (23 سنة) - الصفة المنتحلة: موظف استقبال بفندق كورفين (بودابست):**

دخلت (ب. ك) إلى الفندق قبل منتصف ليلة الإثنين - الثلاثاء 11 أكتوبر بقليل، ملامحها مطابقة للصورة المتوفرة (شعر بني بتسريحة قصيرة - عينان زرقاوان ونظارات سميكة - بشرة بيضاء - فم صغير). بدا عليها تعب السفر، وأيضاً الاعتياد على النزول في هذا الفندق عند كل زيارة تقودها إلى بودابست. اكتفت بإجراءات تأكيد الحجز وصعدت إلى حجرتها رقم 37 في الطابق الثالث.

غادرت (ب. ك) غرفتها في تمام السابعة والنصف صباحاً. تناولت فطورها في المطعم، قبل أن تجلس في قاعة الاستقبال حوالي الثامنة والربع، حاملة حقيبة جلدية سوداء. أمضت ربع ساعة وحدها، تتصفح مجلة وجدتها على الطاولة، مع نفاد صبر واضح (حركة عصبية لقدمها اليمنى) وحرص مبالغ فيه على نقل عينيها نحو الحقيبة التي لم تفارقها قط.

بعد تخطي عقارب الساعة للثامنة والنصف بقليل، اجتاز بوابة الفندق رجل نحيف، يرتدي معطفاً خريفياً أسود. يبدو

في بداية عقده السادس، أصلع، مع شعيرات رمادية قليلة تحيط بجانبي رأسه، دقيق الأنف، ضيق العينين، حاد النظرات، بارز عظام الوجنتين، التفت يمنة ويسرة، قبل أن يبتسم فور رؤيته لـ (ب. ك).

عندما تصافحا، لم تظهر على (ب. ك) أية علامة تفيد بوجود معرفة سابقة بينهما. لم يسمح موقعي في الاستقبال بالتنصت على فحوى الحوار بينهما، لكن الواضح أن النحيف كان يتصنع الود، دون أن تفارق عيناه الحقيبة الجلدية السوداء.

بذلت (ب. ك) جهدها للحفاظ على ابتسامة مجاملة، مع الاستماع بانتباه شديد لكلام النحيف الذي تحركت شفتاه الهامستان بكلام سريع (اللغة الألمانية على الأرجح)، قبل أن تهز المعنية رأسها بعلامة النفي، وتتمسك أكثر بمقبض الحقيبة.

أطلق النحيف زفرة لا تفسير لها سوى التعبير عن الاستسلام، قبل أن ينهض ويصافح (ب. ك) منهياً اللقاء بالود المتصنع نفسه، ويغادر الفندق بخطوات سريعة، كمن يخشى المطاردة.

بعد عشر دقائق تقريباً، طلبت (ب. ك) سيارة أجرة تقلّها إلى كلية العلوم الإنسانية، فتم توفيرها، كما اقتضت خطة المراقبة والتتبع المتفق عليها بالضبط.

• لازلو سوليوم (50 سنة) - الصفة المنتحلة: سائق سيارة أجرة (بودابست):

قدّمت المعنية العنوان المطلوب باللغة الألمانية. بدت عليها العجلة ونفاد الصبر، وعندما اتخذت مكانها في المقعد الخلفي لسيارة الأجرة، سارعت إلى فتح حقيبة جلدية سوداء، واستخراج محتوياتها (ملف أحمر - أوراق بيضاء تضم سطوراً

مرقونة على الآلة الكاتبة - ما يبدو أنها علبة ميكروفيلم عتيقة) قبل إعادتها إلى الحقيبة بسرعة.

(وجبت الإشارة إلى أن المسافة بين فندق كورفين، وكلية العلوم الإنسانية لوراند أوتفوس قصيرة، ويمكن عبورها سيراً على الأقدام، يميناً عبر ضفة نهر الدانوب، ثم صعودا للمرور عبر شارع كارولي بما لا يتجاوز عشر دقائق على الأكثر، لكن عجلة المعنية، أو ربما جهلها بتفاصيل المكان، رغم زياراتها المتباعدة، قد تفسر قرارها بركوب سيارة أجرة).

• **جوديث بورهيدي (39 سنة) - الصفة المنتحلة: عاملة نظافة بفندق كورفين (بودابست):**

حوالي التاسعة صباحاً، وبعد التأكد من مغادرة المعنية للفندق، قمت بالدخول إلى الغرفة رقم 37 مستعينة بالمفتاح الاحتياطي.

الغرفة مرتبة بعناية، الخزانة فارغة، إذ يبدو أن (ب. ك) قد اكتفت بالإبقاء على ملابسها في حقيبة سفرها.

وفقاً للتعليمات، تم تفتيش حقيبة السفر بدقة، والبحث عن جيوب سرية، دون العثور على ما يثير الشكوك. (تنورتان قطنيتان إحداهما رمادية والأخرى سوداء - حمالات صدر وملابس داخلية من الدانتيل الأبيض - قميصان أحدهما أبيض والآخر أحمر - سترتان - معطف بني خريفي طويل).

لا شيء يثير الريبة في الحمام (فرشاة خضراء ومعجون أسنان ومشط التصقت به خصلة صغيرة من شعر المعنية البني).

على الطاولة المحاذية للسرير، استقر كتاب متوسط الحجم، (حمل عنوانه كلمات بلغة لم أفهمها، ربما الإسبانية، فيما كان

اسم الكاتب واضحاً، وهو الأميركي إرنست همنغواي) مع قلم رصاص وقطعة ورق مقوى صغيرة لحفظ صفحة القراءة.

حملت صفحات الكتاب الكثير من العلامات والسطور والإشارات والملاحظات الجانبية المكتوبة بقلم الرصاص بخط صغير دقيق، لم يتسع المجال لتصويرها كلها.

• غوستاف زيبور (48 سنة) - صفة المتعاون: أستاذ اللغات والحضارات الشرقية - كلية العلوم الإنسانية - لوراند أوتفوس (بودابست):

لم تتأخر (ب. ك) في الوصول إلى الحرم الجامعي، فبالكاد تجمّع الطلبة والأساتذة وباقي المتدخلين بالقرب من المدرج الذي سيشهد فعاليات المؤتمر، طوال ثلاثة أيام، وكان من المفروض أن تقدم المداخلة الثالثة في الفترة الصباحية، بعنوان (ببليوغرافية المخطوطات اللغوية الضائعة وغير المكتملة خلال الحقبة النازية 1933-1945)، بالضبط في تمام الحادية عشرة والنصف.

لم يكن الاضطراب الظاهر على محيّاها ليخفى على أحد، وبعد تبادل التحية والحديث المعتاد عن الأحوال الشخصية والعملية، بادرتها بالسؤال عن سر انزعاجها، معتقداً أن للأمر علاقة بمداخلتها القادمة أمام جمهور الحاضرين، كما هو مألوف عند معظم الأساتذة والباحثين المعتادين فقط على عزلتهم، لكنها ردّت بما أنقله هنا بالحرف:

- أحمل في حقيبتي ما يبدو البعض مستعدين لفعل أي شيء قصد الوصول إليه، وهو ما لم أستوعبه إلا صباح هذا اليوم. انشغالاتك التنظيمية كثيرة يا غوستاف، هذا مما لا شك فيه، لكنني لن آخذ

من وقتك سوى ربع ساعة بعد انتهاء الفترة الصباحية. سأنتظرك في الكافتيريا، لكن أرجوك، لا تخبر أحداً بما قلته لك، لا أثق بأحد هنا سواك.

أثار خوفها الواضح اهتمامي بطبيعة الحال، كما أن فضولي تجاه ما تحتويه حقيبتها السوداء تضاعف أكثر، لكنني أدرت المداخلات الصباحية بهدوء، دون أن أغفل متابعة كل حركاتها، إلى أن حان موعد استراحة شاي، تسبق مداخلتها مباشرة، ففوجئت بعد دقيقتين من غياب اضطراري، باختفائها عن الأنظار.

• جانوس كارولي (27 سنة) - الصفة المنتحلة: سائق سيارة أجرة (بودابست):

جرى تكليفي، وفق التعليمات، باصطحاب (ب. ك) إلى الفندق الذي تقيم فيه، أو أي مكان آخر تريده، بعد خروجها من الكلية في الحيز الزمني الممتد من الواحدة إلى الثالثة بعد الزوال، لكن المعنية غادرت الموقع المحدد في تمام الحادية عشرة، وشرعت في المشي بسرعة عوض الوقوف والبحث عن سيارة أجرة.

لجأت عندئذ إلى الخطة الاحتياطية، بمغادرة سيارتي واللحاق بها سيراً على الأقدام، ضمن مسافة محددة منعاً لإثارة الشكوك. وبالفعل تأكد لي أن (ب. ك) تمشي كمن تعرف المنطقة جيداً، لكنها عوض العودة إلى الفندق، اختارت المواصلة حتى جسر إرزيبيت، الذي قطعته بالسرعة والإصرار ذاتيهما، وصولاً إلى قلعة سيتاديلا، حيث لا وجود لأحد بمحيطها، في ذلك التوقيت الموافق لفترات العمل المكتبية، سوى قلة من المارة، وبعض المتسكعين هنا وهناك.

ظلت المعنية واقفة لبعض الوقت، حاملة حقيبتها الجلدية،

تلتفت أكثر من مرة (إما لانتظارها أحداً ما، أو لخشيتها من اقتفاء أي كان لأثرها)، فابتعدتُ عن ناظريها قدر المستطاع، مواصلاً المراقبة.

بعد خمس دقائق، تقدمت (ب. ك) نحو القلعة، منعطفة نحو واجهتها الجنوبية البعيدة عن مجرى النهر، أو البنايات العالية، وطرقت باباً حديدياً صدئاً (لطالما كان موجوداً في ذلك الجدار الحجري دون أن يلفت انتباه أحد) ثلاث مرات، ليفتح بعدها فوراً، وتدخل هي، دون أن أتمكن من تبيّن هوية من كان بالداخل.

كنت أمام خيارين، استدعاء تعزيزات إضافية، أو التعامل مع الوضع (الذي لم يكن ضمن التقديرات الأولية) بالسرعة اللازمة، ففضلت الخيار الثاني، مدفوعاً بحدس وجود خطر داهم قد يتهدد المعنية.

انتظرت فقط إلى حين التأكد من خلو المكان من المتسكعين والمارة، ثم اقتربت للتأكد من الإغلاق التام للباب الحديدي الصغير، فاكتشفت أن حركة قوية واحدة لجر المقبض نحوي كانت كافية لفتحه، رغم ثقله الواضح، فدخلت بحذر، لأجد ظلاماً دامساً، إلى درجة عجزت معها عن تبيّن طبيعة المكان، إن كان ممراً، أم دهليزاً، أو حتى قاعة واسعة، فبحثت عن ولاعتي لاستكشاف محيطي.

لكن صوت خطوتين سريعتين، لم أتمكن من تبيّن مصدرهما، حرك يدي غريزياً نحو المسدس في جيبي، لتنهال ضربة خاطفة مؤلمة على رأسي، أفقدتني الوعي في الحال.

وكما تأكد للقيادة، عبر المتتبع الاحتياطي (ل.س) فإن المكان كان خالياً تماماً عند وصوله وتمكنه من العثور عليّ.

*

الملحق رقم: 13 - 549033

مراجعة أوراق ووثائق الهدف: بيرجيت كولر.

مقتطفات من مقال أكاديمي محكم:

اللسانيات التاريخية وتفسير النصوص القديمة - نموذج مخطوطات الحرب الأهلية الإسبانية (1936-1939)

المصدر: مجلة «لسانيات»

الكاتب(ة): بيرجيت كولر.

مقدمة:

(...) وفي هذا الصدد، تصبح للسانيات التاريخية قيمة استثنائية، بتقديمها إطاراً مناسباً لتفسير المخطوطات والنصوص القديمة، وتتبع تطوّرها وعلاقتها بالتحوّلات الحضارية الكبرى، والأحداث المفصلية، ومن بينها الحرب الأهلية الإسبانية (1936-1939).

اللغة الإسبانية المعاصرة من منظور اللسانيات التاريخية:

(...) ينبغي التذكير بأنّ اللغة الإسبانية الحديثة تتأصّل في اللاتينية العامية التي امتزجت أحياناً بعناصر جرمانية أدخلها القوط الغربيون في شبه الجزيرة الإيبيرية خلال العصور القديمة المتأخرة، تاركة بصمة واضحة في المفردات والبنى الصرفية والنحوية، مما يُعطي أي مخطوطٍ مكتشف أهميةً قصوى، تساهم في فهم مسار تطوّر المفردات من اللاتينية إلى القشتالية، وهذا دون إغفال تأثير بعض اللهجات المحلية، المتنوعة والمتداخلة حسب المناطق، وحضور العربية خلال حقبة ما قبل حروب الاسترداد المسيحية القشتالية. (...)

صعوبات التحليل:

معظم هذه المخطوطات لم تخضع لمواصفات معيارية معروفة وموحدة، مع حرص النسّاخ والرهبان على إدخال تعديلات طفيفة تناسب عصرهم أو انتماءهم الفكري والديني، فكانوا يستخدمون عموماً الهوامش الجانبية لتوضيح المبهم، أو لإضافة شرح معيّن بلهجة محلية. (...)

حالياً، ومع التقدّم الحاصل في حقل اللسانيات التاريخية، صار بمقدورنا تتبّع التطور اللساني اللغوي عبر دراسة الأنماط الصرفية والتركيبية. (...)

تأثير التحولات الاجتماعية والأحداث السياسية في سياق تطور اللسانيات التاريخية: نموذج الحرب الأهلية الإسبانية:

ساهمت الحرب الأهلية الإسبانية في فقدان أرشيفات مهمة، وتشظي عدد هائل من الوثائق والمخطوطات، التي صارت في معظمها تالفة أو غير مكتملة، ما أدّى إلى صعوبات جمّة أمام الباحثين في حقل اللسانيات التاريخية عموماً، والدراسات اللغوية الإسبانية والجرمانية خصوصاً (...) وتُشير بعض المصادر إلى أنّ أجزاءً من الإرث اللغوي المكتوب باللغة القشتالية القديمة ولغات أخرى كان لها حضورها في شبه الجزيرة الإيبيرية (العربية على وجه الخصوص) قد ضاعت خلال عمليات القصف أو محاولات التهريب الفاشلة أو السرقات المنظمة، حيث جرت محاولاتٌ ممنهجة من قِبل جهات معينة (سيتم التطرق إلى بعضها لاحقاً) للاستيلاء على وثائقَ قديمة تحمل قيمةً تاريخيةً أو ثقافيةً أو حتى أيديولوجية أحياناً.

الدور النازي في الاستيلاء على مخطوطات قديمة خلال الحرب الأهلية الإسبانية:

وفقاً لبعض الوثائق الأرشيفية الحديثة (منها ما وقفت عليه

شخصياً)، لم تقتصر أطماع بعض القوى الخارجية على التدخل أو الدعم العسكري خلال الحرب الأهلية الإسبانية، بل تجاوزت ذلك إلى التنافس والبحث عن مخطوطات فريدة، وكما هو معلوم، فقد أسهبت تقارير وأبحاث تاريخية عديدة في شرح كيفية تحرّك وحدات نازية لتتبع أثر هذه المخطوطات، بالإضافة إلى آثار أو تحف أو لوحات نفيسة، لدعم الرؤى الفكرية والتوسعية للرايخ، وهذا التصرّف ليس بجديد في التاريخ الأوروبي، إذ تكرّر في فترات وحقب زمنية مختلفة. (...)

دراسة حالة: تقارير الضابط النازي باستيان شتاينماخر خلال تنفيذه مهمة استخباراتية بمدريد خلال الحرب الأهلية الإسبانية:

خلال مهمةٍ بحثيّةٍ قمت بها أخيراً في ضاحية برلين الشرقية، تستهدف ما تبقّى من آثار الحقبة النازية، عثرتُ في قبوٍ قديمٍ تحت الأرض (ربما لم يسبق لمن دخلوا برلين عام 1945 اكتشافه)، على سلسلةِ أرشيفاتٍ مهجورة، ساءت حالة بعضها، فيما بقيت أخرى بحالة مقبولة. (...) واكتشفتُ سجلاتٍ لضابطٍ نازي يُدعى باستيان شتاينماخر، وصندوقاً صغيراً يضم شريط ميكروفيلم، فحصته فوجدت أنّه يضمُّ صوراً غامضةً لمخطوطٍ عربيّ غير مكتمل، بدت فيه الفراغات والصفحات المنقوصة واضحةً حتى لغير الناطقين بالعربية مثلي.

أظهرت التقارير المقتضبة المرفقة أنّ الضابط شارك في عمليات تتبّع المخطوطات المفقودة إبّان الحرب الأهلية الإسبانية، حيث رصدت وحدته شاحنةً محمَّلةً بنفائس دير قديمٍ (...) ليعثر على ذلك المخطوط المُحيِّر (هناك تساؤل عن سر غياب المخطوط الأصلي عن الملف)، وقد بدا أنّ جهوده لم تكتمل بسبب اشتداد المعارك، أو لأسباب أخرى مجهولة، فبقيت النسخ الفوتوغرافية والوثائق هنا في طيّ النسيان، حتّى اكتشفتُها، لتشكِّل حلقةً جديدةً في سلسلة

أسرار تلك الحقبة، مع تركيزي فقط على ما ورد في التقارير، في انتظار تعميق البحث بالتواصل مع من يتقن لغة المخطوط المصور عبر شرائط الميكروفيلم، ما يبقي تحليلي الآن في إطار الاستنتاجات الجزئية. (...)

(...) أوردت تقارير شتاينماخر أيضاً ملحوظاتٍ تؤكد فرادة هذا المخطوط غير المكتمل (لم أجد في التقرير ما يفيد بمعرفته باللغة العربية إلا إذا استعان ربما بمترجم)؛ إذ يردُ فيه ما اعتبره الضابط «عبارات غير مألوفة» تمزج بين الشعر العربي القديم وصياغة معادلات حسابية معقدة. (...)

ومما يمنح المخطوط الوارد في تقارير الضابط أهميته، ليس الجانب اللساني وحده، بل تداخله مع الوضع السياسي؛ فقد يساهم كشف غموضه في تسليط الضوء على جوانب تاريخية حسّاسة، تخص ربما أدواراً مفقودةً للجهات العربية في إسبانيا ما قبل وأثناء فترة حكم الممالك الكاثوليكية القشتالية. (...)

خاتمة:

(...) وبناء على ما سبق، يبدو جلياً اليوم أن المؤرخين وعلماء اللسانيات التاريخية مطالبون بالتعاون لاستعادة أكبر قدرٍ ممكن من الوثائق المفقودة أو المتخفية في دهاليز الأسواق السوداء، مما قد يحول دون تحقق فرصةٍ نادرة لفهم بعض الجوانب الغامضة في تطوّر اللغات القشتالية والجرمانية، بل وتخصصات أخرى مثل الرياضيات، فالحرب الأهلية الإسبانية، وما تبعها من تدخّل دولي معقد، تمثل نموذجاً واضحاً لمدى قدرة الأحداث السياسية والأنظمة المتسلطة على إعاقة الجهود الأكاديمية (*)، بل وتغيير مسار البحث العلمي في دراسات اللسانيات التاريخية بشكلٍ جذري.

(*) وجوب التحقيق مع اللجنة العلمية في هذه المجلة الأكاديمية المحكمة، لسماحها بتمرير جملة فيها مصطلحات وتلميحات سياسية واضحة تعارض توجهات الدولة والحزب.

*

الملحق رقم: 15 - 549033

مراجعة أوراق ووثائق الهدف: بيرجيت كولر.

جرد لعدد من تقارير الضابط النازي: باستيان شتاينماخر.

*

التقرير رقم: 11 / الملف: A-23

التاريخ: نوفمبر 1936.

الموضوع: دراسة الأوضاع الميدانية الأولية - محيط مدريد

تمهيد:

- استجابةً للتكليف الصادر من وحدة الاستعلامات - السرية الرابعة - قوات الأمن الخاصة (SS) بشأن مراقبة التطورات في الجبهة الإسبانية، وصلتُ إلى مدريد منذ عشرة أيام، برفقة فريق الضباط الاستشاريين. وقد باشرنا فوراً في جمع المعلومات عن إمكانية الحصول على وثائق ومخطوطات نادرة، في المناطق الواقعة تحت سيطرة الجمهوريين.

الوضع العام:

- يسيطر الجمهوريون على أجزاء مهمة من العاصمة ومحيطها، لكنّ خطوط دفاعهم غير مستقرة. فيما يواصل القوميون التقدّم مدعومين بغطاءٍ جويٍّ وإسنادٍ محدودٍ من وحدات الطيران اللوفتفاف.

- تتضارب الأنباء حول مصير بعض الأديرة والمكتبات في الريف القريب، إذ يجري الحديث عن عمليات إخلاء وتهريب للمخطوطات والمكتبات والتحف النادرة.

المهمة:

- التركيز على توثيق أي أنشطةٍ تهدف إلى تهريب هذه الوثائق أو إخفائها. وقد رصدنا مؤشراتٍ في هذا الصدد.

التوصيات:

- أواصل التنسيق مع عناصر متحالفة مع الرايخ، ورصد أطرافٍ محتملةٍ تملك معلوماتٍ عن شاحنة محمَّلة بالمخطوطات القيّمة، غادرت ناحية الإسكوريال، بالقرب من دير نويسترا سينيورا دي لا كونسولاسيون، وسنرفع تقارير إضافية حال وصولنا إلى نتائج ملموسة.

*

التقرير رقم: 12 / الملف: A-23

التاريخ: نوفمبر 1936.

الموضوع: رصد نشاط مبهم حول محتوى الشاحنة المحمَّلة بالمخطوطات القديمة.

التحريات:

- بعد التنسيق مع أحد المتعاونين، تمّ التوصل إلى معلومات تُشير إلى ناشط جمهوري متعاون مع الاستخبارات السوفييتية الداعمة للجمهوريين، اسمه خوسيه روبليس، وهو أستاذ جامعي ومترجم يتعامل مع كتّاب أميركيين، وقد تردّد اسمه في عدة محادثات أجريتها مع وسطاءَ غير رسميين.

- حسب المؤشرات الأولية، قد يكون روبليس هذا حلقة وصل بين عدّة جهاتٍ متنازعة، وهو يملك معلوماتٍ حسّاسة عن مخطوطاتٍ عربيةٍ نادرة ظلت محفوظةً في أحد الأديرة القديمة بضواحي مدريد.

- تناهى إلى السمع أنّ روبليس قد يبدي مرونةً في إتمام صفقةٍ أو تبادل معلوماتٍ لقاء ضماناتٍ ماليةٍ أو حمايةٍ شخصية لتوتر علاقته بالسوفييت. لم نتمكّن بعد من التأكد من صدق نواياه.

أهمية المخطوط:

- تؤكد رواياتٌ متطابقة وجود مخطوط غامض، أكد جرد محتوى الشاحنة المذكورة أنه غير مكتمل، وربما فُقدت أجزاء منه عند تهريبه، وقد أفاد مصدر موثوق أنه يحوي شرحاً قديماً لمعادلة رياضية معاصرة مستعصية. وبالتالي لا يجب حصر الاهتمام في اعتبار هذا المخطوط وثيقةً لغويةً عربية، بل يمكن استثماره مستقبلاً في تطوير قدراتنا في التشفير والرصد المضاد للتشفير.

الخلاصة والتوصيات:

- ضرورة تكثيف المتابعة، نظراً لرغبة أطرافٍ أخرى في الحصول على المخطوط غير المكتمل أو تدميره.

- استمرار محاولات الوصول إلى روبليس للتحقق من مدى جدّية تعاونه، مع اتخاذ الاحتياطات الأمنية اللازمة.

*

التقرير رقم: 15 / الملف: A-23

التاريخ: ديسمبر 1936.

الموضوع: التواصل المباشر مع روبليس.

تفاصيل اللقاء:

- أُقيم اجتماعٌ غير رسميٍ في مزرعةٍ مهجورةٍ بضواحي مدريد. حضرته برفقة عنصرٍ من الاستخبارات العسكرية للجيش القومي الإسباني. حيث تم التواصل مع روبليس عبر وسيط.

- أظهر روبليس اطّلاعاً مفاجئاً على تفاصيل تخصّ المخطوط المذكور، وتحدث عن إمكانية تحديد موقعه أو السعي إلى استعادته مقابل تأمين سلامته.

- تبيّن أن الإسباني يكذب، وأنه يراوغ في مفاوضته، فمع تقديم أول عرض، سلّمنا ميكروفيلماً يضمّ صوراً للمخطوط المفترض (لم يتسن التأكد من مصداقيته بحكم صعوبة قراءة الخطوط وعدم إلمام أي منا بالعربية)، ما يؤكد أن المدعو روبليس قد وصل إلى الشاحنة المختفية بطريقة ما، واطلع على محتوى المخطوط.

التورط السوفييتي:

- تحدّث روبليس عن نشوب خلافٍ حادٍّ بينه وبين بعض مستشاري السوفييت في مدريد، على خلفية اتّهامه بالتخابر، وقد أشارت كلماته إلى قلقٍ بالغٍ من تصفيةٍ وشيكة، لذا فهو يريد إنهاء صفقةٍ سريعةٍ تضمن له النجاة، بحيث نمكّنه من مغادرة إسبانيا، مقابل تسليمنا النسخة الأصلية من المخطوط غير المكتمل.

تقييم الوضع:

- لا يسمح الوضع الميداني بهامش تحرك واسع نظراً لتعقيدات الوضع الميداني في مدريد وضواحيها، لكن الأهمية المفترضة للمخطوط تثبت ضرورة التحرك السريع للوصول إليه.

*

التقرير رقم: 19 / الملف: A-23

التاريخ: (...) 1937.

الموضوع: مستجدات بشأن مقتل روبليس ومصير المخطوط العربي.

ملابسات اختفاء روبليس:

- بلغنا خبر اغتيال خوسيه روبليس في ظروفٍ غامضةٍ، وتشير مصادرنا الاستخبارية إلى أنّه وُضع في الحجز على يد عناصر سوفييتية هرّبته إلى فالنسيا، حيث أُعدم ميدانياً، كما اختفى الوسيط بيننا، ما يعزّز فرضية تصفية كل الأطراف التي حازت معلومات حساسة عن المخطوط المعني.

تقييم الوضع والأثر على المهمة:

- باغتيال روبليس، خسرت المهمة حلقة الاتصال الأهم لمعرفة الوجهة النهائية للمخطوط العربي، ويبدو أنّ جهة مجهولةً قد حصلت عليه وربما تحاول نقله إلى مناطق أخرى، سواء داخل إسبانيا أو خارجها.

*

الملحق رقم: 549033-17

مراجعة أوراق ووثائق الهدف: بيرجيت كولر.

مقتطفات من أوراق مكتوبة بخط اليد

(بعد مطابقة خبير الخطوط مع كتابات أخرى للمعنية)

اللغة الأصلية: الإسبانية.

الكاتب(ة): بيرجيت كولر.

المترجم: فرانز شولتز

هل ستحميني لغتي الثانية الإسبانية من غدر أحبّ الناس إليّ؟

لا أدري إن كان ما أفعله صواباً أم لا، رغم أنني بحكم عملي وتخصصي الأقدر على الإجابة عن هذا السؤال، لكنني عازمةٌ على مواصلة كتابة يومياتي ومذكراتي باللغة الإسبانية، ودسّها بين الأوراق الأقل بريقاً في أبحاثي.

لست مغفلة حتى لا تتعاظم شكوكي تجاه زوجي أدريان، الذي يفتش أوراقي دوماً، معتقداً أنني غير منتبهة لتصرفاته.

صرت على قناعة تامة أنه يعمل لحساب الستازي، الذين يخنقون أنفاسنا ويتمنون حتى لو اندسوا داخل بحر أفكارنا للتأكد من مطابقتها لما يريده الحزب. ما هذا الجنون؟ (*)

(*) تأكيد واضح وصريح على عدم التزام المعنية بأدنى درجات الولاء لمبادئ الحزب والدولة.

لا شيء يوجع القلب أكثر من الشك في أقرب إنسانٍ إليّ، لكنّ تحرّكاته المريبة في الآونة الأخيرة، أفقدتني ثقتي به، بل وحتى إحساسي الأنثوي الطبيعي بالأمان، في كنف رجل منحته كل شيء...

أجل، منحته عمراً، وشباباً، وجمالاً، وأبناء تحلم بهم أي شابة تتحرق شوقاً للأمومة، فيكافئني بخيانتي والتجسس عليّ؟ (...)

أحاول التخلص من هذه الهواجس، فلا أجد السلوى إلا في أوراقي وأبحاثي، وقد عدتُ اليوم إلى تقارير شتاينماخر القديمة، أواصل قراءتها بشغف من يتابع أحداث رواية مشوقة، لا تقارير باردة اعتمد فيها الضابط النازي المجهول على سطور مقتضبة، يشي تسلسلها بأن ما تخفيه يتجاوز المكتوب.

(...) ولم أكد أصدّق مستوى التشابكات التي كشفتها...

وجدتُ اسم خوسيه روبليس، الأستاذ الجامعي والمترجم الإسباني الذي قُتل على أيدي السوفييت في ظروف غامضة، دون أن يعثر أحد على جثته، قبل أن يتسبب موته في نزاعٍ مدوٍّ بين الكاتبين الأميركيين الشهيرين همنغواي ودوس باسوس، وقد عاين كلاهما الحرب الأهلية الإسبانية من قلب الحدث، فاختصما على إثر هذا الموضوع طويلاً.

ألّف كل منهما كتاباً عنه، الأول بعنوان **لمن تقرع الأجراس** (حصلت بصعوبة على نسخة من الرواية مترجمة إلى الإسبانية) وضمنه شخصية أستاذ أميركي تتشابه خصاله وتفاصيله مع ما يقال إنها السيرة المعروفة لروبليس. (...)

كذلك الشأن مع دوس باسوس وكتابه **مذكرات شاب** الذي تناول فيه سيرة خوسيه بشكل ضمني، وهو الذي تجاوزت علاقته به حدود الإطار المحدد بين الكاتب ومترجم أعماله، لتتحول إلى صداقة طويلة، وصدمة حقيقية إثر وفاته، ساهمت في تغيير كل قناعات دوس الإنسانية والسياسية، وتحوله من تأييد اليسار إلى الدفاع الشرس عن اليمين.

كيف أمكن لهذه الحادثة أن تساهم في تمزيق صداقة طويلة بين الكاتبين؟

وما الذي تعنيه إشارة شتاينماخر إلى أن روبليس كان متورطاً في شبكة الاتجار بالمخطوطات، ما عجّل بقتله ؟

من هو روبليس حقيقة؟

ومن هو زوجي أدريان؟

لا فرق، كلاهما اختار حمل عدة أقنعة، فطال الوقت ونسي بمرور الأيام أيها الحقيقي، وأيها المزيف. (...)

كلّما تعمّقت في القراءة، بدا لي الأمر كأنّه سباقٌ محمومٌ على كنزٍ قديم، وحربٌ متعدّدة الوجوه: مثقفون، نازيون، سوفييت، وفي صميم الحكاية مخطوطٌ غامض بالكاد فهمت أنه مكتوب بالعربية، وأحمل معي الميكروفيلم الذي يصور أدق تفاصيله.

ثم إن مفاجآت هذه التقارير لم تتوقف هنا، حتى خيّل إليّ أنها كانت هدية من قدر أراد لي بث شيء من الحيوية في حياة رتيبة خانقة توشك على تدميري.

نشرت قبل فترة مقالاً أكاديمياً معتاداً في مجلة **لسانيات**، بدافع الواجب لا غير، فقد يئست من محاولاتي لتحريك عجلة التخصص الميتة والباردة، في ظل هذه البيروقراطية اللعينة، التي تعتبر عدم حدوث شيء إنجازاً يستحق الاحتفاء. (*)

(*) إشارة أخرى.

ثم وصلتني رسالة مجهولة المصدر من شخص عرّف نفسه باسم بيتر غولاشي، وقال إنه أستاذٌ للتاريخ في بودابست، وأنه اضطر لتمرير الرسالة يدوياً عبر وسيط تكلف بإيصالها إلى مكتبي في الأكاديمية، لخشيته من إرسالها عبر القنوات التقليدية، وتعريضها بالتالي لخطر الفتح والاطلاع على محتواها.

ذكر أنّه قرأ مقالي الأكاديمي الأخير، الذي نشرت فيه بعض استنتاجاتي الأولية حول المخطوط، وأخبرني بأنّه قد يحوز مخطوطاً آخر يشك في أنه يكمل الذي بحوزتي، ويرغب في اللقاء بي في بودابست لـ «التحقق» من الأمر.

شعرتُ بحماسةٍ علميةٍ جارفة لوجود مَن يهتمّ جدّياً بأبحاثي، ومن قد يحمل تفسيراً للغز المخطوط، لكنّ هاجس الخوف استيقظ في أعماقي: أجل، اعتاد الأساتذة والباحثون تبادل المعلومات، ولكن مَن يكون بيتر غولاشي هذا؟ وما مصادره الحقيقية؟ هل هو مؤرخ حقاً، شخص غامض يسعى لجرّي إلى كمين ما؟

أم إن أجواء الشك التي أعيشها في بيتي يومياً، قد جعلتني أسيرة خوف مرضي؟

لم يعد بمقدوري التصرّف بعفويةٍ أمام كلّ هذه الريبة. أعيش في خوفٍ متزايدٍ من كل أشكال التآمر، بل إنني بدأت أفقد ثقتي حتى بأوراقي التي أخبّئها في مكتبي؛ فقد يتفحص أدريان كلّ صفحةٍ ظنّاً منه أنّه يؤدّي واجبه، فقط لأنه يتلقّى أوامر عليا سخيفة بذلك.

يا له من ألمٍ داخليٍّ مضاعفٍ، مما يصعب احتماله. لكن لغز المخطوط الغريب يأسرني، ولا شك في أنني سألبّي دعوة هذا المؤرخ المفترض، وقد أستغل الندوة القادمة التي دعيت إليها في بودابست للقائه...

*

التقرير رقم: 549033-19

التتبع الأمني لقضية اختفاء الهدف: بيرجيت كولر

خلاصات و استنتاجات

الضابط المكلف: النقيب هانز هاوس.

*

بناء على التحقيقات والأبحاث والدلائل المتوفرة بشأن اختفاء المعنية في بودابست، تم الوصول إلى الاستنتاجات التالية:

- **فرضية الهروب إلى ألمانيا الغربية:**

من خلال تتبّع تحرّكات المعنية واتصالاتها الأخيرة، تبيّن وجود صلةٍ محتملةٍ بجهاتٍ غير معروفة، قد تكون قدّمت لها التسهيلات اللوجستية للانتقال إلى ألمانيا الغربية، وتدعم ذلك الإشارات المتعددة في سجلات الاتصالات الهاتفية وأوراق المعنية الشخصية، حول حملها أفكاراً معادية لتوجهات الحزب.

يحتمل أنّ عملية تبادلٍ سرّية تمّت بالفعل، سلّمت خلالها المعنية الميكروفيلم لهذه الجهة، مقابل تهريبها سرّاً عبر الحدود.

- **فرضية التصفية من طرفٍ مجهول:**

في ضوء الاهتمام الكبير الذي توليه جهاتٌ غامضة بمحتوى هذا الميكروفيلم، ثمة احتمال أن المعنية قد تعرّضت لضغوطٍ مباشرةٍ أو حتى ابتزازٍ، بهدف انتزاع ما تحمله بأي ثمن، ولو تطلّب الأمر استخدام العنف.

بحوزة عناصر مكتبنا الخارجي في بودابست إفاداتٌ غير مؤكّدةٍ تشير إلى مشاهدة امرأةٍ مطابقةٍ لوصفها في سيارةٍ تحمل لوحاتٍ مزورة، قبل أن تختفي في طريقها نحو جهةٍ مجهولة.

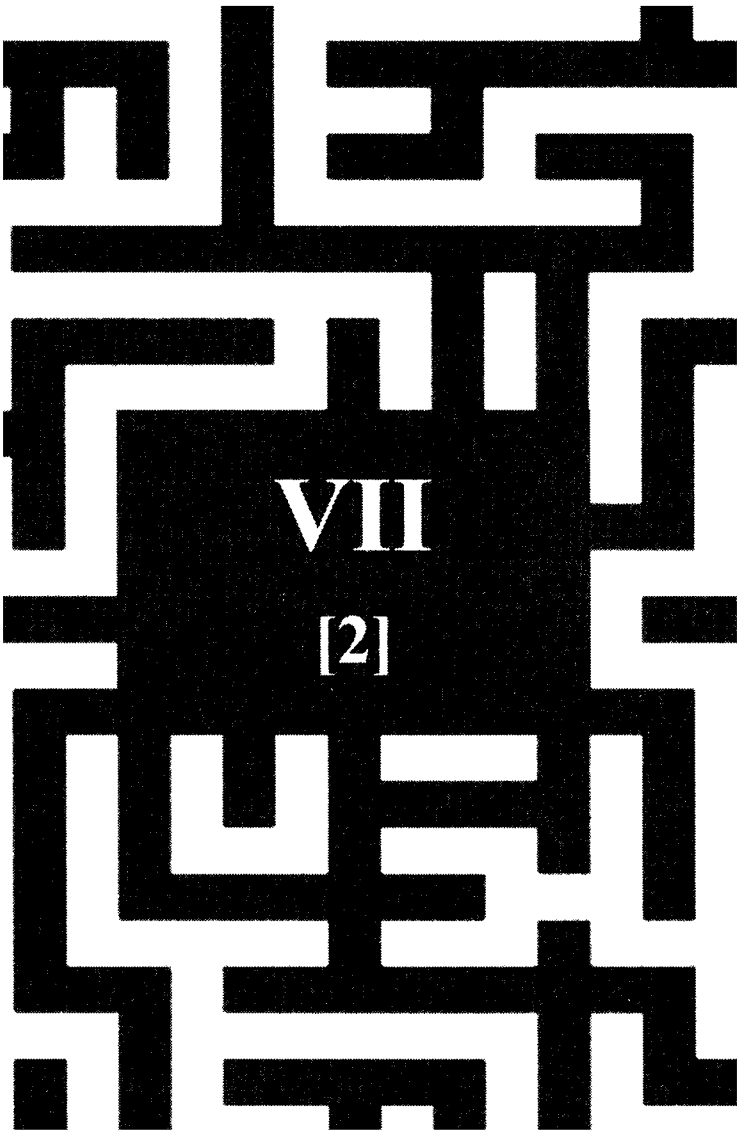
خلاصة التقييم:

بناءً على كل المعطيات المتوفرة، يظل الاختفاء وثيق الارتباط بحيازة المعنية للميكروفيلم؛ الذي يضم مواد تاريخية ذات صبغة حساسة، ومن المرجّح أن غيابها المفاجئ ناجم عن صفقة تهريب ناجحة (الفرضية الأولى)، أو جريمة تصفية للتخلّص من شاهدٍ أساسيّ بحوزته معلوماتٍ قيّمة (الفرضية الثانية).

التوصيات:

- مواصلة التنسيق مع أقسام مراقبة الحدود للبحث عن أي أدلةٍ تؤكد تسلّل المعنية إلى ألمانيا الغربية.
- التوسّع في جمع معلوماتٍ ميدانيةٍ عن أي جهةٍ غير رسميةٍ أو عناصر استخباراتيةٍ يحتمل تورطها في قضية الميكروفيلم.

*


VII
[2]

VII

[2]

حبر وجبر وبحر

(1612)

«تستعرض رواية **دون كيخوتي** لسرفانتس معنى التداخل بين الوهم والحقيقة، في عالمٍ آخذٍ بالتغيّر. سعى بطلها إلى إحياء قيم الفروسيّة في ظل واقعٍ جديدٍ يُقلّل من شأن تلك البطولات، بل ويسخر منها. ما زلنا عرضة اليوم لسحر الأفكار المضلّلة وأحلام البطولات الزائفة، وقد تخصّصت وسائل التواصل الاجتماعي في نشر الأكاذيب وصناعة الأوهام. عانى بطلَ الرواية الأمرَّين في مواجهة واقعٍ لا يتوافق مع طموحه، بما يتطابق مع معضلة إنسان العصر الحديث، الذي يبالغ في تعظيم نفسه، ويبني باسم تعاليم التنمية الذاتية أهدافاً وآمالاً عالية مستحيلة، سرعان ما تنهار تحت وطأة محدودية قدراته...».

رشيد بناصر – المحاضرة السابعة – الأربعاء 18 مارس 2015

التمرين الأول: بناء الشخصيات

متى نختار قدرنا؟ ومتى يختار لنا ما يريده؟

لم أتخيل في طفولتي أبداً أن يكون مستقبلي في عرض البحر، ولطالما رأيت فيه شراً أتوجس منه، وخطراً ابتلع ما لا يحصى من الأبرياء...

ولدتُ لأبٍ كان يعمل نجّاراً، وأمٍّ خياطة توفر خدماتها لكل من يقصد باب بيتنا القديم. فكنتُ أصحو كل يوم على صوت الطرق في دكان أبي، ورائحة الأصباغ التي تنفذ عبر نوافذنا الخشبيّة، فلا أجد في ذلك إلا تعبيراً عن حياةٍ هادئة ومؤنسة بما يكفي لفتىً في مقتبل العمر.

حين بلغتُ الثامنة، نلت نصيباً من حظٍّ لم يتح لغيري من أبناء الحيّ، إذ وافق ابن أحد النبلاء على تعليمي القراءة والكتابة مقابل خدمته هو وزوجته في بيتهما الكبير.

شعرت في البداية أن في الأمر ما يشبه الانقياد، لكنّ الرجل وضعني على سكّة التعلم والاستيعاب، وكلّما ولجت غرفته، حيث توجد مكتبته، انفتحت أمام ناظريّ عوالم بعيدةٌ عما نشأت عليه. قرأتُ عن دول وأراضٍ شاسعة، وعن مغامرات وقصص تدور وقائعها في أزمنة غابرة، فكبرتُ حالماً بالسفر والتجوال في أصقاعٍ لم تطأها قدماي يوماً.

واظبتُ إذن على اكتساب المهارات اللغويّة والحسابيّة، حتى صرتُ بين أقراني أشبه بغريبٍ يحمل عيناً أخرى، يرى بها ما لا يراه غيره.

ثم كبرت، وإذا بقلبي يخفق بقوّة لم أعهدها.

إنها ماريا، ابنة تاجر متوسط الثروة من معارف سيدي ومعلمي. تتمتّع بقدرٍ عالٍ من الرقيّ واللطف، تعزز بسلوكٍ يغري كلَّ من يقابلها بالوقوع في أسرها، وكم احتبست الكلمات في حنجرتي كلما رأيتُ عينيها العسليّتين، كأنني أمام نور ساطع، أو شمسٍ يبدد دفؤها صقيع القلب.

لكن وصالها لم يكن هيناً، فمن الطبيعي أن يطمح والدها إلى تزويجها برجلٍ من أبناء عائلةٍ راسخة الثراء والجاه، يما يضمن ويؤمّن لابنته حياةً مترفة، ويساهم في توثيق علاقات المال والتجارة بين العائلتين. أما أنا فلا أملك من الحظوة ما يؤهّلني لطرق باب بيتها وطلب يدها.

لم أيأس، وعقدتُ العزم على الإتيان بالثروة التي ستضمن ردّ اعتبار عائلتي، وتدفع والدها إلى الثقة بي، فترسخت في أعماقي فكرة البحث عن مصدر سريع للمال الوفير، وإن كان الإتيان به مستحيلاً دون خوض مغامرات البحر الذي أخشاه.

استجمعت شجاعتي، وانضممت بعد إذن بل ومساعدة من سيدي إلى بعض تجار البحار، ممّن ينقلون السّلع والبهارات والجلود، ويعودون بأرباح لا بأس بها.

حظيتُ بمكانةٍ عندهم، لأنّني كنتُ من بين قلة تتقن الحساب وتدوين القوائم والأوزان، فسافرت مراراً عبر البحر، وتعلّمتُ قراءة حركة الرياح واتجاه الأمواج، وتعرّفتُ على طبيعة عمل المراكب وتعقيدات الطرق التجاريّة التي تعبر المضيق. لكنّ كلّ ذلك لم يلبِّ بعد حاجتي الماسّة لتوسيع ثروتي بسرعة.

ذات ليلة، جلستُ على الرصيف منتظراً مركباً قد يتأخّر قليلاً، إذ

جاءني رجلٌ تبدو عليه الخشونة والدهاء، وتفوح منه رائحة التبغ والنبيذ. استفسر عن سبب بقائي هناك، وهو يتفحّصني بنظراتٍ حادّة، ثم قال لي: «لا يمكن لتجارة بسيطة تافهة أن تعينك على بلوغ مرادك، في البحر فرصٌ أخرى أروع من أن يصدّقها عقلك».

لم يتورّع عن تقديم نفسه، باعتباره قرصاناً مخضرماً، خاض رحلات قرصنةٍ تَدرّ أرباحاً طائلة، وإن وضعت صاحبها على طريق مخاطر جمّة.

وهو يتحدث، لمعت في خاطري ذكرى ماريا، وفكرت أن خطوةً واحدةً قد تدفع بي إلى مصافّ القادرين على منافسة والدها في الثراء، لكن صوتاً ما في أعماقي استنكر مجرد التفكير في هذا الخيار. أنا رجلٌ تعلّم القراءة والكتابة، فرأى الدنيا من زاويةٍ أبعد ما تكون عن مغامرات النهب والسلب، فأنّى لي أن ألوّث روحي بهذا المسلك؟

ثم اتقدت نيران حبّ ماريا في أعماقي، وغلبت ذلك الصوت الذي أصرّ على تحذيري من عاقبة الانغماس في عالم اللايقين.

حسمت أمري ووافقت، وأخذ منّي الرجل عهود الولاء والسرية، وقبل أن تمضي أيّامٌ معدودة، تركت أهلي ومدينتي خلف ظهري، ولو إلى حين، وودّعتُ أمّي وهي لا تعلم على وجه الدّقة هدف رحلتي الجديدة.

أمّا ماريا، فما كنت لأجرؤ على البوح أمامها بوجهتي؛ قلتُ فقط إنّني سأسافر بحثاً عن مالٍ وفيرٍ أحقق به حلم الزواج منها، فوضعتْ يدها على قلبي وقالت: «سأنتظر عودتك، ولن أتخلّى عنك مهما طال غيابك».

عندما صعدتُ على متن تلك السفينة، سَرَت في أوصالي رجفة خوف وندم وربما رغبة ملحّة في التراجع، إذ وجدتني واقفاً أمام نفرٍ من

البحّارة الأشداء، يبدو جلياً أن فيهم قطاع طرقٍ عاشوا تجارب المطاردة والسجن، ولا يجمع بينهم سوى طمع السعي خلف الغنائم. وأنا المتعلم الوحيد بينهم، إذ رأيتُ كيف كانوا يجهلون القراءة ولا يفرقون بين الأعداد، في طلباتهم للبضائع والشراب والمتاع.

لكن الخوف تحوّل تدريجياً إلى ثقة بكوني ضروريّاً لهم، فكنت أتولى تسجيل الغنائم وضبط الحسابات، وقد أضع أختاماً على معاهدات مع تُجّار يُهرِّبون ما نستولي عليه، فتلاشى مع الوقت شعور أول بأنني بعت روحي على قارعة الطريق.

كلّما اجتمعتُ بهم حول برميل الشراب، أدركتُ مدى ابتعادي عنهم بمسافات. أدركت أنهم يلتمسون المتعة في القسوة، ويتباهون بقيمة سرقاتهم وأعداد مَن أسروا من الأبرياء. أمّا أنا، فصبري الوحيد كان في أمل العودة سريعاً، حاملاً نصيباً من الذهب سيمكنني أخيراً من طلب يد محبوبتي.

وهكذا أَلِفْتُ الكذب على نفسي، متوهّماً أنّ ما أقوم به مؤقت سينتهي سريعاً، وأن ترك عالمهم الملطخ بالوحل والدماء أسهل مما أتصور.

لكن وخز الندم ما كان ليسمح لي بالعيش في سلام، فكلّما وضعت رأسي على لوح خشب رطب محاولاً النوم، أتذكّر ما قرأتُه في الكتب عن خصال العدل والفضيلة والخلق، وأتخيّل نفسي كمن قفز بإرادته من يابسة حياة مطمئنة إلى بحر خطر متلاطم الأمواج.

فات الأوان على التراجع، وصار رجوعي عن قراري ضرباً من الجنون، فقد شاركت في عملياتهم، ونلت نصيبي من غاراتهم، ومتى فكرت في الإعلان عن توبتي، سيتّهمني الرجل بالخيانة، ويذيقني هو

وأعوانه عذاباً لا أطيقه، وربّما يُلقون بي في البحر دون رحمة أو شفقة، ليبتلعني الغرق وتنهشني الأسماك.

*

تمرين بناء الشخصيات

نموذج الطالب (ة): أدريانا نافاس.

● **نقاط القوة:**

- التطور النفسي: يظهر البطل كشخصية نامية، تبدأ بطفولة بريئة ثم تتغير تدريجياً بفعل الظروف والطموح والعاطفة.

- وضوح الدوافع: تبدو رغبة الشخصية في الحصول على الثروة السريعة للزواج من ماريا مبررة ومنطقية.

- الصراع الداخلي: حيرة الشخصية الدائمة بين الطموح والقيم الأخلاقية تجعلها أكثر واقعية وتعقيداً.

● **نقاط الضعف:**

- سرعة التحول إلى القرصنة: تمّت الموافقة على الانضمام إلى القراصنة بسرعة نسبية، كان بالإمكان تعميق الصراع الداخلي أكثر قبل اتخاذ القرار.

- غياب التفاعل المباشر مع ماريا: رغم كونها المحرك الأساسي لقرارات الشخصية الرئيسية، تظل شخصية ماريا في الظل، كان من الأفضل إضافة مشاهد أخرى توضح تطور العلاقة بينهما.

- خلل في التعقيد: تبدو الشخصية أحياناً وكأنها تواجه قراراتها بمفردها، دون تأثير من أفراد آخرين أو المجتمع المحيط عموماً، مما قد يثري السرد أكثر.

*

التمرين الثاني: بناء الأحداث

ما إن حلّ عام جديد حتّى ترددتُ في ركوب البحر ثانيةً صوب سواحل الموروس. لم يغبْ عن بالي ما عانيته سابقاً من مخاطر هناك، من مناعة رجالها في القتال، وقسوة الأمواجِ الدائرة حول تلك البلاد، وكأنما تحرس أبوابها.

وردتنا أخبارٌ شبه مؤكّدة عن وجود سفن تجارة آتية من هناك، لا يهم إن كانت لهم أم لآخرين، بل المهم أننا وجدنا فيها صيداً ثميناً وفرصة لا تعوض، وإن تحدث البعض بهمس عن قوّةٍ بحريّةٍ بدأت تتشكل في تلك الأرجاء، يُشاع أنّها تتألّف من الموروس وبعض مَن هربوا من بلادنا رافضين اعتناق ديننا. قيل إنهم صيّادو فرصٍ بارعون، وقد يلتهمون ببأسهم أي سفينةٍ تقترب من مياههم بلا حذر، لكننا قررنا الانطلاق، واثقين من قدرتنا على مجابهة كل الأخطار.

اشتدت برودة الأيام، وأخبرتنا معالم السماء أن موسم العواصف يقترب. ومع ذلك، أبحرنا نستعين برياحٍ مواتية، قد تحملنا بسرعةٍ عبر المضيق، حيث يتعقد المسار بين القارتين، فلا تكاد السفينة تهرب من دوّامة تيّارات حتى تستسلم لأخرى.

ثم وصلنا أخيراً إلى عرض البحر الواسع، فاطمأن بالنا قليلاً، وانهمكنا في أحاديث عن الموروس وما يشاع عنهم.

تناول بعضنا حكاياتٍ سخرت منها في أعماقي. قالوا إنّ قادتهم

يلجؤون لشعوذة تُبعد عنهم قصف المدافع، وينطقون بتعويذات غريبة تحمي مراكبهم. سمعتهم أيضاً يصفون الموروس بالخديعة والدهاء، خصوصاً إذا تعلّق الأمر بمفاوضات الفدية ومبادلات الأسرى، كما وتحدثوا عن شائعاتٍ تقول إن سفنهم هذه الأيام مزوّدة بمدافع أفضل من ذي قبل، وبحّارةٍ أفضل تدريباً في الرماية.

الواقع أنني جرّبت الإبحار قريباً من تلك السواحل، فرأيتُ فيهم شعباً واسع الحيلة، لا يعدم بأساً في القتال، وإن لاحقتهم سمعة العنف والسرعة في ردّ الفعل.

ومع ذلك، لم نتراجع عن مهمتنا: أن نكمن لسفينةٍ تجاريةٍ، أو أكثر، تمرّ قرب سلا، فنرصدها ونستولي على حمولتها.

في اليوم الثاني لوصولنا إلى سلا، تخفّينا وراء الضباب، وفضلنا الاحتماء بالظلام، منتبهين ومترصدين من خلال الثقوب والشّقوق إلى الأفق.

فجأةً، لمح أحدنا ضوءاً ضعيفاً يتراقص عند حافّة البحر، فهبّ بعضنا إلى أخذ مواقعهم، وانشغل آخرون بتثبيت السارية، فقد تطير شرائطها في الهواء وتفضحنا.

لم نعرف بدايةً لمن تكون تلك السفينة، لكنّ ما بدا واضحاً هو أنها ليست من سفن الإسبان أو الإنجليز، قد تكون سفينة تجارة تنقل بضاعة بسيطة، أو سفينة صيدٍ تسعى لدخول البحر قبل الفجر، المهم أنها منحتنا فرصة لاعتراض سبيلها، فقط إن كانت محمية أو محمّلةً بالأسلحة فعندها سننسحب بأقصى سرعة.

تقدّمنا بحذر، بادئين بمناورةٍ ملتويةٍ تحميها ظلمةُ الليل، فلم يبق بيننا وبينها سوى مرمى حجر. هنا أوعز دون دييغو إلى البحّارة بإيقاد

المشاعل والهتاف بأصواتهم الخشنة لإخافتهم، وعلى الفور، سمعنا جلبةً من الجانب الآخر، رجالٌ يصيحون بكلامٍ لا نفهمه، لكننا ندرك ارتباكه.

استسلموا سريعاً، ربما ليقينهم أن لا جدوى من عناد يقود إلى هلاك، ونحن أضعافهم عدداً.

انتشرت رائحة بارود امتزجت بمذاق الملح في الهواء، وأوقد أحد بحّارتنا مشعلاً كبيراً ليكشف ما في تلك السفينة، فوجدنا بضعة براميل مشدودة بالحبال، وصناديق مغلقة بإحكام، تتضمن فيما يبدو توابلَ وأقمشةً، وجراراً بها زيت وعسل.

عندها رأينا أربعة رجال يرتعدون، وأحدهم ينزف من جرحٍ في ذراعه، واجتمع الرجال حول القبطان المستسلم، وهو عجوزٌ داهمه الخوف، فصرخ دون دييغو في وجهه طالباً منه إفشاء سر ما تحمله السفينة من ذهبٍ وفضّة، وحاول العجوز أن يرد، لكنّ كلماته احتبست في حلقه، وليس بيننا مترجم يتقن لغتهم، ما جعل التواصل معهم صعباً.

حاول أحدنا، وهو ممّن احتك بهذه السواحل طويلاً، وفهم نزراً من لغتها، التقاط بضع كلمات من الرجل، وأفهمنا أن ما تحمله السفينة ليس ذا قيمةٍ عالية، بل مجرد تجارةٍ موسميّة، لا يرجى منها ربح وفير.

شعر البحارة بخيبة أملٍ لعدم عثورهم على كنوزٍ أو سبائك ذهب، وأخذوا يرمقونني بنظراتٍ مبهمة، كأنّهم يحمّلونني مسؤولية لا علاقة لي بها. أمّا دون دييغو، فلم يظهر عليه ندم شديد، وأصرّ على أخذ تلك البضائع وبيعها في أسواقٍ أخرى، واحتجاز الرجال الأربعة كأسرى، لينتظروا مصيرهم لاحقاً.

أدركتُ أن ما فعلناه محفوف بالمخاطر رغم سهولته البادية، فلن

يتوانى أهل سلا وباقي السواحل عن إرسال نجدتهم متى علموا بما جرى لسفينتهم، وعندئذٍ فإن القتال معهم لن يكون سهلاً، فهم يعرفون سواحلهم جيّداً ويجيدون استخدام المدافع والمسالك البحرية الضيقة.

انتهى الرجال أخيراً من جمع ونقل ما غنمناه، وأعطى دون دييغو الأمر بقطع الحبال التي تربطنا مع السفينة الصغيرة، وتركها تتخبّط بين الأمواج، وانطلقنا باتجاه الشمال الغربي، محاولين الابتعاد عن الشاطئ بأسرع ما يُمكن، تفادياً لأي هجمةٍ مباغتةٍ من أهل سلا أو سُفنهم، التي إن ظهرت، فلن ترحمنا بالمرة.

*

تمرين بناء الأحداث

نموذج الطالب (ة): أدريانا نافاس.

● **نقاط القوة:**

- التمهيد الجيد للأحداث: يبدأ النص بإبراز تردد الراوي وخوفه من الإبحار نحو السواحل المغربية، ما يخلق توتراً يجذب القارئ لمعرفة ما سيحدث، خاصة مع التلميح إلى قوة البحارة الموروس، بما يعزز التشويق، ويهيئ القارئ لمواجهة محتملة.

- واقعية المشهد: خاصة مع تصوير خطورة الملاحة بين التيارات البحرية، واستخدام تفاصيل مثل الضباب والظلام والرياح المواتية، كما أن الحوارات حول الشعوذة والخدع البحرية تضفي عمقاً ثقافياً على النص، بما يمنح المشاهد المكتوبة ديناميكية خالصة، ويعزز من تفاعل القارئ مع النص.

- التصاعد التدريجي للأحداث: مع تنامي التوتر فور الحديث عن المغاربة، والتحرك الحذر، ثم رصد السفينة المشبوهة، كما أديرت لحظة

المواجهة مع السفينة ببطء مشوق، بدأ بالأمل وانتهى بالخيبة التي لحقت بالقرصان وأتباعه.

● **نقاط الضعف:**

- غياب مشهد القتال أو المطاردة: رغم بناء نوع من التوتر حول خطورة الرحلة والمخاوف من بأس البحارة المغاربة، فإن العملية تمّت بسهولة نسبية، كان بإمكان إضافة مطاردة قصيرة أو مواجهة غير متوقعة أن يضاعف من جرعة التشويق.

- ضعف التفاعل مع الأسرى: لم يتم استغلال الأسرى الأربعة بشكل لافت درامياً. ربما قد يضيف مشهد حوار أكثر توتراً أو محاولة هروب مفاجئة، بُعداً جديداً للصراع.

- غياب المنعطفات الدرامية: رغم تماسك الأحداث، إلا أنها تمضي وفق توقعات واضحة، قد يساهم دمج مفاجأة غير متوقعة في كسر التسلسل النمطي.

- غياب النهاية الصادمة: لو أضيف عنصر غير متوقع في المشهد الأخير (مثل رؤية أضواء سفن مطاردة أو عاصفة بحرية مفاجئة) لكانت النهاية أكثر تشويقاً ودرامية.

*

التمرين الثالث: تحديد الإطار الزمني

تعرّضتُ فجأةً لحمّى غريبةٍ اجتاحت جسدي، دون أن أعرف لها سبباً أو علاجاً. بدأ الأمر بصداع يعصف برأسي كلّما نظرتُ إلى الشمس أو حاولتُ التركيز في كل ما يشغل بالي مِن همّ، ثم امتدّ الألم إلى أعضائي، وسَرَت الرعشة في أطرافي كدبيب نمل.

ظننتُ للوهلة الأولى أنها وعكة عابرة، يشفيها بعض الهدوء والاسترخاء، لكنّ الغيبوبة المباغتة مساءً كشفتْ خطورة وضعي، وعندما أفقت، وجدتُ نفسي ممدّداً على سطح السفينة، بين براميل متقاربةٍ، وإلى جواري قنديلٌ يكاد زيته ينفد.

تطلعت إلى السماء، فوجدت قمراً شاحباً، انعكس على صفحة مياه البحر مشكّلاً لوحدة بدت لي نذير شؤم.

اقترب منّي أحد رفاقي، واسمه خوان، وسقاني شيئاً من حساءٍ لا طعم له، وابتسم في إشفاق.

ما كنت لأتحمل فكرة الموت بهذه السرعة، أو أن يسبقَني أجلي وأنا بعيدٌ عن أهلي، وعن ماريا، حب حياتي.

تماسكتُ قدر المستطاع، متشبثاً بأيّ لحظةِ هدوءٍ أو راحة، وكلما خفّت وطأة الحُمّى، أساعد نفسي على استعادة وضوح أفكاري بالسعي لمطالعة صفحات من كتاب دون كيخوته دي لا مانتشا.

أقرأ عن مغامراته فأبتسم رغم وجعي، وأشعر بدفءٍ بسيط يسري في قلبي. فارس حالم ومجنون، لكنه يحمل في صدره شجاعةً مكّنته من مواجهة أعدائه، وإن كانوا وهميّين. أمّا أنا، فأجابه شبح موت يلوحُ لي في قهر العزلة وانقطاع الدواء.

وما زادني تعلّقاً بتلك الصفحات ما سمعتُه عن كاتبها، ميغيل دي ثيربانتس، الذي عانى الأسر عندما اختطفه قراصنةٌ مثلنا في عرض البحر وساقوه إلى الجزائر، فظلّ هناك أسيراً بضع سنين.

كم أثار فضولي تلاقي محنته ومأساتي، فها أنا أيضاً أحيا وفق مشيئة المياه، مدركاً ما تفعله الأمواج بالقلوب والأجساد، متعلقاً ببارقة أمل قد تنقذني من ظلمة الأفكار.

أُغمض عينيّ شيئاً فشيئاً فأرى طيف ماريا حبيبتي التي لا شك تنتظرني بشوق. أتخيّل ابتسامتها وهي تدعوني للثبات، وتعدني بمصير جميل، بعيداً عن غدر البحر، فما كنت يوماً فخوراً بواقعي هذا، إنما اضطرّني إليه الفقر والقهر، وكلّي عزمٌ على إنهائه في أقرب فرصة.

تمنّيتُ ساعتها لو يتسنّى لي الاطّلاع على المزيد من الصفحات، لربما أشبِّه نفسي بدون كيخوته، فكلانا يسترشد بشيءٍ من الحُلم ليصادم به واقعه الأهوج.

مرّت عليّ ثلاثة أسابيعَ ظننتها ثلاثة أعوام، لا سيّما أنّ السفر إلى وجهتنا كان في أشد مراحل الإبحار صعوبةً، بين تلاطمٍ في الأمواج ونقصٍ في الإمدادات، ورغم ضعفي وحنقي مما صنعه بي قدري، وجدتني مديناً لرفاقي، ممن أظهروا شيئاً من عطفهم عليّ، وإن كانوا في معظمهم جلادين لا يفهمون سوى لغة السرقة والقوة.

كانوا يضعون على جبيني قطعاً مبلّلةً بماء البحر، أملاً في تخفيف

سياط حرارتي، وقد يزودونني ببضع حباتٍ من الليمون يحفظونها عندهم لمقاومة تقرحات الفم المتربصة بأهل البحر، والأمواج لا تملأني إلا رهبة، مع احتدام برد الليل، واحتشاد الغيوم في السماء، ومع هبوب الرياح العاتية، يتراءى لي خطر الاقتراب من دوامة تبتلعنا بلا رحمة.

توالت الأيّام، وما كدتُ أشعرُ بشيءٍ من الخفّة تنساب في بدني حتى بدأنا نقترب من أحد الموانئ الصغيرة للتزوّد بالماء والطعام. كنّا بحاجةٍ ماسّةٍ للرسو، إذ تقطّعت بنا السبل طويلاً، وكم سررت بالتقدم بخُطىً ثقيلة على سطح السفينة، من دون مساعدةٍ تُذكر.

استعاد وجهي بعض الدماء التي فقدها، رغم شعوري بأنني لم أستعد بعد كل قوتي. وعندما سألت دون دييغو عن وجهتنا ومستقرنا هذه المرة، رد بجفاف أننا سنرسو لبضعة أيامٍ في خليج بعيدٍ، وقد نتجه بعدها شرقاً أو جنوباً بحسب ما تمليه علينا الرياح، فأدركتُ أنّه يحمل في ذهنه مهامَّ جديدةً، نستكشف فيها سواحل أخرى، أو ربما نتعقّب مراكب جديدة محمّلةً بالذهب والنفائس.

أمّا أنا فكان جلّ همّي أن أكتسب ما أمكنني من العافية لأواصل الرحلة من دون أن تهوي صحّتي ثانيةً، فلا شكّ أنّني سأبادر فور عودتي بالتوجّه إلى ماريا، مريداً الزواج منها دون تردّد. ولو خيّروني بين شحنات الذهب والفضة كلّها وحياة هانئة معها، لما ترددت في الاختيار، عسى أن تمحو محبتُها آثار هذه الأيام. وحتى يحين ذلك، سأظل متمسكاً ببقايا قوّة في روحي، وأعتمد على ما تبقّى من نُتف قصص دون كيخوته، التي تغذّي خيالي وسط تخبّط عظيم ومخاطر لا يدري أحد كنهها.

*

تمرين تحديد الإطار الزمني

نموذج الطالب (ة): أدريانا نافاس.

● **نقاط القوة:**

- التصوير الدقيق للحالة المرضية: إذ جاء وصف الحمى والرعشة وتفاعل الجسد مع المرض واقعياً وقوياً، بما يدفع القارئ للشعور بمعاناة البطل.

- التدقيق في التفاصيل: أضفت الإشارات إلى شحوب القمر، ورائحة البحر، وهبوب الرياح طابعاً درامياً ومؤثراً على المشهد.

- تجسيد عمق الروابط الإنسانية: خاصة في فكرة التمسك بالحب والأمل رغم المرض والتحديات، عبر تخيل ماريا كدافع للنجاة.

● **نقاط الضعف:**

- غياب تحديد دقيق لزمن وقوع الأحداث: يترك النص القارئ معلقاً دون إشارة واضحة إلى الحقبة الزمنية التي تدور فيها أطوار السرد. ورغم وجود بعض التلميحات، مثل الإشارة إلى دون كيخوته وميغيل دي ثيربانتس، فإن الإطار العام لم يحدد بدقة، وكان بالإمكان إدراج إشارات تاريخية أو سياقية أكثر وضوحاً (سنة محددة، أحداث سياسية معروفة، نوعية السفن المستخدمة...).

- إقحام دون كيخوته وميغيل دي ثيربانتس بشكل مفتعل: رغم الجاذبية الظاهرية للربط بين الشخصية ودون كيخوته، فإن استشهاده به بدا مصطنعاً، لاختلاف السياقات والظروف بينهما، كما لم يتم استغلال ذكر حكاية أسر ميغيل دي ثيربانتس وسجنه في الجزائر في تحديد زمن الأحداث بذكاء.

- فشل محاولة إبراز تأثير القراءة على الشخصية: كان من الأفضل ربما

دفعه إلى التأمل في عناوين أخرى أكثر قرباً من واقعه. يبدو خيار **موبي ديك** لهرمان ملفيل جذاباً هنا، لكن المفهوم من فكرة حبكتك الأولى أن الأحداث تجري في عصر يسبق عصر تأليف تلك الرواية.

- التناقض في وصف الإطار الزمني للسفر والمرض: إذ ذكرت أن الحمى استمرت لثلاثة أسابيع (مستمرة أم متقطعة؟)، لكن بقية الأحداث توحي بمدة أطول حيناً وأقصر أحياناً أخرى، خصوصاً مع وصف الرحلة الطويلة والتوقف في الميناء.

*

التمرين الرابع: تحديد الإطار المكاني

لا أدري ما الذي دار من مفاوضات أو اتفاق في الخفاء، لكن سفينتنا انضمت إلى سفينتين يقودهما قبطانان أعرفهما معرفةً سطحية، وثمّة أخرى رابعة لا أعرف مَن يقودها، وإن سمعتُ أنه رجلٌ صارمٌ عُرف بقسوته.

ما فهمته من حجة اجتماعنا بالسفن الثلاث هو أن سواحل الموروس ما عادت هادئة، وأن أحوالهم في اضطراب، لأن أبناء ملكٍ لهم مات قبل فترة ما زالوا يتنازعون عرشه، ما حدا ببعض التجار والأثرياء إلى تهريب أموالهم ومتاعهم، موفرين لنا فرصةً سانحة للاستيلاء على ما يكفينا وأكثر، إن أحسنّا الترصّد والمباغتة.

انتظرنا أياماً، نراوح مكاننا، إلى أن لاحت في الأفق سفينةٌ متوسطة، تبدو عليها علامات التأثر بشدّة الرياح المعاكسة، أشرعتها مضطربة، وبحارتها ربما يحاولون إعادتها إلى مسارها، دون جدوى. وبإشارة متّفق عليها بين السفن الأربع، بدأ الاقتراب التدريجي، وقد تقاسمت خطةً مشتركةً: تطويق السفينة وعدم منحها أي فرصة للإفلات في عرض البحر.

وكما كان متوقعاً، ساد على ظهر سفينتهم ارتباكٌ واضح. لم يتوقّعوا، على الأغلب، مواجهة أربع سفنٍ مجتمعة، وما هي إلا بضع صيحاتٍ من بحّارتنا وضرباتٍ تحذيريّةٍ من المدافع، حتى استسلموا دون مقاومةٍ تُذكر، وصاروا بذلك في أسرنا.

عندما صعدتُ على متنها، لفت انتباهي أنّ الصناديق مصطفّة بعناية، ومربوطة بحبال غليظة تشي بأنها مهمّة، أو أنّ شحنتها غالية. كانت أحجام بعض الصناديق كبيرةً للغاية، ومغلقةً بأقفال قوية محكمة، فتبادل دون دييغو وحلفاؤه الجدد نظراتٍ تتوق إلى اكتشاف ما بداخلها، موقنين أنها ربما تُهرّب ذهباً أو نفائس تكفي لإثرائنا جميعاً، عندها انقضّ عليها الجميع، ففكوا الحبال بالسكاكين، وضربوا الأقفال بالمطارق لتهشيمها، وكعادة بعضنا في مثل هذه المواقف، ومع كل عملية استيلاءٍ نظنّ أنّها تحمل كنزاً، تعالى الصخب والهمهمات، بين الحماس والترقب.

لكن صدمتنا كانت عارمة، حينما انفتح الصندوق الأول، فظهرت رُزمةٌ من الكتب والمجلّدات، يجاور بعضها بعضاً، منها المُجَلَّدُ بجلد فاخر، وما يبدو عليه القِدَم والاهتراء.

تفحّصها بعض الفضوليين وهم لا يفقهون شيئاً ممّا تحويه من صفحاتٍ مكتوبة بلغةٍ غريبةٍ عنا، وتصاعدت صيحات الاستهجان، دون أن أتمكّن بدوري من تمييز تفاصيل النصوص رغم رغبتي الشديدة في ذلك، فحروفي القشتالية لا تُعينني على قراءة الكلمات المرسومة بأشكالٍ مقوّسة ومنمنمة.

وما إن فُتحت بقيّة الصناديق حتى انهار معظمنا، إذ اكتشفنا أنّ كلّ حمولة السفينة تقريباً ما هي إلا كتبٌ ولفائف مخطوطة.

تصاعد غضب البحارة، وشرعوا في إلقاء ما تضمّه الصناديق بحدّةٍ على سطح السفينة، وكأن الخيبة أفقدتهم عقولهم، كيف لا والنصوص المكتوبة لا تساوي عندهم قطعةً واحدةً من الفضّة أو الذهب، فيما فضّل آخرون الاكتفاء بالضحك المتحسر، فها هي رحلة أخرى، خضناها لاصطياد الكنوز الدفينة، انتهت بأوراق ومجلدات بلا قيمة.

أيّد دون دييغو قرار التخلص من الصناديق البائسة، واستغلال

السفينة المأسورة في تحركاتنا، لكن أحد حلفائه الجدد طرح فكرة أن تكون لتلك الكتب قيمةٌ ما، وربّما تحوي أسراراً عن الموروس، والأجدر أن ننقلها إلى بلادنا ونعرضها على رجال البلاط، ممن يبدون اهتماماً بمثل هذه المخطوطات، لعلها تتحول بذلك إلى هدية قيّمةٍ في نظر الملك، فترفع من شأننا عنده.

انقسمت الآراء؛ بين من قال إن تقديم الهديّة قد يعود علينا بالمكافآت والعطايا المشرفة، لربما تكون ذات فائدةٍ لأهل العلم عندنا، وما كنت برافض لهذا الرأي، بل ومتحمساً له. فيما قال آخرون إنّه من العبث أن نضيع جهداً ووقتاً في هذا، فما نحن سوى بحارة مغامرين جُلّ ما نريده هو المال الوفير والثراء اليسير. لكنّ الرأي مال لصالح ما أرجوه.

لا أرباح تُذكر من هذه السفينة، إن تُركت غنائمها كما هي، فلمَ لا نسعى لاقتيادها كما هي إلى الملك، فقد يهتمّ لأمرها؟

تهيّأنا عندها للعودة باتجاه فالنسيا، ننزل فيها أولاً قبل التوجه إلى العاصمة، حيث يعقد الملك مجلسه.

حمّلنا الصناديق بعنايةٍ في جوف أكبر السفن الأربع، لتستوعب كلّ تلك الكتب والمجلّدات. وحفاظاً أيضاً على هيبة الموقف أمام أهل المدينة عند اقترابنا من الميناء، وهم الذين نظروا إلينا دائماً بعين الشك والريبة، ثم أبحرنا لعدّة أيام وسط الرياح المتقلّبة.

بوصولنا، بدا رصيف الميناء مزدحماً ببواخر صيدٍ وسفنِ تجارة، فأطلقنا بعض الصيحات والهتافات، نداري بها علامات الفرح المألوفة عند عودة المراكب بغنائمها المعتادة، وقد شدد علينا القباطنة بضرورة الاحتفاظ بمظهر المنتصرين والواثقين أن ما بحوزتنا قد يثير دهشة الملك واهتمامه.

بدأنا بإنزال الصناديق وتفريغها، فكانت حمولتها ثقيلة فعلاً على الأكتاف، فالمجلّدات مصنوعةٌ من جلدٍ سميك، والورق بداخلها كبير.

تجمّع حولنا بعض فضوليّي المدينة يتساءلون عمّا نحمله، ظنّاً منهم أننا عثرنا على كنوز عظيمة، فمال البحارة إلى مراوغتهم، فيما عزم القباطنة على إرسال مبعوث إلى مشرف الميناء لإبلاغه بنيّتهم المثول أمام بلاط الملك وإهدائه ما حصّلناه من مخطوطات.

شعرتُ لحظتها أنّ القدر ربّما يعبث بنا من جديد: فإذا كان الملك أو مستشاروه مهتمّين بهذه الكتب، فقد ينتهي بنا الأمر إلى امتيازٍ ما أو عطايا تؤمّن لنا مالاً ونفوذاً، أمّا إن لم يُعرها اهتماماً، فقد نندب طويلاً رحلةً عقيمة لا جدوى منها.

لم تُظهر ملامح دون دييغو ما يخالج أعماقه، وقد بدا متحفّظاً وهو يشرف بنفسه على عدّ الصناديق وتفقّد سلامتها، ربما لتقدير قيمتها المتوقعة عند الملك.

ها قد لقّنني البحر درساً جديداً: ليس كلّ ما تُخفيه الصناديق ذهباً وفضة، فقد تحوي ما لا ندرك قيمته إلا بعد حين.

لا علم لدي بما سيقرّره الملك في شأن هذه المخطوطات، وسأنتظر مع الآخرين، ريثما يأتينا مرسومٌ من ممثلي البلاط في فالنسيا يفيد، كما نتمنى، بالانتقال إلى العاصمة، لكن الخواطر والهواجس أبت مفارقتي: ما شأن هذه المؤلفات؟ هل تحمل في طيّاتها علوماً وفنوناً لم نسمع بها قطّ؟ هل يتحسّر الموروس على فقدانها في البحر مثلما تحسرنا نحن على فشل عثورنا على الذهب والفضة؟

*

تمرين تحديد الإطار المكاني

نموذج الطالب (ة): أدريانا نافاس.

- **نقاط القوة:**

- الوصف الدقيق للرحلة البحرية: إذ تمّت الإشارة إلى التحرك بين مواقع محددة، ووصف تغيرات الطقس والرياح، مما يمنح القارئ إحساساً واقعياً، وصورة واضحة إلى حد ما لمسار الأحداث.

- دقة وصف الميناء: احتوى مشهد الوصول إلى فالنسيا على تفاصيل تُعطي تصوراً حيّاً عن أجواء الموانئ في ذلك الزمن، مثل ازدحام السفن وصيحات البحارة وفضول سكان المدينة حول طبيعة الغنائم، كما أن استخدام تفاصيل مثل مشرف الميناء، والبلاط الملكي، والمبعوث، أضفى واقعية على الانتقال من بيئة بحرية مضطربة إلى بيئة حضرية منظمة تقريباً.

- **نقاط الضعف:**

- عدم تحديد موقع الحدث الأول (السفينة المُستولى عليها): إذ تمّت الإشارة إلى الاستيلاء على السفينة قرب سواحل المغاربة، لكن دون توضيح أو دقة (قرب سلا؟ طنجة؟ مدينة أخرى؟). سيساعد ذلك القارئ على فهم طبيعة التحركات البحرية والطرق التجارية التي استهدفتها السفن.

- الانتقال السريع إلى فالنسيا: تمّت الإشارة إلى رحلة بحرية دامت لأيام، لكنها بدت كقفزة سردية سريعة. الأفضل إضافة بعض العقبات أو الإشارات، مما يجعل التنقل أكثر واقعية.

- الغموض حول العاصمة الإسبانية المقصودة: تمّت الإشارة إلى العاصمة كوجهة نهائية دون تحديد المدينة المقصودة، هل هي مدريد أم طليطلة. (أعلم، بالاطلاع على فكرة حبكتك الأولى أنك تقصدين مدريد طبعاً، لكن عدم الإشارة إلى ذلك قد يربك القارئ الساعي إلى فهم سياق الأحداث السياسية والمكانية بشكل دقيق).

*

التمرين الخامس: الوصف

وأتى الأمر أخيراً بتحركنا من فالنسيا إلى مدريد.

استغرقت بنا الطريق أياماً، والعربات تقل كبار البحارة وممثلاً عن البلاط، بينما يسير صغارهم، وأنا منهم، في مؤخرة القافلة لحراسة الصناديق.

طوال الرحلة، تكررت في أعماقي أكثر من مرة فكرة الانسحاب والعودة فوراً إلى أهلي ومحبوبتي الغالية ماريا، وقد اشتقت إليهم جميعاً بعد طول غياب. لكن خوفي من دون دييغو، وتعويله عليَّ في أخذ زمام الكلمة أمام الملك وحاشيته، منعني من تحويل أفكاري إلى أفعال، كما أن شيئاً في داخلي حملني على مواصلة المسير، ربّما هو فضول الوقوف على أمر الكتب عند الوقوف أمام الملك، أو تحين الفرصة التي أتت، لعلها تغير مصيراً وقدراً أصر طويلاً على حرماني ممن أحب.

لم نكد نحط رحالنا بالمدينة حتى وصلتنا الدعوة الفورية لمقابلة الملك، على أن يوضع معظم البحّارة في استراحةٍ قريبةٍ. ففهمنا حينئذ أن رغبته في لقائنا عاجلة، وأن ما نحمله عظيم الشأن. وقع الاختيار على دون دييغو وقبطان آخر، وكما توقعت، أصر رئيسي على اصطحابي، وإن أظهرت الدهشة والمفاجأة، فقد ساهمت بل وتوليت مهمة تسجيل محتويات الصناديق على أوراقٍ أوضحت بها كلّ ما تمّ العثور عليه من مجلداتٍ ولفائف، أمام أنظار مشرف الميناء في فالنسيا، أيقن بعدها دون

دييغو أن وجودي ضروري، لقدرتي على التحدث في التفاصيل بطلاقة وسلاسة.

هكذا كانت ثقتي بداية، لكن، وما إن تقدمنا بخطوات في باحة القصر المزدانة بالنوافير والأشجار، حتى شعرتُ برجفة ذكّرتني فوراً بأيام الحمى المقيتة.

كيف لشاب بسيط مثلي أنا، نشأ على أصوات قطع الأخشاب في دكان نجارة الأب، وخدم أحد النبلاء حيناً من الزمن، ثم انخرط في القرصنة بعدها، لا لشيء إلا ليظفر يوماً بغاليته ماريا، أن يأتي يوم ليقف فيه أمام فيليبي الورع، ملك قشتالة وليون وأراغون.

سرنا من بهوٍ إلى بهوٍ، والحرّاس يتأمّلون وجوهنا بفضولٍ أو استصغار، إذ يروننا أشبه بقومٍ من الخارجين على القانون، إلى أن ولجنا قاعةً واسعةً اصطفّ فيها رجال البلاط، وأمامهم على منصةٍ مرتفعةٍ عرشٌ مهيبٌ يجلس عليه الملك فيليبي، متطلعاً إلينا بنظرات حازمة، بها قدرٌ من الكبرياء، وشيءٌ من الفضول.

قدّمنا التحية الواجبة بانحناءة خفيفة، وما إن اكتملت المجاملات الأولى حتّى انهالت علينا أسئلة الحاضرين، عن كيفية اعتراضنا للسفينة، وطبيعة ما وجدناه فيها، ومحتوى الكتب والمخطوطات، ومدى إمكانية الاطلاع عليها حالاً، كل هذا أمام صمت الملك، وقد بدا قادراً على ضبط كل إشارات وحركات حاشيته، بنظرة واحدة منه.

تقدّم دون دييغو شارحاً التفاصيل، وأنا أومئ برأسي مؤيداً ومؤكداً لما يقوله، ثم أخرج القبطان بعض القوائم التي دوّنتُها من قبل، ثم تقدّم بها وسلّمها باحترام بالغ، لا يخلو من اضطراب أخرق، إلى كبير مستشاري الملك، رجل بحواجب كثيفة وملامح شديدة الصرامة.

تصفح المستشار الأوراق، ثم قال بصوتٍ مرتفع: «يبدو أنّ بينكم مَن يجيد الكتابة والتدوين، فمن منكم هو؟». عندها أشار دون دييغو بإصبعه إليّ، حائراً إن كان في ذلك تقدير أم توريط لي، فانصرفت أنظار الجميع إليّ.

استجمعْتُ قواي، وتناسيت بوادر الحمى اللعينة، وقلتُ بصوتٍ مرتجف: «نعم، يا سيدي المحترم، لقد قمت بتسجيل محتويات السفينة. رأيتُ آلاف المخطوطات، وشواهد على معارف عديدة، بينها ما كتب باللاتينية، أما معظمها فبلغات الموروس والشرق التي لا أتقنها».

كنت أتكلم مسترقاً النظر إلى رجال الحاشية، وهم أيضاً يحدقون بي بفضول، ويتساءلون على الأغلب عن سر قدرة قرصان ناحل الجسد على التعامل مع الكتب أفضل من آخرين قضوا ربما أعماراً بين الورق والمخطوطات.

عندئذ تدخّل الملك مستفسراً نيابة عنهم: «كيف تعلمتَ القراءة والتدوين؟». فأسهبتُ في شرح قصتي بإيجازٍ شديد، دون أن أفصّل في أسباب عملي مع القراصنة طبعاً.

سمعتُ همهمةَ الحاضرين، كأنّ القصة حازت انتباههم. ثم قال الملك بحزم: «أنت إذن تحوز فضلاً كبيراً أمام هؤلاء»، ثم أضاف بعد صمت قصير: «فلتُنقل هذه الكتب إلى دير الإسكوريال، حيث تجتمع نُدرة المجلّدات والمخطوطات تحت عناية رهباننا وعلمائنا. وأحتاج إلى من يكون لديهم إلمام بما تحويه هذه الكنوز، لضبط قوائمها وفهرستها».

عندئذ تدخّل المستشار، في حركة بدا وكأنها متفق عليها، إذ قال: «يبدو هذا الرجل أصلح مَن يقدّم لجلالتكم عوناً في تلك المهمّة، على أن يرعاه أهل الدير ويُخضعوه لرقابةٍ دقيقة، لئلا يعود إلى طريق القرصنة».

فتدخّل دون دييغو محاولاً إظهار اعتراض لطيف، لكنّ نظرات الملك القاطعة أجبرته على التراجع، قبل أن يقول: «دعوه وشأنه، فقد أثبت أنّ لديه عقلاً لا يتوفّر في غيره من رجالكم، أما أنتم فأمرت لكم بمكافأة نظير صنيعكم هذا، وبأن تظلوا تحت أعيننا، لا تتحركون في البحر إلا بأمر منا».

ثم وجدتُ نفسي بعد حين مغادراً القصر بخُطىً لا أكاد أميزها من شدة الذهول. وبجانبي كبير المستشارين الذي قال بنبرة من لا ينتظر رداً أو تعليقاً: «ستلتحق بقائمة العاملين في الإسكوريال، وستتلقى منحةً تكفي كل احتياجاتك، وستُسلَّم لك ورقةٌ ممهورة بخاتم الملك فيليبي تضمن لك عدم الملاحقة باعتبارك قرصاناً شقياً».

أسرعتُ في استغلال لحظات لاحقة للانفراد بدون دييغو، حيث سألته بحذر: «أيعني هذا أنني لن أعود أبداً إلى سفينتك؟»، فبدا وجهه متجهّماً، شاعراً ربما أنّ البلاط انتزع من يديه شخصاً مفيداً، لكنه تمتم قائلاً: «ما أنوي إجبارك على شيء. لكن تذكّر خدماتي لك...»، ثم انفلت منه شبح ضحكة، دار على عقبيه بعدها ومضى.

تلقيتُ بعد يومين ورقةً رسميّةً مختومة، تأمرني بالتوجه إلى دير الإسكوريال برفقة مسؤولي مكتبة القصر الملكي. صحيح أنّني لستُ خبيراً بلغات المشرق، لكنّ لديّ إلماماً بترتيب وفهرسة المخطوطات قد لا يملكه سواي، ثم إنّ البلاط قرر الاستعانة ببعض المترجمين، سيعلموننا جميعاً لغة الموروس، للمساهمة في دراسة محتوى الصناديق.

وهكذا تراءى أمامي طريق النجاة، وما عدت بحاجة إلى التواري خلف سراب القرصنة التي أدمت روحي لشهور.

لم يبقَ الكثير. ما إن ينهي دير الإسكوريال إجراءاته، حتى أسافر إلى أهلي، وأطلب يد ماريا فوراً، مطمئناً لسقوط كل عوائق الماضي التي

نغّصت حياتنا. أتصوّر تلك اللحظة التي أصل فيها، فأرى بيت أبي القديم وقد شاخَتْ جنباته. يفتح لي الباب ويستقبلني بدموعٍ مختلطةٍ بفرحٍ وذهول؛ يتساءل عن كيفية نجاتي من أمواج البحر وغدره، وستتضرع أمي إلى الربّ أن يديم عافيتي، سترفع غاليتي ماريا عينيها نحوي وتبتسمُ بكل الشوق والمودة.

حينذاك، سأودع أياماً عصيبة من القهر والعذاب، غير مأسوف عليها، وسأطوي صفحة البحر بالكامل، لأستعيد روحاً كدت أفقدها في أتون القرصنة والغرق.

مكتبة
t.me/soramnqraa

*

تمرين الوصف

نموذج الطالب (ة): أدريانا نافاس.

● **نقاط القوة:**

- وصف دقيق للأماكن: المشاهد داخل القصر الملكي غنية بالتفاصيل، كما نظرات الملك فيليبي الحازمة، مما يعزز الشعور بالمهابة، ويضع القارئ وسط الأجواء الرسمية، كما أن تصوير الحراس وهم يراقبون الشخصية بنظرات تحمل الفضول أو الاستصغار يضفي بُعداً نفسياً على المشهد، ويوضح الفجوة بين القراصنة ورجال البلاط.

- الوصف العاطفي المؤثر للمشاعر الداخلية: المقصود هنا مشاعر التوتر عند دخول القصر، وتأثير الجو المهيب على جسد الشخصية (رجفة ذكّرتني فوراً بأيام الحمى المقيتة)، مما يُشعر القارئ بالتوتر والضغط الذي تعيشه، أيضاً وصفها الخوف من دون دييغو، والحيرة بين الهروب والبقاء، بما يضفي واقعية على قراراتها، خاصة والأمر يتعلق بخيار قد يغير مصيرها بالكامل.

● **نقاط الضعف:**

- عدم استغلال مشهد الرحلة من فالنسيا إلى مدريد: كان بالإمكان استغلاله لإضفاء المزيد من التفاصيل حول الطبيعة الإسبانية، مما يجعل الانتقال أكثر انسيابية وواقعية. (تذكّري دائماً أنك تكتبين نصاً موجهاً للقارئ بمفهومه الواسع، أيّاً كانت جنسيته أو خلفيته).

- قلة التفاصيل عن شخصيات القصر: لم تُمنح وصفاً جسدياً أو انفعالياً كافياً (اللباس، التصرفات...) بما يجعلها أكثر تميزاً، أما الملك فيليبي، فأعود إلى ملاحظتي السابقة وأقول إنه بالفعل معروف لدى الإسبان، خاصة دارسي التاريخ منهم، كما أن ظهوره يضع أخيراً الإطار الزمني المرجو للنص، في بدايات القرن السابع عشر، لكن إضافة وصف لملامحه وبنيته الجسدية قد يبث واقعية أكبر للمشهد.

*

التمرين السادس: العقدة والحل

ظننت أنّ دروبي ستستقيم بالوصول إلى دير الإسكوريال؛ بل تصوّرتُ أنّ الحياة ستتحوّل إلى هناء دائم، بإنهاء رحلتي في القرصنة وتمتّعي برعاية البلاط، فالمنحة الجزيلة، ودفء الاستقرار، والزواج من محبوبتي بعد طول انتظار، حوّلت الحقبة الأولى من عملي الجديد إلى حلمٍ لطالما منّيت نفسي به أيام تشرّدي الطويل بين البحار.

لكنني أخطأت في حساباتي، وما ظننت حينها أن الحياة لا تستقيم أبداً على حال.

أصل كل يوم إلى الدير تحت غيمٍ رماديّ يخيّم على المرتفعات القريبة. بناء شامخ تحفُّ به مساحاتٌ من الهدوء والترصّد، كأنّ جدرانه تحرسُ أسراراً لا تُحصى. أتجاوز البوّابة الرئيسية، ثم أنتقل من المدى الفسيح إلى أنفاقٍ مهيبةٍ من الممرّات والقاعات المكتظّة بالرهبان والعلماء.

ما توقعت قطُّ عالَماً كهذا، وقد قضيت وقتاً طويلاً رفقة قراصنة صاخبين متعجّلين، فيما أقف الآن في حضرة الصمت، بين أروقة الكتب والمخطوطات التي تنساب منها أصوات الماضي وأسراره.

كُلّفتُ، مع بعض الرهبان والمترجمين، بتفحّص تلك المخطوطات وتسجيل عناوينها ومواضيعها، مع محاولةٍ أوّليةٍ لتقدير قيمتها. ولأنّي كنتُ بين قلّةٍ من الإسبان المتعاملين مع هذه الذخائر، فقد توقّعوا منّي

مزيداً من الانضباط في العمل: أدوِّن وصفاً لكلّ مخطوط: حجمه، وعدد صفحاته، وحالته، ولو استطعتُ أُسجِّلُ تصنيفاً أوّليّاً للموضوع إن كان معروفاً، مستعيناً أحياناً برهبان لهم بعض الدراية باللغة والخط العربيّ، علّهم يساعدون في فكّ الكلمات والإشارات المبهمة.

كنتُ أنسخُ عناوين المخطوطات على الورق، أُقلّب الصفحات القديمة برفقٍ وحرصٍ، فهذه النفائس يُمنع إهمالها أو إتلافها، وما لفتَ انتباهي كثيراً هو تنوّع مواضيعها: وجدتُ نسخاً من مصاحف دين المغاربة، وكتباً في فقههم، ومخطوطات نفيسة أخرى في الفلسفة والفلك والطبّ والأدب.

تدريجيّاً، بدأت أكتشفُ مخطوطاتٍ مزخرفةً بنقوشٍ ذهبيةٍ ورسوماتٍ لجداول رياضيةٍ أو دوائرَ فلكية، تضمها مجلّداتٌ مزينةٌ بأشرطةٍ حريريةٍ تُغلَقُ بها صفحاتها، فشعرت برابط عجيب يقربني منها، لما لمسته دوماً في أعماقي من حب عظيم للحساب وسحر الأشكال والأرقام.

ذات مساءٍ، وبينما انهمكت في تفحّص وفهرسة محتويات صندوقٍ شبه مهجور في زاويةِ القاعة، عثرتُ على مخطوطٍ غريبٍ، تغطيه بقع داكنة، ويختلف عن كلّ ما وقعت عليه عيناي. بدا كأنّ صاحبه قد جمعَ بين قصائدَ من شعر العرب بخطٍّ أنيقٍ، ومسائل حسابٍ معقّدة لا يشبه رسمُها الطرق المعتادة عندنا، كأنه أراد مزج فنّ القوافي في شعرهم مع علوم الحساب ونظريّاته.

حملته إلى راهب قيل لي إنّه يتقن قراءة الخطوط العربية الصعبة، فلما قلّبه بين يديه، ظهرت على وجهه علامات الاستغراب، فأخذنا نقلبُ الصفحات، وما وجدنا تفسيراً سوى أنها محاولةٌ قديمةٌ ما لإيجاد علاقاتٍ سحريةٍ بين الشعر والأعداد، أو لعله بحثٌ خفي لجماعةٍ سرية

سعت إلى استكناه أسرار الكون والطبيعة عبر نظامٍ عدديٍّ لا يعرف كنهه سواها.

شغلنا اللغز الشائك لساعات، ثم بعدها لأيام، نفتح باباً في المخطوط فنغرق في بحرٍ من الحواشي والرسوم البيانية. نفشل في فكّ ما نراها شيفرة ما، فنعود خطواتٍ إلى الوراء، وقد تراكمت لدينا المسوّداتُ والمحاولاتُ بلا طائل.

مر الوقت، وما ازددت إلا يقيناً بأنّ هذا المخطوط قد يكون من أثمن ما غنمناه من سفينة الكتب، فقلّما يجتمع الشعر والحساب بهذا الشكل، دون أن نصل إلى تفسيرٍ شافٍ نهائيّ لما يتضمّنه.

أما في شأن ماريا، فبعد شهور من العيش تحت سقفٍ واحد، بتّ أشعر أن في الزواج ما يشبه الخديعة التي يعرفها الجميع لكنهم يصمتون عنها، رغبة منهم في الإيقاع بك أيضاً في شباكها.

تذمّرت زوجتي من غيابي الطويل في الدير، حيث أمضي النهار بين المخطوطات والأوراق، وأعود متعباً في الليل، مرهق العقل، عاجزاً عن إظهار الحماسة التي اشتعلت بيننا بداية. كما أن مسؤوليات البيت قد أثقلت كاهلها، رغم وجود خادمة وفية تعينها، فبدأنا نختلفُ حتى على توافه الأمور، كنوع الطعام وشكل الأثاث.

اشتقت في سرّي لحلاوة الأحلام التي رسمتُها عنها، عندما كنت مرمياً في جوف البحر، متخيّلاً أنّني إذا تزوّجتُها فسأحظى بالسعادة الأبديّة. أمّا الآن، فيتعاظم شكي في ذلك.

أحبّها وما زلتُ أرى في عينيها لهيب العشق، لكنّ ما تفعله بنا الحياة أبعدُ ما يكون عما يراود مخيلة بحار في رحلاته الطويلة، ثمّ إنّ رغبتها في الاستمتاع بترفٍ معيّن قد لا أملكه الآن تضعني في زاويةٍ حرجة؛ فقد مُنحتُ فرصةً للبقاء في دير الإسكوريال بأمانٍ بعيداً عن القرصنة،

ولو دفعتني الحاجة مجدّداً إلى عملٍ أكثر ربحاً، فسأخسر مكانتي لدى الملك، وهي مصيبة لا قِبَل لي بها.

وجدتُ بعض العزاء في استئنافي البحث في أسرار ذاك المخطوط الغامض. لعلّ صاحبه مزجَ علوم الأرقام بالقصائد متوهّماً أنّه يستطيع تحقيق انسجامٍ غريبٍ بين المتناقضات، ربما يشبهني أنا في حيرتي بين قلب ينبض بحب ماريا ورغبة عارمة في إرضائها، والتزام ضروري بوظيفة ما كنت لأحلم بأفضل منها.

وهكذا، صرتُ أقضي ساعاتٍ إضافيةً في الدير، كأنّني ألوذ بالمخطوط هارباً من صِدامٍ محتمل، بل أقنعت نفسي أنني إن نجحت في فك لغزه، فقد أنال مع البقية منزلة كبرى لدى الملك، بتأكيدنا أنه كنز لا يقدّر بأي ثمن، وساعتها قد تُفتح لي أبواب الرخاء الذي تنشده ماريا.

لكنّ الطريق وعرٌ طويل، والعوائق أكبر ممّا توقّعت، فكل مساء، عندما أغلق صفحات المخطوط وأعود إلى بيتي، آوي إلى فراشي هارباً من شجار محتمل، دون أن أدري إن كانت الأيام ستسعفني بحلٍّ لمعضلات شتى، قد تبدأ بمزاج حبيبتي ماريا، ولن تنتهي بأسرار مخطوط قبضت سطوره على روحي، مطالبة إياي بفك غموضها مهما كلفني ذلك.

*

تمرين العقدة والحل

نموذج الطالب (ة): أدريانا نافاس.

● **نقاط القوة:**

- تشابك العقدة وتعدد أبعادها: يخلق النص عدة مستويات من الصراع، مما يجعل العقدة غنية وغير خطية. فهناك صراع فكري (الشخصية والمخطوط) وصراع عاطفي (بين الشخصية وزوجته ماريا) وصراع وجودي

(بين الحياة المستقرة والحنين الخفي لأيام القرصنة)، وكلها عناصر تشوق القارئ لمعرفة كيف ستتمكن الشخصية من التوفيق بين التناقضات.

- البناء التصاعدي للعقدة: لم يكن توتر العلاقة مع ماريا، بل ظهر على مراحل، مع الإشارات إلى الإرهاق، والغياب الطويل، والضغوط المادية، كما أن البحث في المخطوط أيضاً بدأ كفضول ثم تحوّل إلى هوس، مما يعمق الأزمة النفسية للبطل، ويدفعه إلى الانغماس فيه أكثر، كنوع من الهروب من مشاكله الاجتماعية. مكتبة سُر مَن قرأ

● **نقاط الضعف:**

- غياب تطور ملموس في حل العقدة: فرغم أن النص يعمق المشكلة، إلا أنه لا يقدم أي إشارات على حلها. تتدهور العلاقة مع ماريا، لكن الشخصية لا تسعى لمواجهة مباشرة أو بحث حقيقي عن حلول. كما أن استعصاء لغز المخطوط لم يتبعه تلميح بوجود حل، مما قد يخلّف لدى القارئ إحساساً بجمود السرد، ودوران الشخصية في حلقة مفرغة.

- ضعف في تحديد الاتجاه النهائي للحل: ففكرة أن حل لغز المخطوط قد تمنح الشخصية فرصة للرخاء الذي ترجوه ماريا مجرد أمل واهٍ، لا تدعمه خطة أو مؤشرات واضحة.

- غموض غير مبرر: على افتراض أن المخطوط بحالة جيدة عند إخراجه من الصندوق، فالمفروض أن يكون مدعماً بعنوانه واسم مؤلفه، كان بالإمكان وضع عنوان متخيّل يضيف مصداقية وواقعية أكبر للسرد. (أقترح مثلاً البحث في موقع مكتبة الإسكوريال نفسها عن عناوين حقيقية ثم إعادة صياغتها لاحقاً في عنوان متخيَّل).

*

برنامج الكتابة الإبداعية

تقرير التقييم النهائي لنصوص الطالب (ة): أدريانا نافاس

إشراف: ماركوس بولنس

عزيزتي أدريانا،

قرأت نصوصك المميزة بعناية، وبإمكانك الافتخار بحسك السردي الواعد، وأفكارك التي تحمل بذور الاختلاف. موهبتك واضحة في استكشاف عوالم مختلفة، والمزج بين التاريخي والخيالي بطريقة جذابة، كما أنك قادرة على بناء شخصيات ذات عمق نفسي وصراعات معقدة، بما يمنح النصوص بُعداً إنسانياً حقيقياً.

لكن، ورغم ذلك، فإن العمل الإبداعي، كما هو معلوم، لا يعتمد فقط على الفكرة الجيدة، بل يحتاج إلى عناية كبيرة في التنفيذ، وصقل مستمر لتقنيات السرد والوصف وإدارة الإيقاع الدرامي.

بناءً على ذلك، أود أن أشاركك مجموعة من التوصيات، التي يمكن أن تساعدك على تطوير أسلوبك، وذلك بالارتكاز على تقييم جوانب القوة والضعف في كتاباتك.

❋

1- تعميق الصراعات الداخلية والخارجية:

تحمل الشخصيات في نصوصك ملامح غنية، لكن بعضها لا يتطور بالقدر الكافي، أو تتخذ قرارات مصيرية بسرعة دون صراع كافٍ. حاولي منح شخصياتك مساحة أكبر للتفكير، وإظهار ترددها، أو حتى وقوعها في أخطاء تدفعها إلى إعادة تقييم مواقفها. يرتبط القراء بالشخصيات عندما تبدو إنسانية، بعيوبها وتناقضاتها.

كيف تحققين ذلك؟

- اجعلي قرارات الشخصيات أكثر تدرجاً.

- أضيفي مشاهد حوار أو لحظات تأمل تظهر فيها المخاوف والآمال المتضاربة.

- لا تتردّدي في تعقيد مصير الشخصيات، فالمعاناة تزيد من واقعية القصة.

2- التوازن بين الوصف وإيقاع السرد:

من بين أقوى أدواتك وصفُكِ الغني للأماكن والمشاهد، لكنه يغيب بالمطلق أحياناً، أو يزيد عن الحاجة في أحيان أخرى، مما يبطئ الإيقاع ويتوه بالقارئ في التفاصيل. على الوصف أن يخدم الحبكة، مضيفاً معلوماتٍ أو أبعاداً جديدة، فهو ليس مجرد استطراد لا طائل منه.

كيف تحققين ذلك؟

- راقبي إيقاع القصة، خاصة في المشاهد الحاسمة التي تحتاج إلى سرد سريع ومباشر.

- ركزي على التفاصيل التي تُبرز الجوهر العاطفي أو الرمزي للمكان.

3- تعزيز عنصر التشويق:

الأحداث في نصوصك مشوقة، لكن بعض التطورات سهلة التوقع. تساهم إضافة عنصر المفاجأة غير المتوقعة في دفع القارئ إلى الانخراط أكثر في أجواء النص.

كيف تحققين ذلك؟

- عند تخطيط المشاهد فكّري دائماً خارج الصندوق، واسألي نفسك: ماذا لو حدث العكس؟

- لا تخشي كسر توقعات القارئ بطريقة منطقية ومقنعة، كأن تواجه الشخصية خيانة قريب غير متوقع مثلاً.

- استخدمي نهايات مفتوحة جزئياً، أقرب للطعم، مما يضاعف تساؤلات القراء، دون الميل في الآن ذاته إلى النهايات غير المكتملة حرفياً.

4- إدارة الزمن السردي:

من بين أكبر التحديات الحاضرة في نصوصك، تذبذب الإحساس بالزمن. تمر بعض الأحداث بسرعة غير مبررة، بينما تمتد أخرى أكثر من اللازم. لا بدّ من تحقيق توازن منطقي، يجعل تطور الشخصيات والعلاقات طبيعياً أكثر.

كيف تحققين ذلك؟

- استخدمي إشارات زمنية دقيقة داخل النص، تساعد القارئ على المتابعة. (أخبرتني أن فكرة نصوصك مستوحاة من قضية استيلاء قراصنة إسبان على مكتبة زيدان السعدي المغربي عام 1612، لماذا لم تشيري إلى هذا التاريخ في نصك؟).

- لا بدّ للزمن أن ينعكس في بيئة القصة أيضاً: تغير الفصول، مرور الأعوام، آثار الزمن على الشخصيات والأماكن، إلخ...

5- استغلال المكان كعنصر أساسي في السرد:

الميناء، البحر، البلاط، دير الإسكوريال، قدرتك مميزة على بناء وتخيل أماكن غنية، لكن تطويرها ممكن، بحيث تصبح عنصراً نشطاً في السرد، لا مجرد خلفية للأحداث.

كيف تحققين ذلك؟

- أن يعكس المكان الحالة النفسية للشخصية، مثلما حدث مع وصف البحر الذي عكس حالة قلقها.

- استخدمي المكان كأداة للسرد، بحيث تؤثر خصائصه على مجرى الأحداث (شعور الشخصية بالاختناق مثلاً في ممرات الدير الضيقة).

- اجعلي لبعض الأماكن ما يشبه «ذاكرة» داخل النص، فترتبط بها الشخصية عاطفياً أو فكرياً، مثل إحساسه بالرهبة في البلاط مقارنة بألفته وراحته في الدير.

الخلاصة:

أدريانا، لديكِ موهبة تستحق التطوير، كما أن أفكارك تعكس نضجاً فكرياً مميزاً، مقارنة بطلبة آخرين ارتاحوا لأفكار نمطية محدودة.

يمكنك، بمزيد من الصقل والتمرين، الوصول إلى مستوى يجعل نصوصك أكثر قوة وتأثيراً.

اقرئي كثيراً، اكتبي بلا خوف، وجرّبي إعادة كتابة بعض المشاهد وفق هذه الملاحظات، وستلمسين الفرق بنفسك.

مع خالص التقدير،

ماركوس بولنس.

*


VIII
[13]

VIII

[13]

سيرة بطل

(2015)

«تتجلى في ملحمة **الأوديسة** لهوميروس أسمى معاني شجاعة الإنسان وإصراره عند مواجهته للمحن والصعاب. وترمز شخصية أوديسيوس إلى قدرة الفرد على الجمع بين الذكاء الفطري والقوّة البدنية، مع التأكيد على أنّ التضحية أحياناً هي السبيل الوحيد لعبور أعتى الرياح والعواصف. قد لا نخوض اليوم في لج البحار ذاتها، لكن رحلتنا المعاصرة لا تقلّ خطورةً وتشعّباً؛ إذ تواجهنا جملة تحديات وجودية وتقنيّة واجتماعية، تحتاج منا جميعها إلى التخلّي عن بعض رغباتنا الفورية في سبيل تحقيق غايةٍ أكبر. تذكّرنا **الأوديسة** بأنّ التضحية، وإن اختلفت أشكالها ومظاهرها، ستظلّ محور سعي الإنسان الدائم إلى تحقيق ذاته والوفاء لمُثُله العليا...».

رشيد بناصر – المحاضرة الثامنة – الأربعاء 1 أبريل 2015

مشروع فيلم وثائقي:

في عين الجبل

سيرة المقاوم والمناضل بوغالب الصادقي

الفترة المتوقعة للإنتاج: 2013-2015

معلومات عامة عن المشروع:

العنوان المؤقّت:

«في عين الجبل: سيرة المقاوم والمناضل بوغالب الصادقي». (يمكن تغييره لاحقاً وفق الرؤية الإخراجية).

نوع الفيلم:

وثائقي تاريخي - سيرة.

المدة المتوقعة:

52 دقيقة.

لغة الفيلم:

العربية الفصحى - الدارجة المغربية - ترجمة نصية إلى الفرنسية والإنجليزية.

الجمهور المستهدف:

الجمهور الواسع المهتم بتاريخ المقاومة والفترات الانتقالية بين الاستعمار والاستقلال، بالإضافة إلى الباحثين الأكاديميين المتخصصين.

نبذة عن موضوع الفيلم:

يتتبّع هذا الوثائقي مسيرة المقاوم والمناضل بوغالب الصادقي (حوالي 1900-1978). يسلط الضوء على نشأته الجبلية، والتحاقه بالمقاومة ضد الاستعمار الفرنسي والإسباني، وانتقاله إلى العمل السياسي بعد الاستقلال. لا يقتصر الوثائقي على سرد مسيرته الشخصية فحسب، بل يستكشف أثره على الأجيال، وصولاً إلى أحفاده الذين حملوا رسالة النضال في مختلف الميادين.

هيكل الفيلم:

- المقدمة (المشهد الافتتاحي)
- المحور الأول: البدايات والجذور.
- المحور الثاني: الاستعمار والمقاومة.

- المحور الثالث: معركة عين الجبل.
- المحور الرابع: الاستقلال والعمل السياسي.
- المحور الخامس: الأسرة المناضلة وانتقال المشعل إلى الأبناء والأحفاد.
- المحور السادس: آراء المؤرخين والخبراء.
- المحور السابع: الإرث الخالد.
- الخاتمة (المشهد الختامي)

الهيئة الاستشارية:

- الدكتور عمر الصادقي، حفيد بوغالب الصادقي، وعميد كلية اللغات والآداب والفنون، جامعة ابن بطوطة بطنجة.

- الدكتور فريد النوري، أستاذ بكلية اللغات والآداب والفنون، جامعة ابن بطوطة بطنجة (توفّي خلال مرحلة الإعداد الأولي للفيلم).

- الدكتور عبد الإله مفتوح، أستاذ بكلية العلوم الإنسانية، جامعة ابن بطوطة بطنجة.

- الدكتورة سميرة مفتي، أستاذة بكلية العلوم الإنسانية، جامعة ابن بطوطة بطنجة.

- الدكتور سيلفان بارتيز، أستاذ بكلية العلوم الإنسانية، جامعة إكس أون بروفانس، مارسيليا.

التمثيل:

- إعادة تمثيل لبعض المشاهد الحاسمة، مثل معركة عين الجبل، باستخدام ممثّلين يرتدون الزي التقليدي ويحملون البنادق القديمة.
- تسليط ضوءٍ مميزٍ على حياة القرية الجبلية في بدايات القرن العشرين.

التعليق الصوتي والموسيقى:

- صوت راوٍ متمكّن يحمل بُعداً عاطفياً وتوثيقياً.

- خلفية موسيقية تمزج بين التراث المغربي والطابع السينمائي المحفز للمشاهد.

أسلوب السرد:

- سرد خطي متسلسل.

أهمية المشروع والأثر المتوقع:

يساهم الفيلم في تعريف المشاهد بصفحات من تاريخ المقاومة، ويعرّف بالمراحل الحساسة التي خاضها رجالٌ كان لهم دورٌ محوريٌّ في حصول المغرب على استقلاله وانتقاله فيما بعد إلى مرحلة بناء مؤسساته. ومن خلال استعراض نماذج شجاعة مثل بوغالب الصادقي، ينفتح مجال للنقاش حول قيم التضحية والالتزام بالمسؤولية الوطنية. يأتي هذا الفيلم إذن ليربط بين بطولات الماضي (المقاومة) وتحديات الحاضر (العمل السياسي وبناء الدولة)، كما يُظهر أثر التربية الأسرية في استمرارية العطاء النضالي والوطني عبر الأجيال.

*

المحور الأول:
البدايات والجذور

المشهد الافتتاحي 1:

تبدأ الكاميرا بالانتقال التدريجي من لقطات أرشيفية بالأبيض والأسود للمغرب زمن الاستعمار، إلى صور حية وملوّنة لإحدى القرى في شمال المغرب. جبالٌ شامخة، ووديانٌ عميقة تفصل بين المرتفعات. الطرق وعرة وضيقة، بعضها معبّد بالحجارة المحلية القديمة، وبعضها ترابيّ ينتهي على حافة منحدرات حادة. تظهر بيوتٌ تقليدية، تحيط بها حقول صغيرة، بما يدلّ على نمط حياةٍ فلاحيّ بسيط.

كادر التصوير:

إبراز جمال المنطقة عبر عدسات واسعة تكشف امتداد الجبال، مع مزج لقطات مقربة لأيدي الفلّاحين وهي تزرع أو تحصد في مختلف الفصول. في بعض المشاهد، تحتل الأشجار والغيوم حيزاً مهماً في الكادر، للإيحاء بالهيبة والسكون. يتم الانتقال بين اللقطات بسلاسة، لإشعار المشاهد بتعاقب الصباحات المشرقة والليالي الهادئة، مع إمكانية دمج لقطات لبعض الحيوانات البرية المتواجدة بالقرية ومحيطها.

الموسيقى التصويرية:

في الخلفية، تتداخل أصوات العود والناي مع إيقاعات طبل خفيف، لمنح المشاهد إحساساً بالألفة مع الأجواء القروية الهادئة. تتصاعد النغمات تدريجياً مع كل لقطة جديدة، للإيحاء باستدعاء الماضي، عندما شهدت هذه الجبال معارك قاسية ضد الاستعمار. لا تطغى الموسيقى على الصورة، بل تترك مساحة للأصوات الطبيعية: حفيف الشجر، خرير المياه المنسابة في الجداول، ونباح الكلاب البعيد عند مداخل القرية.

التعليق الصوتي للراوي (بصوتٍ عميقٍ وواثق) 1:

«هناك، حيث يتعانق شموخ الجبال مع زرقة السماء، نشأ بوغالب الصادقي.

هنا، في هذه التضاريس الوعرة، وُلدت شخصيته وتشكّلت ملامح روحه الرافضة للظلم. وفي زمنٍ رزحت فيه البلاد تحت وطأة الاستعمار، زرعت في هذه السهول والوديان بذور المقاومة».

عرض لقطات إضافية 2:

نرى خلال تعليق الراوي لقطات لأطفالٍ صغار يلعبون أمام بيتٍ بسيط، وتُلتقط بعض التفاصيل عن قرب، مثل باب خشبي متصدّع، ثم تتسع الصورة لتشمل فضاء القرية، ومجلساً من المسنين يرتدون الجلابيب ويتبادلون أطراف الحديث قرب مسجدٍ صغير.

التعليق الصوتي للراوي (يتداخل صوته تدريجياً مع الموسيقى التصويرية) 2:

«هنا، في هذا البيت المتواضع، وبين أحضان الطبيعة الحانية والقاسية في آن واحد، تفتّحت عينا بوغالب على معاناة أهله وقومه في زمن الظلم والقهر. حفظ ما تيسر من سور القرآن صغيراً، وتشرّب قيم الكرامة والعدالة التي زرعها فيه والده، فكان ذلك أساس نضاله الطويل. لم تكن حياة القرية سهلة، لكنّها منحت أبناءها صلابةً فريدة؛ إنها صلابة الجبل الذي يأبى الخضوع».

عرض لقطات إضافية 3:

تنتقل الكاميرا إلى لقطات أخرى تجمع أطفالاً صغاراً يمشون على طريق ضيق، وبعدها مشهد عفوي لعجوز تتابع حواراً مع جارتها، بما يجسّد روح الحياة اليومية البسيطة التي كوّنت شخصية بوغالب وأقرانه.

التعليق الصوتي للراوي (بنبرةٍ حانيةٍ ومؤثرة) 3:

«لم تكن طفولة بوغالب الصادقي عادية، ففيها امتزجت قوة الطبيعة وعنفها بدفء الأسرة وتقاليدها. وبين الحقول والكُتّاب، تشكّلت نواة المقاومة في قلبه».

عرض لقطات ختامية 4:

قبل نهاية المحور، يأخذ المخرج لقطة عامة للقرية من مكانٍ مرتفعٍ، ويظهر الغروب ملقياً بظلاله الذهبية على البيوت الصغيرة. يتلاشى صوت الموسيقى ببطء، تاركاً للمشاهدين فرصةً للتأمُّل في الهدوء الظاهري الذي يخفي في طياته ولادة جيل من المناضلين. هنا يعلّق الراوي بصوتٍ خافتٍ:

التعليق الصوتي للراوي (بصوت خافت) 4:

«من رحم هذه الأرض، بزغ فجرٌ جديد. ستسير أحداث القصة لتُظهر كيف تحولت إرادة المقاومة إلى فعل، وكيف أصبح ابن هذه القرية رمزاً. لكنّ البداية تنبع دوماً من تلك البذور التي تغرس في عمق الأرض، فتنتظر اللحظة المناسبة لتنبت وتنمو رغم كل الظروف».

نهاية المحور الأول

*

المحور الثاني:

الاستعمار والمقاومة

المشهد الافتتاحي 1:

تبدأ الكاميرا بعرض لقطاتٍ أرشيفية بالأبيض والأسود للمدن المغربية في حقبة الاستعمار الفرنسي. تُظهر هذه اللقطات الجنود الفرنسيين بقبعاتهم المميزة وبنادقهم على أكتافهم، بينما يُشاهد مغاربة بجلابيبهم التقليدية وهم ينظرون إليهم بحذر.

تتناوب هذه الصور مع لقطات لمظاهرات شعبية. تُسمع هتافات المحتجّين متداخلةً مع صفارات الإنذار وأصوات العربات المصفحة. يضيف المخرج بعض المؤثرات الصوتية التي تجسّد حالة الغليان والقمع في الشارع المغربي آنذاك.

كادر التصوير:

تنتقل الألوان من الأبيض والأسود في المدن المغربية ومواجهات المحتجّين وجنود الاستعمار، إلى مشاهد ملونة من الجبال، حيث يبدو المشهد صامتاً للوهلة الأولى، قبل أن تظهر وجوه ممتلئة بالعزم والتصميم.

الموسيقى التصويرية:

في الخلفية، تعزف موسيقى ذات إيقاعات قوية، مستوحاة من التراث المغربي. تتلاقى الأنغام مع تصاعد درامي، تجسّده آلات إيقاعية حادة، وضربات دفوف توحي بالشدة واليقظة. كلما تقدمت الكاميرا عبر الممرات الجبلية والوديان، اشتدت الإيقاعات، للدلالة على تصاعد روح المقاومة لدى أبناء هذه المناطق.

التعليق الصوتي للراوي (بصوت رصين وواضح، تتخلله لمحاتٌ حزن) 1:

«اشتدت قبضة الاستعمار على مقدّرات البلاد، وتنافس الفرنسيون والإسبان في القمع وكبت الحريات. سياساتهم مجحفة بحق الناس، تقمع الأصوات المطالِبة بالكرامة، وتهمّش كل أشكال المعارضة. لكن الإرادة لم تنكسر، بل إن فكرة

المواجهة ازدهرت في النفوس. وهنا، تحديداً، حيث نشأ بوغالب الصادقي، ستولد مقاومة لا تلين، وتتشكّل نواةٌ لمواجهة المحتلين، وتتصاعد عملياتٌ نوعية تهزّ جيوش الاستعمار».

عرض لقطات تمثيلية بين الجبال 2:

يتحوّل المشهد مرة أخرى إلى الجبال، حيث تبرز الانحناءات الحادة للطرقات الملتوية، وتظهر قوافل متفرقة لجنود فرنسيين، يحاولون التقدم بين السفوح الوعرة. تتداخل هذه اللقطات مع صورٍ لمقاومين يرتدون جلابيب بسيطة ويحملون البنادق والرشاشات القديمة، عاقدين العزم على منع توغّل الاستعمار في مناطقهم.

التعليق الصوتي للراوي (بنبرة حماسية) 2:

«استدعى هذا الواقع الملتهب وقفةً حاسمةً من رجال عين الجبل. بوغالب الصادقي أحد أولئك الذين تحرّكت في أعماقهم روح الوطنية والإيمان بضرورة التصدّي للظلم. ما إن اشتدّ الحصار حتى قرّر الانضمام إلى المقاومة المحلية؛ التي اعتمدت على سرّية الحركة وسرعة الانتقال من منطقةٍ لأخرى، مستفيدةً من الطبيعة الجغرافية الوعرة التي تحميها».

مقابلة مع الدكتور عبد الإله مفتوح، أستاذ التاريخ الحديث بكلية العلوم الإنسانية، جامعة ابن بطوطة بطنجة 3:

تنتقل الكاميرا إلى مشهدٍ داخل مكتبٍ يحمل طابعاً أكاديميّاً: جدرانٌ مغطاة بخرائط قديمة للمغرب، ومكتبةٌ غنية بالكتب والمؤلفات التاريخية. يجلس الأستاذ خلف طاولةٍ خشبيةٍ، وقد وُضعت أمامه بعض الوثائق والصور القديمة.

تصريح أستاذ التاريخ الحديث (بابتسامةٍ خفيفة وصوت هادئ) 3:

«عُرفت تلك المنطقة عموماً بشراستها في مواجهة المستعمر، رغم موقعها المعقد الذي جعلها على تخوم الحد الفاصل بين السيطرتين الفرنسية والإسبانية، اللتين مزقتا البلاد. لكن، ورغم قلة الإمكانات وندرة الأسلحة القادرة على مواجهة تطور الجيش الفرنسي، لعبت التضاريس الجبلية دوراً حاسماً في حماية المقاومين، وعرقلة حركة الجيش الفرنسي وتقويض قدرته على ملاحقتهم. لهذا ظهرت حركات

تحريرية ذات هيكلة أفضل، بدأت تنسّق فيما بينها لتعزيز ضرباتها ضد الوجود الاستعماري».

(يتوقف قليلاً لالتقاط أنفاسه وتصفح أوراق أمامه ثم يتابع):

«من بين أبرز الأسماء التي تصدرت المشهد، بوغالب الصادقي، إذ تميّز بسرعة التحرك والقدرة على بناء شبكات دعم بين الأهالي. فقد تواصل مع القرى المحيطة، وأقام علاقات قوية مع شيوخها وشبابها. عمل رصين ودؤوب جعل منه شخصيةً محترمة في أوساط المقاومين رغم حداثة سنه».

عرض لقطات تمثيلية تدعم كلام أستاذ التاريخ الحديث 4:

يتم عرض مشاهد تمثيلية تُظهِر مجموعةً صغيرةً من المقاومين في منزلٍ مُتوارٍ، يتقاسمون المعلومات، ويرسمون خطط الهجوم أو الدفاع. نرى خرائط يدوية مرسومة على الورق، يوضّح فيها أحدهم مواقع تمركز القوات الفرنسية، وممرّات التهريب ونقاط الإمداد بالذخيرة. يتخلل هذه الصور صوتُ حوار منخفض يشير إلى «أهمية التعاون مع الناس في القرى المجاورة لتوفير الطعام والمأوى والتمويه».

عرض لقطات أرشيفية للمدن 5:

تعود الكاميرا إلى المدن، حيث تظهر جنبات الميناء والطرقات التجارية تحت رقابة مشددة. تسود حالة من التوتر والغليان في نفوس أهل المدينة، إذ بدأت أخبار المقاومة في الجبال تصل إلى الأسماع، وتشكل أملاً قوياً في التخفيف من القبضة الاستعمارية.

التعليق الصوتي للراوي (بأسلوب تحليلي) 5:

«شكلت خطوط التواصل بين المدن والجبال هاجساً مؤرقاً للمستعمر، الذي حرص على عزل القرى وضبط حركة التنقل، لكن روح النضال والتآزر حالت دون تحقيق ذلك. وهكذا استطاع بوغالب الصادقي ورفاقه توحيد جهودهم مع مقاومين آخرين، مستغلّين الفرص لتهريب الذخيرة والسلاح، ونقل الجرحى والمطارَدين إلى مواقع أكثر أمناً».

عرض لقطات ختامية 6:

يظهر مشهدٌ لليلٍ هادئٍ في إحدى القرى، تنعكس أضواء القمر على سفح

الجبل، وتلمع بنادق المقاومين بين الأشجار. تمرّ الكاميرا ببطءٍ على ملامح وجوههم الصلبة رغم التعب.

التعليق الصوتي للراوي (بنبرة حماسية) 6:

«صارت المناطق الجبلية خلية نحلٍ لا تهدأ، وفي خضم هذه الأجواء، لمع اسم بوغالب الصادقي كمنسق ميداني ومخطط للعمليات. لم يكن ذلك سهلاً بالنظر إلى ملاحقة المستعمر وقلة الموارد، لكن الإيمان حوّل كل مقاومٍ إلى شعلةٍ لا تنطفئ.»

نهاية المحور الثاني

*

المحور الثالث:

معركة عين الجبل

المشهد الافتتاحي 1:

تبدأ الكاميرا بلقطة جوية لمنطقة جبلية وعرة، تضاريسها شديدة الانحدار، يعلوها ضبابٌ خفيف في الصباح الباكر. على قمم التلال، نشاهد مقاومي المنطقة، يتبادلون النظرات فيما بينهم قبل انطلاق المعركة الفاصلة، وتظهر عليهم علامات الاستعداد والترقب.

كادر التصوير:

تُبرز الكاميرا تفاصيل الطبيعة المحيطة ولباس المقاومين: الأحزمة الجلدية التي تحمل الرصاص، والبنادق العتيقة، ورشاش واحد أو اثنان. تُلتقط بعض المشاهد المقربة لأيدي المقاومين وهي تتحسس أسلحة بسيطة، كالخناجر والمسدسات القديمة، ويعلو المشهد صوت الرياح العاصفة بين الصخور، كأنما توحي بهديرٍ قادم يُبشّر بمواجهة حاسمة.

الموسيقى التصويرية:

في الخلفية، تُعزف مقطوعة بإيقاعٍ متصاعد. يبدأ العزف هادئاً بنغماتٍ على العود والناي، ثم يتدخل الكمان، ليعطي للمشاهد إحساساً بالتوتر والترقّب. يتصاعد النسق شيئاً فشيئاً مع اقتراب المقاومين من موقع العدو، في تناغمٍ يعبّر عن قرب انفجار المعركة.

التعليق الصوتي للراوي (بصوتٍ عميقٍ) 1:

«في ذلك اليوم، خاض بوغالب الصادقي ورفاقه أشد معاركهم ضراوة ضد القوات الفرنسية. إنها معركة عين الجبل، التي وجّهت رسالة صريحة للمحتل: لن يهنأ للاحتلال بال، ولو كان الثمن تقديم كل المقاومين أرواحهم فداء لقضيتهم».

عرض لقطات تمثيلية متدرجة في سرد أطوار المعركة (من جانب المقاومين) 2:

يظهر المقاومون متسللين بخطى حذرة، محاولين الوصول إلى نقطة استراتيجية يسيطر عليها الفرنسيون. ترتفع أصوات الطبول الخفيفة في خلفية المشهد، مترافقة مع دقّات قلوب المقاومين المتحفزين. فجأة، تتحوّل الموسيقى إلى إيقاع أكثر قوة، بالتزامن مع اقترابهم من نقطة المراقبة الفرنسية.

عرض لقطات تمثيلية متدرجة في سرد أطوار المعركة (من الجانب الفرنسي) 3:

في الجهة الأخرى من المرتفعات، نرى جنوداً فرنسيين بزيّهم الرسمي، موزعين على نقاطٍ محصّنة مبنية بالحجارة، وقد نُصبت مدافع رشاشة وبنادق موجهة نحو المسالك الجبلية. يظهر ضابطٌ فرنسيٌّ يحمل منظاراً ويتطلع بقلقٍ نحو الأفق، كأنه يشعر بأن شيئاً ما، لا يدري كنهه بالضبط، يتشكل في تلك الوديان الصامتة.

عرض لقطات تمثيلية لانفجار المواجهة 4:

فجأة، يُطلق أحد المقاومين الرصاصة الأولى، فتتعالى الأصوات: بندقياتٌ تتبادل الطلقات، وقنابلُ بدائية تنفجر على مسافاتٍ قريبة. تشتعل الجبهة بكل قوتها وعنفها، وتهتز الكاميرا في حركةٍ سريعة لتعكس الفوضى.

التعليق الصوتي للراوي (بصوتٍ مفعم بالترقب) 4:

«انطلقت شرارة الهجوم في الفجر، وبهدف واضح لا لبس فيه: ضرب الموقع الاستراتيجي للجيش الفرنسي في عين الجبل، ومنعه من تعزيز قواته في باقي المناطق القريبة. شارك في العملية عشرات المقاومين القادمين من شتى القرى المجاورة، حمل كلٌّ منهم سلاحه البسيط وقلبه العامر بالإيمان بحقّ شعبه في الحرية والاستقلال، ومن بينهم بوغالب الصادقي، الرجل الذي آمن بأن المحتل لا يفهم إلا لغة القوة».

عرض لقطات تمثيلية للاشتباكات 5:

تركز الكاميرا على مشاهد تُظهر شجاعة المقاومين: أحدهم يهاجم تجمعاً للجنود الفرنسيين، وآخر يقفز من بين الصخور، مطلقاً رصاص بندقيته. تعلو الصرخات، ويُردّد بعض المقاومين التكبيرات والنداءات التي تشحذ الهمم. أما

الجنود الفرنسيون، فيحاولون الردّ على مصادر إطلاق النار باستخدام مدافع رشاشة، فنرى المقاومين عائدين للتحصن خلف الصخور، وزخات الرصاص تتقاطع في كل اتجاه.

عرض شهادات تاريخية مكتوبة على الشاشة 5:

تظهر على الشاشة مقاطع مُقتبسة من وثائق أو مذكرات معاصرة، مكتوبة بخطٍ واضح على خلفيةٍ داكنة:

«استمرت المعركة لساعات طويلة...صمد المقاومون ببسالةٍ رغم فارق العدد والعدة...وسقط الشهداء...تروي دماؤهم أرضاً دافعوا عنها بأرواحهم...».

عودة إلى المشهد الدرامي 5:

تتواصل الاشتباكات، ويصاب المقاومون الواحد تلو الآخر، ومع غياب الإمدادات، يتراجعون إلى مواقعهم الخلفية. تظهر جثث بعض الشهداء ممددة على الأرض، ووجوههم تحمل صمتاً مهيباً يعكس عظمة تضحيتهم.

التعليق الصوتي للراوي (بصوتٍ خافت، يعتصره الأسى والفخر في الآن ذاته) 5:

«رغم شراسة الهجوم، عانى المقاومون من نقصٍ حادٍّ في الذخيرة والدعم، بسبب إحكام الاستعمار حصاره للمنطقة، ومحاولاته المستميتة لقطع كل أشكال التواصل بين القرى الجبلية. ومع امتداد الاشتباكات الضارية لساعاتٍ متواصلةٍ، استطاع الجيش الفرنسي تنفيذ التفافٍ من الجهة الخلفية، وحسم المعركة لصالحه. استبسل المقاومون في القتال حتى الرمق الأخير، في تضحية رسمت أروع صور الفداء».

عرض لقطات تمثيلية لبوغالب الصادقي 6:

تسيطر لحظات صمتٍ ثقيل مع انتهاء المعركة، تتخللها أصوات أنين الجرحى. تُعزف موسيقى خلفية شجية على الناي، لتمنح المشهد رهبةً ممزوجة ببطولة من سقط في الميدان، ثم تُظهر الكاميرا بوغالب الصادقي في لقطة تمثيلية وهو يسير مُنهكاً بين سفوح الجبل، نظراته شاردة في الأفق. ثم مشهدٌ أخير لجثث المقاومين على أرض المعركة، ترتفع بعده الكاميرا نحو السماء، للدلالة رمزياً على ارتقاء أرواحهم.

التعليق الصوتي للراوي (بهمس حزين يختتم بنبرة أمل) 6:

«حمل بوغالب الصادقي رسالة الشهداء، ومضى يروي تفاصيل الأيام التي عاشوها معاً، وكيف واجهوا عدوّهم بأبسط الأدوات وأعظم العزائم، لتتحول عين الجبل إلى رمز للصمود والتضحية، ويصبح بطلها أشد إصراراً على مواصلة الدرب. فالحرية مسار طويل، لا يناله إلا مَن بذلوا العرق والدماء».

نهاية المحور الثالث

*

المحور الرابع:

الاستقلال والعمل السياسي

المشهد الافتتاحي 1:

تبدأ الكاميرا بعرض صورٍ أرشيفية لحشودٍ غفيرةٍ تلوّح بالأعلام الوطنية المغربية، فيما تنطلق الزغاريد وتعلو هتافات الجماهير السعيدة بتحقق حلم الاستقلال بعد طول انتظار. تبدو على كل الوجوه علامات السعادة، الرجال مبتسمون، النساء يذرفن دموع الفرح، والأطفال يركضون في كل اتجاه مردّدين ما يسمعونه من هتافات.

كادر التصوير:

تنتقل الكاميرا بين المشاهد الاحتفالية في المدن، ثم تعرض صوراً أخرى للاحتفالات في القرى والبوادي، خاصة الجبلية منها، حيث يخرج الأهالي من بيوتهم التقليدية، يعانقون بعضهم، ومنهم من يرقص فرحاً بحصول المغاربة أخيراً على حريتهم المنشودة.

الموسيقى التصويرية:

تترافق هذه اللقطات مع موسيقى وطنية حماسية، تنساب في الخلفية مشحونة بحس يبعث على الفخر والأمل، كما تتخللها أصوات حقيقية لهتافات الجماهير وأناشيدها الاحتفالية.

التعليق الصوتي للراوي (بصوتٍ واثقٍ يغلب عليه طابع الفرح والتوثيق) 1:

«ونال المغرب استقلاله أخيراً، بعد عقودٍ طويلة من الكفاح. عمّت البهجة ربوع البلاد، ورفرفت راية الحرية خفاقة فوق كل الأسطح. وفي خضم هذا العرس الوطني الكبير، انتقل رجال المقاومة من جبهات القتال في الجبال والأرياف، إلى فضاءات الدولة الناشئة والمؤسسات السياسية».

عرض لقطات أرشيفية وأخرى تمثيلية لبوغالب الصادقي 2:

تُعرض صور حقيقية لبوغالب الصادقي مرتدياً جلباباً أنيقاً، يتبادل التهاني مع بعض رفاقه، ويحمل العلم تعبيراً عن فخره بهذه اللحظة التاريخية. تتبعها لقطات تمثيلية تُظهره مبتسماً، في قريته الجبلية، وقد تقدّمت به السن، مقارنة بشكله أيام خوضه معركة عين الجبل. ومع الاستعانة برسوم غرافيك، تُبرز الكاميرا المسار الذي اتبعه الصادقي، من الجبل إلى المدينة، حيث سيبدأ فصلٌ جديدٌ من حياته.

التعليق الصوتي للراوي (بصوت واثق وحاسم) 2:

«وما إن خفقت راية الحرية في الأعالي، حتى حوّل بوغالب جهوده إلى معترك السياسة والمساهمة في وضع لبنات مغرب الغد، فاتّجه إلى العمل على تحقيق الرؤية التي لطالما حلم بها رفاقه الشهداء الشرفاء؛ بناء مغربٍ حرّ وقويّ عادل، يعمّه الرخاء وتُصان فيه الكرامة».

عرض لقطات أرشيفية لانطلاق العمل السياسي بعد الاستقلال 3:

يتم عرض مقاطع أرشيفية لاجتماعاتٍ سياسية مطولة، عُقدت في قاعاتٍ خاصة، حيث يلتف المسؤولون والمقاومون السابقون حول طاولةٍ مستديرة، يتبادلون الآراء، ويتباحثون في صياغة تصور لشكل البلاد بعد حصولها على الاستقلال. يسمع المشاهد همهمات مناقشاتٍ حادةٍ أحياناً، فيما يرتدي معظم الحاضرين الجلاليب أو البدلات الأوروبية، في مزيجٍ واضحٍ بين الأصالة والحداثة.

مقابلة مع الدكتورة سميرة مفتي، أستاذة العلوم السياسية بكلية العلوم الإنسانية، جامعة ابن بطوطة بطنجة ورئيسة مركز العين الثالثة للأبحاث والدراسات الفكرية والاستراتيجية 4:

ينتقل المشهد إلى مكتبٍ حديثٍ في مقر مركز العين الثالثة للأبحاث والدراسات الفكرية والاستراتيجية. تجلس الدكتورة والخبيرة السياسية سميرة مفتي على أريكة جلدية، وخلفها مكتبةٌ أنيقة. تبدو في أواخر الأربعينيات من عمرها، ترتدي نظارةً طبية.

تصريح الدكتورة والخبيرة السياسية (بنبرةٍ هادئةٍ وواثقة) 4:

«بعد الاستقلال، احتاجت البلاد إلى أطرٍ وطنيةٍ، لها من الخبرة والإرادة

ما يمكنها من المساهمة في استكمال مشوار بناء الدولة الحديثة. هنا برز دور رجال من طينة بوغالب الصادقي، تركوا بصمة وحضوراً ميدانياً قوياً أيام مواجهتهم للاستعمار. تمتع الصادقي بسمعة نظيفة، وشخصية قوية ومؤثرة، مكّنته من تولّي مناصب هامة إقليمياً ثم وطنياً».

(تتوقف الخبيرة قليلاً مشيرة إلى وثائق على مكتبها، قبل أن تكمل):

«اللافت للنظر، أن الراحل حمل روح المقاومة الراسخة في أعماقه، وجسّدها مع كل مبادرة أو قرارٍ اتخذه، طوال مساره السياسي. استهدفت رؤيته نقل معاني التضحية والصمود إلى المجال التنموي والسياسي، فحظي باحترامٍ واسعٍ لدى الجميع».

عرض لقطات أرشيفية لبوغالب الصادقي في مناصب عليا 5:

تظهر مقاطع لبوغالب الصادقي وهو يفتتح مشروعاتٍ تنموية أو يتجول في أروقة إداراتٍ حكومية. يبدو في مشهد معيّن جالساً على منصةٍ رسمية، يحتفل مع ممثلي المجتمع المدني بتدشين مستشفى جديد، ويتخلل هذه اللقطات صوتُ تصفيقٍ وابتساماتٍ، فيما تُبرز الكاميرا اهتمام الصادقي بالحديث إلى المواطنين، والاستماع إلى مطالبهم بانتباه واضح.

التعليق الصوتي للراوي (بصوتٍ مفعم بالثقة) 5:

«بعد الاستقلال، تحوّل الوطن إلى ورشة عملٍ كبرى، فكان على الجيل الذي قاد الكفاح المسلح أن يتولّى الآن مهمة البناء المؤسسي والتنمية الاجتماعية. من هنا، برزت تجربة بوغالب الصادقي كمثالٍ حيٍّ لمن انغرست جذوره في قلب الجبل، يحتضن بندقيته في وجه المستعمر، ثم يساهم في وضع اللبنات الأولى لمغرب الغد. لم يكن انتقالاً هيّناً، فقد تطلّب ذلك التسلح بالمعرفة والانضباط الحزبي وروح الفريق. وهكذا، تمكّن الراحل من مد الجسور بين مرحلتين فاصلتين في تاريخ المغرب الحديث».

عرض لقطات من أنشطة اجتماعية لبوغالب الصادقي 6:

تعرض الكاميرا في هذه اللحظة صورةً جانبية للصادقي وهو يعانق مقاومين سابقين، ويكرّم أفراداً من أُسَر الشهداء في إحدى المناسبات الوطنية، تُسمع في

الخلفية بعض الكلمات التي ألقاها في مناسبات وطنية أو حوارات إعلامية، تتطرق إلى أهمية استحضار تضحيات الماضي لبناء حاضرٍ ومستقبلٍ أفضل.

التعليق الصوتي للراوي (بصوت هادئ) 6:

«حافظ الصادقي دوماً على وفائه لأولئك الذين سقطوا في ساحات الوغى، خاصة منهم رفاق السلاح في معركة عين الجبل. لطالما آمن بأن المقاومة الحقيقية لا تنتهي برحيل المستعمر، بل تستمر في مواجهة الجهل والفقر والفساد. فاكتسب بذلك احتراماً واسعاً، واحتفظ بعلاقاتٍ طيبةٍ مع الجميع، حتى مع مَن اختلف معهم في الرؤى السياسية، لإيمانه الراسخ بأن الوطن سيبقى دوماً فوق كل اعتبار».

نهاية المحور الرابع

*

المحور الخامس:

الأسرة المناضلة وانتقال المشعل إلى الأبناء والأحفاد

المشهد الافتتاحي 1:

تبدأ اللقطات بعرض مجموعةٍ من الصور الفوتوغرافية القديمة، تراكمت عليها علامات وآثار الزمن. يظهر بوغالب الصادقي، في إحدى الصور، بشاربه الخفيف وجلبابه الأنيق، يتوسط أفراد أسرته خلال مناسبة عائلية (حفل زفافٍ).

ترتدي النساء قفاطين مغربية ويبتسمن للكاميرا، ويرتدي معظم الرجال بدلات عصرية، بينما يقف الأطفال بوجوه متحفزة للكاميرا، وكأنهم غير معتادين على رؤيتها كثيراً في تلك الحقبة الزمنية.

كادر التصوير:

تركز الكاميرا على تتابع الصور العائلية عبر انتقال بصري يشبه التقليب في ألبوم الذكريات، فنرى صوراً أخرى تُظهر أبناء بوغالب في مراحل عمرية مختلفة: وهم صغار في ملابس مدرسية، ثم بلوغهم مرحلة الشباب والتحاقهم بالجامعة، بالإضافة إلى صور ملتقطة خلال احتفالات وطنية شارك فيها والدهم.

الموسيقى التصويرية:

تمتزج موسيقى هادئة مستوحاة من ألحانٍ تراثية مغربية مع أصواتٍ خافتةٍ لضحكات الأطفال في المناسبات العائلية، وصدى الزغاريد في الأعياد والمناسبات العائلية. تتدفق النغمات برفق، وكأنها تعانق الذكريات التي تحفظها تلك الصور. تتغير الموسيقى تدريجياً نحو تناغمٍ مفعم بالحنين مع كل صورة جديدة تُعرض على الشاشة.

التعليق الصوتي للراوي (بصوتٍ حانٍ يقترب من نبرة السرد العائلي) 1:

«لم يقف نضال بوغالب الصادقي عند حدود السياسة الرسمية والمسؤوليات الجسيمة التي تحملها، بل امتدّ إلى بيته وأسرته، حيث زرع أسمى القيم الوطنية

في نفوس أبنائه وبناته. كان إيمانه عميقاً بأن التحدي الحقيقي يبدأ من الأسرة، ولا بدّ لتلك المبادئ التي غرستها فيه الجبال أن تُصان وتُورَّث للأجيال القادمة».

عرض لقطات أرشيفية قصيرة لأفراد الأسرة 2:

ظهور حد أبناء الصادقي، في لقاء تلفزيوني قديم، متحدثاً:

«علّمنا والدي أن حب الوطن ليس شعاراً فحسب، بل مسؤولية يومية تبدأ بالمثابرة والتفاني في خدمة الجميع».

وفي لقطة قديمة أخرى، تظهر إحدى بناته، وهي تستعيد ذكرى معيّنة:

«لطالما ردّد: خسرنا الكثير لينال وطننا استقلاله، فلا تضيعوا ما تحقق بالتهاون والإهمال».

التعليق الصوتي للراوي (بصوت هادئ وواثق) 2:

«اعتمد بوغالب الصادقي في تربية أبنائه على الموازنة بين التحصيل العلمي والارتباط القوي بالهوية الوطنية. فنهلوا من ثقافة البلد وتراثه، واطلعوا على تجارب دولٍ متقدمة. رافقوه دوماً في أنشطته الاجتماعية ومشاركاته الدائمة في الاحتفالات الوطنية، فترسخت في وجدانهم القيم السامية لحب الوطن والتضحية بكل غالٍ في سبيله».

عرض لقطات تمثيلية عن أبناء بوغالب الصادقي 3:

تنتقل الكاميرا إلى مقاطع تمثيلية: شابٌّ يحمل حقيبته ويغادر منزله، متجهاً إلى جامعة عريقة. تُلتقط مشاهد للطلبة داخل المدرجات الجامعية، ثم تظهر لقطات قصيرة لشاب آخر يشارك في نشاطات جمعوية محلية، مثل المساهمة في تنظيم قافلة طبية إلى منطقة نائية، أو تدشين مكتبة صغيرة في مدرسة قروية. تدعم هذه المشاهد فكرة الارتباط الدائم للأسرة بخدمة قضايا المجتمع.

التعليق الصوتي للراوي (نبرة فخر وتقدير) 3:

«برع الأبناء في مجالاتٍ مختلفةٍ، فانتقلوا من العمل الجماهيري إلى وظائف رسمية مرموقةٍ في الإدارة والطب والقضاء والتعليم. لكن أروع تعبيرٍ عن استمرارية نضال بوغالب الصادقي برز في جيل الأحفاد، الذين أكملوا مسيرة الجدّ بحس جمع بين الأصالة والإبداع».

عرض لقطات تسلط الضوء على الحفيد الدكتور عمر الصادقي 4:

تُعرض لقطاتٌ حديثة للأبنية الجامعية في مدينة طنجة، ثم تظهر واجهة كلية اللغات والآداب والفنون بجامعة ابن بطوطة. تركز الكاميرا على لقطات عريضة لساحةٍ جامعيةٍ يتوافد عليها الطلبة، ثم تنتقل إلى مكتبٍ حديث، حيث يجلس الدكتور عمر الصادقي، حفيد بوغالب. خلفه مكتبةٌ تضمّ مؤلفات بلغات متنوعة، وصوراً تذكارية للعائلة والجد الراحل.

التعليق الصوتي للراوي (صوت واضح وواثق) 4:

«واليوم، يحمل الأحفاد المشعل. ورث عمر عن جدّه قوة إيمانه برسالة العلم والمعرفة، باعتبارها سبيلاً حاسماً للنهوض بالمجتمع، فساهم في دعم مبادراتٍ جامعيةٍ لتحفيز البحث العلمي والاهتمام بالتراث الثقافي المحلي، مع الحرص على ربط كل ذلك بتاريخ المقاومة المغربية ورموزها».

مقابلة مع الدكتور عمر الصادقي، عميد كلية اللغات والآداب والفنون، جامعة ابن بطوطة بطنجة 5:

يظهر الدكتور عمر في المكتب السابق نفسه، مبتسماً، ويرتدي بدلة رسمية أنيقة.

تصريح عميد الكلية (بصوت هادئ وحازم) 5:

«نشأتُ في بيت تتردد فيه قصص لا تُنسى عن جدّي بوغالب. حكايات صموده في الجبال، وحواراته مع والدي عندما بدأ العمل السياسي. فتنت منذ صغري بشخصيته الاستثنائية، ووجدت فيها ما يعادل أو حتى يتجاوز ما قرأناه في السير الخيالية، مثل **الإلياذة والأوديسة** وغيرها».

(تُظهر الكاميرا صوراً لعمر الصادقي في مختلف مراحل حياته):

«ولهذا انصبّ اهتمامي على التنقيب في تاريخ العائلة، وجمع كل الوثائق والمراسلات التي تركها جدّي. شعرتُ أن هذا هو أقل ما يمكنني تقديمه لروحه، وللأجيال الحالية التي تستحق التعرف على تضحيات أسلافنا».

التعليق الصوتي للراوي (نبرة احترام):

«وهكذا، لم يكن إرث بوغالب مجرد صفحاتٍ من سجل المقاومة، تُطوى

أو تُنسى بسرعة، فاستمرّ حيّاً في عروق أبنائه وأحفاده. لا يقتصر بناء الدول على الإعلان عن استقلالها أو تدشين مؤسساتها الحديثة، بل يمتد إلى الرعاية المستمرة لأجيالٍ تؤمن بمبادئ الحرية والمساواة. مات الرجالُ الذين حملوا السلاح في الجبال، لكن أرواحهم وأفكارهم ما زالت حية في حكاياتٍ انتقلت من جيلٍ لآخر، وأصبحت منهج حياةٍ لأسرة بوغالب وأحفاده، مواصلين حمل راية الحرية والنماء».

نهاية المحور الخامس

*

المحور السادس:

آراء المؤرخين والخبراء

المشهد الافتتاحي 1:

لقطة بانورامية لقاعةٍ حديثة في مركز العين الثالثة للأبحاث والدراسات الفكرية والاستراتيجية. تظهر طاولة مستديرة في منتصف القاعة، وقد اجتمع حولها ثلاثة خبراء في مجالاتٍ متنوعة: أستاذ في التاريخ الحديث، وأستاذة في العلوم السياسية، وناشطٌ مدني باحث في سلك الدكتوراه. خلفهم شاشةٌ كبيرة تُعرَض عليها صورٌ أرشيفية.

كادر التصوير:

يهيمن على القاعة طابع رسمي، إذ تتوزع خلف الحاضرين خرائط وصور توثق لتاريخ المغرب والمقاومة في مرحلة ما قبل الاستقلال. الإضاءة هادئة، مركّزة على الطاولة والوجوه، فيما تتلاشى زوايا القاعة لتلفت الانتباه نحو محور النقاش.

الموسيقى التصويرية:

قبل بدء الحوار، نسمع مقطعاً قصيراً من موسيقى كلاسيكية، تضفي أجواءً من الأهمية والتحليل الأكاديمي. ثم تبدأ الموسيقى بالانسحاب تدريجياً ليحل محلها صوت مدير النقاش، مرحّباً بالخبراء.

التعليق الصوتي للراوي (بنبرة محايدة) 1:

«لم تكن تجربة المقاومة في المغرب مجرد حدثٍ تاريخي مرّ وانتهى، بل مثلت الأساس لولادة زخم سياسي واجتماعي، ساهم في تحقيق جملة من الأهداف المسطرة لمرحلة ما بعد الاستقلال. نلتقي في هذه الطاولة المستديرة بثلاثة أسماءٍ وازنة في مجالات متنوعة.

سيستعرضون رؤيتهم حول دور المقاومة عموماً، وشخصيات من طينة بوغالب الصادقي خصوصاً، في تشكيل ملامح المغرب الحديث».

عرض لقطات الحوار المقتضب مع الخبراء 2:

يظهر الدكتور عبد الإله مفتوح، أستاذ التاريخ الحديث بكلية العلوم الإنسانية، جامعة ابن بطوطة بطنجة، في لقطةٍ مقرّبة، ينظر إلى بعض الأوراق، ثم يقول:

«تمثّل تجربة بوغالب الصادقي نموذجاً لجيلٍ من المقاومين الذين انتقلوا بسلاسةٍ إلى العمل السياسي والمؤسساتي، فاستفادت البلاد من خبرتهم وحسّهم الوطني. العقول والسواعد ذاتها التي واجهت الاستعمار وضحّت في سبيل الاستقلال، وجدت نفسها مطالبةً بالمساهمة في بناء هياكل الدولة، وتأسيس أرضية صلبة للحياة السياسية. تمنحنا قصص مثل سيرة الراحل فهماً أعمق لمرحلةٍ حاسمةٍ في تاريخ المغرب».

تعرض الشاشة خلفه صوراً تاريخية لأحداثٍ تعود لبدايات القرن العشرين، ومقتطفاتٍ أرشيفية لمرحلة ما بعد الاستقلال.

تنتقل الكاميرا في لقطة مقربة إلى الدكتورة سميرة مفتي، أستاذة العلوم السياسية بكلية العلوم الإنسانية، جامعة ابن بطوطة بطنجة، ورئيسة مركز العين الثالثة للأبحاث والدراسات الفكرية والاستراتيجية، حيث يحين دورها لتقديم مداخلتها:

«رغم التحديات التي واجهت المغرب في السنوات الأولى لما بعد الاستقلال، ساهم رجال مثل بوغالب الصادقي في إرساء قواعد متينةٍ لمؤسسات الدولة، والحياة السياسية والحزبية. وفي تقديري، لولا جمعٌ من المناضلين والمناضلات، الذين جمعوا بين التجربة الميدانية والرؤية المستقبلية، لما تمكّن المغرب من خلق إطارٍ سياسيٍّ تعدديٍّ قادر على استيعاب كل أطياف المجتمع».

في الخلفية، تظهر مقتطفاتٌ وثائقيةٌ لجلساتٍ سياسيةٍ وحزبيةٍ في نهاية الخمسينيات وبداية الستينيات، وصورٍ شخصيةٍ لبوغالب الصادقي خلال اجتماعاته مع شخصياتٍ وطنيةٍ أخرى.

ينتقل المشهد إلى سفيان مجبول، الناشط المدني والباحث في سلك الدكتوراه، ويبدو متحمساً للحديث عن الجانب الإنساني والاجتماعي في قصة الصادقي:

«لا شك في أن روح التضحية التي حملها هؤلاء الروّاد هي الأساس الذي يقوم عليه نشاطنا المدني اليوم، فالمطالبة بدعم الفئات الهشة والسعي لتعزيز

حرية التعبير والعدالة الاجتماعية، لا تستحضر سوى الجذور التي زرعها جيل المقاومين. تغير الزمن والسياقات، هذا صحيح، لكن المبدأ واحد: حماية كرامة الإنسان والدفاع عن حقوقه. قصة بوغالب الصادقي وأمثاله زادٌ أخلاقي نستمد منه الإصرار على مواصلة الدرب نحو تحقيق حلم المواطنة الكاملة».

تتزامن كلمات الناشط المدني مع عرض صورٍ توثّق لمظاهرات ووقفات تطالب ببعض الإصلاحات السياسية والاجتماعية. تُبرز الكاميرا لوحاتٍ كُتبت عليها عباراتٌ عن الحرية والكرامة، في إشارة إلى استمرارية إرث المقاومة في نهج الحركات المدنية الحديثة.

التعليق الصوتي للراوي (ملخصاً الآراء السابقة) 2:

«ما بين الرؤية التاريخية لتجربة المقاومة، والتحليل السياسي لمرحلة ما بعد الاستقلال، والدور الحقوقي الذي يربط الماضي بالحاضر، تتبلور صورةٌ واضحة: ستظل سيرة رجالٍ مثل بوغالب الصادقي حيّةً في المؤسسات، والقوانين، وفي ضمير الأجيال المتعاقبة والمؤمنة بوجوب النهوض بحاضر ومستقبل الوطن».

عرض لقطات ختامية للجلسة الحوارية 3:

تنتقل الكاميرا إلى لقطةٍ واسعةٍ للطاولة المستديرة من الأعلى، يُرى فيها الخبراء الثلاثة وهم يتحاورون في تناغم واضح. تركز الإضاءة أكثر على وثائقَ وصورٍ قديمة مكدّسةٍ على الطاولة، في رمزية واضحة لارتباط الذاكرة الجماعية بالرؤية المستقبلية. في الخلفية، يخفت صوت المتحاورين تدريجياً، وتعلو موسيقى وثائقية هادئة.

التعليق الصوتي للراوي (مختتماً المحور) 3:

«تتعاقب الأجيال، وتتغير أحوال السياسة، لكن الحقيقة تظل راسخة: ما تزال بذرة الحرية التي غُرست في نفوس المقاومين الأوائل، تؤتي ثمارها اليوم. قد تختلف أدوات النضال، لكن الغاية واحدة: تثبيت قيم المواطنة، والحفاظ على روح التضحية، باعتبارها العلامة الفارقة في صياغة تاريخ المغرب الحديث».

نهاية المحور السادس

*

المحور السابع:

الإرث الخالد

المشهد الافتتاحي 1:

توجه الكاميرا بلقطةٍ عريضةٍ إلى مقبرة هادئة، تُحيط بها أشجارٌ معمّرةٌ، مع ممراتٍ من الحصى بين شواهد القبور. يسود المشهد جوٌّ من السكينة؛ يُسمع صوت العصافير في الخلفية، وتتخلله نسماتُ هواءٍ عليلةٌ، تشي بعراقة المكان وجلال المناسبة.

كادر التصوير:

تتحرّك الكاميرا ببطءٍ نحو شاهدٍ رخاميٍّ كُتب عليه ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ مع اسم المقاوم بوغالب الصادقي وتاريخ وفاته عام 1978. يُقارب المشهد زيارة خاصة، وترافق عدسة الكاميرا عدداً من أفراد العائلة خلال قراءتهم الفاتحة على روح الجد.

الموسيقى التصويرية:

الاكتفاء بالأصوات الطبيعية لحفيف الأشجار وشدو العصافير، احتراماً لروحانية المشهد المؤثر في المقبرة.

التعليق الصوتي للراوي (بصوتٍ هادئ ومُتزنٍ) 1:

«هنا، يرقد جسد بوغالب الصادقي بعد مسيرةٍ طويلةٍ من العطاء والتضحية. غادرنا منذ عقود إلى جوار ربه، مخلّفاً وراءه إرثاً خالداً عماده الشجاعة والمسؤولية الوطنية. قد تبدو قصة حياته مجرد صفحة واحدة في كتاب التاريخ، لكنها في حقيقة الأمر درسٌ حيٌّ يستشرف مستقبل الوطن، ويمدّ جسوراً بين ماضٍ حافلٍ بالبطولات وحاضرٍ يسعى لمواصلة التقدم والازدهار».

عرض لقطات لشهادات حول الراحل 2:

تبدأ الكاميرا بعرض مقتطفاتٍ مكتوبةٍ أو منطوقةٍ لشخصياتٍ سياسيةٍ وثقافيةٍ

مغربية شهدت بإسهامات الصادقي في تشكيل مسار المغرب الحديث.

«لم أرَ رجلاً يجمع بين الحزم والمرونة مثل بوغالب الصادقي. حافظ دوماً على مبادئه، وروحه المنفتحة على التوافق والحوار».

«ظلت بصمتُه حاضرةً في كل المبادرات التنموية، ولم يتردد أبناؤه أو أحفاده في مواصلة دربه وتنفيذ وصاياه».

تُعرض بعد ذلك صورٌ تمثيليةٌ وأرشيفيةٌ يُستعاد فيها حضور الصادقي في مناسباتٍ وطنيةٍ وأخرى اجتماعيةٍ، تتخللها أصوات أشخاص يفصلون في الأدوار التي لعبها الراحل في صيانة المبادئ والمثل العليا.

عرض لقطات ختامية تلخص مسيرة الراحل 3:

تستعرض الكاميرا سلسلةً من اللقطات البانورامية للجبال عند غروب الشمس، في مشاهد مهيبة، تلقي بظلالها على السهول والوديان. تتداخل هذه اللقطات مع صور بورتريه للمقاوم بوغالب الصادقي: تارةً نراه بعينين ممتلئتين بالعزيمة، وتارةً بنظرات الحكمة والمسؤولية.

التعليق الصوتي للراوي (بصوتٍ مهيبٍ) 3:

«هي إذن صفحة خطّتها دماء الشهداء وكبرياء رجال ما عرف المستحيل طريقه إلى قاموسهم. سيرة بوغالب الصادقي مثالٌ حيٌّ على ارتباط الماضي بالحاضر، والتزام الأجيال القادمة بحمل المشعل. هي إذن تجربة شاملة، يتقاطع فيها الواجب الوطني مع الإيمان بقيم الحرية والكرامة».

عرض لقطات لظهور الراوي 4:

يظهر الراوي بقامته في إطار الكاميرا، بما يوحي بقرب وصول الفيلم إلى نهايته، متحدثاً بهدوء:

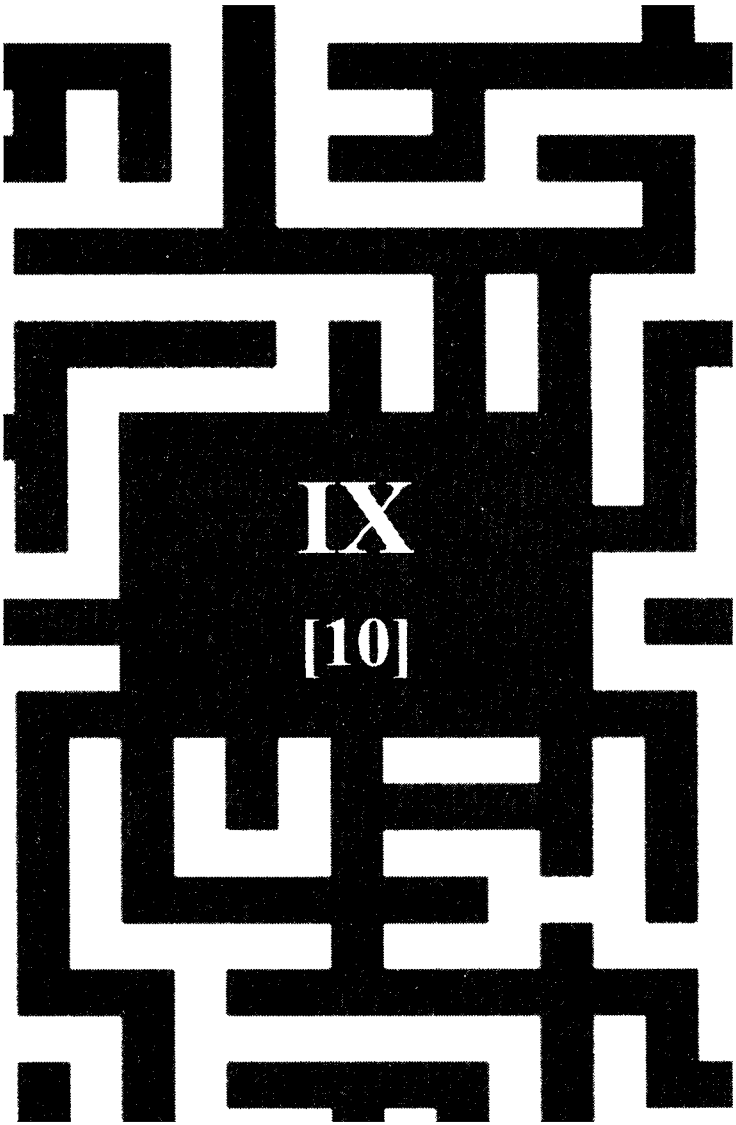
«كنا معكم في هذا الشريط الوثائقي الخاص، حيث استعرضنا سيرة رجلٍ حمل لواء الوطن في أصعب الظروف، وأسهم بعد الاستقلال في بناء مؤسساته ورعاية أبنائه. نشكركم على حسن متابعتكم».

يختتم الراوي كلامه بابتسامةٍ صغيرة، ثم تتحول الشاشة إلى لونٍ داكنٍ متدرج، بينما يستمر عزف موسيقى تراثية (العود والناي) للحظات قليلةٍ، تبقى

خلالها لقطات الجبال في الخلفية، محافظة على رمزيتها في التأكيد على عظمة التضاريس التي خرج منها المقاومون الأوائل، فيما يوحي غروب الشمس بأن كل نضالٍ لا ينتهي إلا ليولد فجر جديد، يواصل فيه جيل الأحفاد ما بدأه الأجداد.

نهاية المحور السابع

*


IX
[10]

IX

[10]

المقصورة 55

(2001)

«لا يزال ثقل المكانة الاجتماعية حاضراً في أدق تفاصيل حياتنا المعاصرة. حارب جوليان سوريل، بطل رواية **الأحمر والأسود**، لتسلُّق درجات السلَّم الاجتماعي، وسط مجتمعٍ تنخره التقاليد القاسية وقيود الوجاهة الظاهرية، فكشف مأزقه ثم محنته في مواجهة التصلب الطبقي جملة أعطاب مريرة، ترخي بظلالها على أقدار ومسارات البشر حتى يومنا هذا، في محاولتهم المستميتة لإثبات ذواتهم والبحث عن التقدير، وسط عالمٍ لا يؤمن سوى بالمظاهر، ولا يركز على الجوهر إلا في خطاباته الإنشائية...».

رشيد بناصر – المحاضرة التاسعة – الأربعاء 8 أبريل 2015

محطة الانطلاق

من محطة مراكش إلى محطة الدار البيضاء المسافرين

(المرور عبر محطات: بنجرير - سطات - برشيد)

لم تتبادلا الكلام بداية، بل اكتفت كلٌّ منهما بنظرة خاطفة نحو الأخرى، قبل أن تتقدَّما بخطواتٍ حذرة إلى داخل إحدى المقصورات الخالية، حيث جلستا بهدوء.

الأولى شابة في مقتبل العشرينيات، بشرة سمراء وشعرٌ منسدل يصل إلى كتفيها. يزيِّن معصمها الأيمن سوارٌ فضيٌّ بسيطٌ يلمع مع حركة يدها، كأنّه يسعى لجذب الأنظار إليها. ترتدي فستاناً صوفيّاً رماديّاً خفيفاً، وتضع على عنقها وشاحاً أحمر.

أمّا الثانية، ففي أوائل الثلاثينيات من عمرها، رصينةُ القسمات، اعتنت بتناسق ملابسها دون تكلّف؛ سترة داكنة ووشاحُ حريرٍ أسود يعانق نحرها. ملامحها هادئة، وعيناها تشيان باعتيادها النظر بثقة إلى الأشخاص والأحداث من حولها.

انطلق القطار مخلِّفاً وراءه مباني مراكش الحمراء، وسرعان ما بدأ صوت العجلات يتصاعد برتابة محببة. تجلى مشهد الواحات الريفية المتناثرة شيئاً فشيئاً كلما تجاوز القطار ضواحي المدينة، وتناثرت قطرات المطر على الزجاج.

نظرت صاحبة السوار طويلاً عبر النافذة، وقد بدا عليها قلقٌ مكتوم، ولم تكن حركاتها سوى محاولة لإخفاء ما يدور في داخلها.

انشغلت الأخرى بتصفّح مجلة دون تركيز واضح، كأنها تشغل

نفسها عن التفكير بما جرى لها قبل أيام، وبضع كلمات تفرض نفسها على ذاكرتها:

«لا مكان لكِ في هذا الفندق بعد اليوم».

جملة ترددت في ذهنها منذ أن تفوّه بها مسؤول الموارد البشرية، وقذفت بها إلى المجهول فجأة.

حاولت التماسك، فالموقف كان صعباً، لاسيّما وأنّها طُردت من عملٍ أحبته وأتقنته على مدار خمس سنوات كاملة، في فندق فخم بقلب المدينة الحمراء، لتجد نفسها الآن في قلب المجهول.

تذكرت كيف رفضت تجاوزاتِ نزيل متعجرف، اعتاد أن تطاع أوامره دون نقاش، لكنّها أبت مسايرته في طلباته ورغباته المسيئة، فدفعت الثمن بفقدان مصدر رزقها، لكن رضاها الداخلي كان أقوى، فما كانت لتساوم على كرامتها أبداً.

شعرَت بصاحبة السوار تتململ في مكانها وتلقي عليها نظرةً حائرة. منحتها ابتسامةً شاحبة، أرادتها أن تكون بدايةً لحوارٍ يكسر الصمت.

هزَّت الشابة الأصغر سنّاً رأسها بخجل، وقالت بصوت خفيض:

- إلى أين الوجهة؟

أغلقت الأخرى مجلّتها برفق وردّت:

- إلى الدار البيضاء، ربما أنت أيضاً ذاهبة إلى هناك؟

ابتسمت الأصغر سناً، وقد ارتسمت علامات الارتياح على وجهها:

- أجل، بالضبط. أسافر لشأن خاص يتوجب عليّ القيام به.

استقصت الثلاثينية المشهد باهتمامٍ ناضج، شجع العشرينية على المواصلة وإن بتردّد:

- اسمي مريم، والحقيقة أنها أول مرة أركب فيها القطار وحدي، أشعر بأنني أرتحل إلى عالمٍ غريب عني.

- أهلاً مريم، تشرفتُ بمعرفتك. اسمي حياة.

ساد صمتٌ قصيرٌ، انفلت بعده عقال لسان مريم:

- أنا ذاهبة للبحث عن شخص ما، بعدما انقطعت بيننا كل السبل...

ثم شرعت في سرد أطوار قصتها...

حبيبها الذي انتقل إلى الدار البيضاء قبل ستة أشهر بحثاً عن فرصة عملٍ أفضل. حافظ تواصلهما على قوته في البداية، وعمّت رسائلهما المتبادلة كلمات الودّ والأشواق. ثم انقطع الاتصال فجأة وبلا سابق إنذار. حاولت مريم مراسلته، لكن دون جدوى. وما زاد حيرتها انعدام وجود أي خلافٍ يستدعي هذا الصمت الغريب، فقرّرت بعد طول تردّد حزم حقائبها والذهاب للبحث عنه بنفسها.

قالت بشفتين ترتجفان، وهي تتحسّس سوارها الفضي:

- لقد أهداني هذا السوار يوم وداعي في المحطة نفسها. قال إنه سيرمز دوماً لقوة ما بيننا. لم أتوقع يوماً أن يتلاشى حبه لي بهذه البساطة.

بدت حياة هادئة أثناء إصغائها. استيقظت في دواخلها مشاعر شفقة وتعاطف مع هذه الشابة الغضة، منعدمة الخبرة كما يبدو، وتذكرت كيف آمنت بالأحلام الوردية ذاتها، قبل أن تصقلها التجارب الحياتية. لم تسمح لشفقتها بالظهور، مفضّلة منح مريم ابتسامة مطمئنة:

- ربما هناك أسبابٌ قاهرة ما كانت في حسبانك. لا تتعجلي في خوفك أو سوء ظنك. ستعرفين الحقيقة فور لقائك به، تحلي فقط بالهدوء والثبات.

شجّع هذا التعاطف مريم على سؤال حياة عن وجهتها وسبب سفرها، فتنهدت الأخيرة قائلة:

- أنا ذاهبة بدوري إلى الدار البيضاء للبحث عن عملٍ جديد. كنتُ موظفةَ استقبال في فندقٍ كبير بمراكش، ثم انتهى كل شيء فجأة.

أدركت مريم أنّ في لهجة حياة ما يوحي بأن هناك سبباً أقوى من مجرّد إنهاء عملٍ عادي، خشيت التمادي في فضولها، لكن حياة أعفتها من حرجها بمواصلتها:

- لنقل إنني رفضت الخضوع لظلم بيّن، فكلّفني ذلك وظيفتي.

علت الدهشةُ ملامح مريم، وخيَّم عليهما الصمت لبعض الوقت، فبدا صوت عجلات القطار أكثر وضوحاً.

- اجتاحني بدايةً غضبٌ شديد ورغبة عارمة في الانتقام، لكنني استعدت هدوئي، وثقتي بصواب خياراتي ومبادئي. الأرزاق بيد اللّه، وكرامتي فوق أي اعتبار.

انفرجت أسارير مريم لسماعها كلام محاورتها. تذكرت تخوّفها الكبير من مصير حبّها الغامض، وعلتها حمرةُ خجلٍ وهي تسائل نفسها إن كان قلقها هذا يساوي شيئاً أمام هموم الآخرين.

انضمّ مسافر ثالث إلى المقصورة، رجلٌ ستينيّ متعب الملامح، ألقى التحية وجلس في الجانب المقابل، واستسلم فوراً للنوم. لم تعرْه الشابتان اهتماماً كبيراً؛ وقد استغرقتا أكثر في حوارهما.

واصل القطار مسيره، يتوقّف لدقائق قصيرة في بعض المحطات، ليترجّل ركاب ويصعد آخرون، قبل أن تعود عجلاته إلى صريرها المعتاد على السكة.

كادت مريم تشعر بالدوّار من طول التأمل في النافذة، وهي ترى حقولاً مترامية على مدّ البصر، وأشجاراً متناثرة هنا وهناك، وغابت في أفكارها حتى أوشكت على تجاهل كلمات حياة، التي حاولت بخبرتها ردم الهوة بين خوف الشابة وحقيقة ما ينتظرها.

- بمجرد نزولك في محطة الدار البيضاء، سيراودك شعور بأن الجميع على استعداد للإيقاع بك. هذا مجرد إحساس عابر، تستأنسين

بعده بأجوائها. فقط تذكّري أنها مدينةٌ صاخبةٌ، يعاني أهلها دوماً من ضيق الوقت. ثقي بنفسك ولا تسمحي لتلك الضوضاء بتشتيت تركيزك على بلوغ هدفك.

ضحكت مريم بخفة، معترفة:

- هي رهبة كبيرة فعلاً، لطالما أخافني نمط الحياة اللاهثة هناك. أخشى ألّا أجد موطئ قدم.

ابتسمت حياة مجيبة:

- اطمئني، ستجدين ألف مَن يدلك على مرادك، لتلك المدينة قدرة عجيبة على استيعاب كل تائه.

توارت أشعة الشمس خلف سحب رماديةٍ متراكمة. خفّ المطر، انعكس ضوءٌ شاحبٌ على وجهَي مريم وحياة، فرسم مسحة من الهدوء والألفة بينهما، كأنهما صديقتان قديمتان التقتا بعد طول غياب، وكلتاهما بحاجة إلى حوار بريء دافئ، يعينهما على استرجاع يقين دفعته الظروف بعيداً عنهما.

اقترب القطار من ضواحي الدار البيضاء، فبدأت الكتل الإسمنتية تلوح في الأفق، والشوارع المزدحمة والبنايات العالية تتسلل إلى حقل الرؤية. أدركت مريم أن موعد نزولها قد اقترب؛ وأن موعد مواجهتها للحقيقة قد حان. تناغمت دقات قلبها مع اهتزازات القطار. وتضاعف التوتر البادي في ملامحها، لكن الهدوء البادي على قسمات حياة منحها جرعة أمل.

توقّف القطار أخيراً في محطة الدار البيضاء المسافرين. نادى المذيع الداخلي باسم المحطة، وعمّ الارتباك أرجاء العربة. فالنائم يستيقظ فزعاً، والمستعجل يحمل حقائبه بارتباك.

وقفت مريم وحياة معاً، تحمل كلٌّ منهما حقيبةً صغيرة، ثم غادرتا المقصورة معاً، وتراءى من النافذة مشهد تفرّق خطواتهما وسط زحام الرصيف الطويل؛ إحداهما تتطلع للقاء وجهٍ قديم تبحث عنه، والأخرى تتحسس مستقبلاً جديداً، لم تتضح معالمه بعد.

*

من محطة الدار البيضاء المسافرين إلى محطة الرباط المدينة
(المرور عبر محطات: عين السبع - المحمدية - بوزنيقة - الصخيرات - تمارة)

ما إن بدأ القطار مسيره، مغادراً محطة الدار البيضاء المسافرين، حتى تقاطر على الممر مسافرون جدد، يدفعون حقائبهم بتثاقل. ظهر بينهم شابٌّ نحيل، يحمل حقيبةً جلديَّة قديمة مرقَّعة الأطراف، وملامح وجهه تشي بمزيجٍ من الحيرة والإرهاق...

تفحّص المقصورات بسرعة، وعندما لاحت له مقصورة فارغة، إلا من عجوز ستيني يتثاءب، دخل إليها، ملقياً تحية هامسة، ثم جلس أوَّلاً على المقعد المجاور للباب، وعندما بدا له أن النافذة قد تُعينه على إطلالة أكثر رحابة، انتقل بخجلٍ، واضعاً حقيبته البنية على المقعد المجاور، كأنَّه يخشى أن يزاحمه عليها أحد، فيما واصل القطار رحلته، متمايلاً وسط الحقول والضواحي، ودويُّ عجلاته يتعالى برتابته المعهودة...

حاول الشاب أن ينفض عن ذهنه ذكريات الأمس، وكيف قضى فيه ساعات ثقيلة، راوغت كل قواعد الزمن، وأبت عقاربها إلا أن تتباطأ عن قصد، وهو مشتت أثناءها بين طلقات لسان عمه، ونيران نظرات زوجة عمه.

هي ليست أول مرة يغادر فيها ذلك البيت شبه مطرود، وقد اعتاد طوال سنوات عمره على المعاملة القاسية، والتبرم الدائم من وجوده، فعمُّه الذي «استضافه» منذ وفاة أمه، وهو بعد طفل صغير، لم يوفِّر فرصةً لتذكيره بعجزه المادي، ومطالبته بالتشمير عن ساعديه لدفع نفقات إقامته، وأن مواصلة تعليمه الجامعي مضيعة للمال والوقت.

كلام مكرر، اعتاد الشاب سماعه، وفهم منذ زمن طويل حقيقة أسبابه، فعمّه ميسور إلى حد ما، وقادر على تحمّل مصاريف قبيلة كاملة، لكن الغيرة تأكل قلبه، لتميُّز ابن أخيه الراحل، وتفوُّقه الدراسي، مقابل إصرار أبنائه على منافسة بعضهم فيمن يغرق أكثر في وحل الرسوب والفشل.

لكنه رأى دوماً في هذا الوضع ما يشبه النعمة، فقد درب نفسه منذ طفولته على تدبر أموره، والجمع بين التحصيل الدراسي واكتساب الخبرات في أعمال صغيرة ووظائف شتى، علّمته كيف يدقق في كل التفاصيل، ويتاجر في أي شيء، ويتعامل مع شتى صنوف البشر، فصار أكثر قدرة على التصرف بهدوء وروية، والتعامل مع كل العقبات وتجاوزها، بل إنه استغل حتى إشارة عقد ازدياده إلى ولادته في مدينة أخرى، لكي يتقدم بطلب الحصول على سرير في الحي الجامعي بالدار البيضاء، للابتعاد ما أمكن عن جحيم بيت عمه.

ما هي إلا محطَّةٌ أخرى حتى زادت حركة الركَّاب في الممرّ، غادر الستيني الناعس المقصورة بسرعة، دون أن يلتفت لعجوز يتقدم بخطواتٍ وئيدة، عيناه غائمتان وكأنَّه يحدِّق في الفراغ. بدا أنَّه دخل القطار خطأً، أو لم ينتبه لأيِّ مقصورةٍ قد يناسبه الجلوس فيها.

توقَّف عند باب مقصورة الشاب، وتطلَّع إليه بتساؤلٍ صامت. لم يكن يحمل حقيبةً، ويتمسك فقط بعصا خشبيَّة متآكلة.

بادر الشاب بابتسامة هادئة، ولوَّح للعجوز بالدخول إن كان يبحث عن مكانٍ للجلوس. لكنَّ الرجل اكتفى بهزِّ رأسه، ثم قال بصوتٍ متقطِّع:

- أين ابني؟

سكت الشاب لحظةً مرتبكاً، قبل أن يسأله بلطف:

- هل ابنك في العربة المجاورة يا عمّي؟ هل قال لك إنَّه سيجدُ لك مقعداً هنا؟

لم يرد العجوز بإجابةٍ واضحة، ودل ارتعاش شفتيه أن ذاكرته تقاوم الكلام أو ربما تشتّته.

مر مراقب التذاكر في تلك الأثناء. وعندما وقف أمام العجوز، وسأله عن وجهته أو مرافقيه، بدا أنَّ الرجل المسنّ لا يعي حقيقة موقعه ولا كيف دخل القطار أصلاً. ففهم المراقب أنها مسألة تتكرر بين الحين والآخر، تتعلَّق غالباً برجلٍ تائه تتوجَّب رعايته حتى نهاية الرحلة أو إلى حين العثور على ذويه، فرَبَّت على كتف العجوز قائلاً:

- لا تقلق يا عمّي، سنتولّى أمرك ريثما نعثر على ابنك.

ثم ساعده على الجلوس مؤقَّتاً إلى جوار الشاب، ريثما ينادي عبر مكبِّر الصوت في المحطَّات اللاحقة، أو يتلقَّى تنبيهاً من أحد الركّاب.

ارتبك الشاب بداية؛ إذ انتزعه المشهد المستجد من شروده، لكنه بادر إلى تقديم قارورة مائه للعجوز، الذي شكره بنظراتٍ حائرة، وهمس:

- أين ابني؟ أخبرني أنه لن يبتعد كثيراً...

رأى الشاب في عينيه دمعةً مكابرة، دمعةَ رجلٍ يشعر بأنَّ الزمن يغالبه، فردّ بنبرة مطمئنة:

- ستجده، لا شك في أنَّه يبحث عنك أيضاً. سنساعدك، لا تقلق.

انصرف المراقب لبعض الوقت، عازماً على العودة مع أحد أفراد طاقم القطار لمساعدة العجوز.

وجد الشاب نفسه مسؤولاً عنه بشكل ما، فخاطبه بلطفٍ، محاولاً تبديد حيرة عينيه:

- ما اسمك يا عمّي؟ وهل تتذكر إلى أيِّ محطةٍ كنتَ تنوي السفر؟

لكنَّ العجوز لم يقدِّم جواباً محدَّداً...

تسلَّل شعاع ضوء من النافذة ليغمر وجه الرجل المسنّ، ويبرز تجاعيد زمن تحكي بدورها عن آثار عمر طويل، يشي أن الرجل عاش ربما حيواتٍ متعددة في رحلة حياة واحدة، فأشفق الشاب عليه، وشعر في أعماقه أنَّ طموحاتِه وأحلامه الصغيرة تكاد تتضاءل أمام هذا المشهد.

بعد دقائق، عاد المراقب وبرفقته رجلٌ آخر. سألا العجوز بصبر إن كان يحمل تذكرة أو ما يثبت مكان وجهته، ولم يجدوا لديه في جيب سترته سوى قصاصات ورقية، كُتبت عليها عناوين قديمة، وأرقامٌ غير واضحة.

ربَّت المراقب على كتفه مرَّةً أخرى، مؤكداً:

- سنتصل بالمحطات، ونرى إن أبلغ أحدهم عن اختفاء مسنٍّ، قد يكون ابنُك بانتظارك في المحطة المقبلة، أو ربما فقدك في محطةٍ سابقة.

واصل القطار رحلته، وعاد الشاب إلى جلسته التأملية المشتتة...

هو فخور بعصاميته، ومتأكد من قدرته على تحقيق كل أهدافه، مهما كلفه ذلك، لكنه بشر، تتنازعه الريبة والشكوك بين الحين والآخر، فكلما التفت إلى ماضيه أدرك أنه يتحمَّل أعباءً تفوق قدرته، وكلما تذكر ما فعله بالكثيرين، في مغامراته وصفقاته الصغيرة، لتأمين مصروف يقيه تقريع عمه، لام الظروف التي أجبرته أكثر من مرة على السير فوق حبال تتأرجح بين همس ضميره وصوت غريزته.

لطالما أيقن أن للإنسان رصيداً محدوداً من عواطف وأخلاق، يحملها في قلبه متى أطلق صرخة ولادته، وإن حدث واستهلكها بما لا يتناسب مع سنوات حياته المقدرة، قضى بقية عمره جثة، لا تنتظر سوى ميعاد دفنها...

مرر أصابع يده اليمنى على شعر رأسه، في حركة اعتاد عليها كلما أراد التخلص من هواجسه وهلوسات أفكاره، ثم التفت إلى النافذة،

حيث تراءى خط الساحل بعيداً رغم تقلبات الجو، وقد أدرك أن القطار يوشك على دخول مشارف مدينة الرباط.

تناهى إلى سمعه صوت العجوز يسأل مجدداً:

- متى سنصل؟ ابني ينتظرني.

فأجابه ملاطفاً لا موقناً:

- لا تقلق، إننا نقترب..

ربَّما أمل في داخله أن يجد العجوز ابنه حقّاً، كما يسعى هو بدوره نحو بارقة أمل تنتزعه من تيهه، وتؤمّن له أخيراً مستقبلاً منظوراً مستقراً.

بوصول القطار إلى محطة الرباط المدينة، عاد المراقب متهلل الأسارير، مؤكداً اكتشاف بلاغ عن مسنٍّ اختفى صبيحة هذا اليوم. هناك معلوماتٌ أوليَّة تطابق أوصاف العجوز، وتشير إلى إصابته بفقدانٍ جزئيٍّ للذاكرة يبحث عنه ابنه في الدار البيضاء، لكن يبدو أنَّ الرجل هرب أو ضلَّ طريقه فصعد على متن هذا القطار.

- سأهبط مع العجوز هنا، وستتولى إدارة المحطة إجراءات التواصل مع الأسرة والمصالح الأمنية، لترتيب لمّ شمله بابنه وأسرته. شكراً لك، وأتمنى لك رحلة سعيدة.

ابتسم الشاب مجاملاً، ثم تراخى في مقعده، وأغمض عينيه في ارتياح، متجاهلاً جلبة النزول والصعود الجديدة، وسعي ركاب آخرين لدخول المقصورة، فما زالت رحلته طويلة، وما زال في الوقت متسع لإعادة ترتيب ملفات الذاكرة...

*

مكتبة
t.me/soramnqraa

من محطة الرباط المدينة إلى محطة القنيطرة المدينة
(المرور عبر محطات: سلا المدينة - سلا تابريكت)

شقَّ مَن تبقّى من المسافرين طريقهم بصعوبةٍ للظفر بمقعدٍ ما في المقصورات الشاغرة. أُغلِقَت الأبواب شيئاً فشيئاً، وعاود القطارُ سيره.

دخل إلى المقصورة رجلٌ تجاوز الأربعين بقليل، طوله متوسط، وقوامه يميل إلى بعض الامتلاء. مرّر نظره سريعاً عبر المقاعد، حيث جلس شاب نحيل صامت قرب النافذة، وسيدة في الخمسين ربما في المقعد الأوسط. لم يلتفتا إليه؛ فاكتفى بالمقعد المحاذي للباب، وغرِق في أفكاره منذ اللحظة الأولى لجلوسه، شارداً تتنازعه مشاهد متتابعة تتصارع، ولو فكّر الشاب أو الخمسينية في استراق نظرة إليه، لخيل إليهما أنه يُجري حواراً صامتاً مع نفسه، مع تبدل تعابير وجهه بين لحظة وأخرى.

اسمه محسن، ويعمل موظّفاً في مصلحةٍ إدارية ما بالرباط، لكنه يقطن بالقنيطرة. اعتاد قطع هذه المسافة يوميّاً بالقطار، مفضلاً البقاء مع أسرته الصغيرة في القنيطرة، بعيداً عن زخم العاصمة وضجيجها، أو حتى مللها، الذي لم يناسبه يوماً، كما أن قطع تلك المسافة بالسيارة يبقى محفوفاً ببعض الخطر أحياناً، وقد تحولت «طريق القنيطرة» وقتها إلى بؤرة موت تتربص بأمهر السائقين.

بدا اليوم، وعلى غير عادته، أكثر تجهّماً وصمتاً من المعتاد، وكأنما يجرُّ معه همّاً يتضاعف ثقله فيكاد يحطمه، فيما تراقصت في ذهنه صورتان:

زوجته وهي تستعرض قائمة طلبات لا تنتهي، بين تغيير الأثاث

(للمرة الثالثة خلال أربع سنوات)، وشراء سيارة جديدة (لم يمض على الحالية سوى ثلاث سنوات)، وضرورة تسجيل الطفلين في مدرسة بعثة فرنسية (رغم أن مصاريف المدرسة الحرة الحالية تكاد تلتهم أكثر من ثلث راتبه).

ثم مديره في العمل، وهو يهدّده بشكل مبطّن، مطالباً إيّاه بـ«مسايرة الموجة» و«قبول الهدايا» و«التخفيف من بعض القواعد» في تمكين تمرير بعض الصفقات العمومية، وإلا فمصيره النبذ والاستبعاد نحو مكتب هامشيّ، مع الحرمان الفوري من كل الامتيازات والمكافآت الإضافية الحالية.

استند المدير في موقفه إلى قناعةٍ متجذّرة بأن محسن «ليس عُمرَ بن الخطاب، ولن يكون أبداً»، فلا داعي لهذا التزمّت الفارغ من أي مضمون، لكن أنّى لهذا المدير أن يفهم طبيعة ما تربى عليه محسن في صغره، عندما كان والده، إمام مسجد قريته الصغيرة، يحذره من عاقبة أكل المال الحرام؟

الواقع أن هذه المضايقات لم تكن يوماً غريبة عنه، لكنه نجح دوماً في تفاديها أو تجاهلها، محتمياً بأعذار بيروقراطية. لكنّ الطوق يضيق حول عنقه أكثر فأكثر، وكأنّه أسير دوامة لا فكاك منها: بين ضغوط وتهديدات مديره، وتحوّل زوجته التدريجي إلى آلة للتباهي والإنفاق، دون أدنى اعتبار لمحدودية راتبه.

أغمض عينيه واستند إلى ظهر المقعد متنهّداً بعمق. كلُّ ما يملكه الآن هو راتبه الشهريّ الذي يكفي الاحتياجات الطبيعية المعتادة للأسرة، بالإضافة إلى تحمّل مصاريف علاج والدته، وجزء بسيط يحرص على ادخاره، استعداداً لأي طارئ قد تجود به الحياة.

لكن ترقّيه والتحاقه بتلك المصلحةِ الإدارية المرموقة، لم يخفف

من أعبائه، بل ضاعفها أكثر، كمن بدأت حياته الحقيقية بعد «وعاش في سعادة وهناء» لا قبلها...

وجد نفسه عدّاء في حلبة سباق رغماً عن أنفه، حيث يتنافس باقي الموظفين لإبراز اندماجهم في شكل حياة فرضها القرن الجديد، يتداولون أسماء غريبة لم يسمع بها من قبل، لماركات ملابس وسيارات وأماكن سفر لقضاء عطلهم، فيبدو بينهم كمن يعيش عصراً حجرياً يخصه وحده، فقط لأنه لم ينخرط في «اللعبة».

لمح انعكاس وجهه على زجاج باب المقصورة: بدا شاحباً مرهقاً، وفي عينيه أسف وألم عميق...

لم يجد بداً من تجربة لعبة الاحتمالات، رغم يقينه من أنها لن تؤدي سوى إلى إرهاق ذهنه أكثر:

إذا رضخ لطلب مديره، فسيضرب أكثر من عصفور بطلقة واحدة: سينال ترقية وامتيازات إضافية، فقط لتساهله في إجازة وتوقيع بعض الأوراق، سيضمن مستقبل أبنائه، ويطمئن على صحة والدته العليلة، وسيرتاح أخيراً من الموال الذي أتقنت زوجته استقباله به كلما عاد إلى البيت في المساء.

ولكن ماذا لو انتقمت منه باقي العصافير، أو انفجرت فيه البندقية التي أطلق منها رصاصته؟

ستدور عليه الدوائر، ويتبدد أثر المال الحرام في غمضة عين، قد يشتد مرض والدته، أو تصاب زوجته وأطفاله بمكروه، ومن يدري، قد تداهم مصلحتهم لجنة تفتيش ومحاسبة، تهدم المعبد كله على رأسه وحده، ما دامت كل الوثائق تحمل توقيعه...

قطع شرودَه دخولُ المراقب إلى المقصورة، وطلبه التذكرة،

فقدمتها الخمسينية، واكتفى الشاب بهزة من رأسه فيما بدا أنها معرفة سابقة بينهما.

مدّ محسن يده إلى جيبه وأخرج التذكرة بحركة شبه آلية. اعتاد المراقب على رؤية هذا الراكب الصامت في القطار طوال أيام الأسبوع، وقد تحولت ذاكرته إلى حاسوب قادر على حفظ الوجوه، كما في مسلسل الملفات إكس الشهير، فعرفه بسرعة من ملامحه المرهقة.

غادر المراقب، فاستعاد محسن ذكرياتٍ بعيدة: يوم تعرّف على زوجته، وهي بعد فتاة بسيطة طموحة، أحبّت فيه نزاهته وصدقه وحرصه وشرفه واستقامته. فما الذي تغير إذن؟ كيف تحولت نزاهته إلى مدعاة للسخرية لا الفخر؟ وكيف اندمجت زوجته بسرعة في لعبة إعادة تدوير المصطلحات، وتحويل الرشوة إلى «هدية»، والاختلاس إلى «حق تعب» والتبذير إلى «مسايرة للعصر»؟

هي ليست شرّيرة بطبعها، ولم يشكّ في ذلك أبداً، لكنها امرأة، والمظهر الاجتماعي بالنسبة لها عبادة تؤديها لتنال ثوابها في رضا نظرات الآخرين، وإلا حاق بها جزاء تركها في سخرية تعليقاتهم.

قد تصبر امرأة على أي شيء، إلا أن تتباهى أمامها إحدى صديقاتها بسوار مطعّم بالجواهر، أو سيارة فولكسفاكن مكيفة، أو ابن يتابع حصصاً تعليمية في السباحة بنادٍ مرموق، ليطل عندئذ شيطان المقارنات برأسه، وتبدأ حصص التعذيب الرهيبة...

كيف سيقنعها أنه لو انحرف عن مساره مرةً واحدة، فستتحول المرة إلى مرات، ولن يعود حينها أبداً كما كان؟

حاول استجماع شظايا دواخله، مسترجعاً قسمات وجه أبيه ووصاياه، فابتسم، وكأنه ينهل من بئرٍ قديمٍ يروي عطش يقينه، لكن الملامح المقيتة للمدير عادت لتزعج صفاء مؤقتاً، وصوته المحمل بآثار

تشكيلة متنوعة من السجائر والخمور، والمتحشرج كعربة القطار هذه، يرن كالناقوس في أذنه:

- كعكة الثروة لا تأتي إلا مرّة واحدة، وإن ضيّعت نصيبك منها الآن، فستندم على حرمانك من حلو مذاقها بقية حياتك.

لاحت مشارف مدينة القنيطرة من بعيد، ثم ظهرت المباني المنخفضة وبعض المصانع عبر النافذة، وتراجع صخب عجلات القطار بالتدريج.

تصاعد توتر محسن. ها هو يوشك على العودة إلى عالمه الصغير، منزله المحمل بضيق أسئلة مؤجلة، ومائدة عشاء باردة بلا روح، ونظرات بريئة حائرة لطفلين لا يفهمان لماذا تتعمد أمهما حجب ابتسامتها عن محيّاها كلما عاد والدهما إلى البيت.

انساب سيل الركّاب إلى الخارج مع توقف القطار. وضع محسن يديه في جيبي معطفه، واندس معهم في الزحام، إلى أن وجد نفسه أخيراً على بساط رصيف المحطة. رفع عينيه إلى السماء الداكنة، كأنّما يبحث عن إشارةٍ خفيّة تسانده، وعندما التفت رأى، عبر انعكاس النافذة، الشاب نفسه الذي شاركه المقصورة، وهو يهز رأسه مبتسماً، فبادله الابتسامة في شرود، ومضى...

*

من محطة القنيطرة المدينة إلى محطة سيدي قاسم
(المرور عبر محطات: سيدي يحيى - سيدي سليمان)

غادر الأربعيني، ولحقته الخمسينية، ففرغت المقصورة من جديد، إلا من الطالب الذي وضع حقيبته على ركبتيه، وفوقها كومة من المسودات والأوراق، انشغل بمراجعتها، ويخيّل للرائي أنه في سباقٍ مع الوقت، يقلب الأوراق بينما تتراقص نظراته على السطور.

انفتح باب المقصورة بعد لحظاتٍ قليلة، بانزلاقٍ خفيف هادئٍ، ودلف زوجان في مقتبل العمر، ينبض وجهاهما ببشر لا تغفله عين.

ابتسما في وجه الشاب، كتحيّةٍ عفويّة تفيض بالحيوية، وقد بدت عليهما ملامح فرحٍ ولُطفٍ قلّ نظيرهما، منذ تقاطر على هذه المقصورة ركاب من مشاربَ شتى، طوال الرحلة.

جلسا متجاورَين على المقعدين المواجهين للشاب النحيل، وهما يتبادلان نظراتٍ باسمة، غير آبهَينِ سوى بكونهما معاً. يقترب الرجل من الثلاثين، طويل القامة وواثق الملامح، وتضع رفيقته حجاباً أنيقاً، يتناسق مع فستانها العصري.

قبيل إغلاق الباب، تسلّل خلفهما فتى في نحو السادسة عشرة من عمره. أشعث الشعر، وعيناه اللامعتان تراقبان ما حوله بذكاءٍ حادّ. زاغت نظراته سريعاً باتجاه السقف والرفوف والأرضية، ثم انتبه أخيراً إلى الوجوه الثلاثة، فارتسمت على وجهه ابتسامةٌ مرتبكة مصطنعة، وكأنّه يسترضي الجميع، أو ربما يستحضر الأعذار.

تبادل الثنائي بضع كلماتٍ هامسة عن ترتيبات سفرهما؛ ففهم الشاب، رغم انشغاله بأوراقه ومسوداته، أنهما متزوجان حديثاً، ويبدو

أنهما مسافران للقيام بواجب زيارة عائلية، أو شيء من هذا القبيل. لم يخفَ عليه حينها أنه أمام شريكين نادرَين ربما في رِقّتهما المتبادلة، فهما يبتسمان ويتهامسان، ويضفيان على الجوّ المحيط بهما سكينةً وتفاؤلاً.

أما الفتى المراهق، فقد حافظ على صمته، منزوياً في ركنه، مكتفياً بالنقر بأصابعه على ركبتَيه، وبدا عليه التوتر في كل مرّة يسمع فيها خطواتٍ في الممر.

اهتزّت عربات القطار قليلاً، مع مواصلة الرحلة صوب المحطة القادمة، وما هي إلا دقائقُ معدودةٌ حتى دخل مراقب التذاكر إلى المقصورة بهدوء لم يفاجئ أحداً باستثناء المراهق، الذي تصنّع البحث في جيوبه، ونظراته حائرة نحو الممر، كما لو أنه توقع قدوم المراقب من الناحية الأخرى. مد يده في جيب معطفه القديم، ثم تمتم بتوتر:

– آه، يا للحرج، يبدو أنني أضعتها، ربما وقعت مني في الرصيف قبل الصعود...

ردّ المراقب بصبر مَن اعتاد على مثل هذه المواقف:

– هذه ثالث مرة تسقط منك تذكرتك خلال أسبوع واحد فقط. وستكرر على مسامعي مرة أخرى قصة الخالة المريضة وضرورة زيارتها في المستشفى، متى ستتوب؟

ارتبكت ملامح الفتى المراهق أكثر، وامتقع وجهه خوفاً من أن يُطرَد في المحطة التالية، كما يحصل في كل مرة.

لمح الشاب نظرة الهروب تبرق في عينيه، كأنه يقيس احتمالات الركض في الممر أو الاختباء بين العربات. لكن المراقب، وقد ضاق ذرعاً بمناوراته، أشار إليه بيده أن يلزم مكانه، فقال متلعثماً:

– لن أهرب، أنا...

لم يعلّق المراقب، بل أخرج مُفكّرته الصغيرة وسجّل فيها بضع ملاحظاتٍ، ثم قال بصرامة:

- سنضطر للاحتفاظ بك حتى أقرب محطّة. ستأتي معي حالاً، لن أسمح لك بتكرار ألاعيبك مرة أخرى.

مدّت الزوجة الشابة يدها إلى حقيبتها، وكأنّ في نيتها التدخل، لكن المراقب أصر على اتباع التعليمات حرفيّاً، وقبل أن يقتاد المراهق خارج المقصورة، سألته بنبرة حانية:

- هل هناك أحدٌ ما ينتظرك في وجهتك؟

هزّ الفتى رأسه دون كلام، فيما أطبقت أصابع المراقب على كتفه وهو يقول:

- هيا، سنجد حلّاً عندما نصل إلى سيدي قاسم.

وخلال لحظات، انصرف الاثنان؛ المراقب يتقدم بحزمٍ، والفتى يجرّ قدميه خلفه بنظراتٍ خجولة، فتمتمت الشابة:

- المسكين، أتمنّى ألّا تكون نهايته سيئة.

ردّ زوجها وهو يستند إلى ظهر المقعد:

- أمثال هذا العابث يحتاجون إلى بعض القسوة أحياناً...

ثم شدّ ياقة معطفه الصوفيّ، وأخرج هاتفه النقّال الجديد، نوكيا بشاشة خضراء وإضاءة جانبية بسيطة، ليتفحّص رسائل نصية قصيرة وصلته، وابتسم عندما طالع اسم أحد أفراد أسرته، وخاطب زوجته:

- سينتظرنا حسن في المحطة، لا داعي إذن للبحث عن سيارة أجرة.

ثم تحوّل إلى الشاب الغارق وسط سطور أوراقه، وسأله:

- اللّه يعاونك، تعدّ لاجتياز امتحان، أليس كذلك؟

شعر الشاب ببعض الانزعاج، فهو لا يطيق تدخّل أحد في شؤونه،

أو إجباره على تجاذب أطراف حديث لا يريده، ولا علاقة لأوراقه هذه أصلاً بأي امتحان، لكنه ابتسم مجاملاً.

- أجل، صحيح، أدرس في كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالدار البيضاء، والامتحانات تقترب فعلاً...

تدخلت الزوجة، وهي تتأمّل الأوراق بين يدي الشاب:

- تبدو هذه نسخاً خطيّة قديمة، هل هي مخطوطات أدبية؟ كنتُ مهتمّة كثيراً بالمعلقات أيّام دراستي الجامعية. ما أجمل امرَأَ القيس عندما قال:

كنانية بانت وفي الصدر ودها مجاورة غسان والحي يعمرا.

احتار الشاب في طبيعة الرد على اندفاعها، لكن زوجها تدخّل بضحكة استهزاء:

- الواقع يا عزيزتي أنّ دراستك للأدب القديم لم تفتح لكِ أبداً أبواب الرزق، كيف لكلام كتبه أصحابه قبل قرون أن يدر على دارسيه اليوم مالاً؟

لكزته زوجته بحركة لطيفة، ومنحت الشاب نظرة تشجيع صادقة:

- إياك أن تستسلم لما يقوله هذا الأحمق، الأدب آلة زمن فريدة، لا تمنح دليل استعمالها إلا لمن أوتي صبر الأولين.

تنفّس الشاب بعمق، ثم نظر عبر نافذة المقصورة، حيث تجاهد أشعة الشمس لاختراق كثافة السحب، وقال باقتضاب:

- أشكرك.

عاد المراقب في تلك اللحظة عابراً الممرّ، وقد بدا منشغلاً باستدعاء أحد زملائه لإجراءٍ ما. ربما اقتيد الفتى المراهق إلى العربة الأخيرة، أو جرى التنسيق لنزوله في المحطة التالية، لكن إشارته

بالسؤال إلى الركّاب الثلاثة في المقصورة أفهمتهم أنه هرب، فتلاقت أعينهم بنظرة سخرية، وإن آثروا الصمت أمام عيني المراقب الحائرتين.

بعد دقائق قليلة، خفّت سرعة القطار، مع قرب التوقف في محطة سيدي قاسم. وقف الزوج وربّت على كتف الشاب، محاولاً ربما إصلاح تدخّله الأخرق:

- سررنا بالتعرّف إليك، ونتمنى لك كلّ التوفيق في دراستك وامتحاناتك.

وابتسمت الزوجة مودّعة:

- أأسماءُ أمسى ودُّها قد تغيرا سَنُبْدِلُ إنْ أبدَلتِ بالوُدِّ آخَرَا

مع السلامة.

- شكراً لكما. أتمنى لكما رحلة موفقة.

نهض الزوجان وغادرا المقصورة أخيراً، يتبادلان نظرات واثقة وابتساماتٍ دافئة، تاركَين خلفهما ذكرى عابرة، بطلها مراهق لا يدري أحد أين اختفى، وشاب يراجع أوراقاً لا يعرف سواه طبيعة ما تخفيه سطورها.

*

من محطة سيدي قاسم إلى محطة أصيلة
(المسافرون القادمون من محطتي فاس ومكناس غيّروا قطارهم في محطة سيدي قاسم)
(المرور عبر محطات: مشرع بلقصيري - القصر الكبير)

عاد القطار إلى رحلته من جديد، فيما ألقت أشعة شمس خجولة بضيائها على مساحاتٍ واسعة من الحقول الممتدة، فعاد الشاب بدوره إلى أوراقه، التي لا تزال تتطلَّب منه مزيداً من المراجعة قبل وصوله إلى وجهته.

بدا مستغرقاً في التأكّد من التفاصيل الهامشيّة، وإن شعر في قرارة نفسه بشوق عارم إلى بعض الاسترخاء، بعيداً عن ضغوط الدراسة.

لم تكد تمرُّ دقيقتان حتى انفتح باب المقصورة من جديد، ودلفت أولاً شابَّةٌ في منتصف العشرينيات، طويلة القامة، حلوة التقاسيم، ينثني شعرها الأسود على كتفيها بانسيابيَّة، وتضع نظارات تُبرز ملامح وجهها الجذابة، فيما يلفت تناسق حركاتها ورشاقة قوامها الأنظار، وتوحي إطلالتها بهدوء وثقة، بملابس أنيقة وبسيطة في آنٍ واحد.

كانت فاتنة بحق، وبلا تكلف أو مبالغة...

سحبت وراءها حقيبةً متوسطة الحجم، وقد وضعت على كتفها حقيبة يدٍ صغيرة، وتطلعت إلى تفاصيل المقصورة، وفي نظراتها بريق نادر لا تغفله عينا الرائي.

شعر الشاب بالارتباك، فكاد يُسقط أوراقه أرضاً، وهو يهرع لمساعدتها، مع ما تجلى من حيرتها في كيفية رفع الحقيبة إلى الرفّ العلوي.

ابتسمت شاكرةً، وقاوم هو تلعثماً كاد يعصف بتوازن كلماته:

- أتسمحين لي؟

هزَّت رأسها ممتنّة، وردّت في خفوت:

- شكراً جزيلاً.

رفع الحقيبة ووضعها بعنايةٍ على الرفّ، وما إن عاد إلى مقعده حتى اندفعت وراء الشابة سيدةٌ في أواخر الأربعينيات من عمرها، قسمات وجهها مشدودة وعصبيّة. تحمل ملفّاً جلديّاً مكتظّاً بالأوراق، وحقيبة يدٍ مقلدة عن ماركة شهيرة.

تعالى صوت لهاثها، وما إن دخلت المقصورة حتى جلست على أقرب مقعد شاغر بحركة متوترة، وحركت يديها أمام وجهها، باحثة عن التقاط نسمة هواء (رغم أن الطقس بارد أصلاً)، فتعالى رنين أساور ذهبية تكاد تغطي ذراعها.

تطلَّع الشاب إليها باستغراب، بينما التفتت الشابة إلى الناحية الأخرى لترتيب مقعدها، وكأنّها تمنح القادمة الجديدة فرصة لالتقاط أنفاسها.

لم تصمت السيدة طويلاً، قبل أن تندفع بالحديث كمن يريد تفريغ شحنةً زائدة:

- أوف! لم أرتح دقيقة واحدة من فجر اليوم، إنه زوج ابنتي، ذلك السكّيرُ الذي لم يمنحها أبداً فرصة للعيش بسلام، وها قد انهارت أخيراً وعزمت على الطلاق...

لم يكن في المقصورة مَن بادر بسؤالها، ولكنها، على ما يبدو، ممن اعتادوا بثّ همومهم بصوتٍ عالٍ أمام الغرباء.

واصلت بسخطٍ:

- انتظرتُ مكالمتها الأخيرة، ثم قلتُ لها: كفى، سآتي إليك، لا بدّ

من تدخّل عاجل ينهي كل هذا العبث. لن أترك ابنتي تتخبط وحدها في هذه الورطة.

استمع الشاب على مضض، وذهنه مشغول بعمله وأوراقه، فيما اكتفت الشابة الجالسة في المقعد المقابل له بإظهار تعاطف مجامل وتحفّظٍ رقيقٍ.

- لا بدّ من حلّ جذري، أم أنا مخطئة؟ وهبتُ كل حياتي لابنتي، لئلا تشعر أبداً بذرّة حرمان، والآن أكتشف أن زوجها يتسكع مع رفاق السوء...

ثم رفعت نظرها فجأةً تجاه الشاب:

- باللّه عليك، ألا ترى أن الصبر مستحيل في مثل هذه الظروف؟ أنت شابٌّ وأدرى بخطورة ما يفعله الأزواج.

- أ... أتمنى الوصول إلى حل مناسب يرضي الجميع.

أراد إنهاء النقاش بسرعة، متجنباً التورط في جدال لا يعنيه.

مرّت برهة صمت، عادت بعدها السيدة لتهتف، وعلامات الذهول على ملامحها:

- يا إلهي! هل هذا القطار متوجه إلى طنجة؟

أجابتها الشابةُ بسؤال:

- أجل، أليست هذه وجهتك؟

اتسعت عينا السيدة في رعبٍ مكتوم:

- كنت أظنُّه القطار المتجه إلى الرباط. يا ويلي، وماذا سأفعل الآن؟ ابنتي تنتظرني بفارغ الصبر...

حاول الشاب تهدئتها، مبتسماً في سرّه لتكرار مشهد التائهين في رحلته هذه:

- لا تقلقي، يا سيدتي. يمكنك النزول في المحطة القادمة، وتغيير القطار بآخر وجهته للرباط، شريطة التأكد وسؤال موظفي المحطة.

وضعت السيدة يديها على رأسها:

- وستضيع مني ساعات أخرى إذن، ما هذا الحظ العاثر؟

ثم ضربت كفاً بكف، وتمتمت بعبارات سخط، فحاولت الشابة مواساتها:

- لا بأس، قد تكون فرصة لك لأخذ قسط من الراحة.

صمتت السيدة أخيراً، فحاول الشاب استعادة تركيزه من جديد، لكنّ عينيه انجذبتا تلقائياً نحو الشابة. لفتته بسحرها الهادئ وودّها الأنيق، فنسي أوراقه وقرّر استغلال أي فرصة قادمة لمحاورتها، وإن تأكد أن الأجواء التي زرعتها السيدة المتوترة قد تعرقل أيّ حديثٍ ثنائيّ هادئ.

ثم حانت اللحظة المناسبة عندما أخرجت الشابة من حقيبتها رواية ضخمة، بغلاف أنيق، وعنوان فرنسي كلاسيكي، لمحه الشاب فكادت أعماقه تنتفض من شدة السرور.

- يعجبك ستندال؟

سألها بهدوء، مستجمعاً شجاعته أخيراً لكسر حاجز الصمت، فرفعت عينيها عن الصفحة التي تقرأ، حيث وضعت فاصل قراءة صغيراً، وافترّ ثغرها عن ابتسامة تخيلها وميضاً بدّد ترددد:

- أجل، قرأتُ رواية الأحمر والأسود سابقاً، أيام الثانوية، وأُعيد قراءتها الآن. أحببت استعادة أجوائها بعين القارئة الحرة، لا الطالبة الملزمة بتحليلها.

بادلها الشاب ابتسامةً صادقة:

- أجل، أسلوب السرد سلس، والحوارات عميقة بحق.

أومأت رأسها مؤيّدة:

- صحيح، وإن أحببت فيها أكثر روعة الوصف، كما أن تعقيد شخصية جوليان حيرني في اتخاذ موقف صريح تجاهه.

راقبت السيدة الخمسينيّة حوارهما بنظرةٍ عجولة، ثم سرعان ما أخرجت هاتفها المحمول، وغابت في حديثٍ هاتفيٍّ عاجل مع ابنتها، انقطع أكثر من مرة بفعل ضعف الشبكة، وهي تحاول طمأنة فلذة كبدها باقتراب وصولها، راجيةً منها الصبر وعدم اتخاذ أي خطوةٍ متسرّعةٍ.

أدرك الشاب أن الفرصة سانحة الآن لإطالة الحديث مع الشابة، فتجرأ قائلاً:

- يبدو أنك تفضلين ترك أثر ملاحظاتك وأفكارك على الصفحات...

ردّت بلطف:

- أجل، هذا ما أفعله كلما أعجبني مقطع أو فقرة، أو أثارت فكرة ما على لسان الشخصيات انتباهي، فصار ذلك أشبه بالهواية.

ابتسم الشاب في حماس:

- جميل، ذلك ما أفعله بدوري، لكن في مذكرة منفصلة...

لم يجد ما يضيفه بعدها، لكنه أيقن اكتسابه سبيلاً لمواصلة الحديث، خاصة وقد بادرته هي بالسؤال هذه المرة:

- تبدو مهتماً أيضاً بالأدب، هل هذه بحوثك الجامعيّة؟

أجابها بثقة وزهو:

- أجل، سألحق بأستاذي في طنجة، حيث يشارك في ندوة جامعية هناك، وقد كلفني بمراجعة بعض المخطوطات والمسودات لثقته بي.

انعكست على وجه الشابة لمحة إعجابٍ صريح، وأوشكت على التعليق، عندما توقف القطار في محطة مشرع بلقصيري، فوقفت السيدة

مدقّقةً في اللافتة، ونهضت في عجلة، جمعت أغراضها، ووقفت عند باب المقصورة ملوّحة بيديها لشابين:

- ادعوا لي بالتوفيق، وأن ألحق بابنتي قبل فوات الأوان...

ردّا عليها بأمنيات التوفيق، دون أن يفهم أي منهما معنى ما تقصده بـ«فوات الأوان»، ثم غابت بين حشد صغير آخر من الصاعدين والنازلين.

في تلك الأثناء، أخذت الشابة نفساً أعمق وهي تسند رأسها إلى المقعد، كأنما أسعدها الهدوء الجديد في المقصورة، فتبادل معها الشاب ابتسامةً صغيرة، وخيّم صمت مكّنه من استراق نظرات لطيفة، فهمتها هي وراوغت بالتطلع إلى النافذة في خجل.

وعندما تحرك القطار أخيراً، مواصلاً رحلته، انشغل كل منهما (ظاهرياً) بما يفعل، فعادت هي إلى تعقيدات العلاقة بين جوليان سوريل ومدام دو رينال، وحاول هو إعادة قراءة المخطوط بين يديه من البداية، وفي ذهن كل منهما رجاء بأن يستأنف الآخر حديثاً ما زالت آثارُ خجلٍ أولي تمنع استرساله.

*

من محطة أصيلة إلى محطة طنجة المدينة

ما إن توقّف القطار في محطّة أصيلة حتى امتدّت شمس آخر الظهر عبر النوافذ، متجاوزةً شحوباً ماضياً في محطاتٍ أخرى، ما أضفى دفئاً ذهبيّاً على المقاعد، وعبر زجاج نافذة المقصورة، بدت معالم المدينة الساحلية الصغيرة ساكنةً في هدوءٍ جميل.

في تلك الأثناء، ثبتت شابةٌ أجنبيةٌ نحيلة القوام كاميرتها الاحترافية حول عنقها، وأزاحت خصلات من شعرها الأقرب في لونه للبرتقالي، ثم أحكمت ربط حزام حقيبة ظهرها الضخمة، وتقدمت على الرصيف برشاقةٍ، متّجهةً صوب عربة بدت لها الأقل اكتظاظاً.

اسمها ميلاني، وهي مصوّرة فوتوغرافية بلجيكية محترفة، في الرابعة والثلاثين من عمرها. أمضت يومين في أصيلة، تلتقط صوراً من زوايا مختلفة، للأبواب العتيقة والجداريات الملوّنة، وما زالت حتى الآن أسيرة دهشة اعترتها من طبيعة الحفاوة التي لاقتها في المدينة الصغيرة.

دلفت إلى الممر داخل العربة، حيث تأكد لها أن الصاعدين من محطة أصيلة قلة قليلة، وتفحّصت المقصورات، إلى أن وجدت واحدة، حيث يجلس شابان متقابلان ومتقاربان في السن، يتبادلان حديثاً بدا لها وديّاً، ففتحت باب المقصورة بسرعة، وابتسمت قائلة بفرنسية واضحة ونبرة مرحة:

- مرحباً، هل تسمحان لي بمشاركتكما الجلوس؟

رحّبت بها الشابة فوراً، وأجابتها بالفرنسية الموزونة ذاتها، فأومأت ميلاني مسرورةً باحتمال تجاذب أطراف الحديث، في هذه المسافة

القصيرة بين أصيلة ومحطة الوصول الأخيرة، ثم وضعت كاميرتها إلى جانبها، ولم تنتظر مساعدة الشاب، الذي هب واقفاً لمساعدتها، بل فكّت حزام حقيبة ظهرها، ورفعتها بخفة رياضية مدهشة إلى الرف العلوي، قائلة ببساطة:

- هوب!

وعندما جلست، تناولت رشفتين من قارورة ماء غريبة الشكل، ورفعت نظارتها الشمسية إلى منبت شعرها، ولم تلبث أن أضافت:

- ما أسعدكم بهذه المدينة الصغيرة الرائعة، فيها من الهدوء والسكينة ما يشجع على تأمّل التفاصيل، وهذا بالضبط ما أبحث عنه في صوري.

خاطبها الشاب عندئذ:

- إذن فالتصوير هوايتك؟

ردّت ببساطة:

- تقريباً، لنقل إن الأمر بدأ هواية أحببتها، قبل أن أحوّلها بمرور الوقت إلى مصدر رزق. أعمل مع مجلة **ناشيونال جيوغرافيك**، ومجلات أخرى، أسافر حول العالم، بحثاً عما تستحق كاميرتي التقاطه من صور.

اتسعت عينا الشاب في انبهار (وربما حسد)، متابعاً بساطتها في الحديث، وما وفّرته لها الظروف من حرية، فيما تحدثت الشابة بهدوء:

- أصيلة مدينة ساحرة بالفعل. أما طنجة، فنبضها مختلف تماماً، وسحرها يحتاج إلى أيام طويلة لاكتشاف خباياه.

تدخّل الشاب وسألها:

- إذن فأنت تعرفين طنجة جيداً، اعتقدت أنها مجرد رحلة عابرة.

فهمت الشابة أن رفيق سفرها يسعى للاستزادة أكثر حول تفاصيل تخصّها، وأزعجها أن يوجه لها السؤال بالعربية، مستبعداً المصورة،

فتأرجحت بين رغبتها في الإفصاح، وما اعتادت عليه من تحفّظ طوال سنوات عمرها، لكنها حسمت أمرها أخيراً بالقول، وهي تشبّك أصابعها:

- أزور والدي هناك، لنقل إنني مضطرة لذلك بين الحين والآخر...

أحس ببعض الانزعاج في نبرتها، فندم على اندفاعه وفضوله الذي تجاوز حدود الكياسة مع شابة بالكاد عرفها في رحلة قطار عابرة، ولم يجد بداً من التراجع.

ران صمت قصير، قطعته المصورة بوقوفها وفتحها جيباً متوسطاً في حقيبة ظهرها، أخرجت منه ألبوماً صغيراً، وهي تشير إليهما بالاقتراب.

- لم أقم بتحميض صور أصيلة بعد، لكن هذه صور أخرى في رياض جميل بمراكش، وهذا الحي الذي تسمّونه الحبوس في الدار البيضاء، وهنا أجواء المدينة القديمة في الرباط، وهذا باب بوجلود في فاس. اعذراني، أتحمّس في وصف الأماكن، وأنتما أعلم مني بتفاصيل بلدكما...

ضحك الثلاثة، ثم دارت بينهما أحاديث متشعّبة، وفق ما تسمح به المسافة القصيرة صوب محطة طنجة، حيث أطلعتهم البلجيكية على صور التقطتها في جنوب إسبانيا، وأخرى في أيرلندا، وثالثة في كندا، بل إن دهشة الشابين بلغت العنان عندما توقفا أمام صورة تظهر البلجيكية واقفة عند سفح جبل فوجي.

- نسيت إخباركما بأنني أهوى أيضاً تسلّق الجبال...

أبدت الشابة فضولاً تجاه الكاميرا الخاصة بميلاني، فشرحت لها الأخيرة كيف تخطو خطوتها الأولى مع الكاميرا، وتختار زوايا التصوير بعناية، وحدثتهما أيضاً عن المعارض الفنية التي زارتها في عدّة مدنٍ، وما عاشته من مغامرات في رحلات تصويرها أو تسلّقها الجبال.

في تلك الأثناء، بدأت شمس اليوم رحلتها نحو المغيب، ولاحت

أضواء طنجة من بعيد، خفّت سرعة القطار شيئاً فشيئاً، وبدأ الركّاب في باقي المقصورات استعداداتهم للنزول.

أعادت ميلاني ترتيب خصلات شعرها المنفلتة، وهي تنظر عبر النافذة بعينين حالمتين. غمرتها نشوة مألوفة، مع استعدادها لدخول مدينةٍ جديدة لا شك محفوفة بما لا يعد ولا يحصى من القصص والأسرار والمشاهد. وأعادت تثبيت الكاميرا حول عنقها بحرص، وكأن هذا الجهاز الصغير هو تذكرتها الحقيقية نحو اكتشاف ما يعزز رصيدها الهائل من الحكايات.

تردّد إعلان الوصول عبر المذياع الداخليّ للقطار، قبل توقفه تماماً، فعمّت داخله جلبة اختلطت فيها آهات الارتياح بهتافات الاستعجال.

عندها، تبادل الثلاثة نظراتٍ ودّية، مستعدين للنزول أخيراً، والذوبان في بحر المغادرين...

*

محطة طنجة
محطة نهاية السير

عندما شرع في جمع أوراقه ومخطوطاته، حريصاً على ألّا تسقط أيٌّ من صفحاتها المتفرقة، وإعادتها إلى حقيبته الجلدية، رانت لحظاتٌ قصيرة من صمتٍ سمح له، رغم جلبة النازلين، بالاستماع إلى صوت نبضاتٍ تتردد في وجدانه، لتحف نهاية لقاء عابر، ما أراد له أن ينتهي.

أفصحت عيناها بدورها عن سؤالٍ صامت معلوم المعنى، فأجابتها نظراته بوعدٍ ضمنيٍّ لا يخطئه الشعور، وكلاهما أدرك أن ما جمعهما في رحاب القطار لا ينبغي أن ينتهي هكذا ببساطة.

منذ لقائهما وهما ينتقلان بين أحاديث هادئة ومنسجمة، لم ينغصها ربما سوى إحجام الشابة عن التطرق بتفصيل لشؤون حياتها الشخصية، وهو ما يبقى طبيعياً في أي حالة مماثلة، لكن نقاشهما عن شخصية جوليان سوريل، بطل رواية **الأحمر والأسود** لستندال، أثبت لهما وجود توافق فكري لافت، فناقشا تعقيد مصيره، وسؤال حتمية قدره أم دفعه ثمن تناقضات مجتمعه. رأى هو في أفكارها عمقاً وإحساساً، فيما استحسنت هي هدوءه وقدرته على الاستماع.

مدّت يدها نحو حقيبة سفرها، منتظرة دون تصريح تدخّله لمساعدتها، وكذلك فعل، ثم شقّا طريقهما بين الركّاب، وهما يتبادلان نظراتٍ وإيماءاتٍ قصيرة كمن اعتادا على تنسيق خطواتهما على إيقاعٍ واحد منذ زمن بعيد.

- هل سيأتي والدك لاصطحابك؟

أجابت مستعيدة مسحة قلقها:

- أجل، أخبرته مسبقاً بموعد وصولي، ومع تأخر القطار في أكثر من محطة، فلا شك في أنه ينتظرني في الخارج منذ مدة.

أحسّ برغبةٍ في البقاء إلى جانبها لحين ظهور والدها. لم يشأ تركها وحيدةً وسط الحشود الغريبة، لا سيما وأنه لمح في عينيها قلقاً حرصت على كتمانه.

تقدما معاً، حيث انتعش الجو في الخارج برذاذ البحر القريب، فيما تناثرت أنوار السيارات وتراقصت مع ظلال القادمين والرائحين.

تطلعت الشابة بعينيها باحثةً بين السيارات المتراصة، عندما لمحت أخيراً سيارة مرسيدس حديثة الطراز، بلونٍ معدني يميل إلى الرمادي اللامع، فتقدّمت صوبها، حيث جلس خلف المقود رجلٌ يقترب من الخمسين، يرتدي نظارات، وقد مال شعر فودَيه إلى الشيب.

ترجّل فور رؤيته للشابة، مستفسراً بنظراتٍ عابرةٍ عن هوية مرافقها، أما هي فألقت عليه تحيّةً مقتضبة، التفتت بعدها إلى الشاب:

- أشكرك، إنه رفيق سفري يا أبي، وقد تطوع بمساعدتي في حمل الحقيبة.

أومأ الأب برأسه بفتورٍ وحذرٍ مكتوم، متفحّصاً ملامح الشاب وهيئته، وقد استسلم الأخير لتسارع دقات قلبه، شاعراً أن الستار سيسدل على بواكير الودّ الذي نما بينه وبين الشابة طوال الرحلة، فتمنى صادقاً لو تتاح فرصةٌ أوضح لتبادل معلوماتٍ أو عناوين، لكن الموقف بدا محرجاً في حضور والدها، فغافله الحنين إلى لحظاتهما المشتركة وهو يستعيد تفاصيل أحاديثهما.

عندما انهمك الأب في ترتيب وضع الحقيبة في صندوق السيارة الخلفي، استدارت ابنته مسرعةً نحو الشاب، وهمست:

- أجدد شكري لك يا...ولكن مهلاً؟ رحلة طويلة كهذه ولم نتبادل حتى اسمَينا؟

ظل هو مشدوهاً، فجاء ردّه مضطرباً متلعثماً:

- اسمي فريد... فريد النوري...

قالت عندئذ:

- أشكرك يا فريد، كانت رحلة رائعة، أكدت لي أن بوسع الخيال وحده إنقاذنا، ما دامت شخصيات من ورق قادرة على لمّ شملِ بشرٍ من لحم ودم...

فاجأه تعبيرها، ولم يدرِ بماذا يردّ عليه، وعندما وقف الأب معلناً بنظرات صارمة صريحة إنهاء المشهد الذي يقترب حثيثاً من حافة الرومانسية الوردية، اكتفى بانحناء خفيف أخرق، قال أثناءه باقتضاب:

- مع السلامة، أقصد إلى اللقاء، أعني...

منحته الشابة ابتسامة عذبة، قبل أن تركب السيارة وينطلق بها والدها مبتعداً، فانتبه لنفسه وقد تجمد في مكانه لثوانٍ، متأملاً ما جرى.

تنهد بعمق، ثم نظر إلى الأفق، حيث اندمجت سحب الغروب بزرقة البحر، ثم شرع يتحسس جيوبه، باحثاً عن ورقة أو قلم أو أي شيءٍ ينتمي إلى رفيقة سفره الحسناء، لربما تناست شيئاً لديه في غمرة تشتت أوراقه وكتابها فوق طاولة المقصورة، وكاد يضحك من شدة سذاجته وتفكيره في هذا الاحتمال، لكنه استسلم للحظة الجنون تلك، وعاد إلى حقيبته الجلدية القديمة يفتحها، متفحّصا أوراقه، عندما وجد بينها فاصل القراءة الذي استخدمته للتأشير على صفحات رواية ستندال الضخمة.

تاه عقلُه بين منطق الخطأ ومراوغة اللامتوقع، ثم سحب الفاصل بحذر، مستنداً إلى مصباح إنارة قريب من المحطة.

تسربت فرحةٌ دافئة عبر أوصاله، وأحس بأن الرصيف الواسع

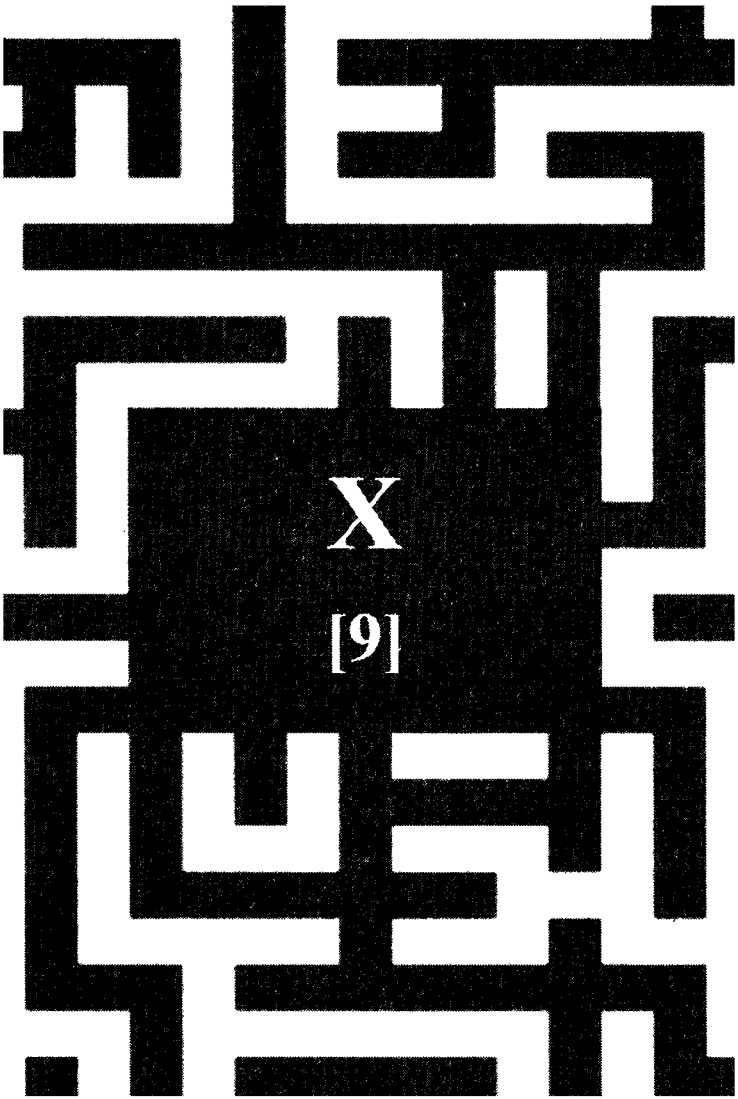
يضيق حوله، وكأنه يريد الانفراد بلحظته في عالمٍ منفصل عن ضجيج السيارات ومناداة السائقين...

ها هي تترك له خيطاً قوياً سيسمح لهما بالتلاقي من جديد: رقم هاتف مكتوب بقلم حبر أسود، وبخطٍّ متوسّط الحجم، أسفله اسمها الذي لم يجسر أيضاً على سؤالها عنه:

ليلى الصادقي...

رفع فاصل القراءة أمام عينيه، وتلفّظ الاسم ببطءٍ لذيذ، وصدى طبول سعادة وأمل يدوي في أعماقه، مدركاً أن طنجة لم تكن محطة نهاية السير، بل بدايته...

*


X
[9]

X

[9]

الحكايات تتداعى

(1997)

«تُقدّم **24 ساعة من حياة امرأة** لستيفان زفايغ وصفاً دقيقاً وعميقاً لعواطف المرأة، وصراعها المستمر مع هواجس الذات والمجتمع. عمدت السيدة «س» إلى كسر القوالب النمطية، باستسلامها لنداء شغفٍ مفاجئ، فدخلت عالماً غريباً عنها، تسيطر عليه الرغبات الخفية والأحكام القاسية. ما تزال المرأة، في عصرنا الحديث، تواجه تحديات مماثلة، بين سعيها إلى الخوض في اختياراتها المصيرية بكل حرية، وبين ضغوط الأعراف والتوقعات الاجتماعية. وبذلك يغدو هذا العمل الأدبي الفذ مرآةً للكثير من نساء اليوم، ممن يتطلعن إلى ترسيخ ذواتهنّ وسط متغيراتٍ لا تكاد تهدأ، مع الحفاظ في الآن ذاته على خيط التوازن الدقيق بين الشغف والمسؤولية».

رشيد بناصر – المحاضرة العاشرة – الأربعاء 15 أبريل 2015

اسم المسلسل: مصير الهاربة. (تلفزيوني)

بطولة: فرناندا بورخا - لويس فالديز - إيغناسيو فالديراما.

البلد: المكسيك.

النوعية: دراما اجتماعية.

عدد الحلقات: 355.

نبذة: تهرب الحسناء ماريا كلارا من بيتها يوم عرسها، في ظل إصرار زوج أمها على تزويجها قسراً من خوانيتو، الابن المدلل لآل لوسيو، أثرى عائلات القرية. تتوه في العاصمة، باحثة عن مأوى، يخفيها عن أعين ملاحقيها، ثم تلتقي بالوسيم أليخاندرو. فهل ستعثر على حبها المنشود في مكسيكو سيتي، ويتغير بذلك مصيرها إلى الأبد؟

*

اقترب يا بني، أنتم يا أحفادي أغلى ما تبقّى لي في هذه الدنيا. أتسمعني؟ آه، أحياناً أخلط أسماءكم جميعاً، هل أنت كارلوس أم خوسيه؟ لا تغضب، أعرف أنك حفيدي الوحيد الآن، من بقي في هذا البيت العتيق، الذي اشتريناه قبل عقود. لا، لقد بناه جدك. اعذرني، لا أتذكر تماماً. المهم أن مَن أراه أمام عينيَّ الواهنتين هو أنت. أقف الآن على حافة ذاكرتي المتآكلة، ولكني متأكّدة فقط من طلبي الوحيد: لا ترحل. لا تذهب إلى برشلونة أو أي بلدٍ آخر. يكفينا ما فقدناه من رجال هذه العائلة. يكفينا رحيل جدك، واختفاء أبيك المفاجئ، في ذلك اليوم المشؤوم. أُقسم إنني سمعت صوته يطرق الباب ذات ليلة. ربما عاد أخيراً، وقد يكون هذا حلماً آخر، لا أحد يصدقني أو يصدق حكاياتي عن الأشباح والليل الطويل. أتدري؟ لقد وُلدتُ أنا قبل أن تُولد أنت

بعقود طويلة، في بلدة صغيرةٍ بجبال الشوف. أين تقع؟ لا فرق عندي، فالحدود تتداخل في رأسي. المهم أنها بلدة جبلية جميلة، تقع على سبع تلال مشرفة على قرى الشوف الأوسط، فيما ينساب النهر في أوديتها مشكّلاً لوحة طبيعية شديدة الروعة. أذكر أنني كنت طفلة، ثم مراهقة، تسرح وتمرح. لكنهم أصروا على رأيهم في أن الفتاة لا صوت لها، ولا خيار لها أو رأي، ولا حاجة لتعليمها أصلاً. أرادوا تزويجي لرجلٍ يكبرني بخمسة عشر عاماً، أو ربما عشرين، هذا ليس مهماً. كل ما أعرفه أنّه رجل حاز أكبر قطيع من الماعز في البلدة، وأنا أخاف رائحة الماعز أكثر من خوفي من الظلام الحالك. قرروا تزويجي له بالقوة، وأنا ابنة السابعة عشرة، نعم السابعة عشرة، وليس العشرين. فقررت أنا الهروب. سأهاجر، سأرحل إلى آخر الدنيا، حيث لا أحد يعرفني، ولا قطيع ماعز يلاحقني. جمعت مصاغاً بسيطاً. صدقني لم أسرقه، وإن حاولت أمي إقناعك بالعكس. بفضل نور، التي تزوجت باكراً من حليم، تمكنت من ابتياع التذكرة سراً، تذكرة قالت هي، بحكم قدرتها على فك الخط، أن المكتوب فيها هو أميركا، وذلك ما أردت، أن أذهب إلى أميركا حيث يسكن بعض أبناء عمومتي. وركبت الباخرة. هل انطلقت من بيروت أم طرابلس؟ ملعونة هي الذاكرة التي تخون، كما تفعل بنا الظروف والأيام. كانت التذكرة إلى أميركا فوجدت نفسي في ميناء بوينس آيرس، ثم اجتزت الحدود صوب تشيلي. في أي عام كان ذلك؟ في أي عام نحن الآن حتى أضبط الحساب؟ 1997؟ أظن أن ما حدث كان قبل خمسين عاماً أو أكثر. لم يعد التاريخ بالنسبة لي سوى حكاية سائلة، أتخيله متفلتاً من بين أصابعي الرفيعة هذه، كما ينساب الماء من يد مفتوحة. ومع ذلك فلا قدرة للذاكرة على تحدي الحنين الذي أوشك على التهامي في تلك الرحلة الطويلة. فجأة ندمت على تركي لتلك الشجرة الباسقة أمام منزلنا

في القرية. ندمت لأنني لم أودع أمي، فهي مجرد مخلوق لا حول له ولا قوة مثلي. كدت أتراجع. لكنّ شيئاً ما شدّني إلى الأمام. حلم؟ كابوس؟ ووجدتُ نفسي أخيراً في تشيلي. لعلك تريد معرفة قصة لقائي بجدك؟ يا له من رجل وسيم وقويّ البنية، لكنه صامت ومبتسم دائماً. تزوجنا في يومٍ مشمس تخلله بعض المطر. لا، لا، كان يوماً ماطراً لكن أشعة الشمس أصرّت على الظهور. احتفلنا بقرع الطبول ورقص السامبا. أذكر الموسيقى الصاخبة، والرجال وهم يضحكون ويمسكون بأيدي النساء. هل كان هذا عرسي أم مهرجاناً عابراً حضرته. وما الفرق؟ المهم أنني كنت سعيدة يومها، ورقصت حتى تعرقت وتعبت. بعدها كبرنا، وأنجبنا أباك، ذلك الطفل الجميل الشبيه بنجمة لامعة في السماء. كان يركض في باحة المنزل القديم الذي اشتراه جدك. تقول إنه بناه؟ حسناً. لم تكن الباحة كما تراها الآن، فقد وسعناها وأضفنا طابقاً إضافياً خلال تلك السنوات القليلة التي حكم فيها سالفادور أللليندي البلاد. كان أبوك شقياً، يتسلق شجرة الليمون في الفناء الخلفي، ويقطف حباتٍ خضراء قبل نضوجها، ويصرّ على أن أتذوّق طعمها الحامض. أين هو اليوم؟ لماذا اختفى ذات ليلة؟ هكذا كما لو أنه لم يكن؟ لم تفدني الشرطة بشيء، بل إن مفتشاً أخبرني صراحة أن على ابني تحمّل نتائج أفعاله. قال أحدهم إنه رأى جنوداً اقتادوه، فيما أصرّ آخر على أنه هرب إلى الأرجنتين ومنها إلى المكسيك، ومنهم من قال إنه التحق بمجموعة من الشعراء المتسكعين. هل جنّ هؤلاء؟ المهم أن ابني حيّ ولم يمت، لقد رأيته يوم الخميس الماضي عند كشك الجرائد، تقولون إنه مجرد رجل يشبهه، لكنني متأكدة، وأنتم مرتاحون لعدم تصديق عجوز مخرفة مثلي. أُقسم لك، يا بني، إنني لا أتصور فكرة رحيلك أنت الآخر. لو ذهبت إلى برشلونة، فمن سيبقى في هذا البيت؟ أنا وأمك الثرثارة الحقود والقطط

السمينة الكسولة وربما طيف أبيك. أرتجف كلما تخيّلتك تجرّ حقيبة ثقيلة في ميناء أو مطار مجهول، تبحث عن صوتٍ مألوف يرحّب بك، فلا تجد أحداً، كما جرى معي. تخيّل لو ذهبتَ، ماذا سأفعل إن جاء أبوك فجأة يبحث عنك؟ أو إن جاء يحمل لك هديةً بمناسبة تخرّجك؟ ألم نتفق أنك ستدرس الطب أو الهندسة هنا في تشيلي؟ هل قلت لي بالأمس إنك تريد أن تكون طاهياً في مطعم البحر الأبيض المتوسط؟ أو عازف غيتار جوالاً؟ آه، هذا خوسيه وليس أنت. أنت خوسيه؟ أتوه في التفاصيل يا ولدي، لكنّي أعلم أنك تفهمني. أعلم أنك تشعر بفراغٍ كبيرٍ منذ طفولتك، لأن أباك غير موجود، فتحوّلت إلى شاب صموت، يحدّق في صورٍ قديمة معلّقة على الجدران. تذكّرني بجدك، لكن صمته كان دائماً. رأيتك أكثر من مرة تختلس النظر إلى صورة والدك المبتسم. أنت تشبهه في حمرة الخدّين وحدّة النظرات. أسمع صوته في أرجاء المنزل ليلاً، يناديني لأعدّ له كأس شاي بالزعتر البري، الذي تخصص بعض معارفي في استيراده من لبنان. تسخر مني؟ حسناً، أنا أسامحك، فهكذا أخفف من وطأة الفراق. أخشى أن ترافقك أشباحك إلى حيث قررت الرحيل، فالهروب ليس حلاً. قد تعتقد أنني أخلط بين قصص جدك وأبيك، وتفاصيل الحرب الأهلية اللبنانية وانقلاب بينوشيه الدموي. نعم، لا أخالفك الرأي، فقد اختلطت كل الأصوات والوجوه في رأسي. ربما لأن الكابوس واحد. لكن الحلم جميل. أذكر يوماً، عندما كنت أجلس في المطبخ القديم، فأتى جدك حاملاً وروداً، أهداها لي وربت على خدي وشعري. هو محروم من القدرة على الكلام، لكن أفعاله ظلت دوماً أبلغ من أي كلام. لهذه البلاد سحر غريب ينادي أبناءها للبقاء، فيما تلاحق اللعنة كل من أصرّ على الرحيل. هل تفهمني؟ أم أن لوثة السفر قد أصابتك؟ لا تهجرنا، لا تتركني لهذه الجدران الباردة،

منتظرة عودة أبيك وحدي. سيعود، سيظهر وعلى محيّاه ابتسامة قادرة على تبديد ظلام حاضرنا. من سيحضنه عندئذ غيرك؟ لم يتبقَّ لجدتك إلا حفنة ذكريات متداخلة، أما أنت فقد تعثر في وطنك هذا على كنوز مخفية. لا أتحمّل فكرة استقبال يوم جديد دون وجودك في البيت. سامحني إن أثقلت كاهلك بحكاياتي المشوشة. هل ما زالت بعقلين كما هي، حيث تحتضنها جبال الشوف؟ أم إن معالمها قد تغيّرت بفعل السنوات ومجازر تلك الحرب الرهيبة؟ ما أعرفه أنّ بيتنا هنا، هو بيتي وبيتك وبيت مَن سبقونا. فلا تتركه مهجوراً. ابقَ معي، على الأقل إلى أن تكتمل هذه الحكاية المبعثرة، أو ريثما تبلغ ذاكرتي مثواها الأخير. أرجوك، تحمّلني، سأبذل كل ما في وسعي لإعادة ترتيب الأحداث. المهم ألا يتكرر الفقد، ويضيع رجلٌ آخر منا في دوامة الزمن. أتريدني أن أطرق أبواب الغرباء سائلة عن مكان حفيدي، كما فعلت مع أبيك؟ والآن أجبني يا بني، يا قطعة من روحي، هل ستغادر أم ستبقى؟

*

اسم المسلسل: أسياد البحار. (تلفزيوني)
بطولة: ليوناردو أوزوبيو - جوزيه إرنستو دا ليما - كلارا فلوريس.
البلد: البرازيل.
النوعية: دراما - مغامرات.
عدد الحلقات: 40.
نبذة: مغامرات القبطان جورجينهو دا سوزا عبر الأطلسي، وتحدّيه لكل أخطار البحار ومؤامرات القراصنة وتواطؤ بعض البحارة ضده، ثم مواجهاته المستمرة ضد غريمه، القبطان ريفالدينهو، الطامح إلى سلبه حبيبته الجميلة ماريا ديل مار.

*

هل أنت حفيدي حقاً؟ أم إنّك ابن جارنا غييرمو؟ اعذرني فالوجوه تتشابه في عيني هذه الأيام، ولا أدري أين وضعت نظارتي. لكن لا بأس. حان الوقت لأحكي لك عن سفري إلى أميركا. حصلت على التذكرة، وما زلت متأكدة من ركوبي البحر. أشعر أحياناً أن رائحة الملح ما تزال عالقة في خياشيم أنفي، كما يلاحقني دوار البحر كلما رأيت زرقته، ولو من بعيد. نعم، نعم، حصلت على التذكرة من رجل أسمر طويل القامة. أخبرتك أنني حصلت عليها بفضل امرأة تدعى نور؟ مَن هذه؟ لم أسمع بهذا الاسم من قبل! أستحضر في ذهني تذكرة باهتة اللون، تبدو مثل قصاصة ورقٍ قديمة في صندوق أسرار جدّتي. لكنني بفضلها غيرت حاضري والمستقبل الذي ارتضاه لي أهلي. وصلت إلى بيروت، وأصررتُ على ركوب السفينة وحدي، دون رفيق أو عائلة كما الآخرين. خشيت أن يلحق بي صاحب قطيع الماعز، أو أحد إخوتي،

لقتلي وغسل عاري. صدقني، أنا لم أفعل شيئاً سوى الهروب، لكن أمل تكرهني، وتنثر عني الإشاعات، مدّعية وجود علاقة محرّمة بيني وبين جورج، إياك أن تصدقها يا بني! فجأة، وجدت نفسي على ظهر سفينةٍ ضخمة، يقودها قبطان فرنسيّ جميل الطلعة. أذكر أنني كنت أرتجف، لكن لا تسألني إن كان ذلك بفعل الخوف أم البرد. لا أذكر طقس ذلك اليوم. لكنني أتلمّس وجهي دائماً، مستحضرة رذاذ الأمواج المتطاير على وجهي، حتى اختلطت بدموعي. طبيعي أن أبكي بعد مغادرتي لبعقلين، أليس كذلك؟ ثم سمعتُ اسم مارسيليا. لا أدري إن كنتُ قد سمعتُه عبر المذياع، أم من أفواه باقي الركاب أو البحارة، أم قرأتُه على لافتةٍ عند نزولنا من السفينة. لا، لا، نسيت، كنت أمّية آنذاك، أما الآن فأستطيع القراءة والكتابة بالإسبانية. جدتك ذكية للغاية، لكنهم اعتادوا على وصمها بالخرف، خاصة أمك، التي لا أدري كيف وقع كارلوس في حبها. أين تقع مارسيليا، هل هي مدينة فرنسية؟ اذهب وأحضر لي تلك الموسوعة الزرقاء، وابحث فيها عن خريطة العالم. هل هي مطلة على البحر الأبيض المتوسط أم المحيط الأطلسي. تضحك؟ طيب. أنت لا تعرف ما معنى أن تحلق ذاكرتي مع نوارس مارسيليا. هناك، نزلت إلى المرفأ للتزود ببعض الطعام، فوجدت نفسي أتناول خبز الباغيت والفطائر المملحة. ثم انتبهت إلى نسياني المحفظة في السفينة. مهلاً، دعني أتذكر، أنا متأكدة من وجودها معي عند نزولي. إذن فقد سرقوها مني. كان السوق غاصّاً بالمارة، وأنا مجرد مسافرة بائسة هاربة يسهل مراوغتها. كيف اشتريت الطعام إذن؟ أعتقد أن صاحب المخبز قدّمه لي هديةً، لا شك في أنه أُعجب بعينيَّ الزرقاوين وبشرتي البيضاء. ربما حسبني فرنسية مثله. هيه، لست حمقاء حتى أغفل سخريتك مني. حسناً، ربما رقَّ لشحوبي فتعاطف معي، لا أدري. ثم قالوا لنا إننا سنغير

السفينة، لاستحالة سفر سفينة واحدة من بيروت، أو طرابلس؟ هل مرّت بحيفا؟ إلى أميركا. سنغير السفينة لأننا سنبحر طويلاً عبر المحيط الأطلسي. أو ربما قالوا إنّ السفينة تعطّلت. لا، لم تتعطل السفينة الثانية إلا في ميناء طنجة. هذا أكيد. المهم أننا أبحرنا من جديد، فتعالى الموج بقسوة أرعبتني، وتشابه صوت اصطدامه بجسم السفينة، بزعزعة النوافذ الصغيرة عند هطول المطر أو انهمار الثلوج، وصفير الرياح في الممرات الضيقة بين البيوت الحجرية، عندما عبرنا جبال الأنديز. مهلاً، لم أصل إلى هذه النقطة بعد. أين كنت؟ آه، نعم. وصلنا إلى مدينة اسمها طنجة، وقالوا إنهم سيتزوّدون بالمؤونة والوقود، وسنبيت ليلة كاملة في المرفأ، لكنهم منعونا من المغادرة خشية ضياع أحدنا. وصلنا وقت الغروب، فكان المشهد جميلاً للغاية. من حسن حظكم أن آلات التصوير الآن متوفرة بكثرة، ويمكنكم حملها على العنق والتقاط ما شئتم من صور ملونة، وتحميضها في أقرب مختبر. من سيصدق ما رأيت، في ذلك التلاقي بين قرص شمس المغيب، وصفحة البحر المصطبغة بلون برتقالي أخّاذ؟ من سيؤكد رؤيتي لمآذن بيضاء تعالى منها صوت الأذان، الشبيه بما كنت أسمعه بعيداً، في قرى مجاورة لبلدتي؟ أتدري؟ رأيت مزيجاً من جلابيب بيضاء، وملابس عصرية، وقبعات غريبة، كما أذكر أشجاراً عالية، توشك على الانحناء، هامسة في أذن البحر بلغة لا يفهمها سواها. حاول بعض الركاب النزول، لكن البحارة منعوهم من ذلك، قائلين إن إصلاح العطب لن يتأخر. لكن البحارة نزلوا بلا مبالاة، ومباهاة بمكانتهم، فعمّت الفوضى وقرر القبطان الفرنسي، لا، أقصد القبطان الآخر، الأسمر، السماح للجميع بالنزول للتبضع. تبعت الأفواج مع بدء حلول الظلام، لا ألوي على شيء، فيما هم يسترشدون ببحّار قال إنه زار المدينة مراراً ويعرفها جيداً. توقفنا عند سوق قريب،

واقتنيت مسبحة سوداء ذكّرتني بمسبحة المرحوم جدي. أين هي؟ لا توجد في الصندوق؟ إذن فقد ضاعت في منحدرات الأنديز، عندما كدت أسقط وأفقد حياتي لولا تمكّن من سيصبح جدك فيما بعد من إنقاذي. رغم خشيتي من أعين المتلصصين فقد أخفيت محفظة نقودي جيداً. لم يتمكن أحد من سرقتي، لا في مارسيليا ولا في طنجة. عدت إلى مهجعي البائس بسرعة، رغم حزني على زيارة تلك المدينة ليلاً، وقد أردت رؤيتها صباحاً. عندما أبحرت السفينة كنت نائمة، وعندما استيقظت، عرفت أن زرقة البحر سترافقني لأيام طالت، حتى صارت قدراً لا مفر منه. الغريب أن المياه وحدها أنقذتني من شعور الملل الرهيب، بقدرتها على تسهيل استرجاعي كل ذكرياتي في البلدة، أهلي، صديقاتي، التلال الخضراء، وشلالات الماء العذب، والمنازل الصغيرة الدافئة، ثم سمعتُ فجأةً صوتاً خافتاً عند مؤخرة السفينة حيث كنت أقف ليلاً، بعد خلود الجميع إلى النوم، باستثناء رجلين يدخنان بعيداً. صوت خافت كأن أحداً يتنفس بصعوبة، أو ينادي من عالمٍ آخر. اقتربتُ بحذر، فرأيتُ وجهاً غريباً يطلّ عليّ من وراء براميل معدنية صدئة. بشرته سمراء، هل هي أقرب إلى لون الفحم أم إنه ملطخ فعلاً به؟ عيناه قلقتان كعيون قططي في الظلام. هل كان يختبئ من طاقم السفينة أم يبحث عن ملجأ؟ شعرت بالخوف، إذ ظننته شبحاً أول الأمر، أو لصاً يستهدف محفظة نقودي، لكنّي تجرأت على سؤاله: من أنت؟ لم يجبني سوى بهمهمات مكتومة، وحركات من يده، وجّهها إلى فمه المفتوح طالباً الأكل. ففهمت أنه أحد الصاعدين سرّاً إلى السفينة، غالباً من مارسيليا. آه طنجة. ما أشطرك يا بني، تمسك بخيط ذاكرة أفلتتها جدتك. أجل، من طنجة، وقد حذرنا البحارة والقبطان أكثر من مرة، وطالبونا بالتبليغ عن أية حركة مشبوهة، أو وجه غريب غير مألوف ظهر فجأة

في السفينة بعد كل هذه الأيام. لكنني شعرت بتعاطف جارف مع هذا الغريب. ناولته بقايا تمر، فأحنى رأسه شاكراً، ورأيت في عينيه رجاء فتاة هربت من زواج إجباري في جبل بعيد. نعم، نعم، أتحدث عن نفسي. لا شك في بحثه عن أمل ما بأميركا، مثلنا نحن، لكنه لم يجد حتى ما يدفع به ثمن التذكرة. طبيعي أن أشفق عليه. تخيّل معي المشهد: فتاة شبه مجنونة هربت من عائلتها وضيعتها وبلدتها لا تلوي على شيء. نعم سرقتُ بعض مصوغات أختي المتزوجة لكنني كنت مضطرة. تقابل هذه الفتاة رجلاً غامضاً لا يعرف أين سينام الليلة، فتختلط الأنفاس بالخوف والأمل، وسماءٌ سوداء تطل علينا من فوق، فيما ينظر إلينا القمر مشفقاً، قبل غيابه خلف السحب، والأمواج تواصل إصرارها على ضرب جوانب السفينة مثل وحوش الحكايات. أذكر ابتسامته الخجولة، واختفاءه وسط الظلام. عندما تقول لي: أنت تهذين يا جدتي. لا أغضب إطلاقاً، لا بأس إن كنت تكذب كلامي، فأنا نفسي غير واثقة من بعض التفاصيل، لكنني أرويها كما تتراقص في ذهني، ما هي الذكريات؟ أظنها تشبه أقنعة الكرنفالات البرازيلية، عندما يلبسونها ويخلعونها باستمرار. تذكرةٌ، بحرٌ، مارسيليا، طنجة، راكبٌ سرّي، ضياعٌ في عرض المحيط. يا لها من حكايةٍ مجنونة فعلاً. ربما أنت على حق، لكنني أتذكر وجه ذاك الراكب السرّي بوضوح؛ عيناه تطلان عليّ في أحلامي كل ليلة، منذ رحيله المؤلم قبل سنوات. ألم تفهم بعد أنه جدك، الذي عشقته وتزوجته متحدّية كل الأعراف؟ حسناً، يمكن الذهاب لتناول الغداء مع أمك، فليحفظك الله، تبدو طويل القامة ووسيما، مثل جدك وأبيك، لكن أرجوك، لا ترحل بعيداً، تناول طعامك وعد سريعاً، لا تدعني أغرق وحدي في هذا المحيط الرهيب من الذكريات المبعثرة.

*

اسم السلسلة: هجرات تشيلية. (إذاعية)

تقديم: مارتشيلو برافو.

البلد: تشيلي.

النوعية: قصص واقعية.

نبذة: يعود مارتشيلو برافو، الإذاعي اللامع، إلى قصص متنوعة ومدهشة، لمهاجرين شدّوا الرحال من جميع أنحاء العالم، صوب تشيلي، سراً وعلانية، باحثين عن مستقبل أفضل، ومساهمين في بناء مجتمع فسيفسائي متحضّر، قادر على استيعاب كل الأجناس، داخل هوية تشيلية جامعة.

*

لا أدري لماذا تصرّون جميعاً على سؤالي عن تفاصيل تلك الرحلة القديمة؟ يخيّل إليّ أحياناً أنني لم أركب البحر قط، ولم أغادر قريتي من الأساس، وإن أقسمت لك أحياناً بوجودي وسط الأمواج المتلاطمة قبل عقودٍ طويلة، أسابق الزمن للوصول إلى أميركا. أتذكّر أنّنا صعدنا سفينةً ضخمة من ميناءٍ ما في الشرق، قيل لنا إنّها ستأخذنا إلى أرض الأحلام، تلك التي يرسمها الناس في مخيّلتهم باسم أميركا، لكن أحداً لم يسأل إن كانت الشمالية أم الجنوبية، أو لعلّنا كنا سذّجاً فلم نسأل. أذكر تذكرة ورقية كتب عليها بخط باهت: «سفرٌ إلى أميركا». هكذا ببساطة، وكأن الأمر يتعلق باسم شارع، لا قارّة شاسعة. حدّث غالبية الركاب أنفسهم عن نيويورك وناطحات السحاب وتمثال الحرية وأضواء المدينة التي لا تنام. وكنت أنا من بينهم، هاربة من الزواج المدبر بصاحب أكبر قطيع ماعز في بلدتي، وحالمة ببدء حياة جديدة في بلد لا يلاحقني فيه أحد. لا أدري متى بدأ الشك يتسلّل إلينا، هل بمرور السفينة من مارسيليا؟

أو عند توقفها في طنجة، أو بتسلل ذلك الغامض الصامت، الذي وجد لنفسه مكاناً حيث لا أدري. اضطربت الرحلة أكثر بدخولنا في عمق الأطلسي، وصار البحر أشدّ عتمةً، كما لو أننا نتوغل نحو المجهول عن طيب خاطر. إلى أن حل صباح، كنت أقف فيه على سطح السفينة، أطالع الأفق منتظرةً رؤية تمثال الحرية، أو بعض المباني العالية، فرأيت فقط جبالاً بعيدةً تسبح في الضباب. تهامس بعض البحارة «أرخنتينا، أرخنتينا». ارتجف قلبي؛ ماذا يفعل بنا هذا القبطان؟! تساءل الركاب بذهول: هل أخطأنا في الحجز؟ أم نصبت الوكالة علينا؟ عندها اعترف أحد أفراد الطاقم أنّ التذكرة أشارت إلى «أميركا»، فيما هي تعني أميركا الجنوبية! تخيّل، يا بني، كل تلك الآمال في نيويورك وصخب الولايات المتحدة تبخّرت في لحظة. بعض الركّاب انهاروا بالبكاء، وآخرون صرخوا غاضبين، وقال أحدهم إن هذه الحيلة القذرة ما زالت متواصلة منذ مطلع القرن العشرين فمتى ستنتهي؟ وحاول آخر التهجم على القبطان فأوسعه البحارة ضرباً، وهناك من قرّروا الاستسلام للأمر الواقع. أمّا أنا، فغرقتُ في حيرتي. إلى أين سأذهب الآن وقد وصلت إلى نهاية العالم بلا أهل ولا مال؟ بدوت كالمنوَّمة، وأنا أتبع بعض اللبنانيين في تنقلاتهم، خاصة عجوزاً مارونية. جُبت معها شوارع تلك المدينة. هل هي بوينس آيرس أم لا بلاتا؟ لا أذكر ولست مهتمة. قد يكون مجرد ميناء صغير لا اسم له. سمعت لغات عديدة، امتزجت في رأسي مثل خلطةٍ عجيبة، فخُيّل إليّ أنني منوَّمة تماماً، لا أعرف لي وجهةً ولا طريقاً. لكنني سمعتُ همس العجوز المارونية: «سوف نذهب إلى تشيلي، فهناك أقارب لنا. أبناء عمومة استقرّوا في البلد منذ سنواتٍ طويلة». تعلّقتُ بهذا الخيط الرفيع كالغريق الذي يتشبث بلوح خشب، فقررتُ التحرك معهم نحو تشيلي بأي وسيلة. لم تكن الحدود مفتوحة وسهلة العبور،

لأن الحرس يمنعون التهريب، فقيل لي إن المسار الوحيد الممكن هو عبور جبال الأنديز، رغم صعوبتها البالغة، فالقمم شاهقة، والبرد قارس لا يرحم. لكنني ابنة الجبل، وأعرف طبيعته جيداً، سواء كان في لبنان، أم في أقصى بقاع الدنيا. وهكذا وجدتُ نفسي في منطقة اسمها نيوكين، قرب بحيرة لا أعرف اسمها، قريبة من الحدود بالأرجنتين، أعدّ العدّة لاجتياز السلاسل الجبلية الوعرة سرّاً، صوب تشيلي. تريد مني الانتظار ريثما قلبت صفحات أطلس العالم؟ طيب. ممتاز، اسم البحيرة لاكار. لكن لا تملأ رأسي أرجوك بأسماء كل تلك المناطق الحدودية داخل تشيلي. قد أتوه وأفقد خيط القصة. قلت إنني جمعتُ في كيس قماشي بعض قطع اللحم المجفف، وقليلاً من حبوب الذرة، التي ابتعناها من مكان قريب، وربطتُ قارورة ماء جلديّة على ظهر بغلٍ صغير، استأجرناه مع بغال أخرى مخصصة للعبور. أرى الاندهاش الذي تطفح به عيناك، ربما لأنك لم تتوقع مني الدقة في الوصف وتسلسل الأفكار في هذه النقطة بالذات، أليس كذلك؟ انتظر، ما زال في جعبة جدتك الكثير، لكنكم اعتدتم على جعلي محط سخريتكم. منحونا أيضاً معاطف صوف الغنم اسمها بونتشو، وقبعات واسعة الأطراف، خشية الانهيار أمام قسوة البرد والرياح العاتية التي تنتظرنا في القمم. من هم؟ شعب المابوتشي بالطبع. صادفناهم عند حواف الممر الجبلي، وقبلوا منا التبغ مقابل ما منحونا إياه. بل إنهم عرضوا إرشادنا، لأنهم يعرفون الممرّات الأكثر أمناً ويُحسنون توقّع تغيّرات الطقس المفاجئة. فوافقنا على الفور. لا تقاطعني، تسأل عن كيفية تواصلنا معهم؟ يا بني، لقد عشت مع جدك عقوداً، لم ينبس فيها بكلمة، لكنني فهمت كل سكناته. النظرة والإشارة يا بني أبلغ من ألف كلمة. مفهوم؟ دعني أكمل إذن. قلت إن التخفيّ عن نقاط الحراسة على طول الممرّ يحتاجُ إلى خبرة المابوتشي، خاصة

مع ما قيل عن وجود قطّاع طرق متربصين، قد يظهرون بين المنحنيات الوعرة. انطلقنا في الصباح الباكر وتوقّفنا قرب جدول ماءٍ صغير عند المغيب، ومع كلّ منعطفٍ، أتذكر جبال الشوف التي غادرتُها لا ألوي على شيء، بيقيني حمل روح الجبل أينما حللت وارتحلت، وما هذه الحدود إلا حواجز مؤقّتة سننجح بتجاوزها. تجنّبت البقاء وحيدةً بعيداً عن القافلة، وإن مال بعض الرجال، خاصة الملثمين منهم، إلى ذلك. في المساء، تبادلنا القليل من الطعام والحديث، ولكن لا تقلق، لم أخبرهم عن سر هربي من بعقلين ومجيئي وحيدة إلى هذه البقعة المخيفة. واصلنا المسير فجراً. هاجمتني رعشة برد وخوف، وقدماي متأرجحتان بين ملامسة الأرض والسباحة في الهواء. لا أدري، لكن الطريق ازداد وعورة وتعرجاً. كلما صعدنا ضاق التنفس أكثر، كأن الجبال تضغط صدورنا بأكفٍّ ثقيلة. وسط ذلك العناء، تعثّر البغل، فكدت أسقط في منحدرٍ سحيق. لا تسألني عن كيفية حدوث ذلك، المهم أنني وجدت نفسي أتدحرج نحو حافةٍ صخرية، صارخةً بأعلى صوتي، مستسلمة لموتي الوشيك. فجأةً أحسستُ بيدٍ تمسك بي بقوة، رفعت رأسي فرأيت لثاماً تظهر منه عينان حادتا النظرات. لم ينبس بكلمة، قبل أن يسحبني ببساطة إلى مكان آمن. تحلّق الجميع حولنا، فيما جلست ألهث، أشكره بكلمات متداخلة لا معنى لها، لكنه لم يُجب رغم إصرار الجميع على استنطاقه، فاكتفيت بدموعٍ صامتة، لن يفهمها سوانا. لولاه لكانت نهايتي هناك، مدفونةً بين الصخور، ولما وصلت إلى هنا ولما ولد أبوك حتى. أترى مدى غرابة هذه الحياة، عندما تتغير مصائر وأقدار، إثر خطوة واحدة خاطئة؟ نعم، هذا الملثم هو جدك القوي المقدام، الذي اعتاد دوماً على حملي بيد واحدة. أوف، ها قد عدنا إلى السخرية. اصمت وإلا خاصمتك وامتنعت عن استكمال القصة! بعد معاناة طويلة، وصلنا

إلى أرضٍ أقلّ ارتفاعاً، وسمعتهم يرددون فيياريكا، فيياريكا. لم أدر ما معناها لكنني فهمت أننا بلغنا تشيلي أخيراً. شعرتُ بأطرافي تستعيد نشاطها. رغم كل المخاوف والأخطار، وحياتي التي كدت أفقدها في ذلك المنحدر المرعب، إلا أن جرعة ثقة بالقادم اعترتني ومنحتني طاقة إضافية. لولا خديعة «أميركا» على تذكرتي، لكنتُ بعد في بعقلين، أنفث الحسرة وأندب مصيري، وأتقاسم الفراش مع رجل لا أطيقه. ولولا عنادي، لما واصلت طريقي وبلغت هذا البلد وعشت حياةً جديدة، نلت فيها حظي من السعادة، رغم كل المصاعب والمطبات. تريد معرفة ما جرى مع الملثم الصامت؟ انتظر، فلكل حكاية سردها، ولكل قصة زمانها. ولكن مهلاً، من أنت؟

*

اسم الفيلم: أربع وعشرون ساعة من حياة امرأة. (تلفزيوني)
بطولة: ريب تورن - إنغريد بيرغمان.
البلد: الولايات المتحدة الأميركية.
النوعية: اقتباس تلفزيوني عن قصة للأديب النمساوي ستيفان زفايغ.
نبذة: تحكي السيدة س أطوار يوم مفصلي في حياتها، عندما حاولت إنقاذ مقامر غريب يوشك على الانهيار. تتشابك الرحمة مع الانجذاب العاطفي في ساعاتٍ معدودةٍ، لتكشف ما الذي يمكن للحظةٍ عابرة، أو قرار مرتجل، أن يغيّره في مصير الإنسان.

*

أين توقفنا في المرة الماضية؟ آه حسناً. قلتُ إننا وصلنا إلى الجانب الآخر من الحدود، سعداء ومنهكين بعد تلك الرحلة المضنية. يقولون إنّ القطارات أو الطائرات قادرة الآن على عبور الجبال بكل سهولةٍ، أما في ذلك الزمن الغابر، فكان علينا امتطاء البغال، والاستعانة بالقدر لتجنب السقوط في الوديان السحيقة. أتدري أنني كنت على وشك فقدان حياتي، لولا تمكن جدك من إنقاذي؟ تخيّل أنني... ماذا، حكيت هذه القصة في المرة الماضية؟ وإن كررتها؟ ماذا في ذلك؟ جيل مخيف لا يطيق صبراً على شيء. حسناً، أتساءل أحياناً كيف جازفتُ، وأنا الفتاة الهاربة من مشروع زواج فاشل في بعقلين، لأجدني فوراً في قلب مغامرةٍ لا يعرف فيها أحدٌ أحداً. لا تسألني عن طبيعة مشاعري الحقيقية وقتها. أتخيل أحياناً أنّني كنتُ شجاعةً كالأسود، وأرى نفسي أحياناً أخرى مجرد طفلةٍ ساذجة لا تملك من أمرها شيئاً. المهم أنّني بقيت على قيد الحياة بعد تلك التجربة المريرة. ظل الملثم الغامض برفقتي. أتذكره؟ ذاك الذي

صعد سرّاً على متن السفينة في طنجة، ثم رأيته ينقذني من الموت فوق الجبال. ظننته بداية قرصاناً أو مهرباً أو حتى جنياً. عجزتُ عن فهمه وهو المنصت الصامت؛ لم أسمع منه كلمةً مفهومة، باستثناء همهمات خفيفة من حين إلى آخر. لطالما تساءلت: كيف سأتواصل مع هذا المخلوق العجيب؟ هل يفهم الإسبانية أم العربية أم فقط لغة الإشارة؟ لكنّي في لحظةٍ ما قرأتُ في عينيه جملاً كاملة لا تحتاج إلى ترجمة. وصلنا إلى منطقة تشيلية على تخوم الأنديز. لعلك تعرفها أنت، أم أنك لم تزرها قط؟ لست متأكدة من اسمها الآن؛ الأراوكانيا؟ ممكن. ذاكرتي مزاجية، قد تدهشك في ضبط تفاصيل شديدة الدقة، وقد تخونني مع أبسط البديهيات. المهم أنّنا وجدنا كوخاً مهجوراً أو شبه مهجور يُؤوينا، فاحتمينا به من برد يوشك على نخر العظام بل واختراقها. قالت العجوز المارونية إنها سترحل بعد أيام قليلة، هي ومن أتى من أسرتها، للبحث عن أبناء عمومتهم في سانتياغو، قائلة إن بعض من رافقونا سيبقون هنا. سمعنا أن في ضواحي بوكون، بالقرب من وادي نهر ليوكورا، توجد أراض غنيّة بمياه الأمطار، ما ساهم في ظهور مزارع صغيرة يعمل فيها السكّان المحليون والمهاجرون في زراعة البطاطس والقمح. أذكر أنني انهمكت في نفض الغبار عن أسمالي، ففوجئت بيدَي الملثم القويتين تساعدانني في رفع أغصانٍ سدّت مدخل الكوخ. ما رأيك؟ أتصدق أن الهاربة من بلدتها ووطنها، تندفع فجأةً نحو رجلٍ لا تعرفه، لا يفهمها ولا تفهمه؟ ربّما هو قدر، وقد يكون جنوناً. لكنني شعرت بدفءٍ غريب كلما التقت نظراته بعيني، وشعرت أنه يريد البقاء. بل إنه بدأ بتفقد الأراضي المجاورة. هل رأى فيها ما يشبه وطنه؟ لا أدري. أكدت العجوز المارونية أنه من المغاربة، بدليل الجلباب الذي يرتديه، وأضافت بخبث، عندما تابعت نظراتي التي تلاحق كل حركاته، أن تشابه ملابسهم مع ما نرتديه

نحن لا يعني أن الطقوس والتقاليد واحدة. كالعادة، لا يتركك الناس في حالك أبداً، دائماً يبحثون عن أسباب لتخويفك أو تحذيرك. سمعت طويلاً: «انتبهي، لا تناسبك عاداتُه، ولن يفهم لغتك ودينك، وسيمنعك من كذا وكذا»، فكنتُ أستمع مغمضة العينيْن، كأن نبض قلبي وحده من يتكلم، وحده من منحته سمعي: «لا يمكن تفسير نظراتكما المتبادلة إلا بالحب. هو يحبكِ، فأيّ عاداتٍ وأيّ طقوسٍ قادرة على الوقوف في وجه الحب؟». لا أخفي عنك: ربّما كنتُ في أوج غضبي من العادات كلها: الزيجات المدبرة، التحكم بمصائر النساء، والاستسلام للواقع دون مقاومة. قلتُ يومها في نفسي: «إن كنتُ سأكسر عادتين، فلأكسر الثالثة والرابعة!»، ولن يخيفني اختلاف الطائفة أو البلد. عندما اجتزت جبال الأنديز، وواجهت الموت بعيني لولا تدخّل بطلي، شعرت بتحرري من كل الجذور. كلّ ما عرفتُه تركته خلفي هناك على سفوح جبال الشوف، في بلدة قد لا أعود إليها أبداً. فلا ضير في البحث عن جذور أخرى في هذا البلد الجديد، وإن نبتت دون قرار أو تحضير مسبق. صرت أتعمد الاقتراب من الرجل الذي نزع لثامه، فبدا مهيباً بسمرته وقوته وصمته. أنظر إليه بابتسامة، أُحضر له الماء والزاد وقت راحته في الحقل، متجاهلة غمزات وضحكات من تبقوا من المهاجرين في المنطقة واختاروا العمل. أما أهالي المابوتشي فلطالما احترمتهم، لحرصهم على الابتسام، رغم وجوههم المرهقة، وعدم تدخّلهم في شؤون أحد منا. كان من الطبيعي أن نتزوج، ولا أخفي عنك أن المشهد بدا غريباً. نحن واقفان، نكاد نلامس بعضنا، تحت شمس حارقة، وأكبر من تبقوا من المهاجرين المسلمين سناً، يقرأ الفاتحة، ويعلننا زوجاً وزوجة، مباركاً لنا، أمام تجمّع صغير من المهاجرين وسكان المنطقة، اختلطت أصواتهم ولغاتهم، وإن بدت كلها مفهومة في تلك اللحظة، تهنئنا بما فعلناه.

اكتفينا بإمساك أيدينا علناً، وبتبادل النظراتِ أمام الجميع. أين كوب الماء؟ قرّبه إليّ يا بني. مشاعري الآن مضطربة، لأنك سافرت بي إلى أجمل ذكرياتي على هذه الأرض، طوال خمسين عاماً. وعندما يجمعنا فراش الليل، حين تنطفئ الأنوار وتخفت الأصوات، كنت أسمعه يتنفس بجواري؛ شهيقه أعمق من بئرٍ بلا قرار، وزفيره موسيقى تطربني. كنت أعشق التربيت على كتفيه العريضتين، وهو يحاول التملص من خجله، أو ربما هو خوفي أنا؟ يشبه صمته الدائم حديثاً طويلاً. ولطالما ضبطته أكثر من مرة يبكي بدموع تكسر قلبي، فأحتضنه بحنان أم، لا زوجة. لا تسألني كيف وثّقنا زواجنا، هل بعقدٍ مدني أم بتوثيقٍ في كنيسة أم بدعاءٍ رفعناه إلى السماء، نعم، نعم، أطلق عليه موظف الشؤون المدنية اسم كلاوديو في السجلات المدنية لاستخراج بطاقة التعريف، لكن هذا ليس مهماً، سيظل بالنسبة لي دوماً الملثم الصامت. أذكر أننا تقاسمنا الكوخ ذاته، وصنعنا منه بيتاً صغيراً، أنا أرتب الداخل، وهو يحفر في الأرض لجلب الماء، ويعيد ترتيب الأحجار لتشييد جدار متين. من الغريب فعلاً كيف بدأنا من الصفر؛ كما أتساءل أحياناً عن سر تلك الطاقة التي أعانتنا على البناء في بلدٍ غريبٍ ولسانٍ إسباني واجهت كمّاً من الصعوبات قبل تعلّمه وفهمه. أما كلاوديو فلم يجمعني به سوى تفاهم القلوب. ألا يقولون إن الغرقى يعرفون بعضهم في تيارات البحر المتلاطمة؟ هكذا كنّا، مهاجرَين وجدا في اللجوء والترحال وطنا. أنا فارّة من إرثٍ عائليٍّ ثقيل، وهو هارب من أسبابٍ لا أعرفها ولم يسمح له صمته بالإفصاح عنها. قد يكون فقراً أو ظلماً أو حباً ضائعاً. لم أشأ نبش أسراره، ما دام حاضره ومستقبله معي ولي. يكفيني أنه قبِلني رغم جنوني وعنادي، فكلما نظرت إلى وجهه الساكن، أحسست بمدى فهمه العميق لوجعي وكبريائي. وهكذا بدأنا حياةً جديدة من قلب العدم. نعمل في الزراعة

ونساهم في تجميع وبيع محصول القمح والبطاطس. أُقسم أحياناً أنّني سمعته يدندن بما يشبه أغنية، قد تنتمي ربما إلى تراثه، فأجاريه بدندنةِ موّالٍ جبلي حفظته واعتدت على سماعه أيام طفولتي. عندما يبتسم، أوقن أنه سمع ما أقول وفهمه بطريقةٍ ما. تداخلت عاداتنا وتقاليدنا بداية، فحوّلناها إلى خليط نسخر منه بطريقتنا. الحب هو ما يجمعنا. قد يقول قائل إنّ جدّك تشيلي لا علاقة له بالمغاربة، وقد يظهر من يؤكد لك أنه صامت عن اختيار وليس أخرس رغماً عنه. أُقسم إنني سمعت همهمته أكثر من مرة، بمجرد وقوعي في مأزق ما، وعندما يمسك بيدي ويشد عليها بعزمٍ، أفهم منه: «لا تخشي شيئاً، ما دمت معك...» دون أن ينطق بها لسانه. قرأت في عينيه كلاماً طويلاً بدّد كل مخاوفي، فخضت في المستقبل دون تردّد، مطمئنة إلى درعه الحامي، وصلابته المدهشة. صدّقني يا بني، لم يكن ذهني أكثر توقّداً وصفاءً من هذه اللحظة، فلا تدمّرها بنظراتك الغريبة المتشككة! مكتبة سُر مَن قرأ

*

اسم البرنامج: ملفات وقضايا (تلفزيوني).

تقديم: أليخاندرو سانشيز.

البلد: تشيلي.

النوعية: حواري سياسي.

نبذة: في وقت تسعى فيه تشيلي إلى نسيان ماضيها القاسي، أيام حكم بينوشيه، تبرز قضايا ضحايا الدكتاتورية الدموية، بين الإقصاء الممنهج والتعذيب الجسدي والنفسي والاختفاء القسري والقتل، لتؤكد ضرورة فهم هذا الماضي، والسعي للتصالح معه، لا نسيانه.

*

قل لي، كم عمرك؟ أعرف أن أكبر أحفادي وُلِد قبل سنواتٍ طويلة، وأصغرهم وُلد قبل مدة لا أذكرها. من أنت منهم؟ لقد صرتُ أخطئ بالأسماء والوجوه، وأخلط بين الأحياء ومن غادرونا موتاً أو غياباً. آه، أنت كارلوس، حسناً. هل تراجعت عن رغبتك في الرحيل إلى برشلونة؟ لماذا لا تجيب؟ ما زلتَ متردّداً؟ اسمعني إذن كما تسمع قِصّةً من حُلمٍ أو من وهمٍ، فأنا أخشى تبخر الكلمات إن لم أُبح بها الآن. أتذكر يوم استقرّ بنا الحال في تشيلي بعد تلك الرحلة العجيبة؟ عندما أنقذني من الموت، يوم اجتزنا ذلك المنحدر الوعر... طيب، طيب. قلت إن الكوخ قد كبر شيئاً فشيئاً، وتحوّل إلى بيت كبير، مع مجيء الأبناء، واحداً تلو الآخر. ذكّرني أنت، هل هم ستة أم سبعة؟ بين ذكورٍ وإناث، نعم، فأنا لا أذكر العدد بدقّة. عج البيت بالصراخ والضحكات، وأنا أطبخ طوال اليوم لأفواهٍ جائعة تشبهني في الملامح، وقد يتراءون نسخة طبق الأصل من وسامة والدهم، ذلك الرجل الذي تألقت عيناه

كلما رأى الأطفال يلعبون. تعلّمتُ، بمرور الوقت، فهم لغته الصامتة أو إشاراته، فيما عجز الآخرون عن ذلك بالمطلق. كبر الأطفال في أجواءٍ غريبة. فقد كنّا غرباء أصلاً في تشيلي، ثم تراكَم حولنا الجيران والأصدقاء، منهم اللبناني والسوري والفلسطيني، كما بعض أبناء هذه الأرض، لم نستسلم لأضواء وإغراءات سانتياغو، وفضلنا البقاء هنا. تسألني عن أهلي في جبال الشوف؟ كنت أذهب عند صديقتي نور، الفلسطينية، لأطلب منها كتابة رسائل إليهم. أُمْلي عليها أفكاري فتكتب، وتتولى مشكورة مهمة إرسالها. لم أتلق أي جواب. هل وصلت أم لم تصل؟ لا أدري. ربما لم يكن العنوان الذي أمليته دقيقاً. صارت حياتنا إذن مثل شجرةٍ اختارت جذورها كما تريد هي، لتمتدّ فروعها في كل اتجاه. بيت بُني بإخلاص، فكان الحب أساسه وأعمدته وسقفه، دون أدنى اهتمام بنظرات الناس واستغرابهم. أحبني من أسماه أبناء البلد كلاوديو، لم يفارقني ولم يُشعرني يوماً بتبرّمه من حدة طبعي وتناقضاتي المجنونة. لم يكن يختلي بنفسه إلا لكي يؤدي صلاته. يطيل في ركوعه وسجوده الصامت، ويتأمل أوراقاً مصفرة مغبرة، بعينين تغطيهما الدموع. حاولت الوصول إلى تلك الأوراق مراراً وتكراراً، وكاد الفضول يقتلني في سبيل ذلك. لكنه حرص دوماً على الاحتفاظ بها بين ثيابه التي يرتديها، فتفهمت رغبته. ثم مرّت الأيام والسنوات، كما يقولون في مسلسلات هذا التلفاز الصغير. ذات يوم، عندما انهار الجسد القوي، معلناً قرب رحيل صاحبه عن دنيانا، أصرّ في إحدى الليالي على استبقائي وحدي، بعيداً عن أعين أبنائنا، وسلّمني تلك الأوراق القديمة. تردّدتُ في فتحها، فقال لي بإشاراته المحفوظة إنها أغلى ما يملك، فقد حمته من كل الشرور، طوال تلك الأعوام، وأوصاني بالاحتفاظ بسرّها. وجدت فيها خطوطاً عربيّة قديمة، لم أفهمها بالمرة طبعاً، وقد تراجعت

العربية المنطوقة بدورها من لساني، بعدما اندمجنا بالكامل في محيط لا يتكلم سوى الإسبانية. لعلنا نتذكر جذوراً نسيناها. لكن الزخارف التي كتبت بها بعض السطور أثبتت بما لا يدع مجالاً للشك أنها آيات قرآنية، مع كتاباتٍ غامضة وربما طلاسم أو أدعية تصعب قراءتها حتى على المتعلم. المهم أن زوجي الحبيب تعامل مع هذه الأوراق باحترام بالغ، فسيطرت على جسدي قشعريرة غريبة عندما لامستها بأصابعي. كأنّ تلك الكلمات ساهمت طوال هذه الأعوام في حمايتنا من شرٍّ لا ندري كنهه.

ثم توفّي زوجي بعد أيام، آخذاً معه قطعة من روحي، أو ربما روحي كلها، وبدأت أيام وحدتي الحقيقية، وإن كنت وسط أبناءٍ وبناتٍ، ثم جيش من الحفيدات والأحفاد، يعانون كما الجميع من مشاكل الحياة، في بلدٍ لم يعرف استقراراً منذ سنوات. تتداخل الذكريات في ذهني فلا أكاد أضبط تاريخ وفاة جدك، فأرجو لو تتأكد بمراجعة شهادة وفاته، هل كان ذلك قبل الانقلاب أم بعده؟ تعرف أن لكل بلد تاريخاً يتفق الجميع على إعادة تحديد مفهوم الماضي والحاضر عبره، ونحن في تشيلي نكيّف كل أحاديثنا على سنة الانقلاب على سلفادور أليندي. احتفظت بالأوراق في صندوقي الخشبي الشخصي، ملتزمة بوصية جدك في عدم إطلاع أي كان عليها. لكن والدك خرق الوصية فحلّت اللعنة على هذا البيت. مال جدك إلى الهدوء، وتجنب إثارة أي نوع من المشاكل مع أحد، فلماذا أصرّ والدك على الانخراط في نشاطات سياسية معارضة لبينوشيه وقبضته الحديدية، معرّضاً حياتنا جميعاً للخطر؟ لماذا قامر باستقرار زواجه الحديث، مفضلاً حياة الهروب من المراقبة، والاختفاء الدائم، والاجتماع سرّاً مع رفاقٍ في قبوٍ قديم، لكتابة المنشوراتِ والهتاف بصوت عالٍ ضد الظلم والديكتاتورية؟ هل لأنه كان أكثر أبنائي وبناتي شبهاً بطباعي المتمردة؟ خفتُ عليه كثيراً، يا بني، وحاولت

ثنيه عن هذه المغامرات العبثية، فالزمن وقتها كان زمن رعبٍ وخوف. لكن الشباب لا يعرفون الخوف مثل الشيوخ والكهول، تفور الدماء في عروقهم فيتخذون قرارات لا مكان فيها للمنطق، مثلي عندما غادرت بعقلين هرباً من مشروع زواج مع رجل يكبرني بعشرين عاماً، يحوز أكبر قطيع ماعز في البلدة، كما أنه... حسناً، حسناً. اعتقدت أنني لم أحكِ لك قصة مغادرتي لجبال الشوف وهجرتي من قبل. يقولون إنّ والدك كان يطالب بالحرية والعدالة، ويشارك في مظاهراتٍ تحت جنح الظلام. حذّرته الشرطة السرية، وتوالت الاستجوابات الجماعية، حتى خشيت اختطافه كما فعلوا مع آخرين هنا، وفي كل أنحاء البلاد. أذكر أنني اطلعتُ على المخطوط مرّةً ثانية وقتئذ، أتلمّس حروفه، وأطلب المغفرة مما كاد أبوك يفعله ذات مرة، بتمزيق الأوراق والسخرية مما اعتبره إيماناً غبياً منا بالغيبيات المتخلفة. استعنت بكلمات ألامس أثر حبرها القديم على ورق مهترئ دون فهمها، راجية من اللّه حماية ابنٍ تطرَّف في إيمانه بأفكاره، ومتمسكة في أعماق قلبي بأمل قدرة الكلمات الغامضة على إنقاذه، كما أنقذت أباه من بحر متلاطم الأمواج، وجبل وعر على الحدود بين الأرجنتين وتشيلي، وربما أخطار أخرى لا أعرفها من ماضيه المجهول. ثم اختفى والدك كما هو متوقع، وترك زوجته الحامل في شهورها الأولى. هل هي أمك أنت؟ إذن فأنت حفيدي! مرحى! ابتعد ابني خوفاً من السجن أو الموت، لا كما يصر إخوته وأمك على اختطافه. أنا متأكدة من استقراره في المكسيك. في كل فترة تصلني أقاويل عن ذوبانه وسط الحشود هناك. تسألني عن سر عدم عودته رغم انتهاء حكم بينوشيه؟ ربما لم يعلم بذلك بعد، فقد سقط النظام بالأمس. ماذا؟ منذ سنوات؟ مستحيل. أنت تكذب، لأنهم أقنعوك بفكرة إصابة جدتك الطيبة بالجنون. اخرج، اغرب عن وجهي الآن، لا أحد

يصدقني، باستثناء صندوق ذكرياتي القديمة، حيث أتحسّس الأوراق المهترئة، باحثة عن رائحة جدك، ومستحضرة بحراً عَبَرناه معاً، وجبالاً وقفنا على منعرجاتها الوعرة، ننتظر النجاة بمشاعر حبنا التي ولدت في أعالي القمم. كيف لحفيد مثلك أن يكون بهذه الأنانية، مفضلاً الهرب إلى برشلونة، عوض السفر إلى المكسيك مقتفياً أثر والده؟ أتستكثر على جدتك فرحة اللقاء بابنها قبل موتها؟ أين أنت؟ هل ذهبت فعلاً؟ لم أكمل حكايتي بعد. عد، ولا تتركني وحدي!

*

اسم البرنامج: كوبا - اللغز المستعصي (تلفزيوني).

البلد: إنتاج مشترك.

النوعية: وثائقي.

نبذة: يحاول هذا الوثائقي سبر أغوار كوبا، بكل أسرارها وتناقضاتها، وتحوّلها من مجرد جزيرة صغيرة تقع على مرمى حجر من الولايات المتحدة الأميركية، إلى لاعب مؤثر في توازنات الحرب الباردة.

*

قد تظنُّ أنك سمعتَ مني كل الحكاية، لكنك عجول متبرّم مثل والدك. تعال واجلس، فأنا لم أخبرك قطّ عن تلك الشائعات التي بدأتْ تصلني متأخّرة، بعد سنواتٍ على رحيل ابنك، أقصد ابني أنا، أي والدك أنت. يراودني أحياناً بعض الارتباك، فلا أدري إن كنت موجوداً بجانبي، أم إن الجدار وحده يتلقى صدى كلماتي. اسمعني جيداً، لم أستسغ يوماً فكرة غياب والدك كل هذه الأعوام، فتقصيت أخباره بإصرار، مكّنني من الاستماع إلى ما يردّده البعض في الخفاء. يقولون إنّ والدك لم يستقرّ أبداً في المكسيك كما ظننّا، بل غادرها لاحقاً إلى كوبا. لعلك تعلم أن كاسترو دعم أليندي عندما تكالب عليه الجميع سعياً لإفشال تجربته. هذا ما فهمته وقتئذ، لا تستهن بذكائي، فقد تعلمت الإسبانية بسرعة، وصرت قادرة على قراءة الصحف. تخيّل! كوبا التي كنّا نسمع عنها أخبار الثوّار وقصص فيديل كاسترو! سمعت أنّه انضم هناك لأنشطة ثورية لا تؤمن سوى بقوة السلاح حلاً للمواجهة مع الديكتاتوريين. قيل لي إنّ نقاشاته السياسية لم تتوقف، وقد رغب في تجربة ما هو أشدّ جذريةً من مجرّد الهرب من بينوشيه. أنا مثلك، لا أدري إن كان هذا كلّه اختلاقاً أم حقيقة

دامغة، لكنّهم أكّدوا لي أنّ والدك حمل على عاتقه حُلم تحقيق العدالة في كل مكان. لذلك اكتفى بعبور مؤقت إلى كوبا، قبل أن ينطلق صوب لبنان، حيث توجد جبال الشوف التي قَدِمتُ منها قبل خمسين عاماً. صدقني، هذا ما سمعته بالحرف. ربما جذبته فكرة حمل السلاح من أجل قضية ما. لا أعرف ما الذي دار في رأسه وقتها حتى يفضل هذا الخيار على العودة إلى أحضان زوجته وأمه. يقال إنّه شارك في حرب الجبل، للدفاع عن قرى أجداده، فيما يزعم البعض نزوله في بيروت الغربية أيام حصارٍ ما، قبل انتقاله إلى الجنوب، أم إن هذا حدث قبل ذاك، لا أدري. أخبرتني صديقتي نور، الفلسطينية العجوز التي تزورني من حين لآخر، أن ابني شارك مع لبنانيين وسوريين وفلسطينيين في معركة رهيبة دارت ضد الاحتلال الإسرائيلي في سهل البقاع، بقرية اسمها السلطان يعقوب، على اسم سلطان مغربي ترك الملك وساح في الأرض حتى وصل إلى بلاد الشام ومات فيها. كيف لي أن أصدق أنّ ابني وصل إلى جبهةٍ خطيرة تبعد آلاف الأميال عن تشيلي؟ لكن نور أكدت لي وجوده هناك بالفعل، وأنّه اختفى وسط الدخان والرصاص. هل مات هناك؟ أم وقع في الأسر؟ أم تراه هرب جريحاً إلى قريةٍ لا يعرفها أحد؟ هل التقى بوالدي وأقنعه بصحة الأسباب التي دفعتني للرحيل عن بعقلين؟ لا تسخر مني، يمكن لروح والدي أن تنتقل إلى جسد آخر أصغر، وسيتمكن ابني حينها من التعرف عليه. يقولون إنّ المجموعة التي قاتل معها فقدته في خضمّ المعركة، وقد زعم أحدهم أنّه لمح وجهاً يشبه وجهه بين الجثث، فيما أقسم آخَرُ على رؤيته مصاباً، يُحمَل في شاحنةٍ مجهولة، لا يدري أحد إن كانت صديقة أم عدوّة. فجأة، ضاع أثره تماماً. سنوات مرت بعدها، وكلّما سمعتُ جديداً عن لبنان، خفق قلبي وقلت: «ربما سيظهر ابني أخيراً!»، لكنه

لم يعد. تشيّعت الأخبار كأنّها سراب، دون أن أطوي الحكاية في سجلّ النسيان. لعلها لعنة الأوراق التي احتقرها وسخر منها. لا، ابني طيب للغاية، ولم يُرِد شرّاً بأحد أبداً. لولا وصية الحبيب الراحل لطلبت من أحد المهاجرين القدامى، ممن يتقنون العربية، فك طلاسمه، لكنني لن أعصي لجدك أمراً، ومن يدري، ربما تفقد تلك السطور المكتوبة قدرتها الحامية، ويتعرض كل أبنائي وأحفادي للخطر. لا تستهن بي يا ولدي، فأنا قادرة على قراءة ما تفضحه عيناك، رغم ضعف بصري. تقول نظراتك بصراحة إن المكتوب في الأوراق لو كان يحميه حقاً لما فُقد وانقطعت أخباره. لكل روح أجلها، نعم، صحيح، ومن يدري، لئن غادرت الروح ذلك الجسد فسوف تستقر في جسد آخر، وسأعرفه بقلب الأم الذي لا يخطئ. وما أوراق جدك المهترئة إلا رمز يجسد هذا اليقين. أنا مثلك يا بني، لا أثق بأيّ شيءٍ تماماً، المكسيك، كوبا، لبنان، كولونيا ديغنيداد، لا فرق! فقد عشتُ بعد رحيل جدك ثم اختفاء والدك زمناً رأيتُ فيه الأمل يتحوّل كابوساً، والكذبة تصير حقيقة. يضطرم قلبي بنيران الشوق كلّما تذكّرتُ أن ابني عاش حياته متشرّداً، من منفى إلى منفى، ومن قضيةٍ إلى أخرى. أخشى رحيل أحدنا أو كلينا بلا وداع أخير. يا بني، إن قُدِّر لي الموت قبل عودته، فلك أمنح كامل الحرية في البحث بين طيات مخطوط جدك الأقدس، أو في أرشيفات الصحف القديمة، واسأل حتى المنظمات الحقوقية المهتمة بحسم مصائر من اختفوا أيام بينوشيه. قد تجد خيطاً يدلّك على مصير والدك، وقد تظهر قصّة جديدة تقول إنه هاجر إلى كندا أو إسبانيا بدلاً من لبنان. لا تستغرب؛ فهناك من يهوى تأليف الحكايات، وقد يصير مقلوب الحقائق مقبولاً أحياناً. المهمّ أنك عرفت الآن نتفاً من حياةٍ امتدّت، ولمحات من مصائر امتزجت، وخيوطاً من ذاكرة تكافح لإرجاء موتها الأخير، ولو لبضعة أيام أخر. إن كان ما

سمعته عن مصير ابني صادقاً، فربّما سنلتقي يوماً ما بوجهٍ يشبهه، يُخبرنا بحقيقة ما جرى. وإن كانت مجرّد شائعات لا أصل لها، فليكن. أشباح الغياب أرحم أحياناً من الحقيقة القاسية. وطيف جدك أجمل عندي من وجه أمك. وما دامت أوراقه هنا، مستقرة بين أيدينا المرتعشة، فستحمل دوماً صوته وملامحه، وتحفظ تاريخاً وربما تفسر حاضراً لم ولن نفهمه بالمطلق. حاصرتك الحيرة؟ لا بأس، فهذا حال جدّتك العجوز منذ سنوات طوال. تلك كانت قصة والدك وجدّك، كما يروونها، أو كما أتوهّمها، لا فرق. خُذها كما هي، أو دعها تضيع في غياهب النسيان، مع كل ما فات.

*

اسم المسلسل: شظايا الماضي. (تلفزيوني)
بطولة: مارتشيلو غراندي - ماريا خوانيتا سولير - لوسيو بويرتا - دانييلا كروزو.
البلد: المكسيك.
النوعية: دراما اجتماعية.
عدد الحلقات: 700.
نبذة: نشأ خوليو في العاصمة التشيلية سانتياغو، يتيماً بلا أب، وقد أصرّت والدته مراراً وتكراراً على تجنب الحديث عن الماضي، الذي شتّت شمل الأسرة الصغيرة وحرمها من حقها في السعادة. تتدخل إيزابيل، الجدة العجوز، لتكشف حقيقة اختفاء والد خوليو في المكسيك، موصية بضرورة البحث عنه هناك. فهل سيكون الانتقال إلى مكسيكو سيتي نهاية لعذاب حطم الجميع؟ أم بداية لفصل معقد آخر، تتداخل فيه مشاعر الحب والخيانة والانتقام، في حياة تصر شظايا الماضي على تمزيقها؟

*

كيف سأنهي هذه الحكاية، وأنا لا أدري كيف بدأت، ولم أفهم حتى من أين أتت؟

منذ أسابيع وأنا جالسٌ قرب سرير جدّتي، في هذا البيت العتيق، هنا في ضواحي بوكون، وسط تشيلي، غير بعيد عن الحدود مع الأرجنتين. أستمع إلى قصصٍ تقترب حيناً من حافة الأساطير، ثم تبتعد حيناً لتجسد هذيان عجوزٍ مخرفة، ليتشكل في نهاية المطاف سرد يحاكي توالد حكايات ألف ليلة وليلة، براوٍ نصف مجنون.

اجتمع التردد والشك والنسيان والتناقض في كلام جدتي، ثم انتقل إلى أعماقي بالتدريج، فصرت أتساءل بدوري: هل أنا حفيدُها فعلاً؟

أم مجرد شخصٍ غريب، تسلّل إلى هذا المنزل ووجد امرأةً تهلوس فاستطاب له الإصغاء؟

من هي جدتي أصلاً؟ امرأة مسكينة قتلتها الوحدة والفقد، وامتد بها العمر فاستعادت فتات ما تذكره من حياة ثرية بالتفاصيل؟ أم عجوز مخرفة ثرثارة، اتفقوا على نبذها في غرفة صغيرة، لا مؤنس لها سوى تلفاز قديم ومذياع عتيق، يبثان مسلسلات تلفزيونية وإذاعية، تداخلت مشاهدها وأصواتها وأحداثها مع ما تبقّى من ذاكرتها، لتصنع حكاية لا بداية لها ولا نهاية؟

تحدثت جدّتي عن هروب فهجرة مبهمة إلى قارة بعيدة عنها، عن سفنٍ ترسو في طنجة، عن راكبٍ سرّي صامت أو أخرس، عن تشيلي والأرجنتين، عن مواجهة الموت في جبال الأنديز، وعن زواجٍ غريب تشابكت فيه الطوائف والأعراق. تحدّثت أيضاً عن تلك الأوراق المهترئة الغامضة، عن أبي الذي اختار حياة المطاردة في زمن بينوشيه، والقتال في حروب لم أسمع عنها قط، قبل أن يختفي أثره كالسراب...

تفاصيل مبعثرة ومعلومات متناقضة وحكايات غير مكتملة، قذفتها هكذا في وجهي، مطالبة إياي بتصديقها...

هل أنا واثقٌ ممّا تقول؟

ما زالت الحيرة جاثمة بقبضتها على صدري، إذ لا مكان لليقين في بحر يموج بالشك...

أرى في عيني جدّتي بريقاً غريباً كلما انطلقت في سردها المفكك، كأنّها تعيش أطوار فيلمٍ سريالي، أو تحيا في عالمٍ خاص بها وحدها.

تقول إن جدي كلاوديو الأخرس، مغربي الأصل، فيما يتفق الجميع على أنه تشيلي، وفقاً لبياناته الرسمية المسجلة، مفسرين غموض أصله

بكونه أحد الذين اختاروا طوعاً القدوم إلى هذه المناطق وقتئذ، بحثاً عمل في الحقول.

أيعقل أن تكون حكاية لقائها به مختلقة، وهي الوحيدة المتناسقة إلى حد ما في كل ما روته؟

لماذا لم أسمع شيئاً مما حكته عن والدي كهذا طوال حياتي؟ لماذا لم تجنح أمي إلى الوضوح في حديثها عنه؟ لماذا اختارت الصمت ملجأ أبدياً؟

أشكّ أنّ جدّتي تحتفظ بسرٍّ كبير فعلاً، أو أنها تخترع الأحداث لتبرّر نشأتي في ظل الغياب.

أتسلل أحياناً أثناء نومها، للتنقيب في صندوقها القديم، فلا أجد سوى تلك الأوراق المتهالكة، وبلغةٍ لا أقرأها. أفكر أحياناً في استعارتها وعرضها على من يتقن العربية، لعلّي أفهم سرّها، لكنني أخشى غضبها، فكلنا نعرف نوبات ثورتها القادرة على حرق الأخضر واليابس. تقول بثقة إن لهذه الأوراق قُدرة سحرية ما، استطاعت حماية جدي ثم أبي من موت محقق، هراء! أين هو أبي إذن؟

أجدني أحياناً أرسم خرائط في دفتري الصغير: من تلك البلدة الدرزية في جبال لبنان إلى مارسيليا، مروراً بطنجة ووصولاً إلى الأرجنتين فتشيلي، ثم المكسيك و...كوبا، ثم لبنان، عودةً إلى... أشعر بأنني سجين حلقةٍ مفرغةٍ من البلدان والقارات. من أين أبدأ؟ وإلى أين سأصل؟

يقول الجميع إنها تهلوس بشأن قتال والدي في لبنان. كلنا نعرف أن ابن الخالة الفلسطينية نور، هو مَن ذهب للقتال هناك ثم اختفى. هي صديقتها الوحيدة، تزورها من حين لآخر، فتشربان القهوة وتثرثران

على انفراد بلغتهما العربية الأصلية. ربما تعاطفت مع مصاب صديقتها فنسبت قصتها لنفسها، أو أن لهذه القصة جانباً خفياً لا أعرفه؟

تأتي عمّتي أحياناً لزيارتنا، فأتفحص ملامحها لعلّي أجد فيها شبهاً ما بما رأيته من صور قديمة لأبي. أُفاجَأ بأنها تتجنب الحديث عن الماضي، كأنّها تعرف بدورها أسراراً لا تريد كشفها. تشير برأسها خلسةً إلى غرفة جدتي، وتتمتم: «لا تصدّق كل ما تقوله». كلمات لا أفهم منها سوى أن في سردها المشتت بعض الحقيقة.

أشعر بانتمائي إلى عائلة يلعب كل فرد فيها دوره في مسرحيةٍ لم ينتهِ عرضها بعد، لكل منا دوره المحدّد: الجدة هي البطلة العجوز التي تروي الأساطير، والعمّة أو الجيران يظهرون في مشاهدَ قصيرة لتحذيري من الخوض في التفاصيل.

لم تولد رغبتي في الهجرة إلى برشلونة من فراغ. لطالما راودتني رغبة ملحّة في الهروب من هذا الجو الخانق. لكن الجدة حذرتني، قائلة إن الماضي لن يتركني أبداً، وسيصر على ملاحقتي أينما حللت وارتحلت.

أتمنى أحياناً لو خاطبتها بصراحة ومباشرة: «أيتها العجوز، كفى اختلاقاً. قولي الحقيقة أو اصمتي». لكنّني لا أقوى على ذلك. في بحر كلماتها ألمٌ عجيب؛ لا تفسير له سوى عجزها عن الانعتاق من دائرة فراق متواصل: زوج عشقته بكل جوارحها فمات مبكراً وعاشت فقط لتقتات على ذكراه، ابن اختفى بعد إيمانه بأفكار لا تناسب هوى السلطة، أهل في لبنان البعيد، تقول إنها اضطرت لتركهم هرباً من زواج مدبَّر.

من أكون أنا كي أكذبها أو أشكك في قصصها؟

ربما اختلط عليها الزمان والمكان فعلاً، لكن لعلّ في جوهر كلامها بذور حقائق...

أنا تائهٌ، يا جدّتي. طوقُ مخطوطكِ المهترئ لا يُقنعني بشيء، لا هو دليلٌ على نجاةٍ ولا تأكيد على وفاة. كلما هممتُ بمغادرة هذا البيت وتركك تغرقين في أحلامكِ، أتراجع. هناك قوةٌ خفية تشدّني إليكِ. ربما هي الرحمة أو الشفقة أو التشبّث بخيطِ أمل:

ماذا لو كانت حكاياتكِ صحيحةً فعلاً؟ ماذا لو ظهر أبي فجأةً؟ ماذا لو كان كل هذا التخبّط مفتاح الوصول إلى يقين قد لا نراه الآن؟

ولكن مهلاً... لماذا دسّت جدتي اسم تلك المستعمَرة الغامضة في حديثها السابق؟

فاجأتُ أمي بسؤال مباغت:

- هل كان والدي أحد المعتقلين السريين في كولونيا ديغنيداد؟

كلنا نعرف أنها مستعمَرة ألمانية، أنشأها رجل يقال إنه متعاطف مع النازيين، لجمع عدد من الألمان الذين اختاروا تشيلي وطناً جديداً لهم. ظاهرها ما يشبه الجماعة الدينية، أو التعاونية الزراعية المكتفية بذاتها، وباطنها ممارسات رهيبة، وتعاون طويل مع النظام، لاستغلال الموقع السري في استنطاق وتعذيب وربما قتل عدد هائل من المعارضين.

صمتت أمي كعادتها، لكن صمتها بدا لي مختلفاً هذه المرة، يخالطه تردد كشفته رعشة شفتيها...

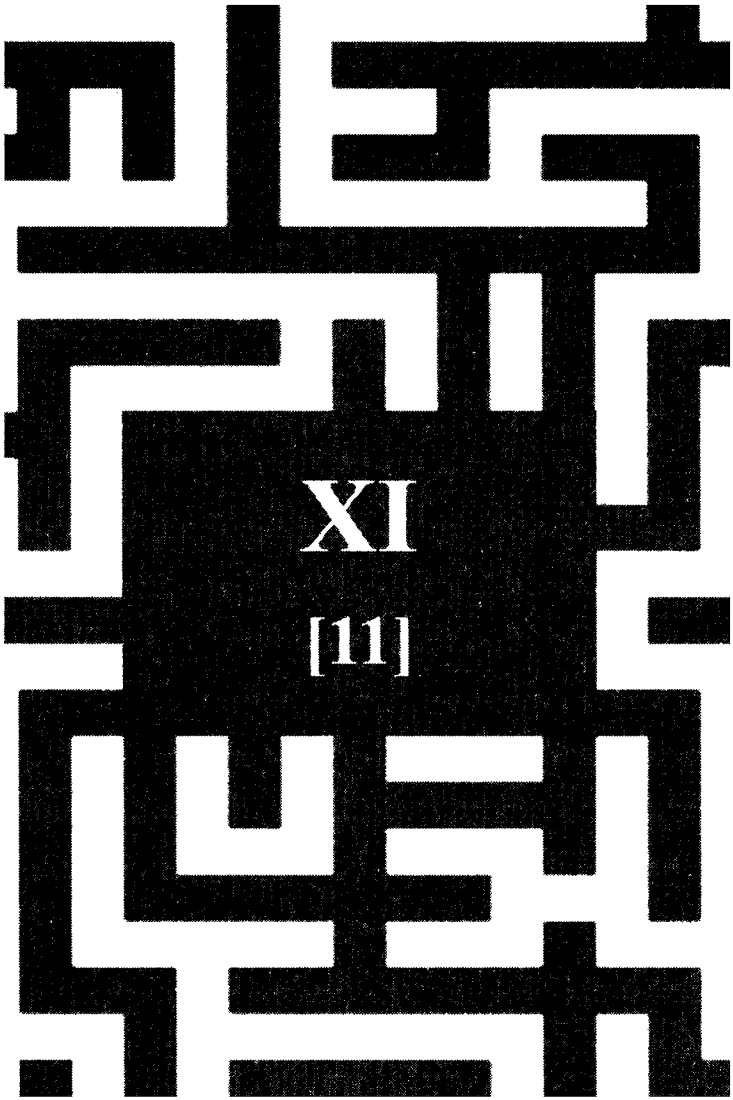
- سمعنا بذلك، لكن لا شيء مؤكد بعد، كما كل المصائر التي ألصقت بوالدك. هناك جمعية ما، تتحدث الآن عن ضرورة الدخول الآن إلى الموقع المحاط بالقصص والإشاعات، والبحث عن جثث أو رفات لمعارضين لقوا حتفهم هناك تحت التعذيب، لكن الأمر سيان بالنسبة لي. ما أعرفه أن والدك تجاهل كل توسلاتي بضرورة نبذ أنشطته العبثية، والتركيز على بناء أسرتنا الصغيرة. رحل بملء إرادته، أم اختُطف، لا فرق. لا أحد سواه يتحمل مسؤولية عذابنا الطويل...

فعلاً، ما الذي سيغيره ظهور اسم هذه المستعمَرة، سواء كانت في تشيلي أم على سطح القمر؟

على أي حال، سأبقى هنا يا جدتي، أراقبكِ وأسمعكِ تتمتمين بأسماء وعناوين وتواريخ مشتّتة كالنجوم، في سماءٍ مثقلة بالضباب. وإن قررت الرحيل يوماً، فلن أسأل عن بلدتك في لبنان ولا عن راكب طنجة الصامت أو الأخرس، ولن أبحث في سجلات الحروب ولا بين فتات العظام المطحونة. سأترك هذا البيت وأمضي إلى حيث تستقر قدماي. أنا بحاجة إلى حياة أخرى، تخصّني وحدي، ولا تمتد جذورها في كل بقاع الأرض دون أي جدوى.

ولتحل بي ساعتها لعنة تلك الأوراق المهترئة، إن استطاعت الوصول إليّ...

*


XI
[11]

XI

[11]

شهريار تكفيه ليلة واحدة

(2013)

«تكشف رواية **شرق المتوسط** لعبد الرحمن منيف مدى هشاشة الفرد، وتحوّله إلى كائن يعيش تمزقاً واضحاً بين الخوف واليأس، في مواجهة آلة قمعية، لا ترحم أحداً. الآن، وبعد مرور عقود على صدور هذا العمل، ما زالت أسئلة النضال والصمود حاضرة بقوة، وما زال الإنسان يصارع منظوماتٍ سياسية وفكرية واجتماعية، تسعى دوماً لترويضه أو إسكاته. المشكلة ربما في قدرتها على إعادة تدجينه، وبالتالي تحويله إلى نسخة قد تكون أكثر شراسة ووحشية منها، ما دام المحرك شهوة هادرة اسمها: الانتقام».

رشيد بناصر – المحاضرة الحادية عشرة – الأربعاء 22 أبريل 2015

التعريف الأول:

الشرف

لغةً: العلوّ والرفعة، ويُقال «شَرُفَ المكان» أي ارتفع، و«شَرَفُ النفس» أي تميزها بالعزة والكرامة.

واقعاً: خصلة يتبناها الجميع علناً، ويساومون عليها سرّاً.

*

جلستِ في الزاوية ذاتها التي ترتادينها منذ فترة ليست ببعيدة. حانة قديمة قريبة من شارع 20 نوفمبر في العاصمة مكسيكو، التي اعتادت صخباً لا يهدأ، ما أدرج الخلود إلى النوم ليلاً في خانة أخطر محرماتها.

اتشح المكان بإنارةٍ خافتة، لكنك تحفظين كلّ تفاصيله: وجوه الزبائن المترددين على المكان، النادل العجوز الذي لا تفارقه سيجارته، ورائحة الخمور التي تختلط بأصوات الموسيقى.

تبرز في الخلفيّة لوحاتٌ جدارية باهتة الألوان، قد تعبّر إما عن عراقة أو أفول هذه المدينة، التي تحمل كل زاوية فيها سلسلة حكايات لا بداية لها ولا نهاية.

خلف البار، تعمل صديقتكِ يولاندا، التي تطلقين عليها لقب «الذاكرة الحديديّة». لا تشرب قطّ، ومع ذلك تُقدِّم للزبائن ما يريدون بمهارةٍ مُدهشة. تضبطينها بين الحين والآخر، وهي تحملق في الوجوه، كأنّها تُخزّن ملامح الزبائن في ذاكرتها التصويريّة. تدير ظهرها لتُناول

أحدهم مشروبه بدقّة، ثم تلتفتُ إليكِ من جديد بعينين فطنتين، كأنّها تُحذِّرك من شيءٍ، أو تطرح عليكِ سؤالاً صامتاً حول سبب حضورك الليلة، والمآل الذي انتهت إليه الليلة السابقة.

لطالما بحثتِ دوماً عن مسميات مختلفة لمهنتك، لكن تحوير اسم المهنة لن يغير أبداً حقيقتها:

أنتِ بائعة هوى.

هكذا ببساطة...

مكتبة
t.me/soramnqraa

لا داعي للحديث عن تعقيدات ماضيك، المهم أنك وجدتِ نفسكِ في هذا الطريق، تقنعين نفسك أن ذلك السبيل الوحيد لكسب قوتك، وأنك تتجنّبين قدر الإمكان خطر الانزلاق نحو فخاخٍ أسوأ.

الشوارع الليلة غارقةٌ في سطوع أضواء النيون، سيّارات الأجرة تجوب الطرقات بلا انقطاع، والموسيقى تنبض في كلّ حيٍّ تقريباً. يبحث بعض السيّاح عن متعةٍ عابرة، فيما يشرب بعض أهل المدينة لنسيان تعب يومٍ مضنٍ في العمل.

أمّا أنتِ، فكلُّ ما يعنيكِ هو تسديد إيجار منزلك، والحفاظ على الحد الأدنى من متطلبات مستواك الاجتماعي الجديد.

وبينما انشغلتِ بإزاحة خصلةٍ من شعركِ، وتقليب الكوب نصف الفارغ بين يديكِ، أتاك اتصال على هاتفك النقال. ظهر اسم لويس على الشاشة، فأطلقتِ تنهيدة اعتاد جسدك عليها في مواقف مماثلة.

تعرفينه جيّداً، فقد تعاملت معه في أكثر من مناسبة سابقة. أتاك صوته واضحاً رغم ضجيج المكان:

- مرحباً، هناك عمل خاص ينتظرك الليلة، هل أنت متاحة؟

رفعت رأسكِ تلقائيّاً، رغم أنّه لا يراكِ، وأجبت بصوتٍ أقرب إلى الهمس:

- أتقصد مهمة جديدة؟

كلّما احتاج لويس إلى خدمة خاصة اتصل بك أنت. هل هذا مدعاة للفخر إذن؟ لا علم لك، لكن المهم هو دفعه مالاً وفيراً، وإن تعلق الأمر بمهمات خارجة عن المألوف. كلفك آخر مرة بمراقبة أحدهم في ملهى ليبرتداد، وها هو اليوم يُخاطبكِ من جديد، بذات النبرة الرتيبة:

- ستذهبين إلى فندق بانوراما، حيث ينزل هناك شخص ما، أريدك أن تحصلي على حقيبة سوداء بحوزته. لا يهمّك ما بداخلها، بل إحضارها لي في أقرب وقت.

لا تسألين عادةً عن التفاصيل؛ جرّبتِ ذلك من قبل، وفهمتِ أنّ الإجابات لا تزيدكِ إلّا قلقاً. لكنّكِ مع ذلك تسألين:

- كيف أصل إليه؟

- اذهبي إلى موظّف الاستقبال في بهو الفندق. فقط اذكري له اسمي، وأنك أتيت للقاء المغربي. حينها سيعطيك اسم الشخص ورقم غرفته. اصعدي إليه، وتدبّري أمرك بعد ذلك.

أنهيتِ المكالمة وابتسمت بطريقةٍ أوحت بأنّكِ على وشك ترك الحانة في أقرب لحظة. لمحتك يولاندا من خلف البار، وأشارت إليكِ بحركةٍ بسيطةٍ من حاجبها، كأنّها تسألكِ إن كنتِ على ما يُرام. اكتفيت بإشارة يدٍ سريعة، ثم وضعت ثمن مشروبكِ على الطاولة ونهضت.

عندما غادرتِ الحانة، عانقتك رطوبة الليل. تجاوزتِ في طريقكِ مجموعةً من الشبان، يلتفون حول موسيقيٍّ جوّال يعزف على الغيتار، واستوقفتك رائحة الذرة المشويّة في عربةٍ صغيرةٍ يدفعها رجلٌ مسنّ. ثم أشرت بيدك إلى سيارة أجرة.

حدّق بكِ السائق في المرآة بنظرةٍ لا فضول فيها. أخبرك أن وجهتكِ في منطقةٍ تُعدّ مقصداً للسيّاح المترفين، حيث الفنادق الفاخرة

والمطاعم الراقية. تأملت الأبنية العالية الزجاجيّة التي أضاءت واجهاتها بألوانٍ متغيّرة، ورأيت انعكاس وجهكِ مراراً في الزجاج. وتساءلت عن سر هدوئك الظاهري رغم التوتّر الذي تسرب إلى داخلكِ.

توقّف السائق أمام الفندق المشار إليه. ناولتِه الأجرة، ودلفتِ إلى البهو الفسيح. شعرتِ بانخفاضٍ مفاجئ في درجة الحرارة بفعل التكييف القويّ، وصدمتك رائحة عطورٍ باهظة الثمن. بالكاد بدأت تتعودين على فخامة مماثلة.

تقدمتِ نحو موظّف الاستقبال الذي وضع على صدره بطاقة اسمٍ ذهبية اللّون. ابتسم فبادرته بثقة اعتدت عليها:

- أرسلني لويس، أتيت للقاء المغربي.

بدا عليه بعض الاضطراب عند سماعه للاسم، لكنه رد على الفور:

- ينزل المغربي في الغرفة رقم 305.

شكرتِه ثمّ تقدمتِ بخطى واثقة، ميّزها أكثر الكعب العالي لحذائك.

ركبتِ المصعد ووصلت بسرعة إلى الطابق المطلوب، حيث يوجد ممر طويلٌ هادئ الإضاءة. مررت على بعض اللوحات المعلّقة التي تصوّر مناظر طبيعيّة مكسيكية: شواطئ، وغابات كثيفة من جنوب البلاد. خلف باب ما، تناهت إلى مسامعك موسيقى ناعمة، دلّت على أن سائحاً ما قرّر أن يمضي ليلته بانفرادٍ، أو بصحبةٍ ما، من يدري...

ثم وصلتِ إلى الغرفة المطلوبة، كما أشار موظف الاستقبال. تذكرت وعد لويس بالمبلغ الكبير، وتخيلت اقتراب تحررك من دوامتك. قد تتمكّنين من الانتقال إلى مسكنٍ أفضل أو سداد ديونكِ المتراكمة.

لا مكان الآن للتردد. عليك إنجاز المهمة.

رفعتِ قبضتكِ بخفّةٍ لطرق الباب، وسمعتِ صوت حركةٍ في الداخل، خطواتٌ تسير باتّجاهكِ ببطء. تُحاولين ترتيب أفكاركِ: ماذا

ستقولين؟ كيف ستتصرّفين؟ قد تستغلّين دوركِ المعتاد لتشتيت انتباهه، وقد يكون بانتظارك فعلاً.

وبينما داهمتك الأفكار، فتح الباب فجأةً، وظهر رجل في الأربعين من عمره، متوسط القامة، عادي الملامح، يضع نظارة، تبدو خلفها عيناه الحائرتان.

أدركتِ بسرعة أنه لم يكن ينتظر قدومك، فتسارعت كلماتك في جملٍ قصيرةٍ مدروسة بالإنجليزية:

- مساء الخير، أنا مكلفة من الفندق بتفقّد تفاصيل إقامتك، قيل لي إنك قادمٌ من الخارج ولا تعرف الكثير عن المدينة، وقد تحتاج إلى مرافقة لمساعدتك في تجوالك، وتعريفك على معالم المدينة، وقضاء أغراضك.

الجملة ذاتها، التي بدأت بها أكثر من مرة، في مواقف أخرى، فكان الرد دوماً ابتسامة تواطؤ تشي بفهم المغزى والقصد الحقيقي، بعيداً عن الرسميات المضحكة.

لكن الرجل ظل على موقفه، فلا هو صرفك، ولا هو ابتسم كالآخرين، فقط واصل نظره طويلاً إليك، قبل أن ينهي صمته أخيراً بردّه الواضح، وبإسبانية سليمة:

- حسناً، لا بأس، تفضلي...

تقدمتِ العتبة بخُطى حذرة، وقد تلاقت نظراتكما لثوانٍ قليلةٍ؛ لم تلمحي فيها سوى اللامبالاة الغريبة، فراودك الشك، لكنك احتميت بخبراتك، وتمكنك من تحقيق أهمّ خطوةٍ في طريقكِ نحو تنفيذ مهمتك: الدخول إلى غرفته، دون إثارة ريبةٍ كافية لطردكِ...

*

التعريف الثاني:

الخيانة

لغةً: من «خان»، أي غدر ونقض العهد بعد توثيقه.

واقعاً: سلوك مدان أخلاقياً عندما يرتكبه الآخرون، و«دهاء» أو «حنكة» عندما يخدم المصالح الشخصية.

*

دخلتِ الغرفة بخطواتٍ متردّدة، وقد اختلط في داخلك الترقّب بالاستغراب. تتوقعين عادة تصرّفاتٍ محدّدة في مثل هذه الحالات: مزيج من اللهفة أو التوتّر. لكنّ النظرة في عينيه كانت مختلفةً تماماً عمّا اعتدته. أراد أن يطمئنّ إلى جلوسك أوّلاً، فأشار نحو الأريكة الوثيرة في زاوية الغرفة، وعندما مسحتِ المكان بنظرة سريعة مدربة، رأيتِ فوراً حقيبة سوداء صغيرة، تستقر فوق فراشه.

بدا الصمتُ ثقيلاً لحظتها. أردتِ القيام بما اعتدت عليه؛ الاقتراب، المغازلة، بعض الحركات المغوية، تلطيف الأجواء بموسيقى هادئة، لكن شعوراً ما في أعماقك أكد بحثه عن شيء آخر، لا علاقة له بالجسد.

عندما رفعتِ بصرك لملاقاة نظراته، باغتك سؤاله، وإن كنت تتوقعينه قبل ثانية واحدة:

- هل يسمح وقتك بالاستماع إليّ؟

ها قد أيقنتِ أن الأدوار قد انقلبت، فأنت معتادة على الحكي،

وابتكار القصص، واختراع الأكاذيب الجميلة، التي يحلو للزبون سماعها، لكنه يريد العكس: أن يحكي هو، وأن تستمعي أنت.

للحظةٍ خلتِ أنّه يمازحك، لكنّ ملامحه الجادّة أنكرت ذلك.

قال لك بنبرةٍ هادئةٍ تتخللها مرارة، وبذات اللغة الإسبانية السليمة:

- لستِ مُجبرةً طبعاً. بإمكانكِ المغادرة متى شئت.

استعاد عقلك طبيعة مهمّتك: تلك الحقيبة السوداء، والمبلغ الذي ستجنينه فور تسليمها للويس، لكن نظرات الرجل، وصوته، وهيئته كلّها أحاطتك بسياجٍ من الفضول.

يريد أن يتحدّث، فليكن، اسمعي حكايته أوّلاً، وقد تلوح فرصة اقتناص الحقيبة في لحظة غفلةٍ أو ثقة.

جلستِ إذن وأخذت وضعية المستمع. كذلك هو، جلس على المقعد المنفرد، ثم تنفّس بعمقٍ، وبدا كأنّه يعود بذاكرته مسافاتٍ طويلةٍ إلى الوراء، واستهلّ كلامه بصوتٍ أقرب إلى الهمس:

- وُلدتُ في قريةٍ جبليةٍ صغيرةٍ بضواحي مدينة اسمها إفران، في أعالي جبال الأطلس المغربية. بالتأكيد لم تسمعي عن هذه المدينة، بثلوجها وطبيعتها الآسرة، لكنّ القرى النائية حولها لم تكن بمثل ذلك الحظ.

راقبتِ قسمات وجهه. بدا كمن يسترجع صوراً ألمّت بقلبه أكثر ممّا أبهجته.

- هناك، في بيتٍ متواضعٍ مبنيٍّ من الطوب والأخشاب، عشتُ طفولتي الأولى. أسمع صراخ أبي يتداخل مع سعال أمّي المتواصل. مرض مزمن أنهك جسدها عاماً بعد عام. فاعتاد والدي على ملاحقة ومعاشرة أجساد أخرى، أكثر نضارة وشباباً...

تنهّد بعمقٍ، كأنّ مجرّد إعادة السرد يستنزفه عاطفيّاً، وحاولتِ أنت تجنب إظهار أي شفقة مبتذلة.

- ازدادت علّة أمّي سوءاً عندما علمت بخيانات أبي المتكررة. واستسلمت لقدر حرمها وجود إخوة وأخوات ينصرونها. لا أدري إن كان الألم الذي عصف بقلبها قد عجّل بوفاتها، أم إن السبب كان إغلاق مستشفى الأمراض الصدرية القريب ببن صميم. ما أعرفه جيّداً أنّها رحلت، وتركتني مع أبٍ لا ينظر إليّ إلّا باعتباري عقبةً في طريق حياة جديدة، عنوانها المزيد من العبث.

زاغت نظراته، كأنما يستعيد المشهد عبر شاشة، ثم أكمل بصوتٍ أجشّ:

- لم يكَد يمضي عامان على زواج أبي من امرأة أخرى حتى عادت أسطوانات الشجارات والإهانات المتبادلة بينهما، بل إن هذه المرأة حازت من القوة الجسدية ما مكّنها من التغلب عليه أكثر من مرة. ألم يرد جسداً موفور الصحة، مثيراً للغرائز؟ فليدفع ثمن ما أراد إذن...

ندت منك ضحكة مفاجئة، فاحمرت أذناك خجلاً، وانفتحت شفتاك بحثاً عن اعتذار، لكنه أوقفك بحركة من يده، مكملاً:

- بلغتُ الثانية عشرة من عمري، وقد عزمت أكثر من مرة على الفرار، دون أن أجرؤ على التنفيذ بُحكم صغر سنّي وخوفي من المصير المجهول، إلى أن أتى يومٌ طردني فيه هو بعد مشاجرةٍ حادّة، فوقفتُ عند عتبة البيت، بملابسي الرثّة وبعض دفاتري القليلة، لا أدري أين أذهب.

توقّف قليلاً، فتساءلتِ في قرارة نفسك عن سر رغبتك في الاستزادة أكثر، لكنه تابع:

- ذهبت عند عمّتي في قريةٍ مجاورة، فآوتني لأيام، لكنني فهمت أنها تكافح بالكاد لإعالة نفسها، ثم دلّتني على عنوان عمّي الطاهر في الدار البيضاء، أكبر مدينة في المغرب، حيث الفرص والعمل والدراسة، وكلنا نعلم أنه بنى لنفسه ثروة هناك، مفضّلاً نسياننا جميعاً، فلم أجد

بداً من المحاولة، قد أبدأ هناك حياةً جديدة، وقد يتغير مصيري فعلاً. عانقتني عمّتي وهي تضع في جيبي ما يعادل ثمن الرحلة الطويلة، ثم ودعتني بعينين دامعتين.

تعالى صوته قليلاً، مع بروز أسى واضح في ملامحه:

- ذهبتُ إذن إلى منزل عمّي، وعندما استمع إلى قصتي، قبل ببقائي وإن على مضض، قال إن شقيقه تجاوز كل الحدود، لكنّه وضع لي شروطاً صارمة: أن أساعده في تجارته إن أردت استكمال دراستي، وأن أتدبر مصاريفي فور بلوغي السن القانونية.

لمعت عيناه بشيءٍ أشبه بالاعتزاز الذاتي:

- تعرّضتُ لصنوف الإهانات والتعنيف، لماذا تنافس عمّي وزوجته وأبناؤه في قسوتهم عليّ؟ هل كنت غريباً إلى هذه الدرجة؟ لكنني صبرتُ، وأغظتهم بطريقتي الخاصة، مواصلاً تفوّقي الدراسي.

اختلستِ نظرةً تارةً إلى تعابير وجهه، وتارةً أخرى إلى الحقيبة السوداء، وتساءلتِ عن سر ارتباط هذه المحطات القاسية بالحقيبة السوداء ووجوده حالياً في مكسيكو، وعندما اختلست نظرة عبر النافذة، التي تحفها ستائر مخملية، خيّل إليك أن المدينة بأسرها قد صمتت رغبة منها في الاستماع إلى قصة هذا الغريب الذي أتاها من بعيد.

- إذا كان فيكِ صبرٌ بعدُ على الحكاية، فابقي معي، وإلا فلا بأس. بالمناسبة، سأدفع لك ما تريدين.

اعترتك الدهشة، وتشتّت ذهنك بين المهمة المطلوبة منك، ورغبتك في مواصلة قصته، فآثرتِ البقاء، خاصة وقد قرأتِ في نظراته المتأمّلة ما يفيد أن في جعبته الكثير...

*

التعريف الثالث:

الذاكرة

لغةً: يُقال «ذو ذاكرة قوية» لمن لا ينسى، و«ذاكرة التاريخ» لما يُحفظ من أحداث الأمم.

واقعاً: سلعة تُعاد كتابتها حسب الحاجة، تُحذف منها الحقائق المزعجة، وتُضخَّم فيها الأكاذيب.

*

اعتدل في جلسته، وأراح ذراعيه على مسندي المقعد، ثمّ قال بنبرة خفيضة، دون أن يكلف نفسه عناء النظر إليكِ:

- صبرتُ على مضايقات عمّي وأبنائه. قد أستيقظ فجراً لأساعد في تنظيف محلّه أو نقل البضائع الثقيلة، ثمّ أغادر مسرعاً إلى الثانوية. لم يكن يسمح لي بالعودة إلى البيت إلّا بعد إغلاق المحل مساءً، فأرتمي في فراشي مُنهكاً. ومع ذلك، حافظتُ على تفوّقي، ورغبتي في تعلّم اللغات. أحلّ مسائل الرياضيات في ذهني وأنا خلف طاولة المحاسبة، أو أستظهر أشعاراً فرنسية قبل نومي.

شعرت أنك في أقصى درجات انتباهك، وأنت تُصغين إلى كلماته، وقد اندمجتِ تدريجياً مع سرده:

- لم يصدق أحد حصولي على الشهادة الثانوية، ونسمّيها نحن الباكالوريا، بذلك المعدل المتفوق. اكتفى عمّي بنظرة استغرابٍ وكلمةٍ

باردة. لكنّ دهشة نظرته أشعرتني بفخرٍ كبير. فقد انتصرت ولو جزئياً على القسوة التي طاردتني منذ طفولتي.

قلتِ في سرّك إنها قصة مألوفة عن النجاح بعد تجاوز الصعاب، قد تسمعين مثلها مراراً، وبأشكال مختلفة، فتشوقت أكثر لمعرفة ما سيتلوها.

– عاكستُ رغبة عمّي في دراستي للمحاسبة أو الاقتصاد، لعله يستفيد من دراستي في تطوير تجارته، واخترتُ الآداب. التحقتُ بكليّة الآداب والعلوم الإنسانية في الدار البيضاء. وراوغت لتجنب أي فرصة يستغلها لطردي من بيته.

ارتسمت على شفتيه ابتسامة مرة:

– بين الأعمال المتنوعة والتحصيل اليومي، كدت أستسلم للضغط، لكنّني كنتُ متعطّشاً لكلّ معلومةٍ عن الآداب العربية والعالمية، فقادني ذلك إلى التخصص في الأدب المقارن. قرأتُ رواياتٍ حديثة، وتعمّقتُ في فهم الكلاسيكيات. وجدت في القراءة هروباً مثالياً من واقعي.

الهروب...

راودكِ إحساسٌ بأنّكِ تُشاركينه بعض ملامح هذا الوجع، والرغبة المتواصلة في الهروب، لكنك واصلت الاستماع:

– التقيتُ خلال سنوات الدراسة الجامعية بأستاذٍ صار فيما بعد مُشرفاً على بحث تخرّجي. وقد أبهرني بتميزه: كان ضليعاً في عدّة لغاتٍ، منها الإسبانية، وعمل لسنواتٍ على أرشيفاتٍ متفرّقة. اكتشفَ شغفي بالقراءة والبحث، وأدخلني تدريجيّاً إلى عالم غريب عني، عنوانه تدقيق وتحقيق المخطوطات القديمة. فرحت في البداية بدعمه لي، ثم اكتشفتُ أنّه يستغلّني في مهام قاسية من دون أدنى مقابل.

الاستغلال...

مرة أخرى بدا أنه أقرب إليكِ مما كنت تتصورين، رغم تباعد عالميكما...

- مشكلته أنه لم يرَ في تميزي سوى ما يخدم مصلحته، ولم يصور له غروره أنه فتح لي، بدون قصد، باب الدخول إلى عالمه السري. كنت ألاحظ أنه يكلفني بتدقيق مخطوطات أندلسية ومغربية، لا يظهر لها أي أثر في مقالاته وأبحاثه المنشورة باسمه، فاسترعى ذلك انتباهي، وحافظت على أسلوبي في الصمت والإذعان، إلى أن تتبعت الخيوط، واكتشفت باباً مشرعاً على تجارة سرية بالمخطوطات النادرة. رأيتُ كيف تُهرَّب بعض الوثائق إلى الخارج، أو تُباع بأسعار خيالية تحت الطاولة. رأيت كيف ترقّى هو في السلّم الاجتماعي بهدوء، وتبيّن لي أن جوانب من تاريخ بلدنا تبقى مرمية في رفوفٍ منسيّة، فيأتي من يستغلها ويعيد بيعها في بورصة خفية عن الأنظار.

استيقظ في أعماقكِ صوت يتوقع بداية تشكّل علاقة بين ما يحكيه، ومحتوى الحقيبة المنشودة، أما هو فمرّرَ كفّه على جبينه، كمن يسعى لتنشيط ذاكرته، واستأنف:

- وكانت تلك نقطة التحوّل الأبرز. بتُّ أكثر وعياً بخفايا هذا العالم الغامض، وحافظت في الآن ذاته على دور الأبله الذي لا ينفّذ سوى ما هو مطلوب منه. وبدأت أتلمس تقدّمي عندما وقع في يدي مخطوط لسفير مغربي من القرن السابع عشر، كشف فيه أسراراً غير معروفة، سكت عنها في كتاب معروف له، ويفصح في مخطوطه السري عن لغز مخطوط آخر، لتبدأ رحلة طويلة وغريبة، امتدت لأعوام، لكنها وصلت ربما إلى نهايتها، هنا في مكسيكو.

شعرتِ أن الخيوط بدأت تفلت من يدك، رغم تلميحه إلى سبب قدومه إلى بلدك. حاولتِ التماسك، وعاد بك نظرك إلى الحقيبة، واستجمعت قواك لمواصلة المتابعة:

- راسلتُ أساتذةً وباحثين داخل المغرب وخارجه، وأتقنتُ الإسبانية إلى جانب الفرنسية والإنجليزية. صرت قادراً على التمييز بين الباحث الصادق والسمسار المريب؛ فكانت لعبة التلميح والتصريح بين من يريد عرض أو بيع مخطوط شبيهة إلى حد بعيد بأدوات عالمك أنت...

صعقتكِ جملته الأخيرة، وجحظت عيناك وأنت تنظرين إليه. كدت تنهضين بسرعة، للمغادرة والاعتذار للويس عن فشلك في مهمتك، لكن شيئاً ما ثبّت قدميك إلى الأرض بمسامير قوية، فيما واصل هو مبتسماً:

- لم أكن قد أنهيت دراستي بعد، عندما كلفني الأستاذ ذاته مرة بتدقيق مخطوط، ثم اللحاق به إلى مدينة طنجة، حيث يشارك في ندوة جامعية هناك.

هنا لمحتِ في عينيه بريقاً مميزاً معاكساً لتيار سرده، إذ لاح في عينيه كمن يستعيد ذكرى غالية.

- ركبتُ القطار، وتشاركت المقصورة مع غرباء لا أعرفهم. انزعجت بداية، لكنني فوجئت بانخراطي في أحاديث ثرية وعميقة عن شغفي الأصلي بالأدب، ويومها، في تلك الرحلة، سمحت لقلبي أن يخفق بحرية لأول مرة، وقد التقيت بحب حياتي...

ترصدتِ شبح ابتسامة على شفتيه، وفهمتِ أنّ حكاية هذا القطار غيرت مرة أخرى مسار حياته، ورسخت ربما لعلاقةٍ رسمت منحى ما تلاها من قراراتٍ وأحداث.

صمتَ بعدها لثوانٍ، انهمك فيها على الأغلب بلملمة شتات أفكاره، فنطقتِ لأول مرة بهمس خافت يخشى تبديد هدوء المشهد:

- بإمكانكَ المواصلة، إن رغبتَ في الحديث أكثر، فأنا هنا حاضرة مستمعة...

*

التعريف الرابع:

الحب

لغةً: الميل القلبي الشديد إلى شخص أو شيء، ويُقال «أحَبَّ فلاناً» أي وَدَّهُ وعَشِقَه.

واقعاً: عقدٌ غير مكتوب بشروط غير معلنة، وقد يُساء فهمه، فيفسر بوصفه امتلاكاً أو سيطرة.

*

رفعَ رأسه ونظر نحو السقف، كأنّه يُقلِّب صوراً قديمةً في ذهنه.

شعرتِ بتعلق روحك به تدريجياً، فثمة غموضٌ في حكايته يجذبكِ، وحميميةٌ في صوته تدفعكِ إلى مواصلة الإصغاء، حتّى وأنتِ على وشك نسيان مهمتك الأصلية:

– قد يُخيَّل إليكِ أنّ الفتاة التي التقيتُها في القطار هي التي غيّرت حياتي. قد يكون هذا صحيحاً، فلها دورها الأكبر بلا أدنى شك. وما هو الحب إن لم يقلب مصائرنا؟ لكنك قد تشعرين في أحيانٍ أخرى أنّ إنساناً واحداً أعجز من أن يغير واقعاً كاملاً وحده؛ هي منظومة كاملة أو عائلةٌ أو حتّى تقاطعاتُ مصائر. جلستُ يومها قرب شابةٍ جميلة المعشر، بدت متحدِّثةً ذكية، تتقاطع مع عالمي حيناً وتبتعد عنه أحياناً. شعرت عندئذ أنها تبحث عما يشبه هواء نقياً بعيداً عن تعقيدات مبهمة بين فاس وطنجة.

حاولتِ بالكاد تتبّع الأسماء التي يذكرها، ثم تجاوزتِها للحاق بسرده:

- لم يكن انجذاباً عابراً، بل قوة خفية تشدّني شداً إلى هدوء ملامحها وثقتها الواضحة بنفسها، رغم ما لامسته في عينيها من شرودٍ يوحي بتمرّدٍ ما. تحدّثنا طوال ساعات الرحلة: عن الأدب العالمي، والموسيقى، عن طنجة وباريس وأحلام السفر. وبوصولنا إلى المحطة فاجأتني بابتكارها طريقة ما لتمرير رقمها إليّ. عرفتُ أنّها ابنةُ أستاذٍ جامعيٍّ بارز، له حضوره الوازن في عائلة سياسية مرموقة.

عجزتِ عن تمالك فضولكِ، فتدخّلتِ متسائلةً:

- إذن فقد أثّر والدها أيضاً في مسار حياتك...

أومأ سريعاً، وبدا على وجهه خليطٌ من الامتنان والحيرة:

- بالضبط. أذكر أول لقاءٍ لي به في بيته الكبير المطلّ على البحر. تفحّصني بتمعّن، ثم سألني عن خلفيّتي الدراسيّة وأبحاثي. تحدّثنا نصف ساعة، قرّر بعدها فجأةً أن يُبقيني في محيطه. قال إنّ لديّ عقلاً بحثياً نادراً، وإنّه يحتاجُ إلى أمثالي في مشروعاته الأكاديمية، ما يعني استكمال دراستي معه، هناك في طنجة. لماذا فعل ذلك حقيقة؟ هل استشعر خطورةً ما في اقترابي من ليلى؟ المهم أن قراره هذا سحبني من هامش الدار البيضاء وذل العم، إلى مرحلة جديدة عنوانها طنجة وأسرارها.

أطلق ضحكةً قصيرةً، شعرتِ في طياتها ببعض الإحراج أو التهكم:

- الواقع أن الرجل مطلّق، تمزقت ليلى بينه وبين والدتها الفاسيّة، سليلة عائلة أخرى لها نفوذها السياسي. بدا منغمساً في مغامرات عاطفيّة عابرة، يستخدم مكانتَه العلميّة والسياسية للتقرّب من بعض الطالبات، فوجدتني متورطاً، شيئاً فشيئاً، في تسهيل تواصله بهن. لم أكن فخوراً

بذلك، لكنّني سعيت لإيجاد موطئ قدم راسخ في عالمه، بما يمكنني من الفوز بيد ليلى، وربما خشيت استبعادي من حياته إن رفضتُ طلباته.

تكاثرت الأسئلة في ذهنكِ، فتشجّعتِ وسألتِه بنبرةٍ صادقةٍ:

- وهل كانت ابنته على علمٍ بتصرّفات والدها؟ وكيف تعاملتْ معك؟

ارتسمت على وجهه ابتسامةٌ مريرة:

- نظرة ليلى للأمور كانت مختلفة، فهي مشمئزة مما كان يفعله، لكن رفضها ارتبط بدرجة أولى بحرصها الحفاظ على سمعة العائلة. وهكذا فهمت أنها تحمل في أعماقها بذور طموحات سياسية ترث بها النفوذ والسيطرة. بدت لي أقرب لإنسانة بروحَين، تهفو الأولى للجمال والموسيقى والأدب، وتسعى الثانية للسلطة والقوة. وبين هذه وتلك، نمت عاطفتنا، وترسخت علاقتنا، وأيقن والدها ربما أن النتيجة المنطقية قادمة لا محالة.

رفعتِ طرف حاجبيكِ بإشفاقٍ، ولاحظتِ كم هو صادقٌ في انفعالاته، خاصة عندما قال:

- بمرور الوقت، لان تجاهي، وزادت ثقته بي في كل شؤونه الأكاديمية، فرحتُ أعدّ أبحاثاً فرعية، وأسهر على صياغة محاضراتٍ باسمه، وأرتّب أرشيفه الذي يحوي مراسلاتٍ سياسيةً وتاريخيةً مهمة، شكلت أمامي تكملة لخفايا العالم السري الذي شرعت أكتشفه مع أستاذي في الدار البيضاء.

ثم ضحك فجأة مردفاً:

- وهكذا تمّ لنا ما أردناه. تزوّجتُ ليلى وأنا بعد غير مصدق. لقد استطاع ابن الأطلس الفقير أن يضع خاتم زواج في إصبع ليلى الصادقي،

سليلة العائلة السياسية القوية. عالمٌ جديدٌ فُتح أمامي، ومعه تحدّياتٌ لم أحسب لها حساباً.

لاحظتِ لأول مرة أن علامات الإرهاق بادية عليه. والتقطت عيناك علبتي دواء فوق الطاولة المحاذية للسرير.

هل هناك قصص أخرى أكبر؟ إذ لم يُنهِ الحكاية ولم يفسّر لكِ بعد كيف انتهى به المطاف في المكسيك حاملاً حقيبةً سوداء.

هل يستمرّ بكِ المطاف في الإصغاء إلى فصولٍ أعمق في حقبة ما بعد الزواج، أم ستحين لحظةُ انتزاع الحقيبة وإتمام مهمّتكِ؟

ما زلتِ غارقةً في رغبةٍ مُربكةٍ بين تحقيق غايتكِ، واكتشاف تشظي ذلك القلب بين ماضٍ عاثرٍ وحاضرٍ لا يقلّ تعقيداً، فما لبثتِ أن نهضت، واقتربتِ منه بخطى وئيدة لا إغراء فيها، ووضعتِ يدكِ برفقٍ على كفّه، ونظرتِ إليه هامسة:

- أكمِل، ما زلت أسمعك...

*

التعريف الخامس:

السلطة

لغةً: القوة المخوَّلة لاتخاذ القرارات وفرضها، ويُقال «ذو سُلطة» لمن بيده الحكم أو القرار.

واقعاً: أداة يُبرَّر بها كل شيء، أشهى من أي إغراء، حتى لمن بدأ حياته بمحاربتها.

*

ما عادت نظراته كما في بداية اللّقاء، بل صار يتفحّص ملامحكِ كأنّه يسأل نفسه إن كنتِ قادرةً على استيعاب كلّ ما سيُقال. وأنت تتضارب أحاسيسك بين الإعجاب والدهشة والريبة أحياناً.

تنحنح قليلاً ثم واصل:

– بعد زواجي بليلى، تراءت لي الحياة وكأنها تُعيد ترتيب نفسها بما يخدمني. امتلكتُ أسرار السي عمر، ولم يكن يتحرّك دون استشارتي. أمدّه بالمعلومات الدقيقة عن المؤسّسات واللجان الأكاديميّة، وأرتّب له الاجتماعات السرّية مع شخصيات أخرى مؤثرة في دهاليز الجامعات والمصالح السياسية. وفي المقابل فتح لي الأبواب التي ظلت موصدة دوماً في وجه أمثالي، القادمين من خلفيات متواضعة.

أطرق ببصره، كأنّه يعود بذاكرته إلى خريطةٍ معقّدة من العلاقات والتوازنات، ثم تابع:

- صار الموضوع أشبه بلعبةٍ خفيّةٍ بيني وبينه، حيث يعرف كلٌّ منّا ما نقاط ضعفِ وقوّة الآخر، لكنّنا متوافقان على التعايش؛ أو بالأحرى التواطؤ. هو يحتاجُ إلى دهائي وتحليلي الدقيق لشخصيّات زملائه وأعدائه، وأنا أحتاجُ إلى نفوذ عائلته لأعبر إلى صدارة المشهد الجامعيّ. أنهيتُ أطروحتي بدرجةٍ مشرِّفة، وتزامن ذلك مع ترقيته هو ليُصبح عميداً للكلية. ظنّ الجميع وقتها أنه عيّنني أستاذاً مساعداً، لكنّ الحقيقة أعقد من ذلك بكثير.

رفعتِ حاجبيك عندما قال ذلك، فسألتِه بنبرةٍ لا تخلو من دهشةٍ صادقة:

- ماذا تعني؟ أليس هذا هو منطق الأمور؟

فجاء ردّه بابتسامةٍ باهتة:

- نظرياً، أنا من عيّنته في منصب العميد؛ لإمساكي بخيوط كثيرة خلف الستار. حزت وثائق وتسجيلات دارت بينه وبين مسؤولين كبار، وتتبعت أدق تفاصيل شؤونه الماديّة والنسائيّة، وإن اضطر للتقليل من «أنشطته» العاطفية مع بروزه في المنصب الجديد. أخفيتُ كلّ ذلك تحت غطاء الولاء والصمت. كم كان منيف صادقاً عندما قال في **شرق المتوسط** إن الصمت دواء، وقد تعلمت تجرُّع هذا الدواء في كل الأوقات.

نظرتِ إليه في تساؤل، لعله يشرح لك معنى عبارته الأخيرة، لكنه لم يفعل، عائداً بسرعة إلى حكيه:

- خلف جدار الصمت، صرتُ أوجِّه قراراته، وظل هو حريصاً على إرضائي، بين حبه لابنته ومعرفته بقدرتي على تحريك أوراق كثيرة ضده.

اتّسعت عيناكِ في ارتياع، ها قد تحوّل الفقير المطرود من بيت

والده في قرية بعيدة إلى داهية قادرٍ على تطويع مَن يفوقه عمراً وخبرةً وسلطة. تراءى أمامك حصدَ كلّ ذلك بفضل طموحٍ لا يعرف حدّاً، وذكاءٍ متقد لم تضعف جذوته.

تابع حديثه ببديهية الواثق:

- سرعان ما اكتشف زملاء الكليّة أنّ لي يداً في القرارات الرئيسة، فصاروا يتقرّبون منّي. آخرون أيقنوا أنّ وجودي تهديد صريح لهم، فدخلتُ سلسلة صراعاتٍ ونزاعاتٍ، خرجت منها كلها منتصراً لسبب بسيط: حبي لمهنتي وتخصص الأدب المقارن الذي أدرّسه لطلبتي، وقدرتي على اكتشاف النابغين منهم، والقادرين على مسايرتي في البحث والتحصيل بما يفيدني، فلا رغبة لي في تحمّل الفارغين المداهنين. ظل خصومي ينظرون إليّ باستياءٍ، كيف لشابٍّ لم يبلغ الأربعين بعدُ أن يلمع في تخصّصه ويتحكّم هكذا في شؤونهم؟ صرتُ محور جدلٍ دائمٍ، فتعزز نفوذي أكثر.

ثم سرعان ما عاد إلى نظراته الغائمة القلقة:

- لكل شيء ثمنه. أهملتُ ليلى، رغم أنها أحبتني بصدق، ولامتني لغياباتي الطويلة. كنت أقول هذه هي طبيعة المرحلة. لكنّ الحقيقة أنّ كلّ ما فعلتُه كان لنفسي وحدها. في خضمّ هذا الاندفاع، لم أخنها قط، ولا رغبتُ في ذلك أبداً. ربّما بسبب ما حملته نفسي من قيمٍ قديمة، أو لمتانة مشاعري نحوها، لكن معركة الحب والسلطة محسومة النتيجة. انكسر قلبها يوماً بعد يومٍ إثر إهمالي، فما كان منها إلا دخول اللعبة، وبطريقتها الخاصة.

تمتمتِ، بلا وعي منك ربما، سؤالاً غريباً:

- مَن أنت؟

ارتعش جفناه حين سمعك، كأن إدراكك قد صدمه، وردّ بحذر:

- أنا رجل أُجبر على التأرجح بين الأضداد...

شعرتِ بقلبك يتخبّط في ثنايا صدرك. قدّم لك نفسه بداية كضحية للاستبداد، ثم ها هو الآن يعترف باستبداده. تملّكك مزيج مربكٌ من الإعجاب والقلق والخوف. عجزتِ عن تحديد موقفك، وعقلك يصرخ مذكراً بأنّكِ ما جئتِ هنا أساساً إلّا لأخذ تلك الحقيبة والمضي بعيداً.

علّمتكِ «وظيفتك» أن مظاهر البشر خادعة، وأنهم ينهارون كالسيل إن هم استسلموا لشهوة البوح، لكن لم يسبق لك معاينة هشاشةٍ بعُمق ما رأيته في هذا الرجل.

اكتفيتِ بالنظر إلى وجهه المحمّل بالأسرار. لقد سقطتِ في شباك قصّته بالفعل. ما عدتِ مجرد بائعة هوى تنفّذ مهمات خاصة بمقابل محدد، بل إنسانة مُحمّلةً بتعاطفٍ وخوفٍ وانبهارٍ أمام تعقيدات رجل لم تعرفي بوجوده قبل ساعات قليلة فقط.

رفعتِ عينيك نحوه في حيرةٍ، فيما علا صوتُ أنفاسه تعبيراً ربما عن وجود ثقلٍ آخر ما زال يُرخي ظلّه على حكايته، فانتظرتِ المواصلة، وعينك على اقتراب الحسم...

*

التعريف السادس:

الإخلاص

لغةً: يُقال «أخلص لعمله» أي أدّاه بإتقان ووفاء، و«إخلاص في الحب» أي تفانٍ دون خيانة.

واقعاً: فضيلة نبيلة يطالَب بها الخدم والأتباع، وخيار انتقائي عند أصحاب السلطة والنفوذ.

*

طأطأ رأسه، وخُيِّل إليكِ أنّ دمعة توشك أن تفر من عينه، لكنّه سرعان ما تداركها. أراح ذراعيه على ركبتيه، وواصل حديثه بنبرة مبحوحة، وقد التقطت حدساً يشي أن القادم أشد إيلاماً:

- دخلت ليلى بكل قوّتها وعنفوانها في حقل السياسة ودهاليزها، مستفيدة على وجه الخصوص من نفوذ عمّها، الممسك الرئيس بزمام الحزب. فصار غيابها عن البيت معتاداً، واكتشفتُ أنا رسائل بريديّة ومحادثات مع رجالٍ مختلفين. بعضهم عملاء من شركاتٍ أوروبيّة تُترجم لهم تقارير وملفات قانونية، وآخرون مسؤولون في هيئات ثقافيّة. ووجدتُ عباراتٍ مواربةً أشعلت فيّ نار الغيرة والريبة، دون أن أجد دليلاً يحركني مباشرة.

لم تجدي كلماتٍ مناسبةً لمواساته، فاكتفيتِ بالتحديق في وجهه بثبات.

- ثم حملَتْ بابنتنا صابرين. أقنعت نفسي أن ولادتها ستعيد الربط بين قلبينا. فأنا ما زلت إنساناً لم يفقد حساسيته ومشاعره بعد، وكم كنت أشعرُ بسعادةٍ شبه طفوليةٍ كلما لامست بطنها، متخيّلاً ملامح طفلة صغيرة تملأ البيت بهجة وحبوراً. وُلدت صابرين، وتعلّقتُ بها حد العبادة. كانت تشبهها كثيراً، لكنني تحاملت على وساوس شك قاتلة. فمهما حصل، ما كانت ليلى لتخونني.

أرسل نظرةً ضائعةً إلى الجدار المواجه له، وهمس بنبرةٍ مؤلمة:

- لكنني عرفت لاحقاً عن طريق أحد أصدقائي في المختبر بإجرائها بعض التحاليل، بينها مقارنة عيّنتَي دم، واحتمال وجود شك في النسب. فاهتزت الأرض تحت قدمي...

وغصّت عيناكِ بالدموع في غفلة منك...

- ضيعتُ الكثير، وخسرتُ استقرار بيتي وقلبي في آنٍ واحد. لكن ليلى ووالدها نسيا من أكون، وكيف صنعتُ الاسم الجامعي المرموق لعمر الصادقي من لا شيء، كيف انشغلت بإغناء ونفخ وتضخيم ملفه الأكاديمي، فيما غرق هو وقتها في أحضان العشيقات. لا بدّ لي من الانتقام، والزج بهم جميعاً في هاوية مدمرة...

قلتِ بحذر، محاولةً تهدئته:

- تقصد أن بحوزتك تسجيلات لمغامراته الجنسية؟

ضحك باستخفاف، مجيباً:

- كلا، لقد صار هذا من الماضي، بيدي ما يمكنه نسف عائلتهم بالكامل. لطالما سعوا لأن يبدو كلّ شيءٍ مثاليّاً أمام الملأ. وكما تعلمين، فعائلة فيتو كورليون فكرة، والفكرة عابرة دوماً للعصور والقارات...

تسلّلتْ رجفةٌ عميقةٌ إلى أوصالكِ، مع تحوّله إلى العدائية الفجة، فقلتِ بفضول:

- ماذا هناك بالضبط؟

- خلال العمل مع لجنة استشارية تخص إعداد فيلم وثائقي عن جدّهم، مؤسس العائلة والحزب، اكتشفت العديد من المفاجآت...

- مفاجآت؟

- مهلاً، كل شيء بوقته...

- وماذا عن الطفلة؟ لقد أحببتها كما قلت. ألا تخشى أن تدفع ثمن هذه الحرب؟

فوجئ بتعليقك المباغت، فصمت. لقد فهم القصد جيداً، لكنه عجز عن التطرق إليه أو احتماله.

تلك الطفلة هي نقطة ضعفه الكبرى الآن.

علّق أخيراً ببطء:

- تعبتُ، آن لي أن أرتاح، من قال إن الرقص على الحبال لا يدمي قدمَي صاحبه؟ ومن قال إن خشبة مسرح النفاق محمية من الانهيار؟

حاولتِ ترتيب الأفكار المشتتة في عقلك، مُوزّعةً بين الإشفاق عليه والرعب مما يمكن أن يُقدِم عليه، وبين تذكّر دورك في الاستيلاء على حقيبته.

انتصب هو واقفاً فجأةً، بعد جلوسه طويلاً، ومدّ يده إلى مفتاح الإضاءة، كأنّه يستعدّ لختم ليلة طويلة. وما إن تراءى لك قطع مجرى السرد حتى عاجلته بسؤالك المنتظر:

- طيب، وماذا عن الحقيبة؟ وما علاقتها بقدومك إلى مكسيكو؟

التفت إليكِ مستنكراً، كأنما انزعج من نسيانه الحديث عنها، ثم لانت أساريره، مجيباً ببساطة:

- أتذكرين ما سردته عن قصة مخطوط سفير القرن السابع عشر؟

أومأتِ برأسك إيجاباً، فالتقط نفساً عميقاً، كمن يستعد لإلقاء خطاب أخير، وبدأ:

- هي باختصار رحلة دامت عندي اثني عشر عاماً، فيما يتجاوز عمرها الحقيقي قروناً. وصل إلى يدي مخطوط السفير، عبر وسيط عرفته وقتها. يكشف السفير فيه جانباً غير معروف من رحلته إلى إسبانيا، ووصوله إلى الاطلاع على مخطوط غامض يبدو أنه ينتمي إلى الحقبة الأندلسية أو الموحدية في المغرب، وسُرق ضمن ما سُرق من مكتبة استولى عليها الإسبان في عرض البحر بدايات القرن السابع عشر. فجأة تقفز عجلة الزمن ثلاثة قرون، وصولاً إلى الحرب الأهلية الإسبانية، حيث يتشتت المخطوط الغامض خلال فوضى تهريب وضياع نفائس من هذه النوعية. هناك فجوة لا أعرفها في القصة، لكن ما يهمني أن أستاذي السابق قد وصل إليه ضمن جملة مخطوطات أخرى غص بها منزلُ ثريٍّ أميركي أقام في طنجة طويلاً، إلى أن مات وحيداً نهاية التسعينيات. أمرني الأستاذ بتحقيقه ضمن سلسلة مخطوطات أخرى متفاوتة الأهمية من جملة مقتنيات الأميركي، وكذلك فعلت، فاكتشفت أنه غير مكتمل، ويعود لعالم مغربي سكن إشبيلية ومات بمراكش خلال القرن الثالث عشر، وألّف أرجوزات، وهي ما يشبه الشعر، الذي ضمّنه معادلات وقواعد مبتكرة في الرياضيات. ربطته منطقياً بمخطوط السفير، فأيقنت حيازتي كنزاً، تفوقت في تقدير أهميته على أستاذي الذي لم يكن يفقه شيئاً في علوم الحساب، وقد وجّه اهتمامه إلى نوعية أخرى من المخطوطات. راوغته واحتفظت به لنفسي بعد انتقالي إلى طنجة واحتمائي بصهري المستقبلي. عقدت العزم على محاولة جمع شتاته، ليقيني أن قيمته أعلى بكثير مما يبدو. لم يكن الأمر هيناً، خاصة فيما يتعلق بالتواصل مع شبكة وسطاء مغاربة وأجانب من المتخصصين،

فوضعته جانباً، وانغمست في معارك الحياة التي أسلفت شرحها، متتبّعاً بين الحين والآخر تطور وسائل التواصل السرية، التي سهلت عمل هذه الشبكات شيئاً فشيئاً، إلى أن لاح بصيص أمل أخيراً، بعد اثني عشر عاماً تقريباً، عندما عرض وسيط مكسيكي صور مخطوط في موقع إنترنت سري يتداوله المهتمون مثلي. تواصلت معه، فقال إنه حصل عليه من شاب أتى من تشيلي، وكان مخطوطه ضمن مقتنيات أسرته. قارنت الصور بمخطوطي، فتأكدت أنهما يكملان بعضهما، وبالفعل، لم أتردد في السفر والمجيء. كانت مفاوضة عسيرة، مع وسيط بارع ومتمرس، دون أن أكشف أبداً عن حيازتي جزءاً مكملاً، ثم تكللت جهود وخبرات سنوات من المعاملات والمقايضات في تجميعي للمخطوط كاملاً، وها هو يقبع الآن في حقيبتي تلك.

حدقتِ فيه ذاهلة، لا تكادين تفهمين شيئاً من كل ما سمعت، لكنه أشار بيده، لأول مرة منذ بدأت ليلتك الغريبة الطويلة، برغبته أخيراً في إنهاء الحديث، لتعبه وحاجته الشديدة إلى تناول دوائه والخلود إلى النوم.

توقف سرده إذن عند هذه التفاصيل العجيبة، التي لم يسبق لكِ أن علمتِ بوجود من يهتم بها، وفرغت جعبته من الحكايات أخيراً، فبدوتِ كشاهدةٍ صامتةٍ على حياة طويلة، تداخلت فيها التفاصيل وسِيَر البشر والمخطوطات، حتى يحتار المستمع والرائي في التمييز بينها...

*

التعريف السابع:

الحظ

لغةً: النصيب والقدر الذي يصيب الإنسان دون جهد منه.
واقعاً: مزيج خفي من الفرص اللامرئية والقدرة على اقتناصها.

*

تابعتِه بعينك وهو يتناول أدويته. لم تجسري طبعاً على سؤاله عن نوعيتها، وطبيعة مرضه، بل انصبّ تركيزك على انتظار نومه، والتأكد من سكونه، قبل الاقتراب من هدفك بالاستيلاء على الحقيبة.

رغم ذلك، وجدتِ نفسك تقتربين منه، وتعدلين الغطاء فوق جسده، قبل ملامسة شعره وخدّه بحنو بالغ، لا علاقة له بالتفاصيل «الروبوتية» المعتادة في «وظيفتك».

نظر إليكِ طويلاً، ثم التقط حافظة نقوده، وسلّمك حفنة من الدولارات الأميركية، قائلاً في امتنان حقيقي:

- شكراً لك.

ثم غرق في نوم عميق، لا شك في أن تلك الأدوية لعبت دورها في تسريعه.

سارعتِ إلى فحص نبضه والتنصّت على أنفاسه. اطمأننت لاستسلامه لسباته، وشكرت الحظ الذي وفّر لك مهمة سهلة جزيلة العطاء، دون أن تبذلي فيها نقطة واحدة من عرقك.

لامستِ الحقيبة وقلبت قفلها بأصابعك، ثم شغلت هاتفك بحماس. سيهنئك لويس بنجاحك، وقد يعدك بمضاعفة أتعابك حتى. تصاعدت نشوة النصر في عروقك، لكنها سرعان ما تبددت، بعثورك على عشرات الاتصالات منه، فمرّ بخاطرك إحساس مخيف، يوحي بأن شيئاً ما لم يسر على ما يرام، وتأكد ذلك عندما اتصلتِ به وسمعت نبرة غاضبة غير مألوفة منه:

- أين أنت؟ هل سوَّلت لكِ نفسك التلاعب بي؟ من تحسبين نفسك؟

اهتزت شجاعتك الأولى، وحملقتِ في الهاتف كأنك تخشين خروج لويس منه لصفعك، فتمتمت بارتباك:

- الرجل معي في الغرفة، استجاب لي بسهولةٍ. هو نائم بالفعل، والحقيبة معي.

لم يسمح لك بالمواصلة، بل صاح:

- عن أي رجل تتكلمين؟ حدّد عميلنا موقع الدبلوماسيّ المغربيّ في جناحٍ مختلفٍ تماماً، وهو لم يُغادره حتى الساعة! أنتِ في غرفةٍ خاطئةٍ يا بلهاء!

ديبلوماسي مغربي؟

لقد قضيتِ ليلتك مع مغربي فعلاً، لكنه لم يشر أبداً في قصته إلى عمله في السلك الديبلوماسي، فهل...

- لويس، أعتقد أن موظف الاستقبال الأحمق قد أخطأ، أو ربما هي مشكلة في نظام الغرف، أو أي شيء من هذا القبيل. الرجل هنا مغربي أيضاً، لكنه ليس ديبلوماسياً، وأنت لم تحدد ذلك في تكليفك بالمهمة. يضم الفندق إذن مغربيَّين اثنين، وربما أكثر.

أنقذك هدوؤك من ثورته، إذ صمت طويلاً، كأنما يقلب كلامك في ذهنه، متأكداً من صوابه، قبل أن يقفل الخط.

رن الهاتف من جديد، فوجدتِ على الخط صوتاً غليظاً آخر يقول بلهجة آمرة:

- غادري مكانك فوراً، فشلت المهمة...

ما الذي ستفعلينه إذن؟

حقاً لا تدرين...

وقفتِ عند الأريكة، تنظرين إلى هذا الرّجل الذي حكَى لكِ عن كلّ انتصاراته وانكساراته، لا لسبب سوى أن رغبة البوح في أعماقه قد بلغت أوجها، وتفوّق ضعفه الإنساني أخيراً على صورة كاذبة لأسطورة لا تقهر.

حرصتِ على مسح أيّ آثار تدلّ على وجودك بالمكان، ثم نظرتِ إليه لآخر مرة، وهو مستغرق في نومه.

من يدري، قد يستيقظ صباح الغد ويعتبركِ حلماً جميلاً، أو حتى كابوساً مرعباً، مر به على حين غرّة.

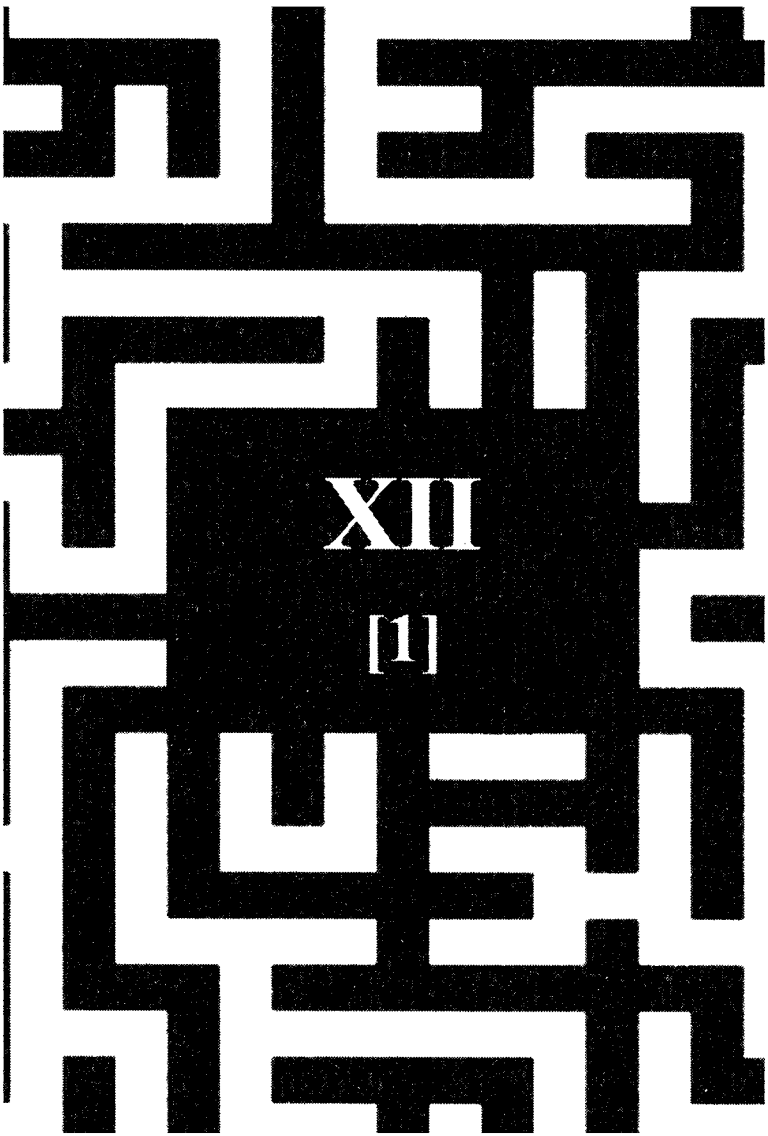
هرعتِ إلى الباب، وتأكّدت أنّ الممرّ فارغ، ثم غادرت الغرفة بخطواتٍ مسرعة. أوشك قلبك أن يثب من صدرك من شدة الانفعال. لم تلتفتي خلفك، ولم تنظري إلى المصعد حتى، بل اتّجهتِ مباشرةً نحو الدرج، تلعنين الكعب العالي الذي يمنعك من الإسراع أكثر. كل هذا ورأسك يحاصره سيل من الأسئلة:

إلى أين ستذهبين؟ هل ستقابلين لويس أم ستهربين منه أيضاً؟ هل ضاعت آمالك في الخلاص؟

لكن الأكيد أن هذه الليلة الطويلة، بما فيها من سرود وتناقضات،

وضعتك في خضم دوّامة أشدّ تشابكاً مما تصوّرت، لربما هكذا هي بعض الحكايات التي تبدأ بتشويق وتنتهي بخطأ في العنوان، كما هو تسلسل حياتك في مكسيكو، حيث تقودك لياليك إلى دروب ما كان ينبغي لك السير فيها أبداً...

*


XII
[1]

XII

[1]

دماء الياسمين

(1204)

«يتكشف لنا عبر **مقامات الحريري** عمق العلاقة بين ظاهر الكلام وباطنه، عندما يستغلّ جمال اللغة وبديعها لإخفاء المقاصد الحقيقية أو تغييرها، فاللغة قادرة دوماً على إخفاء السرائر وإضمار النوايا. تذكروا ذلك الآن، مع ادعاء وسائل التواصل الاجتماعي والمنصات الرقمية إتاحتها مساحات واسعة من حرية التعبير، فيما يتكرّر مشهد التلاعب ذاته، عبر أشكال جديدة من التزويق والتضليل. المقامات درس حي في ضرورة تمحيص الكلام وفهم بواطنه، لا سيّما في عالمٍ يضج بتداخل الأصوات الحكيمة واللغط الأحمق، فكسب الثقة لا يكون بفصاحة اللسان فحسب، بل بتطابق المعاني الخفيّة مع ما يُقال...».

رشيد بناصر – المحاضرة الثانية عشرة – الأربعاء 29 أبريل 2015

فاجمع إلى أعدادك التربيعا واستخرجن جذرهما جميعا

الأرجوزة الياسمينية في الجبر والمقابلة - نسخة مكتبة الإسكوريال بإسبانيا - رقم 954/ 2

*

أبصر النور في مراكش، ولم يعرف غيرها موطناً وموئلاً، وعندما بلغ أشده، كان محمد الناصر قد أمسك بمقاليد الحكم، خلفاً لوالده يعقوب المنصور، في وقت علا فيه نجم الدولة الموحدية وازدهرت مكانتها، بين بلاد المغرب وما تبقّى من الأندلس.

وجد في نفسه ميلاً ما إلى العلوم، دون أن يعي صراحة كيف ولد في جنبات روحه ذلك القدر من الفضول الدؤوب والرغبة المتقدة في المعرفة، وكم كانت سعادته عظيمة عندما ألحق، في سن السادسة عشرة، بدروس عبد اللّه بن محمد بن حجاج الأرديني، المعروف بابن الياسمين، وهو العالم الذي بلغت شهرته الآفاق، ببراعته في صياغة المؤلفات الرصينة في علوم الجبر والحساب، وشرحه مسالك الأرقام والقواعد والخوارزميات.

ظل يسمع طويلاً، من أترابه في الحي، أن عبد اللّه بن محمد، والشهير بكنية أمّه، الجارية سوداء البشرة، وبالإشبيلي، نسبة إلى المدينة التي نهل من علومها طويلاً، ليس مجرد عبقري حساب، بل رجلاً واسع الاطلاع على شتى علوم عصره، فهو متبحّر في الفقه والفلسفة والأدب، لا يكاد يضاهيه ولا يضارعه أحد في الكلام ولا في استحضار الشواهد والقصص والحكم، بل إنه امتلك قدرة عجيبة على نظم قواعد الجبر

والحساب شعراً، ولم ينفك لحظة عن متابعة كل ما كتب ودوّن، بين فاس ومراكش وإشبيلية، حيث درس وتعلّم.

لكن رفاق الحي حذروه أيضاً، قبل زيارته الأولى إلى دار معلمه الجديد، أن لابن الياسمين طباعاً عصبية، وسرعة غضب لا مبرر لها، بل إن لسانه السليط أحياناً، لا يراعي مكانة كبير ولا سذاجة صغير.

ولطالما طرد من درسه كل من لم يجد فيه ما يوافق فهمه للبديهة وصفاء الذهن...

ثم بلغت مسامعه همسات أقرب للهمهمات، عن خوض ابن الياسمين في حياة أخرى، تكاد تعاكس كلياً ما اعتاد عليه من ربط العبقرية والنبوغ بحسن الخلق.

استعاذ باللّه من الشيطان الرجيم، ودعاه في سره أن يوفقه في مهمته، ولا شأن له وقتها بما لا يهم مبتغاه.

انتقل في اليوم الموعود، مباشرة بعد صلاة الفجر، إلى دار ابن الياسمين، المحاطة ببضعة أشجار، في ناحية قريبة من أسوار مراكش القديمة.

تحسّب عند دنوه من الباب، متوتراً مما سمعه عن صرامته ومبالغته في تشدده، لكنه تقدم أخيراً وطرق.

انتظر أن يفتح الباب خادم أو ما شابه، ففوجئ بالرجل نفسه أمامه، كما رآه ذات مرة من بعيد، ببشرة سمراء، وقامة متوسطة، وبروز طفيف في الجبهة، ولحية يوشك بياضها على التهام آخر ما تبقّى من سوادها، حاملاً سراجاً يستعين به لمعرفة هوية الطارق.

اكتفى ابن الياسمين بسلام مقتضب، ثم رافقه إلى غرفة واسعة غطت حيطانها الرفوف المزدحمة بالمخطوطات والرقوق، واستأذن

تلميذه الجديد في غياب قصير، فيما أشعة شمس الصباح تتسلل من نافذة عالية، لتكشف شيئاً من كعوب الكتب وحوافها المصفرة.

عاد بعدها بتؤدة، حاملاً تحت إبطه دفترَي أوراق قديمة، وممسكاً بريشة بدا جلياً أنها تلطخت بالحبر، وعندما استقر بهما المجلس، تحوّلت لامبالاة ابن الياسمين السابقة إلى نظرة متفحصة لا تخلو من حدة، كمن يختبر صبر الشاب وقدرته على التحصيل.

بادره بالسؤال عن اسمه ونسبه ومنزلته في حيه، ثم انتقل مباشرة إلى استعراض سلسلة مسائل حسابية، وبتتابع سريع أفقد الشاب توازناً هشاً، قبل أن يسأله:

- لميتٍ من الورثة أبوان وأربعة أبناء وبنتان، ما هو حل مسألة توزيع الإرث؟

لم يحر الطالب جواباً شافياً، وقد فضح تلعثمه أن ما درسه في الفقه كما الحساب ظل محدوداً، فأشاح ابن الياسمين بوجهه، حتى أيقن الشاب أنه سيطرده، لكنه نهض وشرع يتكلم بهدوء، شارحاً أساسيات الجبر والحساب المنفصلة عن هذا الباب الفقهي.

ويوماً إثر يوم، تحوّلت دروس ابن الياسمين إلى بحر استطرادات، أكدت للشاب أن للدنيا وجوهاً لم يعرفها في سنوات عمره الماضية.

غاص مع معلمه في كل مجالات معرفته، ولطالما قادتهما قاعدة فقهية إلى مفهوم في الفلسفة، ومسألة في الجبر إلى أبيات في الشعر، ليغدو مجلسه موعداً يتحرّق الشاب شوقاً للعودة إليه كلما فارقه.

بمرور الوقت، لامس الطالب في عينَي شيخه ابن الياسمين مزيج حيرة وقلق، كمن يعاني عبئاً ثقيلاً لا يتجلى واضحاً إلا عندما يشيح بوجهه ناحية النافذة، أو يتوقف فجأة عن الكتابة أو الشرح والتعليل.

سمع الشاب الكثير عن تربص بعض حاشية محمد الناصر بابن

الياسمين، مع إشاعتهم الأخبار المكذوبة عن سوء نهجه في التعليم، وميله المفرط إلى التعالي والتكبر، ما فسّره الناقلون بتراجع مكانته في مجلس الناصر مقارنة بأيام أبيه المنصور، لكن الطالب تجاسر ذات مرة على تجاوز صرامة معلمه، وسأله في خضم حديث مسترسل:

- يا شيخنا، أصحيح ما يقال عن نفور بينك وبين حاشية الخليفة؟

نظر إليه طويلاً، كمن يتشكك في نيته، أو يتحسب لما هو أبعد، قبل أن يردّ باختصار:

- يا بني، لطالما ملأ الحسد قلوب ضعاف النفوس، وكلما رفع اللّه أحدنا مكانة بعلمه، سعى أمثال هؤلاء لإسقاطه.

ولم يضف أكثر من ذلك.

في لاحق الأيام، اقتنع الشاب بأن معلمه لم يفسّر المطلوب كما ينبغي، إذ لاحظ، مع عدد من رفاق طلب العلم في دروس ابن الياسمين، أن الأخير لطالما أبدى توتراً زائداً مع بعض زائريه القادمين من البلاط، في ما يشبه وقوفاً أو تجسساً على طريقة تدريسه. كانوا يطرحون أحياناً جملة أسئلة مباغتة، لا غرض منها سوى إحراجه أو محاصرته بآراء تتعارض فيها العلوم مع آراء بعض المتشددين من الفقهاء.

وعوض الاحتماء بالحلم والهدوء، لم يعدم العالم فرصة إلا وأبدى فيها ضجره وتبرّمه من هؤلاء، فيردّ عليهم بعبارات حادة، تزدحم فيها الحجج العقلية والقواعد الفقهية والشواهد التاريخية.

أصرّ الشاب، مع باقي طلبة ابن الياسمين، على تأييده، لكنه تحسّر في أعماقه على حاله، وقد رأى فيه رجلاً يضيق صدره بكل ما حوله، مع تجاوز اعتزازه بقدره وتميزه كل حدود.

انتقل هذا التبرم إلى علاقته بطلبته، مظهراً عدم احتماله لما يعتبره بطء الأفهام، بل إنه لطالما تميز غيظاً لإجباره أكثر من مرة على تكرار

الكلام، فتوالى فرار طلبة العلم من مجلسه بعد درس أو درسين على أبعد تقدير، خشية سرعة غضبه وسهام ألفاظه اللاذعة، ولطالما تساءل الشاب الحائر في قرارة نفسه: «أتسوّغ كثرة المعارف استصغار طالب العلم وتأنيبه لتعثره؟ أيحق للعالم أن يعتد بنفسه لمجرد عظم قدر معارفه؟».

شيئاً فشيئاً، تراءت للشاب أسباب أخرى لعصبية معلمه، فلئن أصدر الناصر أوامره بتشجيع إقامة حلقات العلم ونشر المؤلفات والتراجم، مواصلاً ما بدأه والده، إلا أنه فضّل انتهاج أسلوب لا يشبه سلفه في شيء، وفرض على بعض العلماء تدريس صنوف معيّنة من المعارف في مدارس خاصة أنشئت لهذا الغرض، وبإشراف مباشر من بعض رجالات حاشيته.

بداية، لم يكن ابن الياسمين بمعزل عن تلك الدعوة، بل إن اسمه تصدّر كل الأسماء، لما له من باع طويل في تعليم النخبة من أبناء الوزراء والقضاة وبعض من يجري اختيارهم من أبناء العامة كهذا الشاب، لكن العلاقة بين العالم والخليفة ظلت متقلبة دوماً، وإن ظل الأخير يجلّه ويقدّر علمه كما والده، مثنياً على جهوده في التأليف والتدريس.

لم يتحمل العالم القيود الجديدة، والتضييق المتعمّد على حريته فيما يرتضيه منهجاً مناسباً للتدريس، خاصة مع ما رأى فيه الفقهاء زندقة بيّنة، بالجمع بين المنطق الأرسطي وعلوم الفرائض الشرعية.

وكمن توقّع وقوع تلميذه في حيرة التعامل مع ما قد يأتي، قال ذات مرة:

- لطالما كانت المشكلة في أولئك الذين يكمنون خلف الأبواب الموصدة، يترصدون ويبثون الدسائس والضغائن بين الناس، ولا غرض لهم من ذلك سوى دفع الجميع إلى عزف اللحن نفسه، دون جدة أو

اختلاف. إنما هي هواجسُ التحريف والوشاية تجعلني متيقظاً، سريع الانفعال، مخافة أن يُفهم كلامي على غير مراده، أو يُنقل لولي الأمر في سياق غير ما أردت.

وبالفعل، بلغت البلاط كلمات مقتضبة، محرّفة عن سياقها، من دروس ابن الياسمين، بما يُظهره كمن يتجرأ على الدين أو يخالف رأي الجماعة، لكن الناصر لم يستمع لكل مَن طالب باستبعاده، أو إحراق كتبه، أو نفيه، كما كان الحال قبل سنوات مع ابن رشد، مفضلاً احتفاظ الرجل بمنصبه، وإن مع تشديد مراقبة دروسه وتلاميذه، والميل إلى استبعاده التدريجي من مجلس حاشيته.

وعندما أصرّ والد الشاب على سحبه من حلقة دروس ابن الياسمين، اتقاءً لشر قد يأتي من الحاشية، وهو النجار البسيط الذي لا حول له ولا قدرة على الوقوف أمام مشيئتهم، وجد نفسه يقلد معلمه في ثقة أسلوب حديثه، وإن بهدوء أكبر بأضعاف مضاعفة:

- أبتاه، ما أنا بمفارق لمعلمي، ولا يؤتى العلم إلا لمن ارتضى الصبر على الشدائد.

*

واحمل على التنصيف ما أخذتا فذلك الجذر الذي أردتا

الأرجوزة الياسمينية في الجبر والمقابلة - نسخة مكتبة الإسكوريال بإسبانيا - رقم 954/ 2

*

مضت شهور، تلت انتظام الشاب في مجلس ابن الياسمين، وميل الأخير إلى العزلة، مع فهمه أن أيام مجده الماضية، عندما ملأ خبره الدنيا وشغل الناس، قد ولّت بلا رجعة...

لم يتخل الشاب عن معلّمه، هو وقلة قليلة ممن آمنوا به، واعتبروه عبقرياً فذاً قلّما يجود الجيل الواحد بمثله، عندما بدأ يلحظ تغيراً بطيئاً في معاملته له، إذ بات يخصص له وقتاً أطول في جلسات التدريس الفردية، ويسأله عن بعض المسائل الفلسفية والمنطقية، التي مال إلى تجنّب طرحها على باقي طلبته. لكن التلميذ شعر في الآن ذاته أن ابن الياسمين صار أكثر صرامة وأشد غلظة في التعامل معه، كأنما استشعر فيه بذور قدرة فائقة على التعلم، وربما يعول عليه في شأن لن يطيقه البقية، مبالغاً في تدقيقه كل صغيرة وكبيرة ويتفوّه بها الشاب أو يدوّنها، وهو ما عمل الأخير على التكيف معه، وإن تطلب منه ذلك صبراً واحتمالاً وطول نفس.

جلسا ذات مرة وحدهما، قرب النافذة العالية في غرفة التدريس، حيث نفذت أشعة شمس ظهيرة مراكشية رائقة، وقد وضع العالِمُ أمامه بعض الأوراق المطوية، عليها جداول عددية معقدة، ثم طلب من تلميذه تحليلها وفق منهج ابتكره بنفسه لموازنة المعادلات وتبسيطها.

شرع الشاب في رسم الخطوط وتضمين الأعداد في الجداول، لكنه معلمه استوقفه أكثر من مرة، قائلاً بحدّة:

- ما هذه الفوضى؟ أين سرعة بديهتك؟ إن من يخطئ في ترتيب عمود واحد، يضيع قيمة المعادلة كلها! فلتنتبه لكل حرف تكتبه، وكل رقم تضعه.

حار التلميذ بين الرد والصمت، موقناً بأنه لم يحسن صنعاً لحظتها، لكن ابن الياسمين سحب منه الأوراق، وضرب بإصبعه عليها باستياء، مردفاً:

- انظر، هنا مكمن الخطأ. لكنني أعترف بتمتعك بقابلية للفهم، تفوق أقرانك. يلزمك صقل وصبر حثيث.

شعر التلميذ بفرحة غامرة، فلئن كان توبيخ شيخه مشوباً بإطراء مستتر، فذلك مما لم يعتده أحد من رجل معتدّ بنفسه، متقلب المزاج والطباع مثله.

أما في شأن السياسة، فقد وجد الشاب في نفسه ميلاً للتداول في أمرها، عكس رغبة والده، الذي حذّره مراراً وتكراراً، مطالباً إياه بحفظ لسانه والانشغال فقط بدروسه، جاهلاً ربما أن المنشغل من الناس بالعلوم والآداب أفهمهم بالسياسة، وأقدرهم على حسم خياره، بين الاعتراض على واقع الحال، والسير في ركب المادحين المداهنين.

ربط الشاب استبعاد معلمه من مجلس الناصر بشعوره العارم بالضيق والقلق، إزاء حال البلاد والعباد، إذ لم يخف على أحد سعي الخليفة جاهداً للحفاظ على هيبة الدولة ومكتسباتها، عقب الانتصار العظيم لوالده في وقعة الأرك، لكنه لم يفعل شيئاً ذا بال في سبيل ذلك، مفضلاً الاكتفاء بما بلغه سلفه، عوض استغلال تضعضع شوكة

القشتاليين، واستعادة كل ما فقده المسلمون من قلاع وثغور أخرى في أرض الأندلس.

تردد الهمس في أسواق مراكش ومجالسها المغلقة، متحسراً على زمان المنصور، الذي جمع في نظرهم بين انتصاراته على الأعداء، ورسوخ قبضته على شؤون الدولة، كما بلغ الأسماع أن طاغية القشتاليين المهزوم، الفنش بن شانجة، لم يرتدع بما مضى، ويعدّ العدة للانتقام، وربما يستنجد بكل قوى النصارى، لجمع جيش جرار ينقضّ على قلاع المسلمين.

الأدهى والأمر، أن إشاعات غريبة أطلّت برأسها، روّجت أن المنصور لم يمت، بل طفق يجوب أرض اللّه الواسعة، بعد زهده في الحكم وتسليمه دفة الدولة لابنه، ثم رحيله متخفياً سائحاً إلى بلاد الشام، وهو ما علّق عليه ابن الياسمين بقوله، في جلسة منفردة مع تلميذه:

- لا يمكن لوم الناس في ما ذهبوا إليه في ادعاء اختفاء المنصور عوض موته. إنهم يستأنسون بهذه الحكاية، وإن أيقنوا في أعماقهم بكذبها، لعلها تخفّف عنهم وطأة الحاضر الغامض.

أومأ الشاب برأسه مؤيداً، فأكمل:

- لم يرث الناصر حزم المنصور ولا عظم شأنه، لكن ظروف حكم الأب غير ظروف الابن، وهذا مما لا قِبَل لأحد بعكس مجراه...

لم يكن وصول علاقة الشيخ والشاب إلى هذا المبلغ من الثقة والتداول في كل ما يخشاه آخرون بلا ثمن، إذ ازداد حرص ابن الياسمين عليه، بمعنى تكليفه بما يفوق طاقته وقدراته أحياناً، ومراقبته في كل مسألة يتطرق إليها الدرس المعتاد مع باقي الطلبة. وقد بدا واضحاً أنه لا يريد منه الجلوس فقط للاستماع، بل يطلب منه المشاركة الفعالة،

مع ميله إلى متابعة استنباطه للنتائج الحسابية بنفسه، وكلما رأى منه ما يحسبه تلكؤاً أو تهاوناً، رفع صوته بما يلامس عتبة الصراخ:

- إياك أن ترضى باليسير السهل، فلن يبلغ العلم إلا من يمتطي صهوة الصعاب...

بل إنه اعتاد مقاطعة الطالب، وإطلاق العبارات الساخرة التي قد تكدر صفوه أياماً، معتبراً ذلك طريقته الأثيرة في دفعه إلى تقوية ذهنه وصلب عوده، فصبر الشاب وعادى مللَه ويأسه، وقرن ليله بنهاره في مراجعة ما لقّنه إياه شيخه.

وهكذا غدا يقضي سحابة نهاره وبعض ليله في غرفته، ممسكاً بالدواة والريشة، راسماً الدوائر والمربعات، وخاطّاً المعادلات، سعياً لفك رموز مسائل الجبر المستعصية التي أوكلها إليه ابن الياسمين.

قد تدخل عليه أمه أحياناً بقليل من خبز أو كأس ماء، فتبتسم في حنان وتمضي دون ضجيج، وقد رقّت لحال ابنها، وودّت لو تحمل عنه كل ما يعتمل في صدره من هموم، فيما تنير ومضة فرح قلبه، كلما تمكن من حل مسألة معقدة، أو اكتشف ثغرة ما في نمط متكرر من الأرقام، لما في ذلك من إنصاف لجهده.

إلى أن حانت ما رأى فيها ساعة انتصاره، عندما استبقاه ابن الياسمين، ذات يوم شهد حالة نادرة من حالات استقرار مزاجه، ثم ضرب بيده على كومة رقوق جانبية قائلاً:

- هنا بعض تصانيفي، التي لم أكشف عنها بعد، وفيها بابٌ مبتكرٌ في حلّ أنظمة معادلاتٍ جبريةٍ، قد يغيّر كل ما عرفه العرب والعجم في علوم الحساب والجبر، وهو غير أرجوزتي في الجبر والمقابلة، والمعروفة عند الناس.

صمت لبرهة، كمن ينتظر معرفة أثر مقدمته على محيّا تلميذه، ثم أكمل:

- أحتاج إلى مَن يعينني على تنقيحها، ولا أظنّ أحداً من طلابي أقرب إلى رجائي منك. كن على استعداد، فثقتي بك كبيرة، ولا تكن كمن بلغ منتصف الطريق ففضّل الخذلان على المواصلة. لن أشاركك إياها فوراً، بل سأسعى أولاً لاختبارك في مسائل متدرجة الصعوبة، قبل الوصول بك إلى المراد.

تهلل وجه الشاب فرحاً، لا يكاد يصدق بلوغه تلك المرتبة، بتمكنه من الاطلاع على تصانيف معلّمه قبل مشاركتها على الملأ.

ومع ذلك، سرعان ما أحس بثقل المسؤولية؛ لأنه يتتلمذ على يد عالم سريع التأفف، فأي خطأ يقع فيه قد يلحق به من الكلمات القاسية ما لا يكاد يحتمله. لكن العزمَ في قلبه ظل أشدّ، فأجاب بسرعة:

- واللّه يا شيخنا، إنّها لفرصةٌ أعتزّ بها، وإنني لأعاهدك على بذل جهدي في أداء الأمانة.

ردٌّ متلهّفٌ، ما كان ليتوقع عندما تفوّه به، أنه سيقوده إلى قدر آخر، مما لم يدر بخلده أبداً، يوم فكّر في المضي قُدماً في طريق طلب العلم.

*

وإن تحدا التربيعُ مِثْل البعد فجذرُهُ التنصيفُ دون فند

الأرجوزة الياسمينية في الجبر والمقابلة - نسخة مكتبة الإسكوريال بإسبانيا - رقم 954/ 2

*

راج في المدينة حديث عن استدعاءٍ قريبٍ لابن الياسمين لمقابلة الخليفة، فاستبشر تلاميذه بذلك، معتقدين أن في الدعوة ما يعيد لشيخهم مكانة وحظوة سيرته الأولى.

إلا أنّه، وكما تسرّبت الأخبار عن اليوم الموعود، لم يلقَ في المجلس غير برودٍ ونفورٍ من بعض الحاضرين، بينهم رجل يدعى جوهر الفارسي، المعروف بخصومته وكراهيته المطلقة لابن الياسمين، حيث أخذ يوجّه أسئلةً مباغتةً للشيخ، بشأن نظرياته وصلتها بالفقه.

أسئلة ظاهرها الاستفهام، وباطنها الاستخفاف والتشكيك.

قيل إنّ الخليفة لم يتدخّل كثيراً، ربما لترقّب ردود ابن الياسمين، أو لعله كان مشغولاً بأمور أخرى.

انصرف الشيخ من القصر شاحب الوجه، تتعثر خطاه في دهاليز المجلس، ولم ينبس ببنت شفة حتى وصل إلى داره، وأمضى أياماً في حال من الكرب، ولم يعد يُقبل على كتبه بالحماس السابق، وكأنه فقد شهيته للعلم.

عاين الشاب ذلك بألم؛ فليس من عادة أستاذه أن يصمت طويلاً، أو يكتفي فقط بطرح بعض المسائل، ويغادر بعدها الحجرة مسرعاً، أو أن يتخذ ركناً منعزلاً يحدق في الأوراق دون تحريك قلمه.

خشي التلميذ على نفسه من فقدان علاقته بمعلمه وملهمه، وسمع كذلك تذمّراً من بقية أقرانه، على قلّتهم، فقد تعسّر عليهم استيعاب دروسه في ذلك الجو المقبض.

أما الفارسي، فزاد من غمزه ولمزه، إذ يسرّ لأعوانه وهم يديرون الدواوين أن ابن الياسمين «انطفأ نجمه وما عاد مؤثراً»، وأنّ خليفة اليوم لن يُكرّر تجربة أبيه في إيلاء هذا العالم مكانةً مهيبة.

ذات مساءٍ، وبعد أن خلت الحجرة للشاب مع شيخه، إذ رأى بريقاً طفيفاً في عينيه، ذكّره بما مضى من حاله المعهود، وسرعان ما طلب منه إحضار رزمة رقوقه المخفية، وقد اعتاد إطلاعه على أماكنها وتصانيفها.

- تعلم يا بني ما مرّ بي من سخافات الحاشية وحسد بعضهم، وقد تأذيتُ في نفسي حتى يئستُ من يوم أعود فيه لهيبتي بين اليأس. لكن الحساب نعمة ربانية، أجد فيه سلواي، وأفتن ببروده وابتعاده عن أي هوى أو مزاج. لذا أبشّرك أنني أوشكت على الانتهاء من تصانيفي التي سبق أن حدثتك عنها.

أشرق وجه التلميذ سعادة؛ وهو لم يتوقع أن شيخه لم يملّ بعد من علمه. فصمت، كعادته في احترام رغبة معلمه في منح كلامه قيمة.

تنفّس الأخير بعمق، ومسح لحيته بكفّه، ثم قال بصوتٍ أقرب إلى الهمس:

- أعمل على وضع طريقةٍ جديدةٍ لحلّ أصعب مسائل الحساب الفرائضي، وبيان ما قد يترتّب عليه من تبسيطٍ في تقسيم الأنصبة، وتنظيم الخرائط الحسابية؛ ونظم شفرات الرسائل، وتوسّعتُ في ربط ذلك ببحور من علم الجبر الذي استقيناه من أسلافنا وحكماء الإغريق. وقد بلغت مرحلةً قوامها الرأي الأخير الذي سأعلنه قريباً للناس.

ثم واصل كلامه، متجاهلاً فرحة الفتى:

- آمل في أن يرى الخليفة هذا العمل بعين الإنصاف والعدل، وألا تتغلب مكائدُ من يتربّصون بي على الحقيقة. إن التبس عليهم أمري، فقد أكون بريئاً من ذنبهم يوم تنجلي بواطن الأمور. لكنّي لن أتخلّى عن علمي وقلمي.

أدرك الشاب حينها أنّ شيخه رغم المكائد لا يزال على جذوةٍ صلبةٍ من الإصرار، فزاده ذلك حبّاً له، وإيماناً أنّ البشر مهما سلّطوا من شرور ألسنتهم، ففي عقول العلماء وأفئدتهم نور يعينهم على عبور المحن، إن هم صدقوا وأخلصوا.

- تعالَ، اطلع على هذه الجداول ودعنا نناقشها قبل أن أعلنها على الملأ. ستتفاجأ كيف تسمح لنا هذه الطرق باختصار العمليات الحسابية من عشرات الأسطر إلى بضع خطواتٍ، وأرجو أن تتحمّل مني عودتي إلى صرامتي، فالعمل يحتاج إلى أعينٍ مخلصة تحرسه من الأخطاء. ولا حاجة لي بتذكيرك وتحذيرك من مغبة تسريب ما أقول إلى أسماع لا أطيقها. أريد مفاجأة المتربصين بما لم يضعوه في حسبانهم.

وهكذا جالسه تلميذه، وساعده في تنقيح رقوقه الممتلئة بالأرقام والجداول والمربعات. وهو كمن استعاد نزراً من عنفوانه. يُقلّب الصفحات، ويشرع في شرح تفاصيل منهجه في توزيع الحصص الحسابية، وكيف سيربطه بنظمه لأرجوزة أخرى جديدة، والشاب يدوّن الملاحظات مركّزاً.

*

وكلُّ ما استثنيتَ في المسائل صيّرهُ إيجاباً مع المُعادل

الأرجوزة الياسمينية في الجبر والمقابلة - نسخة مكتبة الإسكوريال بإسبانيا - رقم 954/ 2

*

وحدث ذات مساءٍ أن سلّمه شيخه رقوقاً جديدة، طالباً منه النظر فيها والعودة إليه برأيه، من دون إشارةٍ إلى كُنه ما تحويه، فألقى عليها نظرةً خاطفةً، ليجد فيها بعض الأعداد المتفرّقة، ورسومات لدوائر ومربّعات، وبعض العلاقات الحسابية التي لم يفهم بسرعة كيفية ترابطها. وعندما سأل معلمه عمّا تعنيه، اكتفى بالابتسام والقول:

- لكلّ حينٍ بَيانه. إنما أردتُ الاطمئنان لأفهامك، وأن أرى قدرتك على فك ما وراء الرموز، قبل كشف المقصود. كل ما عليك الآن، هو الالتزام بما أسندتُه إليك من مسائل، والاستمرار في إتمام رسائلي السابقة في تقسيم المواريث.

وفي درس لاحق، توسع ابن الياسمين في تلميحاته، فيما بدا تأرجحاً منه بدوره بين رغبته في كشف صنيعه وميله إلى ضرورة الانتظار إلى الحين المناسب، وقال:

- كلما بدت لك مسألة حساب مستحيلة الحل، أعد ترتيبها بما يوازي اللفظ واللغة، وستدرك حينها حلولاً شتى.

ثمّ في يومٍ آخر، عندما أتى الدور على بعض مسائل الفرائض المعقّدة، إذ قال:

- لو رسمنا للحساب رسماً أوله في عين الشاعر، وآخره في لوح

الحاسب المتمرّس، لنفذنا إلى ما استعصى علينا من حلول.

دهش الشاب عند سماعه للعبارة الغريبة، ولم يفهم كيف يمكن لحساب الأعداد أن يلتقي بعين الشاعر.

أهذا ضربٌ من المجاز أو التشبيه البلاغي كما في مقامات الحريري؟

أم لعله يشير إلى معنى أعمق يحيكه في سرّه؟

لم يتركه شيخه أسير شكه وانتظاره طويلاً، وأسرَّ له بعد أيام:

- كما ترى فإن جمهوراً من العلماء قبلنا وضعوا خلاصة علومهم في أرجوزاتٍ شعريةٍ، ليسهُل حفظُها وتداولها، وكذلك فعلت في أرجوزتي السابقة في الجبر والمقابلة. لكنني لم أكتفِ بما أسلفت، وفكرت في إلباس أفكاري ومعادلاتي الجديدة ثوبَ الشعر، فتأتي الأرجوزةُ تُسلسل خطوات الحساب في أبيات موزونة، سهلة الترديد. ولا أكتمك سرّاً أنني عملتُ على ذلك في طيّ رقوقي، وقد أضع لها اسم الأرجوزة الياسمينية في الحساب والتدبير. سأسهّل بها على طلاب العلم حفظ القواعد، وأعرض لهم أمثلةً لحلّ المسائل وفق ما بلغته من جديد أفكاري، بما يُشبه منظومة شعرية كاملة.

أدرك التلميذ حينئذٍ أن هذا ما قد يفسّر كثيراً من الرموز والمسوّدات التي رآها؛ فشيخه يشتغل على توليد صياغتين، حسابية بحتة، وشعرية سردية، ولطالما عُرف عنه نظامه واحتفاظه بأسرار عمله.

- يا بني. لقد عزمتُ الأمر. أريد أن تكون ممّن يحضرون إعلاني، وقد اقترب وقته.

أحس الشاب بنشوة لم يعهدها، فيما واصل ابن الياسمين بحدّة وجدّية:

- أدعوك إلى داري بعد يومين، فور فراغنا من صلاة الفجر في المسجد. لا تتأخّر، سأنهي صلاتي ثم أنتظر قدومك عند الباب.

أومأ موافقاً، وقلبه يتراقصُ فرحاً وخشيةً في آنٍ واحد، سيكون شاهداً على إنجازٍ لم يبح به الشيخ لأحدٍ سواه، لكنه سيخشى من وقوعه أسير رقابة وعيون المتربصين، ممن يتصيدون أي حركةٍ غير مألوفةٍ لوصمها بالدليل على تجاوزٍ ما أو بدعةٍ في الدين.

قام الفتى مبكراً جدّاً في اليوم الموعود، وتجهّز بأبسط ثيابه كي لا يبدو لافتاً للنظر، واتجه إلى المسجد على عجل.

وبعد أن أدى الصلاة، عاجزاً عن ملامسة خشوعه المعهود، ومستسلماً لبلبلة تفكيره، خرج متسلّلاً من بابٍ جانبيٍّ متوارٍ عن أنظار الناس، ثمّ توجّه صوب بيت ابن الياسمين في الحيّ القريب من السور القديم لمراكش.

شعر أنّ ثمة لحظةً فارقةً على الأبواب، وكأنّ شيخه يمسك بمفتاحٍ قد يدخل به باباً جديداً في علوم الحساب. وامتزج في صدره شعورٌ بالرهبة، فهو على وشك رؤية أمرٍ قد يكون حديث الناس إن أُعلن، فتهيّأت نفسه لما سيأتي، وتقدّم صوب دار شيخه.

ما زال الظلام يعانق أواخر الليل، لكنّ خيوط الفجر بدأت تتشكل في الأفق.

رأى الباب الصغير مواربا قليلاً، دون أدنى أثر لشيخه، بما يعاكس حرصه الدائم على مواعيده وكلماته، فاستعاذ باللّه من وساوسه، ودفع الباب ثم دخل...

*

وبعد ما تجبُرُ فلتُقابِل بطرح ما نظيره يماثل

الأرجوزة الياسمينية في الجبر والمقابلة - نسخة مكتبة الإسكوريال بإسبانيا - رقم 954/ 2

*

لطالما كان ابن الياسمين حريصاً كلّ الحرص على إحكام إغلاق الأبواب، لا سيّما في ساعات الفجر المبكّرة. لذا داهم تلميذه شعورٌ بالقلق والفزع.

وقف بضع ثوانٍ على العتبة، يحدّق في المدخل الخالي دون سماع حس أو حركة. نادى باسم الشيخ برفقٍ في البداية، ثمّ علا صوته:

- يا شيخنا...

ولم يلقَ جواباً.

اندفع إلى الداخل، وقد خفق قلبه بقوة، وفي طريقه إلى الباحة رأى أشياء متناثرة على الأرض؛ رقوق وكتب ومخطوطات رُميت كيفما اتّفق، وما إن دخل إلى حجرة الدروس حتّى تجمّدَ دمه في عروقه...

تصاعدت رائحة الدم، ووقعت عيناه على مشهدٍ رهيب، إذ وجد في آخر بصمات الظلام ابن الياسمين مُلقى على جانبه، جثّةً هامدةً غارقةً في الدماء.

لوهلةٍ عجز عن التقاط أنفاسه، وارتعدتْ أطرافه، وتسمَّر في مكانه عاجزاً عن استيعاب ما تراه عيناه من هول.

رأس الشيخ مُوارب قليلاً، وعنقه تظهر عليه آثار ذبحٍ قطعت ما

بقي من أنفاسه، ولحيته الوقورة ملطخة بحمرة الدم. ريشته التي يكتب بها ملقاة جانباً، والدماء تغرقها أيضاً.

لكأنّها شاركتْ صاحبها نهايته...

أمّا الأوراق التي وُعد التلميذ برؤيتها قبل الجميع، فقد نُثرت هنا وهناك، وربما فُقد بعضها، إذ بدا أنّ أحداً عبث بها بحثاً عن شيءٍ ما، ورأى صفحاتٍ مرميةً فوق بعضها، وقد شُطبت بعض الأسطر بعشوائية، بينما طمسَ الدمُ بعض الرموز والحروف.

انهمرت دموعه عند اقترابه رويداً من جثّة معلمه، حيث ظهر وجه الشيخ شاحباً وقد انقلبتْ ملامحه في لحظات الاغتيال الفظيع، ولولا المهابة التي رافقت اسمه على مدى أعوام، لظن الشاب الملسوع أنه أسير أضغاث أحلام.

اندفع إلى خارج الغرفة منادياً في أرجاء الدار دون جواب.

لا أثر للخادم، وكأنه تبخّر، أو ربما فرَّ هارباً من هول ما رأى.

مضى يبحث في حجراتٍ جانبيةٍ أخرى مرتجفاً، فلم يعثر على أحد، ثم عاد إلى حيث يرقد الشيخ، متنقلاً بعينيه بين أوراقه المضرّجة بالدماء، حتى خيّل إليه أنه يغرق في بحرٍ من الحروف والأرقام الممزّقة. وجد بعض الأبيات الشعرية الغريبة، بجانبها جداولُ حسابية. لعلها كانت الأرجوزة التي حدّثه عنها قبل أيّام، أو ربما كشفاً آخر لم يعلنه له، فما أكثر أسرار حياة شيخه كما يعلم.

تساءل في سرّه: هل انتزعوا أهمّ ما توصّل إليه شيخه؟ هل سرقوا منه شيئاً بعينه ولم يكتفوا بإسكات أنفاسه؟

يهتم السارق بالذهب والفضة والكسوة، أمّا هذا القاتل أو هذه العصبة فقد قلّبوا الكتب وفتّشوا فيما يخصُّ علمه بالذات.

ارتسم في ذهنه طيفُ شبحٍ آثم امتدت يداه القذرتان إلى رأس شيخه، فقطعوهُ في عزِّ فجره.

تشجع وخرج نحو الباب، محاولاً طلب النجدة من أيّ مارٍّ أو جارٍ. ولم يكن الوقت قد تعدّى أوّل الصباح، لكن حالته المزرية أثارت انتباه أول الغادين والرائحين، فاندفع رجل وثانٍ وثالث إلى داخل البيت، وما إن رأوا الفاجعة حتى علت تكبيراتهم واستعاذتهم باللّه من الشيطان، وانطلق أحدهم مسرعاً لاستدعاء مَن يلزم من حراس وعسس.

توالت الحشود الصغيرة على البيت، وانتشر الخبر كالنار في الهشيم في كل مراكش...

غرق التلميذ المكلوم في حزنه، وعندما استحضره العسس لسؤاله عن الشيخ وعمله وعلاقته به، تلعثم لسانه وثقل، فلم ينطق سوى بعباراتٍ مختصرةٍ مليئةٍ بالبكاء، لم يفهمها الحاضرون حزناً وتأثراً، بل كذباً وسعياً لإخفاء جرم ارتكبته يده وأراد تلفيقه لغيره...

*

مكتبة
t.me/soramnqraa

وما ضربتَهُ فخُذ منازله تعرفه بذاك الأخذ أس الحاصله

الأرجوزة الياسمينية في الجبر والمقابلة - نسخة مكتبة الإسكوريال بإسبانيا - رقم 954/ 2

*

عاش أيّاماً في ذهولٍ ورهبةٍ، يحاول استيعاب هول الفاجعة، وإذ به يصدم باتّهام صريحٍ ومباشرٍ:

لقد وُجِّه إليه الاتهام بقتل معلمه...

أجل، هو تلميذه الأقرب، وخادمه في البحث والعلم، يقولون إنه سدد إليه طعنةً غادرةً في صباحٍ ميعادهما...

ظن الأمر بداية التباساً بالصدفة؛ وأن أياماً قليلة ستظهر الحقيقة، لكنه فهم أن في الخفاء من يسعى لإلباسه رداء التهمة، تماماً كما المتربصون يترصدون بالشيخ من قبل ويسعون لهزيمته بكل أنواع الوشايات.

اعتقد ما جرى يوم الحادثة دليلاً على براءته؛ فشهادته باعتباره أول من رأى جثة المغدور ستوضح الحقائق، بيد أنّ الألسنة المسمومة روّجت قصصاً واهيةً، تتحدث عما يستحيي ذكره حيناً، ووجود خصومةٍ سريّةٍ بينهما حيناً، بل زعموا أنّه ضبطه يسرق من مخطوطاته رقاً ثميناً، وقالوا إن ابن الياسمين رفض تعليمه بعضَ أسرار الحساب، فاستبدَّ به الحقدُ إلى أن تخلّص منه.

يا لها من فريةٍ أشدُّ مرارةً من العلقم...

لم يمض وقت حتى أتاه العسس، وشدّوا وثاقه، ثم سيق به

إلى الحبس وكأنه لصٌّ أو سفّاحٌ يتخفّى، وكم كان حزنه عظيماً أمام نظرات أمه المفجوعة، وأبيه المكلوم، فيما تقاذفته باقي العيون بالشكّ والارتياب، وقد خشي أترابه ورفاقه أن تلحقهم التُّهم نفسها إن أظهروا تعاطفاً معه.

زُجَّ به في زنزانةٍ قاتمةٍ، ضيّقة، لا يكاد يدخلها ضوء النهار إلا من كوةٍ صغيرةٍ في أعلى الجدار. المكان تعلوه روائح العطن والرطوبة، وتسري فيه همهمات المحابيس وصرخاتهم.

أمضى وقته محدقاً في الفراغ، عاجزاً عن استيعاب ما جرى له، تصله أصداءٌ وإشاعاتٌ يناقض بعضها بعضه، أقربها لفهمه ما قيل عن أن جوهر الفارسي الذي لم يكفّ عن تلفيق الوشايات ضد ابن الياسمين قد بارك خبر القبض عليه، وأقنع مقربين من الحاشية بأنه شريكٌ في جرم فظيع. دون حيازته وسيلة لإثبات براءته وهو حبيس الجدران، فلا معارف له داخل الديوان وبين الحاشية، ولا سلطةَ له تخوله جمع الشهود.

مرّت أيامٌ طوالٌ وهو في السجن، ازداد أسىً وذهولاً كلّما تقدّم الزمن. فكر في عار والديه والأذى الذي قد يمسّهم من جرّاءِ هذا الاتهام الظالم. صار الآن مطعوناً في صدقه، فاقداً لحريته وراحة باله.

تذكّر وصايا معلمه بالثبات، لكن أنّى له ذلك وسط هذه الأحابيل والمكائد؟ إن من دبّروا قتل ابن الياسمين هم أنفسهم أطبقوا براثن الزور عليه. لا شك في وضوح نياتهم: القضاء على ابن الياسمين وعلومه، وتلفيق التهمة إلى أقرب الناس إليه، تجنباً لاهتمام أحد باحتمال تورّطهم. وبهذا، يصرفون الأنظار عن صراعاتهم، ويبرّئون أنفسهم أمام الملأ.

لم يكن يجد عزاءً إلا في دعاءٍ طويلٍ يرفعه إلى اللّه في ظلمات ليالي سجنه، مستذكراً ما تبقّى من معارفه، والحقّ أنّ بعض المسجونين

الهامسين تعاطفوا معه على استحياء، خشية أن يُنقل كلامُهم إلى ذوي النفوذ، فَيُزَجُّ بهم هم أيضاً في تهمة التواطؤ. وإن وصلت أصوات من خارج السجن، تقول إن البعض ما زالوا على شكهم في سذاجة رواية اتهامه بقتله شيخه، فتشبّث بتلك الإشاعات القليلة التي منحته سراب صبر.

وفي كلّ ليلةٍ، عندما يرخي الظلام سدوله، ويخيّم السكون على الحبس، يرقد على الأرض الباردة، ويرفع بصره إلى تلك الكوّة الصغيرة، حالماً بالخروج بريئاً ذات يوم قريب، لعله يكمل ما بدأه شيخه المغدور.

*

وإن ضربتَ لعدا في جنس فالخارجُ الجنس بغير لبس

الأرجوزة الياسمينية في الجبر والمقابلة - نسخة مكتبة الإسكوريال بإسبانيا - رقم 954/ 2

*

ومرّت سنوات طويلة، إلى أن أتى السجان يوماً على حين غرة، وألقى في وجهه كلماتٍ مقتضبة:

- اذهب، أنت طليق السراح...

لوهلةٍ ظن أنّه يسخر منه، فقد قبع في حبسه طويلاً حتى نسي ماضيه ويئس من براءته، لكن حين خرج إلى ضوء النهار، لم يجد من ينتظره أو يهلل لعودته، بل رأى مدينة أخرى، ارتدت ثوب الوجوم، وعَلَت وجوه الناس مسحةٌ من حزن وهزيمة.

ثم علم فوراً بالخبر الصاعق الذي هز القلوب والأفئدة: فقد مُني الناصر بهزيمةٍ نكراء في حصن العقاب بالأندلس، وصارت أمجاد الدولة التي بناها أجداده على محكِّ الانهيار.

أوجع قلبه أن يتلاقى يوم خروجه من أسر ظالم مع انكسار أمةٍ بأسرها؛ فاحتارت مشاعره في التعبير عن ذاتها.

سار في أزقة مراكش كالغريب، هي مدينته التي وُلد فيها ونشأ، ويعرفها كما خطوط يده، لكنّ نظرات الناس فيها كانت شاردةً، لا تبالي بمَن يمرّ عبرها.

كل الأحاديث تدور حول الهزيمة وأسبابها، والقلاع التي خرّت

أمام زحف النصارى؛ حتى إنّ بعض حِرفيّي الدكاكين انصرفوا عن البيع والشراء، وصاروا يستمعون إلى أخبارِ العائدين من ضفة الأندلس، وقد أوجعتهم التفاصيل.

سعى بحذرٍ إلى بيته القديم، وقلبه مضطربٌ خشيةَ أن يجد نفسه غريباً حتى على أهله، وعندما نادى من خلف الباب، سمع شهقاتٍ لا تُفرّق بين الفرح والذهول، كأنّهم يرون من عاد من قبره. هرع إليه والده العجوز بدموعٍ كادت تمزق قلبه، وتشبث به كأنّه يخشى أن يفلته.

شهقت أمه بأعلى صوتها وهي تضمّه إلى صدرها، فشعر لحظتها أن اللّه يعوضه عما فاته من سنوات الظلم والحبس.

لكن ما أقسى أن يختلط في القلب فرحُ النَّجاة بحزن الهزيمة، فالمدينة كلها تئنّ بأوجاع خسارة العقاب.

أما هو، فلم يفسّر ما تراه عيناه إلا بما يتلاقى مع محنته:

إذا استشرى الظلم بين العباد، تراءت لك الهزيمة آتية من أقصى البلاد...

تراءت له ذكرى شيخه، وكيف اغتيل غدراً في عقر داره، لا لشيءٍ إلّا لأنه أبدع وأراد بنفسه وبني جلدته خيراً. ولكنهم، بدلاً من حمايته وتكريمه، فتحوا عليه أبواب الوشاية، واختلقوا الأكاذيب، ولحقه هو من الظلم ما لحقه.

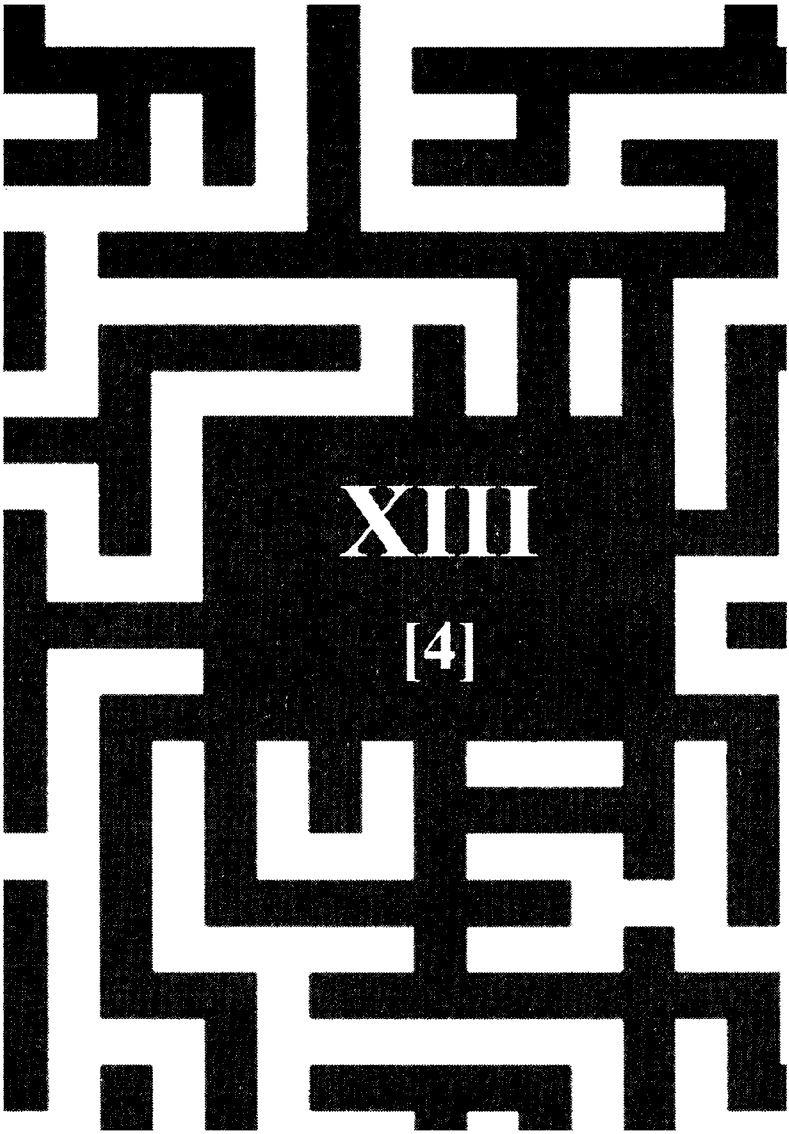
وها هي ثمرات الظلم تظهر كأوضح ما يكون...

والعلم وحده أقدر على نفض غبار ما لحق بالبلاد من هزيمة...

رغم مخالفة أبيه وخوف أمه، عاد من جديد إلى جمع بقايا كتب الشيخ التي أفلتَت من أيدي الأعداء، وقد تشتت شملها وضاع معظمها، ثم اقتفى أثر بعض تلاميذه القدامى، علّهم يُحيون بعضاً من تراثه،

ويضيفون عليه شيئاً من معارفهم، ورغم بساطة الحال، وجد في قلوب التلاميذ القدامى صدقاً، ورغبةً عارمةً في استنقاذ ما يمكن من ميراث شيخهم ابن الياسمين، وقد أدركوا جميعهم أنّ العلم وحده سيسند ديارهم، إذا ما عصفت أنواء جديدة ببلادهم...

*


XIII
[4]

XIII

[4]

إلى حبيبتي الغالية مادلين

(1927)

«يرسم شارل بودلير في ديوان **أزهار الشر** حدوداً دقيقةً بين قيمة الوفاء وثمن الخيانة؛ فيفضح أعماق النفس عند استسلامها للإغواء، ويصوّر الألم الذي يعتري القلب عند انزلاقه نحو دوامة الشهوات المدمّرة. لا تزال هذه التيمة حيّةً في عصرنا الرّاهن، فمع تسارع وتيرة الحياة وضغط الواقع الافتراضي، تندفع علاقاتنا أحياناً إلى هاوية التزييف والخيانة، فتفقد المشاعر أصالتها ونقاءها. بيد أنّ كلماته تذكّرنا دوماً بأنّه، وفي مواجهة الخيبات، سيبقى الحبّ وحده طريقنا الأمثل نحو اكتشاف الذات، مهما تعدّدت عثراتها وتقلّباتها».

رشيد بناصر – المحاضرة الثالثة عشرة – الأربعاء 6 مايو 2015

ملف معركة عين الجبل (المغرب) 1927
أرشيف الوثائق والمراسلات
رسائل الجندي: مارسيل دو باسكال
(من 08 يوليو 1927 إلى 23 ديسمبر 1927)
الرسالة الأولى

ليلة الثامن من يوليو عام 1927

إلى حبيبتي الغالية مادلين

تحيةً مفعمةً بالعشق والحنين،

منذ أن عانقتك للمرة الأخيرة على رصيف المحطة، قبل صعودي إلى القطار، وأنا أحمل في قلبي صورتكِ، لا تُفارقني صباحاً ولا مساءً. أقضي ساعات طويلة متأملاً قسمات وجهكِ، وابتسامتكِ العذبة. أعيش هنا وحدة رهيبة، لا تدفعني سوى إلى الغرق أكثر في اشتياقي لك.

أسمع مراراً، بين هذه الجبال الوعرة، دويَّ إطلاق النار، وأرى ألسنة الدخان تتصاعد من قمم بعيدة مجهولة. ونحن، أنا ورفاقي، قابعون في خيمتنا العسكرية المرقّعة، نتحصّن خلف أكياس الرمل، متأهبين لأي خطر قد يزحف صوبنا.

كم أتوق لعودة الأيام التي قضيناها معاً في شوارع باريس قبل سفري، متلذذين بحلويات تكسر مرارة فنجانَي قهوتنا. كنت أمزح دائماً، قائلاً إنني قادرٌ على مجابهة كل صعوبات الحياة، ما دمت أرى بريق الحب في عينيك. أما الآن، وقد افترقنا على أمل اللقاء من جديد، فقد أدركت مدى قسوة القدر، الذي أجبرني على تحمّلِ المسافات والأيّام

من دونك. وأيقنت أن ما بيننا أكبر من أن يصفه لسان أو قلم.

أجلس كل مساء متربعاً في ظل الصخرة القريبة من المعسكر، حيث أطلّ على وادٍ سحيق، وأسأل نفسي:

هل سيسمح لي القدر بالعودة عما قريب؟ هل سأراكِ قرب نافذة غرفتكِ في بيت العائلة، وأنت تنتظرين أوبتي بشوق؟

تخدعني أشعة الشمس المنعكسة من قمم الجبال أحياناً، فيتراءى لي وجهكِ من بعيد، ثم تمر لحظات أدرك بعدها يائساً أنه وهمٌ استحضره خيالي لتخفيف وطأة غربتي في هذه الأرض الموحشة.

لا يستهان بالمخاطر هنا، فنحن نواجه طبيعةً قاسيةً قبل أن نواجه أعداءً مُحتمَلين. حرارة خانقة نهاراً، ثم تنقلب الأجواء مع اقتراب الغروب لتتحول إلى برد يبث الرجفة في الأوصال. سحبٌ داكنة تتأرجح بين الرمادي والبنفسجي في برهة وجيزة. الليل سيّد الحذر والخوف هاهنا، يتعالى صفير الرياح بين جنبات الصخور، فيخيّل إليك أنّ الجبال تتنفس من حولك. أما عواء الذئاب، فلا أفسره إلا برغبتها في مشاطرتي وحدتها وحزنها الدفين.

مرّت عدّة أسابيع منذ وصولنا، وما زال القلق يتربّص بنا جميعاً. كلٌّ منا يحمل قصته الخاصة. إذا نظرتِ إلى عيون رفاقي، سترين الإصرار والعزم على إنهاء هذه المهمة والعودة سريعاً إلى الديار. نمضي الوقت نتحدث عن مستقبلنا، راسمين خططنا المتفائلة لليوم الذي سنتحرّر فيه أخيراً من هذا العبء. يحلم بعضنا بزوجةٍ وأبناءٍ، ويشتاق بعضنا لحضن أمّ مريضة. أمّا أنا، فوحده صوتكِ الناعم يتردد في ذهني، ويمنحني جرعة أمل كلما دفعني اليأس إلى الاستسلام.

أتذكّر قبلة وداعنا الأخيرة في المحطة، عندما أوشك صفير القطار أن يصمّ آذاننا. وضعتِ يدكِ على يدي وقلتِ لي: «ستعود سريعاً يا

مارسيل، سنتزوج، ولن أفارقك بعدها ما حييت». عندها تجاهلتُ كل تحذيرات رفاقي، فبريق عينيكِ يومها حجب كل المخاوف، وما اعتبرت نبرتك الحانية سوى رسالة طمأنينةٍ ضمّدت جراح روحي.

لقد ألقوا على عاتقنا مهامَّ شاقة للغاية: نصبُ كمائنَ وحراسةُ طرقاتٍ وعرةٍ، قد يستغلّها الخارجون عن القانون للتنقّل بين مناطق الإسبان ومناطقنا. يخيّل إليّ أحياناً أننا لم نعد نعرف حقيقة من هو العدو من الصديق.

الناس هنا بسطاء وهادئون، لا يبغون سوى تأمين قوتهم، والعيش بسلام. رأيتُ قبل أيام صبيّاً يمرّ بنا، حافي القدمين، يحمل حزمةً صغيرة من الحطب. توقفت عنده وسقيتُه رشفةَ ماء رغم رفض بعض رفاقي. رأيت في عينيه خوفاً عظيماً، يشبه خوف عصفور صغير مبلل.

يا لها من مفارقة؛ نأتي من بلادٍ تضج بالصخب والحياة، لنجد أنفسنا في جبالٍ نائية، لا يُسمع فيها إلّا الصمت وعواء الذئاب وأزيز الرصاص.

أخشى أن يغيرني هذا المكان، أن يسرق من قلبي رقّته، ويحوّل جسدي إلى جثة لا روح فيها ولا إحساس. لكنّني أقاوم متمسكاً بذكرياتنا، وأملي بلمّ شملنا أخيراً بعد طول انتظار، فالجبال قاسيةٌ لا ترحم، لكنّ حبكِ يمدّني بقدرةٍ عجيبةٍ على الثبات.

الروح هنا عالقةٌ بين السماء والجبل، لكن كلماتك بوصولها تمنحني أملاً وقوة. يأتي أحد الجنود من الموقع الخلفي حاملاً رسائل الأحبة. وفيما يفتش كلٌّ منا عن اسمه بين الأظرفة المكدّسة، يقع بصري على اسمكِ الفاتن.

آه يا مادلين!

كيف استطاع هذا الاسم أن يهبني سكينةً لا تُقدّر بثمن؟

اطمئني، سنعيش أيامنا المقبلة بسعادة وهناء. سنجلس على حافّة نهر السين، سنُطعم البط، وسأغرق في بحر عينيكِ مصغياً لحكاياتكِ عن زينة الفساتين وحفلات الأصدقاء. لن تحمل ذاكرتي إلا شظايا بعيدة عن هذه الجبال. وربما سأحكي لأبنائنا المستقبليين عن أيام بعيدة، قضيتها في جبل موحش، جالساً فوق صخرةٍ صلبة، أنظر إلى السماء الصافية وأطالع وجه أمّهم في نجومها.

أعاهدك يا حبيبتي، ما هي إلا أسابيع وينتهي كل هذا العذاب، لنحمل بعدها أحلامنا المشركة إلى ضفةِ الأمان، وما الحبّ إلا ترياق لسم الغربة.

اقطفي زهرة أقحوان من الحديقة، وضعيها في مزهريتك المفضلة قرب نافذة غرفتك، لعلها تذكّرك بأول باقة ورد أهديتها لك.

وإلى أن يحين موعد اللقاء، تذكّري أنني على العهد باقٍ، وأن في صدري قلباً لا ينبض إلا بهواك.

حبيبُكِ المخلص إلى الأبد،

مارسيل

*

ملف معركة عين الجبل (المغرب) 1927
أرشيف الوثائق والمراسلات
رسائل الجندي: مارسيل دو باسكال
(من 08 يوليو 1927 إلى 23 ديسمبر 1927)
الرسالة الثانية

مساء السابع عشر من أغسطس عام 1927

إلى حبيبتي الغالية مادلين

تحيّةً دافئةً تسبقها قبلاتُ اشتياقٍ لا ينتهي،

وصلَتني رسالتكِ الأخيرة بكلّ ما فيها من حنينٍ وتذمُّرٍ وقلقٍ، ولا أخفيكِ أنّ مجرد قراءتي لكلماتكِ دفعتني لتخيّل قطعي للمسافات في لمح البصر، فقط لأعود إليكِ وأضمكِّ أخيراً بين ذراعيّ، لكن الحقيقة الصارمة أبت إلا أن تعيدني إلى خيمتي الصغيرة هنا.

ابتسامتكِ المشرقة بين كلماتكِ الحانية، وقلقك المنساب بين السطور، وحتّى استياؤكِ من تشدُّد والدتكِ في تقييدكِ والتدخُّل في تفاصيل حياتكِ، كلّ ذلك يربطني بكِ أكثر، وكأنّ ما بيننا حبل سريّ يمتد عابراً السماوات والجبال والبحار.

أدركُ تماماً حجم الضغوط التي تمارسها عليك والدتكِ منذ سفري المفاجئ. وأعرف أنها، رغم قسوتها الظاهرة، وشدّتها الواضحة، لا تفعل ذلك إلا بدافع خوفها عليكِ، وحرصها على سمعتكِ وسلامتك.

لا أُنكر أن في هذا الوضع ما قد يكون ثقيلاً على قلب شابّةٍ مرحةٍ مثلكِ، تحلُم بالتنزّه في شوارع باريس، وملاقاة الصديقات، وحضور

الحفلات الموسيقية. ومع ذلك، أطلب منكِ قليلاً من الصبر والتحمُّل يا حبيبتي، فوالدتكِ وإن تشددت، لا تهفو جوارحها إلا لسعادتكِ.

سأعود، وستدركين كم كانت محقّة في خوفها عليك.

سألتني عن مقامي هنا، وسأجيبك بكل أمانة: لا يريد الأهالي هنا سوى العيش بسلام، لكنهم لا ينظرون إلينا بعين الصداقة أو المحبة. لا نلقى الترحيب أينما توجهنا، ويرفض بعضهم التعامل معنا نهائيّاً. ومهما حاولنا تلطيف الأجواء بالمعاملة الجيدة، وعروض توفير بعض المؤن التي يحتاجون إليها، فإنهم يُديرون ظهورهم لنا، رفضاً ونفوراً.

نحن لا نريد بهم شرّاً، لكننا لن نسمح لأحد بفرض شروطه علينا، وتوجيه دفة الأمور هنا على هواه، فما جئنا إلا لنساهم في لحاقهم أخيراً بركب الحضارة.

لماذا يكرهوننا إذن؟

شاركت مع رفاقي في إحدى الدوريات منذ بضعة أيام، فما وجدنا إلا نظرات خوفٍ وحذر. رأيتُ بأمّ عيني كيف كانت النسوة يتوارين عن الأنظار خلف جدارٍ شبه منهدم، وهنّ يجذبن الأطفال الصغار لإبعادهم عنّا. لا أخفي عنك أنه مشهدٌ يُدمي القلب، أنت في نظر هؤلاء مجرّد عدو، ومهما حاولنا ردم الهوّة بيننا وبينهم، فإنهم يتمادون في ابتعادهم عنا. لا يثقون بنا أبداً، فرنسيين كنا أم إسباناً، ففي جميع الأحوال، سنظل غرباء في عيونهم.

أدهشني في رسالتكِ سؤالكِ عن فسح التنزه والترفيه، فضحكت طويلاً، وقد كدت أنسى معنى المرح البريء بمرور الأيام.

ليتكِ ترين حالنا: نحن هنا في موقعٍ عسكريٍّ بائس، حيث تتخلل السكينة الظاهرية توترات مفاجئة، إذ تكفي شرارةٌ صغيرةٌ لإشعال فتنةٍ واسعة. ننام متأهبين بأزيائنا العسكرية، ولا ندري في أي لحظة قد

تأتي الأوامر بالتحرك. أما الترفيه، فلا يتعدى تحلّقنا حول نارٍ خجولةٍ مساءً، نحتسي قهوة أو شاياً أُعِدّ على عجل، ونتبادل شيئاً من الأحاديث والقصص والأمنيات. لا موسيقى ولا حفلات، فقط خيالاتٌ باهتةٌ تضمحلّ في العتمة، عندما تغفو الجبال.

تسألينني أيضاً عن رفاقي في هذا الموقع. غالبيتهم مثلي أنا، ينهشهم الشوق إلى الوطن والأحبة. كلنا متذمرون من بقائنا هنا، ويدور حديث عن إرسال تقرير عاجل لمقر القيادة، أملاً في التسريع بعودتنا.

كلّما حان موعد تناول الطعام، وجدناها فرصة لتبادل الحكايات عن عائلاتنا: فهذا يتحدّث عن طفله الرضيع الذي لم يره سوى مرة واحدة قبل السفر، وذاك يستعيد بحنين واضح تفاصيل مشاجراته اليومية مع زوجته، وهناك من يبكي كلما تذكّر والدته المريضة وأمنيته في العودة إليها قبل وفاتها.

أما أنا، فحكاياتي كلها أنتِ، أحدثهم عنكِ، وعن طيبتكِ، وحبّكِ الجارف لي، وقلقكِ الذي يخترق المسافات ليحطّ في أعماق قلبي هنا. وكلما أنهيت كلامي، ران صمتٌ ثقيل، وتراءت الحسرة في عيونهم، لأنني أذكّرهم أيضاً بأحبتهم، فتعمّ الجو كآبةٌ نقاومها بالسخرية أو باستحضار ذكرياتٍ أخرى، لعلها تُعيد لنا بارقةَ أمل.

صدّقيني، إنّ شوقي لكِ يفوق كل وصفٍ، وكأنّ النهار بطوله لا يكفيني لأفكر فيكِ، ولا الليل الممتدّ يكفيني لأحلم بصورتكِ. أسمح لعيني بذرف دمعة بين الحين والآخر، بعيداً عن نظرات رفاقي، كلما تذكرت أننا كنّا على وشك إتمام زواجنا لولا توصّلي ببرقية الاستدعاء. اطمئني، فور تلقّي الأمر سأُسرع بالعودة إليكِ، ومعي كل الوعود التي قطعتها لكِ.

قرأتُ رسالتكِ الأخيرة أكثر من عشر مرات حتى حفظتُها، وأعدتُ

قراءتها على ضوء القمر. لحروفكِ القدرة على خلق شعور عارم بالطمأنينة في أعماقي. وحدها رسائلكِ تعينني على تحمّل هذه العزلة الشرسة.

نحن لا نتلقّى الإمدادات ولا المراسلات بانتظام، فتتأخر الرسائل في الوصول إلينا، وقد تضيع بلا سبب واضح. أما المعيش اليوميّ، فلا يخلو من مشقّة. قد تنقطع المؤن بفعل الأوضاع الميدانية، فنضطر إلى تقنين حصص الطعام والماء، ويحدث أن نقتات على الخبز الجاف مع قليل من الفول أو الأرز إن وُجدا. تندر كميات القهوة بين الحين والآخر، ولا تصلنا منها سوى كمياتٍ بسيطة نستهلكها بسرعة.

حبيبتي، أعلم أنكِ تستصعبين تحمُّل هذا البُعد، وتخشين ضياع العمر في فراقٍ لا أفق لنهايته. لكن نهاية العذاب قريبة.

سأعود، ونتزوج، ونختلي ببعضنا في بيتنا الدافئ، ستستندين برأسكِ على كتفي، لأحكي لكِ عن تخوم الجبال، وأصوات تلقيم البنادق والرشاشات، التي لطالما أفسدت عليَّ لحظاتِ حنيني، وستكون ابتسامتك الحانية خيرَ ختامٍ لكل ما لاقيناه من لوعة البعد.

تتعالى دقات قلبي بين ضلوعي وأنا أختم هذه الرسالة، لكنّني سأتمسك بقلمي وأوراقي وأكتب لك متى استطعتُ. فالكلمات هي الجسر الوحيد بين عالمكِ الوديع وعالمي القاسي هذا، وإلى لقاء آخر يا غاليتي.

حبيبك المتعطش لدفء حضنك،

مارسيل

*

ملف معركة عين الجبل (المغرب) 1927

أرشيف الوثائق والمراسلات

رسائل الجندي: مارسيل دو باسكال

(من 08 يوليو 1927 إلى 23 ديسمبر 1927)

الرسالة الثالثة

مساء الثاني من سبتمبر عام 1927

إلى حبيبتي الغالية مادلين

تحية مفعمة بحب جارف، وحنين لا ينضب،

أرجو أن تكون رسائلي السابقة قد وصلتك، وإن كان ذلك أقرب للمعجزة، فصعوبة التواصل في هذه الأصقاع توشك على الدفع بي إلى حافة الجنون.

سعدت كثيراً بما وصفتِه عن يومياتك: حديثكِ عن عنايتك بورود الحديقة، ونزهاتكِ مع صديقتكِ إميلي في الشوارع القديمة. أقرأ وصفكِ لتفاصيل الحياة هناك، فأشعر وكأنني ألامس بشرتكِ وأشمّ رائحة الخبز الطازج المنبعثة من مخبز هوغو.

ما أجمل تلك الحياة التي تنتظرنا!

دعيني أحدّثكِ عمّا آل إليه حالي في الآونة الأخيرة. أحاول ملء أوقات الفراغ والصمت بقراءة الشعر. أحمل معي نسخةً صغيرةً من **أزهار الشر** لبودلير، وأعيد قراءة تلك القصائد، فتحملني بعيداً عن وحشة الجبل وصلابة الصخور.

أحياناً، عندما يُنهكنا التعب، ويُسمح لنا بأخذ قسط من الراحة

في ساعات المساء، أقرأ سطوراً من قصيدةٍ على مسامع رفاقي، فيبتسم بعضهم بخجلٍ، كمن يستعيد ذكرى حبٍّ شهواني قديم، فيما يتهكّم آخرون قائلين: «ما نفع هذا يا مارسيل هنا؟». لكنّني لا أبالي، فالشعر كان وسيظل مهرباً للنفس من قسوة واقعها.

لم يدم الهدوء طويلاً، وحصل ما يخشاه كلّ جنديٍّ غريبٍ في أرضٍ لا ترحّب به، إذ وقعت حادثة أجّجت كراهية أهالي المنطقة لنا. اتُّهِم أحد رفاقنا، وهو جنديٌّ لا داعي لذكر اسمه، ويفتقر أساساً إلى حُسن الخلق والانضباط، بالاعتداء على فتاة قروية...

صحيحٌ أنّنا لمسنا دوماً في تصرفاته الطائشة ما يجعلنا حذرين من تجاوزاته، لكننا لم نتخيل قط ارتكابه فعلاً بمثل هذه الفظاعة المخيفة. بدأت المنطقة المحيطة بنا تغلي غضباً، ورأينا الكرهَ بادياً في عيون الجميع. حاول الضابط المسؤول التعامل مع الموضوع بحزمٍ، لامتصاص النقمة المتعاظمة، وأمر بتحويل هذا الجندي إلى المحاكمة العسكرية فوراً، دون أن يغير ذلك من الأمر شيئاً.

كنتُ في موقع الحراسة مساء أمس، عندما وردني نبأ وجود تحرّكات غير معتادة في القرية المجاورة، وتجمُّع بعض الرجال المُسلّحين ببنادق قديمة وهراوات، برغبة واضحة في الانتقام. استُنفرنا سريعاً، وأُرسِلت مجموعةٌ منا بقيادة ضابط صف لمحاورتهم والسعي لتهدئة الوضع. لكننا أيقنا أن الجرح كان أعمق بكثير ممّا تصوّرنا، فبمجرّد اقتراب جنودنا منهم، أطلقوا بضع رصاصاتٍ في الهواء، فردّ جنودنا بالمثل. حكى لي زميلي فابيان أن لحظاتٍ معدودةً بدت كافية لهيمنة الفوضى على المشهد المتوتر.

انتهت المناوشة بسرعةٍ، دون أن تُسفر عن خسائر كبيرة، لكنّ الصدام زاد من تعقيد الأمور. هم ينظرون إلينا بعين الغاصب الذي أتى

للاعتداء على شرفهم، ونحن نرى أن منهم من انتظر فقط ذريعة الاعتداء على الفتاة للانتقام منا والتعبير عن الرفض القاطع لوجودنا.

حاول الضابط المسؤول عقد اجتماع عاجل مع بعض وجهاء القرى القريبة، لكنه لم يسفر عن النتيجة المرجوة، فالحذر سيد الموقف. وانعكس ذلك على يومياتنا، إذ اهتزت ثقة الجميع، وتحوّلت الحراسة الليلية إلى حصص متتالية من التعذيب، خاصة عندما نسمع أحياناً أصواتاً بعيدةً، تبدو كأنها طلقاتٌ نارية أو فرقعاتٌ مجهولة. لا ندري من يهاجم من، لكنّ اليقين الوحيد هو أنّ الجبل تحت أقدامنا يغلي بالحقد والترقب.

حبيبتي، لكم يؤلمني حزنك وضيقك المتعاظم بوعودٍ تتأجّل. صدّقيني، ما يضاعف حرقة قلبي هو قطار الزمن الذي لا يرحم أحداً، وأخشى أن تتحوّل أحلامنا البريئة والموسومة بالعشق إلى ذكرياتٍ عابرة. أنا مثلك، أحمل بين ضلوعي عواطفك المشتعلة نفسها، أحنّ إلى صوتكِ، ولمسة يدكِ، وإلى لحظات من السكينة لطالما وحّدت روحينا. لكنه واقعي الصعب يفرض علينا شروطه.

أرجوكِ يا مادلين، تمسّكي بالأمل، لمستُ في رسالتكِ الأخيرة شيئاً من الخيبة واليأس، ولا أريد لمشاعر الشك أن تستفحل في قلبكِ. سيأتي الغد بخيرٍ أو فرصةٍ أو حتى معجزةٍ تنهي شتاتنا.

أعود إلى الشعر في أحيانٍ كثيرة، مستحضراً منه ما يعيدني إلى جذوري: إنسان نشأ على مبادئ الخير والجمال، لا على أصوات البنادق والرصاص. هناك مقطعٌ علق في ذهني من إحدى قراءاتي القديمة، وإن لم أحفظه حرفيّاً، يشبه الحبّ بالومضة القادرة على اختراق العتمة.

أنتِ يا حبيبتي تلك الومضة التي تحرس أيامي، وتؤنس وحشتي،

وتحميني من الوقوع في شرك الجنون. وحده حبك قادر على تخفيف وقع الأحداث مهما تعاظمت.

ما زلتُ على قيد الأمل والصبر، منتظراً فرصةً لأبعث لك بهذه الرسالة ورسائل أخرى، لعلها تصل إليك في أقرب الآجال. نعم، قد يطول الوقت، وربما تتأخر كلماتي في رحلتها الطويلة إليك، لكنني على ثقةٍ بأن شوقكِ سيطيل الصبر.

ابقي على عهد الحبّ الذي زرعناه معاً، وتأكدي أنّني مهما عاينت ورأيتُ هنا من قسوة، فسوف أراهن دائماً وأبداً على سحر عينيكِ البعيدتين، ودفءِ مشاعركِ الصافية.

دمتِ بخيرٍ يا حبيبتي، ولا تؤخري رسائلك الجميلة عني، فأنا لا أحيا هنا إلا بها.

حبيبك إلى الأبد،

مارسيل

*

ملف معركة عين الجبل (المغرب) 1927
أرشيف الوثائق والمراسلات
رسائل الجندي: مارسيل دو باسكال
(من 08 يوليو 1927 إلى 23 ديسمبر 1927)
الرسالة الرابعة

ليلة الخامس عشر من أكتوبر عام 1927

إلى حبيبتي الغالية مادلين

تحية غرام ومكابدات لقسوة الانتظار،

أبدأ رسالتي بنداء شوق لم يهدأ قط في قلبي، وإن تخلله قلقٌ متصاعدٌ من منحى تطوّر الأحداث هنا.

عذراً يا حبيبتي، إن بدت كلماتي أشدَّ كآبةً من ذي قبل، لكن الأوضاعَ تزدادُ سوءاً يوماً بعد يوم. وما يحزّ في نفسي أكثر هو طول الانتظار الذي يثقل كاهلك، مع تعاظم شكاوى والدتكِ، التي لا تفتأ تُذكّركِ، وربما تجادلكِ، حول أسباب غيابي الطويل. ليتني شرحت لها مباشرة عدم قدرتي على مواجهة حالة الطوارئ القائمة، وما يتبعها من أوامر عسكرية لا قِبَل لأحد بمناقشتها. حدّثيها أنت، واشرحي لها بمعرفتك، في كل فرصةٍ تُتاح، أنّ حبي لكِ أكبر من أي وصف، وأن حضنك موئلي فور عودتي إلى الديار.

هزت حادثة جديدة معسكرنا، مشعلة نيران مواجهة لا مفر منها. اندلعت قبل أيام مناوشةٌ بسيطةٌ مع مجموعةٍ من شبّان وفتيان القرى القريبة، حيث بادر هؤلاء إلى رشق جنود الدورية بالحجارة، فيما

أُطلقت بعض الأعيرة النارية الغامضة من مكان ما. تشتّتَ الجنود بداية، ثم سارعوا إلى تعقّب المجموعة، فتمكّنوا من الإمساك بأحد الشبّان واقتياده إلى المعسكر للاستجواب، لعله يكشف عن حقيقة نواياهم تجاهنا.

لكنّ الأمور خرجت عن السيطرة. لا أدري ما السبب، هل هو الضغط أم الخوف أم الرغبة المستميتة في انتزاع اعترافٍ يطمئن رؤساءنا، لكن بعض الجنود تجاوزوا حدود الاستجواب الروتيني المألوف، وعذبوا الشاب بقسوة بالغة، وعندما تدخّل أحد الضباط لتغيير أسلوب التعامل معه، كان الأوان قد فات؛ إذ فارق الحياة قبيل فجر اليوم التالي، فانفتحت بذلك أبواب الجحيم علينا.

عندما انتشر خبر وفاة الشاب، ثار أهالي القرية وكل القرى المجاورة، وأوشكت نظراتهم الملتهبة على اختراق صدورنا وتمزيق أحشائنا.

ثم بدأنا نشهد تحركاتٍ غريبة، خاصة في جنح الظلام، وشاعت أخبار عن قدوم رجال أشداء، من ذوي الخبرة في القتال، أتوا من مناطق محاذية وأخرى بعيدة، ليشدّوا أزر القرويين في مواجهتنا، بعدما أذاقوا الإسبان الويلات في معارك سابقة. ولا معنى لكل ذلك سوى اقتراب مواجهةٍ كبرى، قد تندلع في أي لحظة. ولك أن تتصوّري، يا مادلين، كيف أصبحنا في موقعنا الصغير هذا أشبه بمن يسبح في بحر من البارود، يكفيه عود ثقابٍ ليدمرنا جميعاً.

بات الضباط هنا على قناعةٍ بأنّ الأهالي يُخفون شيئاً ما، وربما يخطّطون لثورةٍ مسلحةٍ واسعة. كثرت الإشاعات عن تهريب أسلحة قديمة، وقال بعض رفاقنا من العارفين القدامى بجغرافيا المنطقة إنّ هناك ممرّاتٍ سرّيةً بين الجبال، تسمح بتهريب العتاد والرجال.

انقسمت الآراء بين من يميل لمفاوضتهم وكسب الوقت، ومن ينادي بوأد تحركاتهم في مهدها، وضربهم بأشد درجات الشدة والقسوة، لردعهم عن مجرد التفكير في مواجهتنا.

أكاد أجزم أن لا قدرة لروحكِ الرقيقة على تصوّر حجم هذا العنف الأعمى، وأوشك على سماع قلبكِ وهو يرتعد من القلق. لا أخفيكِ، يا حبيبتي، أن رغبةً عميقةً في الصراخ تجتاحني. ولكن، من سيسمعني؟

وحدها الجبال قد تردّد صدى صراخي، دون أن تتعاطف معي، وقد اختارت بالفعل مع من ستقف في هذه المواجهة.

يحاصرني الأسى عندما أفكّر فيكِ، وفي والدتك التي تُطالِبُكِ بنسيان أحلامك والعودة إلى أرض الواقع، لربما تخشى ألا أعود أبداً. ذكرتِ في رسالتك الأخيرة أنّها وصفتني بالكاذب المدعي، وأنّ بقائي هنا طويلاً قد يطيل عذابكِ ويُضيّع سنواتٍ غاليةً من عمركِ.

مادلين، يا حبيبتي، حبنا ليس وهماً أو سراباً، وما يجمعنا أقوى من أي تهمةٍ يتسبب بها ظلم الزمن، نعم ظلمه، فلا أرى أي حكمة في إجبارنا على مواصلة التحمل أكثر، ولكن، ما باليد حيلة.

لم أفقد الأمل بعد، ورغم كل ما جرى وما قد يجري، ما زلتُ أحتفظ بك في أعماقي. تُلهمني بسمةُ عينيكِ صبراً غريباً، أتمسك به محافظاً على إنسانيتي. لن أنسى ما أعايشه هنا مهما حييت، لكنّني توّاقٌ للعودة صافيَ الروح، سليمَ الجسد، لنصنع معاً مستقبلنا الهادئ والجميل.

أكتب إليك وبعض رفاقي يجهّزون أكياس الرمل تحسّباً لأي هجوم ليلي، فيما يتأكد آخرون من حشو بنادقهم ورشاشاتهم، ويتبادلون كلماتٍ مقتضبةً لا تخلو من الانفعال.

وأنا هنا، لا أجد في الكتابة إليك إلا خلاصاً لنفسي من عبءٍ ثقيل.

أردت إطلاعك على حقيقة ما يجري رغم صعوبته، فقط انتظريني، فلا شيء يؤنسني هنا قدر انتظاركِ لي بوفاءٍ وإيمان بقدرتنا على تحقيق أحلامنا المشتركة.

سأختم رسالتي هنا، يا مادلين، مواصلاً اللجوء إلى عالم الحروف والكلمات الرقيقة، بعيداً عن ضجيج الرصاص.

أشواقي وقبلاتي لك، راسليني سريعاً بما لديكِ من حكايات وأخبارٍ، لعلّي أجد في رسائلكِ دفئاً أستعين به على صقيع هذه الجبال الغادرة.

حبيبكِ المعذب والمشتاق،

مارسيل

*

ملف معركة عين الجبل (المغرب) 1927
أرشيف الوثائق والمراسلات
رسائل الجندي: مارسيل دو باسكال
(من 08 يوليو 1927 إلى 23 ديسمبر 1927)
الرسالة الخامسة

ليلة السابع من نوفمبر عام 1927

إلى حبيبتي الغالية مادلين

تحية شوق، يخالطه خوف مما قد يأتي،

تسارعت الأحداث يا حبيبتي، وتعاظم الخطر من حولنا، حتى صارت الليالي الطويلة تجسيداً لكوابيس تلاحقنا وتطبق على صدورنا حد الاختناق.

اندلعت الشرارة الأولى لتمرّد القرويين، واشتعل فتيل غضبهم لموت ذلك الشاب، وانتقلت المواجهة من نطاق المناوشات الصغيرة المتفرّقة إلى حرب عصاباتٍ شرسةٍ، فباتوا يشنّون الغارات الخاطفة في جنح الظلام. ينقضّون على نقاط الحراسة النائية أو الدوريات الصغيرة، ثم ينسحبون في لمح البصر، مستخدمين معرفتهم الواسعة بمسالك الجبال وتضاريسها الوعرة.

في الأسبوع الماضي، تكرّر المشهد أكثر من مرةٍ، إذ تباغتنا مجموعاتٌ من هؤلاء المتمرّدين ليلاً، وفي مواقع حراسةٍ مختلفة. وفي كلّ هجمة، يُجهزون على اثنين أو ثلاثة من جنودنا بوحشيّةٍ بالغة، زارعين بذلك الخوف في نفوس الباقين.

صعقني خبر مصرع فابيان، أقرب وأعز أصدقائي هنا. لطالما قرأنا الشعر، وتقاسمنا الحكايات والذكريات، بحثاً عن لحظاتٍ مسروقة من السكينة في هذا الجحيم. سمعت دويّ الرصاص في الليلة ذاتها، ثم بلَغَني صباحاً أن الرفيق العزيز لم يخرج حيّاً من تلك المعركة الخاطفة. يا لها من ضربة موجعة، أجبرتني على مواجهة فكرة الموت، الذي يتربّص بنا عند كلّ زاويةٍ مظلمة.

على إثر هذه الهجمات، استُنفِرَت القيادة، وتتابعت الأوامر الصادرة عن الضباط. جرى استدعاء تعزيزاتٍ عسكريةٍ من مناطق أخرى، ووُجِّه لنا تحذيرٌ واضحٌ بأننا أمام معركةٍ فاصلةٍ، قد تندلع أطوارها في أي لحظةٍ.

شاهدتُ بأمّ عينيّ العربات العسكرية مدجّجةً بالجنود والمدافع، وهي تشقّ طريقها في قلب الجبل، كما وصل ضباط جدد، ممن يتبنّون خططاً أكثر صرامةً وقسوةً، بل ووحشية، في التعامل مع الأهالي. ترافق ذلك مع رصد دوريات استطلاعٍ تتسلّق المنحدرات لتتبع أثر المتمرّدين.

باختصار: إننا على وشكِ خوض مواجهةٍ كبرى، لا أحد يعلم طبيعتها، ولا زمانها أو مكانها، وستأخذ من جانبنا شكل حملةٍ عسكريةٍ شاملةٍ ضد الجبل وأهله.

ينظر البعض منّا بعين الخشية إلى ما قد يحمله الغد؛ فالجبل ميدانهم، وبيدهم تفاصيل خريطته ومواقع دهاليزه ومواضع الاختباء فيه، بينما نترنّح نحن بين الطرقات الوعرة والوديان السحيقة، بلا عونٍ سوى عتادنا.

هي أوّل مرةٍ أشعر فيها بأن الموت يقترب منّي بهذه الجرأة. كلُّ نظرةٍ في عيون رفاقي تُنبئ بخوفهم جميعاً من مصير مَن سبقوهم. ما عدت أقوى على النوم، وما إن يأتي الليل، حتى تداهمني الأفكار المظلمة.

صدّقيني يا حبيبتي، لم أكن يوماً جباناً ولا متردّداً في مواجهة الخطر، لكنّ الحبّ يصنع بنا ما لم تصنعه الحروب، يزرع فينا تمسكاً قوياً بالحياة، وبالأمل في العودة إلى أحضان من نحب، فنرى في كل طلقة تهديداً ومجازفة بفقدان حلمٍ طال انتظاره.

أفزعني ما ذكرتِه في رسالتكِ الأخيرة عن تماديها في الضغط عليكِ، لإعلان نهاية صريحة لهذا الارتباط الذي طال أمده. أتفهّم خوفها عليكِ وإحساسها بمرور الوقت هباءً، لكنها لا تعلم ولا تفهم أن يقيني بحبّكِ هو ما يبقيني حيّاً، ويمنعني من الانهيار مع كل الأنباء المؤلمة والمتواترة.

عودتي مرهونةٌ بما تقرّره القيادة لا ما أرجوه أنا، وما أنا سوى بندقيةٍ تُشير إلى حيث يريدون.

روحي وإن تاهت بين الجبال، مقيدة بيدك أنت. لا تتخلّي عني يا مادلين، فالأمل في قلبي معلق بانتظاركِ.

أكتب إليك الآن ونحن جميعاً نتوقّع هجوماً جديداً أو تحرّكاً مباغتاً؛ فأعينهم البعيدة تترصّدنا، وليلهم اعتاد على مواراة مفاجآتهم.

كلّي أملٌ في رسائلكِ القادمة. قرأتُ رسالتكِ الأخيرة مراراً، وتأمّلت فيها فراغ الجبال الموحشة عندما أعدتِ تذكيري بجولاتنا الطويلة، وجلستنا الجميلة في ذلك اليوم، على ضفاف السين.

أرسم تلك الذكريات في مخيلتي، فأراني هناك إلى جانبكِ، نعبر شارعاً لا يسكنه سوى الأمان والجمال. هل صار واقع بسيط كهذا حلماً بعيد المنال، وأنا عالق هنا بين صياح الجنود وطلقات الرصاص وقصف المدافع؟

أقسمُ لكِ يا مادلين، أنني سأحارب بكل ما أوتيت للبقاء على قيد الحياة، والعودة إليك. أما إن هزمتني بشاعة الحرب في يومٍ ما، فاعلمي

أنّني بذلت ما في وسعي، وأن روحي ستبقى هائمةً تحوم حولكِ، ترافقك أينما حللت وارتحلت، وتحرسك من كل كيد أو شر.

بحق العذراء والمسيح، لا تيأسي من دعائك المستمر، بأن تبقى حبال الأمل ممدودة بيننا، وأن يرأف القدر بحلمنا البريء.

يتوجب عليَّ الآن الاستعداد لجولة الحراسة. سأطوي رسالتي بسرعةٍ، وأبعثها مع أوّل فرصة نقلٍ ممكنةٍ، حاملاً معها قلباً مشتعلاً بالشوق، ورجاءً بألا تضيّعي ثقتك في حبنا، مهما اشتدت الأزمة وبدا أن حلها بعيد المنال.

عاشقك إلى الأبد،

مارسيل

*

ملف معركة عين الجبل (المغرب) 1927
أرشيف الوثائق والمراسلات
رسائل الجندي: مارسيل دو باسكال
(من 08 يوليو 1927 إلى 23 ديسمبر 1927)
الرسالة السادسة

مساء الخامس عشر من ديسمبر عام 1927

إلى حبيبتي الغالية مادلين

تحية مفعمة بالحب والأمل،

أكتب إليك وقد ركنتُ بندقيتي جانباً، علّني أستجمع شتات أفكاري وأُطلِعكِ على ما جرى خلال الأيام القليلة الماضية.

بلغ بنا التعب أقصى مداه، فلا راحة في النهار ولا طُمأنينة في الليل، كما تواصلت حملات المتمرّدين على نحوٍ مرعب، وامتدّت رقعتها رغم كلّ التعزيزات العسكرية التي جرى استقدامها.

لم نتمكّن من انتزاع أي معلومةٍ مفيدة من الأهالي، تعيننا على فك لغز الهجمات الخاطفة والدامية. عرضنا مكافآت ضخمة على من يتعاون معنا، مع ضمان السرية، دون أن يقودنا ذلك إلى نتيجة، فعمد بعض الضبّاط إلى انتهاج سياسة الترهيب والتخويف، يهدّدون ويتوعدون الجميع، مطالبين بالكشف عن مواقع المتمرّدين وخطط تحركاتهم. فلم نجد منهم سوى العناد والتصميم على التزام الصمت.

ثم حدث ذات ليلة ما لم يكن في الحسبان، إذ تسلل إلى معسكرنا، تحت جُنح الظلام، رجلٌ من سكّان القرية الجبلية. كان متنكّراً في

أسمال لن تدل أحداً على هويّته، يكثر من الالتفات حوله لربما خشي لحاق أحدهم به. قدّمه جنود الحراسة للضابط المسؤول، الذي يفهم لغته، فقرر الأخير جمع بعض الضباط في خيمته، واستُدعِيت أنا مع بعض رفاقي للاستماع.

دخل متردداً، والغبار يعلو ملامح وجهه، كأنما أتى لتوّه من وادٍ عميق. بدا عليه الإرهاق والخوف في آنٍ واحدٍ، ويبدو للمدقق في ملامحه أنه بعدُ في أول شبابه، لكنّه تكلّم بثباتٍ مفاجئ، والضابط يترجم لنا.

أخبرنا عن مناطق تمركز المتمرّدين، وكيفية تنقّلهم بين الكهوف الجبلية والوديان الضيقة، وعن خطّةٍ مباغتةٍ يستعدّون لتنفيذها ضدنا في غضون الأيام المقبلة. ذكر أسماءً محدّدةً ومواقع جبليةً معقدةً ما كنّا لنصل إليها لو قطعناها جيئةً وذهاباً لأشهر.

بدا الضباط مذهولين من دقّة ما يذكره، وقد سجّلوا كلّ كلمةٍ قالها. وعند فراغه من الكلام، سأله الضابط المسؤول عن دوافعه للقدوم إلى هنا ومشاركتنا كل هذه المعلومات القيمة، فقال إنه رجل عادي، لا قِبَل له بالقتال، ولم يكن يوماً ذا شأن في القرية التي نبذته، وأن الحال قد ضاق به، ولا يريد سوى أن ينجو بحياته، ورأى في المكافأة التي عرضناها حلاً قد يقيه تقلبات الزمن، وخطر استمرار حرب لن يستفيد منها أحد.

عمّ المكان صمتٌ ثقيل، تشوبه نظرات استغرابٍ من بعض الحاضرين. بعضهم لا يصدّق، ويرى أنّ الرجل قد يكون مرتزقاً أو جاسوساً تجرأ المتمردون على إرساله إلينا، فيما فسّر آخرون قصته برغبته الحقيقية في وقف الحرب والعيش بسلام، ولو كان ذلك على حساب قوم ربما تخلوا عنه لأسباب لا نعرفها.

أمّا أنا، فوقفتُ جانباً، مستمعاً بمزيج حذر وأمل. إذ لاحت لي في كلامه بوادر مفاجأةٍ قد تنهي هذه المعارك الطويلة، فتعود بذلك الأمور إلى طبيعتها، وتُفتح لنا نافذة للانسحاب من هذا الجحيم المرعب.

طلب الضابط المسؤول عزلَ الرجلِ فوراً في خيمةٍ منفردةٍ، وأن يوضع تحت حراسةٍ مشدّدة، ريثما يتحقّقون من صحة معلوماته، فلا أحد يرغب بالوقوع في فخ مدبّرٍ، وإن بدت اعترافاته شديدة الدقة، فقضيتُ تلك الليلة كما الآخرين، مشتتين بين التخمين والترقّب. فإن صدقت أقواله، فقد نفاجئ المتمرّدين قبل شن هجومهم، وإن كانت مكيدة، فسندفع ثمناً غالياً.

عمد الضابط أيضاً إلى تدوين بيانات الرجل والتقاط صورةٍ له للتوثيق. اطلعتُ بنفسي على تلك البيانات فوجدتُ في اسمه شيئاً غريباً: «بوغالب بن البشير». بدا نطقه غير مألوفٍ على ألسنتنا، ما أضفى على اسمه وقعاً عجيباً في المعسكر.

كأنّ الأقدار أرادت أن تفتح لنا منفذاً، ولو على حساب رجلٍ قرّر أن يخون قومه أو ينتقم منهم لسبب ما أو يهرب من مصيره معهم، لا فرق...

على أي حالٍ، قريباً ستُنفَّذ الخطّة التي سيتبناها الضبّاط اعتماداً على معلوماته، وسيتحرك الهجوم المباغت لضرب المتمرّدين في مواقعهم، ولعلّها الجولة الأخيرة في هذا النزاع الطويل، وستأتي بعدها الأوامر بالانسحاب أو الاستبدال. لعلّي أجد حينها طريقي إلى الباخرة ثم القطار الذي سيقودني إلى حضنكِ.

أبعث إليكِ يا مادلين بهذه الرسالة، والليل يوشك على ابتلاعنا. سنعرف حقيقة هذا الرجل، وما إذا كانت فرصتنا في إنهاء الحرب قد اقتربت أو ربما ازدادت تعقيداً، وتذكّري دائماً يا حبيبتي، أنّ رسالتكِ لي

هي متنفّسي من هذا الخوف الذي يرهق الروح، فاستعجلي بالكتابة ما استطعتِ.

أخبِريني عن نفسكِ، وعن أي جديدٍ يخصّ يومياتكِ أو حتى خلافاتكِ المتواصلة مع والدتكِ. وإن حدث وأتتني بشائر العودة، فستكونين أول من يعرف، سأضع حينها كلماتي الأخيرة في رسالةٍ عاجلةٍ، ثم أحمل فوراً أمتعتي لأحجز لي مكاناً في عربةٍ أو قافلةٍ تُعيدني إليك.

أتلهف لرؤية وجهكِ متهللاً بابتسامةٍ رقيقةٍ أمام باب القطار، وحدها ستُنسيني كل ما عانيته طوال هذه الشهور العصيبة. وإلى ذلك الحين، ستبقى عيناي شاخصتَين نحو أفق قد يحمل خبراً سعيداً في أية لحظة.

ودامَ حبُّنا قويّاً رغم ضراوة الحروب وقسوة الأيام،

مارسيل

*

ملف معركة عين الجبل (المغرب) 1927
أرشيف الوثائق والمراسلات
رسائل الجندي: مارسيل دو باسكال
(من 08 يوليو 1927 إلى 23 ديسمبر 1927)
الرسالة السابعة

مساء الثالث والعشرين من ديسمبر عام 1927

إلى حبيبتي الغالية مادلين

تحية حب وبشائر عودة قريبة،

لا أدري حقاً من أين أبدأ هذه الرسالة، وقد تراكمت في ذهني مشاهدُ تفوق قدرة الكلمات على الوصف، لكن المهم أن بارقة أمل العودة إلى الديار قد لاحت أخيراً.

أكتب لكِ الآن بعد انتهاء آخر مواجهة بيننا وبين متمرّدي الجبال، تلك المعركة التي قادنا إلى تفاصيلها الرجل الذي حدثتك عنه في رسالتي السابقة.

تأكد الضباط فعلاً من صدق ودقة المعلومات التي أدلى بها المدعو بوغالب، فجرى التخطيط لشن هجومٍ مباغتٍ بعد أيام. تقدّم الجنود تحت ظلام الليل إلى ممرّاتٍ وعرةٍ لا يعلمها إلا أهل الجبل، لكنّ خرائط الرجل وكلماته قادتنا عبرها بدقةٍ عجيبةٍ. وبحلول فجر اليوم الموعود، دوّت أصوات المدافع والطلقات في المرتفعات، واندلعت المعركة الحاسمة.

لم تمضِ ساعاتٌ حتى بدا لنا أنّ الكفّة تميل لصالحنا؛ إذ نجحنا

في مفاجأة المتمرّدين هناك، وقد ظنّوا أننا لن نبلغ مواقعهم المحصنة أبداً، لكنهم قاتلوا بشراسة بالغة، واستماتوا في مواجهتهم لنا رغم تفوّقنا البيّن، حتى ضاع صدى الصيحات المتبادلة في ضباب دخان القذائف والرصاص والقنابل.

ما أصعب الوصف يا مادلين...

تساقط القتلى والجرحى كالذباب، وكأنّ الحياة فارقتهم في غمضة عينٍ، واختلطت الجثث ببعضها مع احتدام القتال، فما عدنا نميّز جنديّاً فرنسيّاً عن متمرد إلا من ملابسه وسلاحه، لكن المعركة انتهت أخيراً بالقضاء على جميع المتمردين، الذين فضّلوا الموت على الوقوع في الأسر أو رفع راية الاستسلام.

حاملاً بندقيتي، ومسلحاً بثقتي بالنصر الموعود والعودة الظافرة إليك، واصلت التقدم لتمشيط المنطقة بحثاً عن فلولهم، فهزّ كياني مشهد لا أعتقد أنه سيفارق ذاكرتي ما حييت.

وقفتُ لبرهةٍ أتحسّس الطريق في منعطف جبلي، عندما رأيتُ صبياً لم يبلغ العاشرة بعد على الأغلب، جاثياً على ركبتيه قرب جثة رجل ممدّدٍ بلا حراك، وبندقيته ملقاة إلى جانبه، ففهمت أنه أحد المتمرّدين الذين سقطوا صرعى.

بدا الفتى مُمعناً في محاولة تحريك ذراع من يبدو أنه والده، كأنّه يرجوه النهوض، أو يستحثّه بكلماتٍ عاجزةٍ لا يتفوّه بها بصوتٍ مسموع، وعندما اقتربتُ أكثر، فهمتُ أنه أخرسُ أو مفجوع أفقدته الصدمة القدرة على النطق، فكان يحرّك شفتيه برعبٍ وتوتّر، يئنّ بصوت مكتوم، ورجاؤه يتبدّد أمام صمت الجثة.

تجمّدت في مكاني للحظات، وقدماي عاجزتان عن التقدّم.

حاولتُ التلويح بيدي أو الإشارة له بأنني لا أنوي به شرّاً، لكنه لم يأبه بي، وكأنّه لا يرى أحداً باستثناء جثة أبيه الراحل.

فجأةً، التفت إليّ بنظرةٍ حارقةٍ، اخترقت قلبي قبل عيني. لم أتبين فيها ذرة رجاء أو استعطاف، بل مزيجاً من الكراهية والصدمة، فعلقت تلك النظرة المخيفة في وجداني، ودفعتني دفعاً إلى ما يشبه الهروب بعيداً عنها.

أكد الضبّاط في تقاريرهم أنّنا قضينا على عصابات المتمرّدين، ودمّرنا مخازن سلاحهم وذخائرهم. خسرنا من جنودنا عدداً كبيراً، فيما جُرح آخرون، لكنّ القيادة رأت في محصلة المعركة نصراً عسكريّاً حاسماً. وعلى هذا الأساس، بدأوا يدرسون إمكانية سحب قسم كبيرٍ من القوات من هذه الجبال، أو استبدال التشكيلات العسكرية بأُخرى جديدة على الأقل.

ها قد بدأت بشائر العودة إلى ديارنا تلوح في الأفق. هذا ما يردّده الضبّاط في نقاشاتهم، وقد أوشكتُ في الأسابيع والشهور الماضية على فقدان أي أمل في ذلك.

لعلّنا يا مادلين على مشارف نهاية كابوس أقضّ مضجعنا طويلاً. لا أدري كيف ستبدو الأيام المقبلة، لكنّ المؤكّد أنّني سأترك هذا الجبل متى صدر الأمر. خلّفت هذه الأيام القاسية جرحاً عميقاً في نفسي، فيما كان جسدي محظوظاً بعدم إصابته بخدش واحد.

لا رغبة لي الآن سوى في أن أختلي بك في ركن هادئ، بعيداً عن كلّ صخبٍ، وأُصغي إلى دقّات قلبكِ وهي تهمس لي بأنني لم أفقد إنسانيتي بعد. ربّما سأسرد على مسامعك حكايات مريرة، لكنّني آملُ أن تخفّفي عني وطأة الذكريات، أنتِ التي أصررت على التمسك بي، ووعدتِني بأنّ حبّنا أقوى من أن يستسلم لأي ظرف.

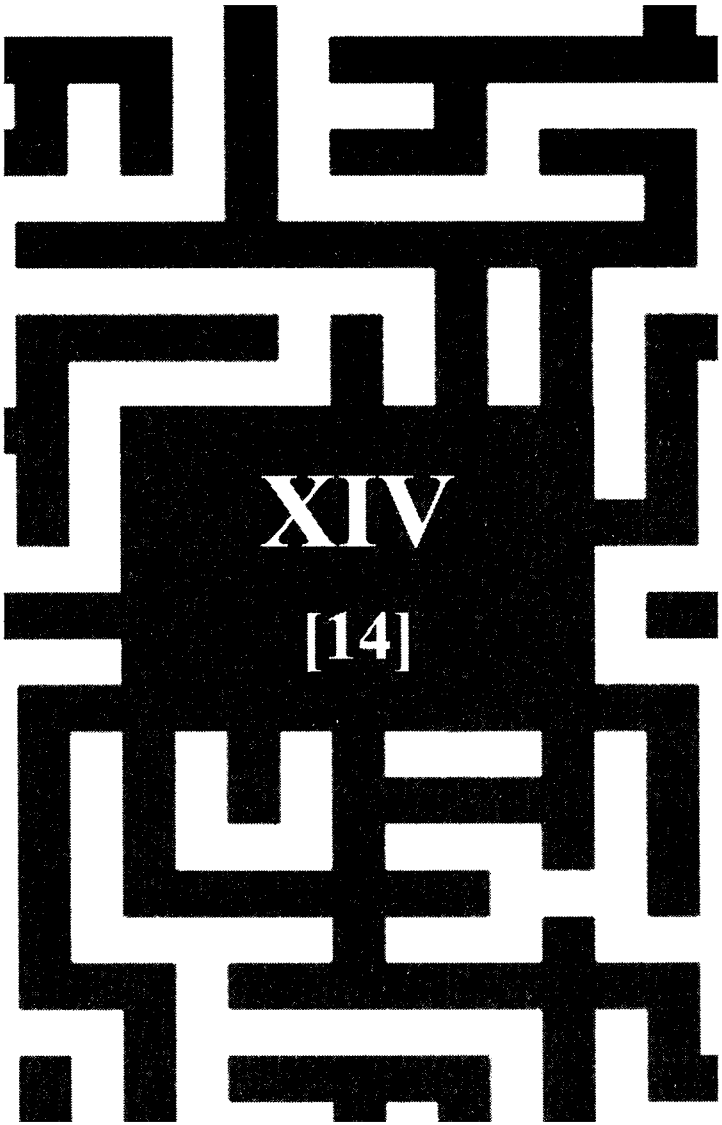
حلّ الليل، ولا بدّ لي أن أختم رسالتي الآن. بات موعد وصالنا قريباً جداً يا مادلين. وعندها سأضمّك في عناق طويل يزيح عن صدري وعثاء سفر وحرب وقهر.

وإلى أن يحين ذلك اليوم، تأكدي أن شوقي لطالما غلب خوفي، تؤيده هذه المرة بشارة قريبة بلقاءٍ لا فراق بعده.

مع خالص الحبّ وعظيم الأمل،

مارسيل

*


XIV
[14]

XIV

[14]

الحالة الحرجة لـ (ع. ج)

(2016)

«تعكس الحبكة الثوريّة في رواية **مقتل روجر أكرويد** لأغاثا كريستي تعقيدات التداخل بين الحقيقة والوهم، مع تعرّضنا في عصرنا الحالي لسيل من الأخبار والمعلومات المتضاربة، فيستعصي تمييز الخيط الفاصل بين الصدق والكذب، وتعصف الشكوك بأيّ روايةٍ للأحداث. تلفت تجربة كريستي في هذه الرواية أنظارنا إلى أهمية النقد والتحليل المتروّي، وتذكّرنا بأنّ الحكم على المعلومة لا يجب أن ينبع من ظاهرها فقط، بل ينبغي الاستناد بدرجة أولى إلى البحث والتمحيص، لا سيّما في زمنٍ تحرمنا فيه سرعته من التوقف قليلاً لالتقاط الأنفاس...».

رشيد بناصر – المحاضرة الرابعة عشرة – الأربعاء 13 مايو 2015

شعبة علم النفس - السنة الثالثة:
مسودة بحث تخرّج الطالبة: سلمى عفيف.
دراسة تطبيقية: الحالة (ع. ج) (45 سنة)

● **مرحلة الطفولة:**

اسمي م. ولدت عام (...)، ونشأتُ في مدينة (...). لم يكن والدي سوى موظّف بسيط في إحدى الإدارات العمومية، بينما لازمت أمي البيت. عشنا في شقّةٍ مستأجرة صغيرة بحي (...)، حيث تتجاور المباني الخرسانية المُتشابهة، وتصدح أصوات الباعة المتجوّلين فتكاد تصم الآذان.

أستحضر ذكريات تلك الفترة، عندما نجتمع كل مساء حول التلفاز الشبيه بصندوق ضخم، نتابع ما قد تعرضه القناة الوطنية الوحيدة من مسلسلات مغربية أو أفلام مصرية، قد تنسينا عذاباً طويلاً اسمه نشرة الأخبار.

أبي رجل هادئ ومحبّ، لكنني لم أشعر يوماً بحضوره فعلياً؛ غالباً ما كان يعود من عمله أو جلوسه الطويل في المقهى مع أصدقائه، ليرمي بنفسه على الأريكة الجلدية التي تمزقت بعض جوانبها، ويُشعل سيجارته متأمّلاً السقف، أو محدّقاً بلا مبالاة في شاشة التلفاز، منتظراً وجبة عشاء بقائمة معروفة: أرز بالحليب، أو شعرية، أو شوربة، وأحياناً حريرة، إذا سمحت بذلك الميزانية المضغوطة.

أما أمي فلم أرَ في حياتي من هو أشد منها عصبية. أذكر صراخها المتواصل بسبب أو بدونه، عندما تتأخّر الطنجرة على الغاز، أو يتعطّل

التلفاز فجأةً أثناء عرض مسلسلها. لكنّ أشدّ ما أثقل كاهلي هو توجيهها القسم الأكبر من غضبها نحوي، وترديدها الدائم للازمتها القاسية:

«منعرف لمن شبهتي يا لمسخوطة، غبري من قدامي الله يعطيك مصيبة...».

كلّ هفوة بسيطة أرتكبها تتحوّل في نظرها إلى خطأ جسيم يستدعي عقاباً قاسياً، وكل صمت تفسّره بمعاناتي من بلاهة مرضية أو تأخر عقلي مزمن.

وعلى العكس من ذلك، فإن أخي الأصغر كان طفلها المدلَّل؛ فتُغدِق عليه الحلوى كلّما بكى، وتشتري له ألعاباً متى طلبها، دون أن تكلّفه بأي مهام منزلية، فيما أُطالَب أنا باستمرار بترتيب غرفته وكيّ ملابسه وطيّها.

ببلوغي سنّ التاسعة أو العاشرة، بدأ نفورٌ صامت يتصاعد في أعماقي تجاهها، في ظل علاقة يومية تتكرر فيها لازمتا صراخها وصمتي. قد أحاول التقرّب منها أحياناً، لأريها رسوماتي أو دفتري المزيّن بصور عزيزة جلال ووردة الجزائرية وميادة الحناوي، لكنّها لم تكن لتُبدي أي اهتمام، فقط عندما أرتبك أو أخطئ، تستغل الفرصة لتوبّخني بشدّة أمام أبي، الذي يكتفي بالتنهّد أو الإشاحة بنظره.

أذكر مرّة، حين حصلتُ على نقطة ممتازة في سنتي الخامسة الابتدائية، عدت إلى البيت سعيدة، حاملةً ورقة النتيجة بسرور، فما كان منها إلا أن رفعتها ببساطة وقالت:

«زعما طفرتيه، يالاه حيدي طابليتك وتبعيني للكوزينة...».

لم أستوعب أبداً سبب تلك الفجوة بيننا؛ ولولا تأكدي من أنها أمي البيولوجية لشككت في نسبي لها، وفي وجود أم أخرى يتعيّن عليَّ

البحث عنها، كما تعج بذلك روايات عبير الرومانسية، التي كنت أقرأها خلسة.

وددت فقط لو أشعر بذرة دفءٍ أموميّ، ولم أكن أحلم سوى ببيتٍ هادئ تشعّ فيه الضحكات، عوض هذه الأجواء الملغومة. لكن جهدي ذهب سدى، فكلما أقترب، أصطدم بجدارٍ من الامتعاض المشحون بالغضب.

تجرّأتُ ذات مرة وصرختُ في وجه أمّي، وقد صفعتني بعدما تهشم صحن زجاجي سقط مني عن غير قصد. ذهل الجميع، بمن فيهم أبي، لكنني لم أتمكن من الدفاع عن نفسي أكثر من ذلك، فانهرتُ بالبكاء مندفعة نحو غرفتي.

ما يزال سؤالٌ مؤلم يتردّد في ذهني حتى الآن: لماذا لم أحظَ أبداً بنصيبٍ من الحنان يوازي ما قدّمتْه لأخي؟ نعم، تغيّر الواقع الآن، فقد كبرتُ وغادرتُ ذلك البيت، كما أن ربط تلك التصرفات القاسية، بالواقع الاقتصادي الصعب لحقبة الثمانينيات، قد يكون مقنعاً أو مريحاً للبعض، لكن الماضي الأليم سكنني دوماً كجرح غائر، وكلما تعرّضتُ لأي نوع من الضغوطات في حياتي، تتراءى لي صورة أمي، لا لتدعمني، بل لتُغرقني أكثر في دوامة العجز واليأس.

*

● **ملاحظات أولية:**

تبعاً لما عرضته الحالة عن طفولتها، يمكننا استخلاص نقاط قد تفسّر جوانب من شخصيتها وسلوكها الحالي:

غياب الأمان العاطفي: لم تشعر الطفلة آنذاك بالدعم الكافي في منزل تسوده العصبية الصارخة والصامتة. إذ يبدو أن هدوء الأب كان يخفي

ضغوطاً هائلة مرتبطة بوضعه الاجتماعي. وقد أدى هذا الحرمان العاطفي المتراكم إلى تنامي شعورٍ بعدم الاستحقاق وتراجع الثقة بالنفس.

التمييز بين الأبناء: فقدت الفتاة انتماءها الأسري مع تفضيل أمها الصريح للأخ، فتولّد لديها إحساس عارم بالظلم، أثّر على استقرار علاقاتها المستقبلية، ورسّخ شعورها الدائم بالدونية.

تراكم الغضب المكبوت: لم يُتح للطفلة آنذاك التعبير عن ضيقها بحرية؛ فكانت تُواجَه دوماً بالصراخ أو التجاهل، فوجهت انفعالاتها المكبوتة إلى داخلها، مما أثّر على تماسكها في مراحل مقبلة من حياتها.

تطوّر صراع الهوية: أدى غياب الحوار والدفء الأسري لتحويل البيت إلى ساحةِ صراع صامت، ما دفع الطفلة في هذه الحالة إلى البحث عن هويّة بديلة أو عوالمَ خيالية (وضع احتمال وجود أم بديلة، المقارنة مع أحداث روايات عبير...).

*

شعبة علم النفس - السنة الثالثة:
مسودة بحث تخرّج الطالبة: سلمى عفيف.
دراسة تطبيقية: الحالة (ع. ج) (45 سنة)

● **مرحلة المراهقة:**

وببلوغي سن المراهقة، بدأت الملامح الأولى لعالمي العاطفي تتشكل...

هي فترة مليئة بالاكتشافات: شرائط كاسيت حسني ومامي وعمرو دياب ونوال الزغبي التي غزت الأسواق، ظهور القناة الثانية وإن لدى فئة محدودة من الميسورين، انفتاح القناة الأولى على المسلسلات المكسيكية المدبلجة، مع ثنائية ألفريدو وغوادالوبي الخالدة، بالإضافة طبعاً إلى بلوغ الدراما المصرية أوجها، بالمال والبنون وليالي الحلمية ورأفت الهجان، ووصول موجة جديدة من روايات مصرية للجيب، يكفي درهم واحد للحصول على نسخة منها، عند بائع كتب مستعملة، وأحياناً عند بائع الزريعة القريب.

لم يكن للإنترنت ولا الهواتف المحمولة وجود آنذاك، لكن الحياة كانت أجمل، بالمحادثات الهاتفية على الخطوط الأرضية، واللقاءات الجماعية في المقاهي، والتجمع العفوي أمام ساحة الثانوية، وحضور أنشطة متنوعة تنظمها دار الشباب، فصار من الطبيعي أن تولد الظروف المواتية لمعرفتي بـ ف.

يكبرني بعام واحد وإن درس معي في القسم ذاته، لكنه بدا دوماً أكثر نضجاً من أغلب أقراننا. تصادف أن جمعنا مشروعٌ مدرسي نسيت

موضوعه الآن، فصرنا نتجاذب أطراف الحديث بشكل دائم، ونقضي أوقاتاً طويلة في مكتبة المدرسة لإنجاز بحثنا. لا أزال أذكر كيف كانت نبضات قلبي تتسارع كلما اقترب منّي وحدثني في أي موضوع. وجدت في ف. نافذتي على عالمٍ يتجاوز حدود البيت والمدرسة، عالم بلا قيود ولا حدود فيه لحريتي.

مرّت الشهور، وتوطّدت علاقتنا أكثر. صرتُ أبحث عن ربع فرصة للقائه، أو أجد أي عذر للذهاب إلى المكتبة بحجة البحث في المراجع، وقد وجدت فيه ضالتي: شخصٌ يهتمّ لتفاصيلي، يسألني عن أفكاري وأحلامي، ويُثني على حماسي في الدراسة، دون أن يدري أن وجوده في حياتي قد أعانني حتى على تحمّل قسوة العيش، تحت سقف واحد، مع أم تتلخص مهمتها الدنيوية في تحويل حياتي إلى قطعة عذاب.

تأكد لي، مع متم السنة الدراسية، أن ما أشعر به يتجاوز حدود الصداقةِ العفويةِ إلى مشاعر أخرى مختلفة. أفرح إذا قدّم لي شريطاً لكاسيت جديد، أو أعارني كتاباً لم أسمع به من قبل. وعلى أنغام خافتة لأغنية حبيبي يا نور العين لعمرو دياب، استسلمت أكثر من مرة لتساؤلاتي: هل يمكن أن أسمّي هذا حبّاً؟ أما زال الوقت مبكراً جداً لكي أستمتع بهذه المشاعر اللذيذة التي تدغدغ أعماقي؟

لكن تساؤلاتي لم تكن سوى مراوغة يائسة مني، إذ بتُّ على قناعة ويقين وقتها من مدى عمق أحاسيسي تجاه ف.، وبطبيعة الحال، لم أسعَ أبداً لمفاتحة أي كان في الموضوع، رغم حاجتي الشديدة إلى رأي أو نصيحة.

ثم تجرّأتُ، ذات يوم، وسألتُه، تحت ستار السخرية واللامبالاة المصطنعة، إن كان يشعر تجاهي بمشاعر معينة، فردّ بالأسلوب ذاته، وإن أفصحت نظراتُ عينيه عن بعض الاضطراب، قال كلاماً مفهوم المغزى

عن كوني فتاة رائعة، وأنه غير مستعد حالياً، وأنني صديقته المقربة، وأنّنا في سنّ ينبغي لنا التركيز فيها على الدراسة والتحصيل.

تغيّر كل شيء بعد هذا الحديث المغلف بالسخرية العابثة، فصرت أتحاشى النظر في عينيه، وأتهرّب من لقاءاتنا المخطط لها.

عانيت آثار صدمة حقيقية، وقد ظننتُ أن دنياي انهارت، وأنّني خسرت فرصة سانحة للعيش بسلام. فغرقتُ في موجات متتالية من الحزن الشديد والبكاء، مصرّة على تعذيب نفسي بالاستماع إلى نوال الزغبي ووائل كفوري يكرران لازمة: مين حبيبي أنا؟ في شريط الكاسيت الذي أهداني إياه.

قد أضحك على كل هذه السذاجة البريئة الآن، وأنا على مشارف الأربعين، لكنني لا أخفي عنك أنها تجربة تركت بصمتها الخاصّة في شخصيّتي.

ورغم أنني تفاديت تدريجياً أي مواجهة مع ف. فقد أمضيتُ بقية العام الدراسي مستسلمة لحالة من الفتور، تراجعت معدلاتي، وفقدتُ أي حافز للاستيقاظ بنشاط، محتفظة بآلامي لي وحدي.

أتذكر أحياناً تلك التفاصيل، فأطرح على نفسي سؤالاً بسيطاً ومباشراً: هل كان لمسار حياتي أن يتغير لو بادلني ف. المشاعر ذاتها وقتئذ؟

*

● **ملاحظات أولية:**

تبعاً لما عرضته الحالة عن مراهقتها، يمكننا استخلاص نقاط قد تفسّر جوانب من شخصيتها وسلوكها الحالي:

دوافع البحث عن الحُبّ: نشأت المراهِقة في جوّ أسري يتّسم بالتوتّر

الدائم والعصبيّة المفرطة، ما جعلها تتطلّع لعلاقة تُعوّض نقص الحنان والدعم الأبوي المفروض، فوجدت في زميلها شخصاً أشعرها بالأهمية والقبول، فتعلّقت به عاطفياً بسرعة.

صدمة الحبّ الأول: يتشكّل الوعي العاطفي سريعاً خلال مرحلة المراهقة، كما تشتدّ الرغبة في إثبات الذات وإيجاد هويّة رومانسية. اختبرت الحالة صدمة الفقد عندما قوبلت مشاعرها بالرفض أو الفتور، فتداخل شعورها بالحرمان الأسري مع خيبة الأمل العاطفية.

أثر التجربة على التحصيل الدراسي والسلوك: يشير تراجُع مستوى الحالة الدراسي وتغيّر مزاجها آنذاك إلى مدى أهمية هذه العلاقة بالنسبة لها، كما أن الانغلاق الذي عاشتْه بعد خيبتها يعكس نزعتها الدائمة لمواجهة مشكلاتها، دون سند أسري يُعينها على استيعاب التجربة.

*

شعبة علم النفس - السنة الثالثة:
مسودة بحث تخرّج الطالبة: سلمى عفيف.
دراسة تطبيقية: الحالة (ع. ج) (45 سنة)

● **مرحلة الشباب (البطالة وضغط الأسرة):**

حصلتُ على الإجازة عام (...)، فوجدتُني عالقة في حيرة هائلة، بين تمسّكي بأجواء الكلية والأمان النسبي الذي توفّره صفة الطالبة، والواقع الذي لطالما انتظرته، لأنه سيمكنني أخيراً من تحقيق استقلال مادي، ومغادرة فورية لبيت دمّر أجمل سنوات عمري.

غمرني الحماس، وأبديت استعدادي للبدء بمرحلة اختبار أو تدريب في أي شركة أو إدارة تناسب تخصصي، لكن الحقيقة كانت أبعد بكثير مما تمنّيته.

أوّل تجربة قاسية عشتُها كانت مع مسؤولٍ إداري في إحدى المؤسّسات الخاصّة. قَبِلني ضمن المرشّحين للتوظيف، واستقبلني بحفاوة أسعدتني. وبالفعل حدثني عن إمكانياتي، وما لمسه من تميز في سيرتي الذاتية، لكنه سرعان ما انحرف بكلامه نحو تعبيرات غريبة، مفادها ضرورة «إبراز مؤهلاتي» (أذكر كيف نطق بالجملة وهو يكاد يخترق صدري بعينيه)، وأن «أتعاون» معه، إن رغبتُ في الحصول على العقد المنشود.

لم أفهم قصده بداية، لانعدام خبرتي، لكنّه واصل التلميح بضرورة أقصى درجات «المرونة» في التعامل معه خارج أوقات العمل؛ فبدأت أستوعب مغزى إيحاءاته القميئة، فشعرت بمزيج من القهر والغضب،

مع رفضي القاطع لتلك الإشارات. ما معنى أن يربط أحد ما استحقاقي المهني بنزواته الشخصيّة؟

لم أُبدِ أي استعداد للقبول، فعاد إلى الأسلوب الرسمي الجاف، وتأكدت عندئذ من ضياع الفرصة.

لم أُخبر أسرتي بالتفاصيل الدقيقة، مكتفية بالقول إنّ العرض لم يكن مناسباً، فكان الرد المتوقع من أمي:

«وشنو؟ غاتبقاي طالقة ليا رجليك هنا؟ وشكون غادي يعاونا فالمصروف؟ شوفي لالياتك، جيهان بنت نعيمة راها مشات لكازا لقات تما خدمة كتشد مية وعشرين ألف ريال. غير صاحبتك سعاد قافزة عليك، هزات حوايجها ومشات لطنجة تقلب على راسها، ونتي كيفك كيف باك، باردين لكتاف كاس ما تهزوه من بلاصتو، الله يخليها سلعة...».

شعرت بثقل نظراتها، وكأنني عالة تتحمل مسؤولية عدم قدرتها على ترجمة شهادتها الجامعية إلى مردود مادّي.

لم أستسلم، واصلتُ البحث متتبّعةً الإعلانات الصحفية وما قد أسمعه عن فرص هنا وهناك. أذكر جيّداً يوم وقفت في طابور طويل أمام شركة خاصة، منتظرة دوري، وأرمق بعض الفتيات اللائي يثرثرن عن شائعات الابتزاز في المقابلات، وسط دهشتي من مبالغة بعضهن في وضع المساحيق، وارتداء ملابس اعتقدت لوقت قريب حينها أنها حبيسة مسلسل توب موديل الأميركي الطويل. (أظنك ابنة جيل لاحق لم يسمع أبداً بهذا المسلسل، أليس كذلك؟).

يخشين الابتزاز ويتنافسن في تركيزهن الشديد على المظهر اللافت؟ لم أفهم!

حان دوري أخيراً للدخول إلى المقابلة، تحدّثتُ بثقة عن دراستي

وتجربتي البسيطة في الأنشطة الطلابية، مركزة بدرجة أولى على إيماني بطموحي.

بدا مدير الموارد البشرية مهتمّاً بكلامي وانفعالاتي، لكنه سرعان ما حوّل دفة الحديث إلى أسئلة شخصية حول حالتي العائلية ووضعي المادي؛ كان يتقصّد معرفة مدى «حاجتي» الحقيقية للوظيفة. حاولتُ العودة بالحوار إلى موضوع المقابلة، فواصل تركيزه على حياته الشخصية ورغبته في «مساعدة الموهوبين المحتاجين». قاطعته بسؤالٍ مباشر عن ظروف العمل والراتب، فماطل قليلاً في الإجابة، قبل أن يلمّح في نهاية المقابلة: «شتي اللي كيفهمني ويتعاون معايا، ما عمر يخصو حتى خير».

لم أحتج أكثر من ذلك لأفهم الإشارة، شكرته وانصرفتُ، وقد زال أي أمل أيضاً في الحصول على وظيفة في شركته.

واصلت أمّي ضغطها عليّ للقبول بأي فرصة عمل، وإن كانت بشروطٍ مجحفة، متذرّعةً كعادتها بضرورة المساهمة في نفقات البيت. لم تفهم (أو ربما تقاعست عن الفهم) أنّ الأمر ليس اعتراضاً على تعبٍ أو راتبٍ ضئيل، بل رفضاً لاستغلالٍ تلوح ملامحه منذ أول لحظة في مقابلات التوظيف.

اكتفى والدي من جهته بدعائه: «ربي يكتب ليك اللي فيها الخير، آ بنتي...» دون أن يتدخل أبداً في الدفاع عني أمام أمّي، وكأنّه اعتاد مجاراتها حرصاً على الهدوء.

مع توالي الشهور وندرة الوظائف، تضاعف إحباطي. أحسستُ أنّ ما قضيته من سنوات في الجامعة لا يعني شيئاً لسوق عمل تحكمه اعتبارات غامضة وغير مفهومة.

أجل، فكرت طبعاً في الرحيل بعيداً، لكن أنّى لي بمبالغ ضرورية لشراء عقد عمل في دولة أخرى؟

أذكر وقوفي كثيراً أمام المرآة وقتها، أكلم نفسي، وأعاتبها، متحسرة على واقعي الصعب...

هل يُفترض بي التنازل عن مبادئي لضمان مستقبلي؟ وأيهما أكثر قسوة ومرارة، مواجهة المبتزين أم الاستسلام لهم؟

ظللت إذن أسيرة تمزق مؤلم بين ضغط البيت وصعوبة الخيارات التي فرضتها عليَّ الحياة، بل إن ندماً شديداً ساورني بين الحين والآخر، على تمسّكي بمبادئ ما عدت أدري إن كان العيب فيها أم في عجز المجتمع عن تطبيقها؟

أصحيحٌ أن الخير ينتصر دائماً كما تصر على ذلك المسلسلات والروايات الرومانسية؟

هل أدفع إذن ثمن نشأتي داخل أسوار خيال، لم أجد غيره مهرباً من ضغط محيطي؟

مكتبة
t.me/soramnqraa

*

● **ملاحظات أولية:**

تبعاً لما عرضته الحالة عن بدايات شبابها، يمكننا استخلاص نقاط قد تفسّر جوانب من شخصيتها وسلوكها الحالي:

الإحباط المهني والضغط الاجتماعي: عاشت الحالة في بداية سنوات الـ 2000 فترة بطالة حرجة، ندرت فيها الفرص وازداد فيها التنافس في سوق عمل تتغير متطلباته باستمرار، كما أضاف ضغط الأسرة أبعاداً نفسية أخرى، خاصة مع مطالبة الأم بالقبول بأي شروط تضمن دخلاً مادياً، مما فاقم شعور الحالة بالعجز.

الابتزاز الجنسي: واجهت الحالة إيحاءاتٍ مباشرة أو ضمنية من بعض أرباب العمل، تربطُ الرضا الوظيفي بإرضاء رغبات غير شرعية، بما

اصطدم صراحة بمبادئها، وتسبب في حدوث تضارب داخلي بين الرغبةِ في الاستقلال المادي والرفض القاطع للمساومة على كرامتها.

الشعور بالنقص: استمرّ تأثير تربية الحالة، المشحونة بالتوتّر والعصبية، في تعميق قلقها وتأثر ثقتها بنفسها؛ مما ضاعف من حساسيتها تجاه الرفض والاستغلال، كما أن اتكالها العاطفي على رأي والدها، الذي لم يكن حاسماً في الدفاع عنها أمام الأمّ، أعاد للواجهة سيناريو الدعم الصامت والعاجز عن حل أي مشكلة جذرياً.

أحلام الدراسة وصدمة الواقع: وضعت الحالة كل آمالها على الشهادة الجامعية، باعتبارها بوابة الحصول على الفرص المهنية الشريفة؛ فاصطدمت بواقعٍ تنخره الوساطات وبعض الممارسات اللاأخلاقية، فأدى ذلك إلى إصابتها بما يمكن تسميته بالإحباطِ الوجوديّ.

خيارات التأقلم: لجأت الحالة إلى رفض الإغراءات المتعارضة مع مبادئها، وبناء موقفٍ أخلاقي واضح رغم عواقبه المادية، فكانت النتيجة غرقها أكثر في عزلتها، وإجبارها على اتخاذ قراراتها وحيدة، خاصة في ظل تصاعد الخلاف مع والدتها، واستسلام والدها وتجنّبه الدائم لأي مواجهة أو صدام.

*

شعبة علم النفس - السنة الثالثة:
مسودة بحث تخرّج الطالبة: سلمى عفيف.
دراسة تطبيقية: الحالة (ع. ج) (45 سنة)

● **مرحلة الشباب (فشل مشروع خطبة بتدبير عائلي):**

«نتي ديما داخلة خارجة عليا هنا، زعما ما تشوفيش ليك شي راجل يهنيني منك؟».

بدا الأمر كما لو أن أمّي تُجري تحديثات موسمية لانتقاداتها اللاسعة، فبعدما تعبت من تحميلي مسؤولية الضياع المتتالي لفرص العمل، تحوّلت إلى التحسر المباشر على تمكّن شابات أخريات، من داخل العائلة أو خارجها، من «اقتناص» أزواج يزنون ذهباً...

«بسلامتها حياة بنت لطيفة، ما دوراتش عام فالخدمة حتى تلوات على الشاف ديالها، بدارو وطوموبيلتو وكيشد مليون ونص...».

«وا مي راه سكايري، وطلق لمرا اللولة حيت حصلاتو مع وحدة أخرى، كلشي عارف عينو زايغة...».

«سكتي باراكا عليا، الراجل عمرو ماكايتعاب، كيتك نتي...».

ولأن مطالبتي بالصمت شأنها الذي لا قِبَل لأحد بمناقشته، فقد حوّلت البحث عن «مخرج» لي إلى أولوية، حتى لو أدى ذلك إلى تزويجي قسراً من شخص لا يناسبني.

وحدث ما كنت أخشاه، إذ أتانا يوماً خالي، وبعد عشاء دسم تفنّنت أمي على غير العادة في إعداده، فاتحنا في موضوع «عرض» قدّمه رجل من معارفه، في أوائل الأربعينيات، ميسور الحال ويبحث عن زوجة.

لم أعر الموضوع كبير اهتمام بداية، لكنّ أمي وأقاربي أصرّوا على تحويل حياتي إلى جحيم...

وبفعل إلحاحهم المتواصل، وجدتُ نفسي أوافق على لقاء الخطيب المحتمل، لا لشيء إلا لأُسكت ضغوطهم الرهيبة.

الواقع أن الرجل كان بسيطاً، هادئ الملامح، وإن بدا عليه نصيب من جاه، فهو صاحب مشروع تجاري يُدرّ عليه دخلاً مريحاً. تحدّثنا أكثر من مرة، وأعجبتني بداية ثقته بنفسه، لكنها سرعان ما تحوّلت إلى تكبّر خفي، مع تكراره قصص «نجاحاته» وتوسّع تجارته، بل إنني لمست في كلامه ما يشبه الإذلال، فقد تفضل هو، صاحب الشأن والمال، بالعطف والجود عليَّ، عندما تقدّم بطلب الزواج مني.

تمّت الخطبة بسرعة، رغم شكوكي؛ إذ رأى الجميع أنّها «فرصة لا تُعوّض» لاستقراري أخيراً، والواقع أنني اقتنعت (أو ربما أوهمت نفسي بالاقتناع) بأنّ هذا الارتباط سيؤمّن لي أخيراً وضعاً اجتماعياً يحظى باحترام الجميع، ويُنهي ضغط بطالتي، وقد بدا كلّ شيءٍ مثاليّاً لأم لا همَّ لها سوى التفاخر الاجتماعي.

«وا شفتي آ بنتي كي جيتي منورة، ونتي جالسة حدا سيد الرجال، حجيبة دات ما تعاود لديك العقروشة د صفية، وعيشة كانت غاتموت بالفقصة، بقات غير ديك العورة د بنتها اللي بايرة دابا».

شيئاً فشيئاً، انكشفت كلّ نقاط الخلاف بيني وبين خطيبي: أنا بحاجة إلى زوج يتفهّم مشاعري وطموحاتي، يشاركني ولو مجاملة بعض أنشطتي، بينما هو يَطمع فقط في صورةٍ اجتماعية تُزيّن حضوره، ويصف كل اهتماماتي بكلمة واحدة:

التخربيق...

قرّرتُ الانسحاب قبل أن تسوء الأمور أكثر، وطبعاً، هبّت العاصفة الهوجاء!

أوشكت أمي على قتلي، لولا تمكن والدي وشقيقي (الذي أدمن المخدرات وهذا موضوع آخر) من تخليصي منها، فحوّلت ثورتها إلى نفسها، ولم تتردد في المجازفة بالتهديد بإيذاء نفسها، إن لم أتراجع عن قراري.

«غاترجعي ليه بزز منك، ولا غاندير شي حاجة فراسي، شكون مسلطك عليا شكون؟ واش بغيتي تقتليني؟ ضحكي عليا صفية وحجيبة حتى قلت صافي فرعت ليهم العين؟».

نعم، فموقف صفية وعيشة وحجيبة والجن الكحل عندها أهم بكثير من استقراري وتوازني النفسي.

احتدمت النقاشات مع أقاربي كذلك. لكنني لم أجد بدّاً من المضيّ في قراري، وقد عجزت عن تغليف ما أشعر به بوعود فارغة.

بعد ذلك، انقلبت العلاقة داخل البيت (انقلبت؟ لا هي لم تكن أبداً في وضعها الطبيعي)، تحوّل امتعاض أمي إلى كراهية حقيقية، وغرقتُ أنا في دوامة ما أظنه اكتئاباً (أنت أعلم مني بهذه الأمور).

صرتُ أقضي ساعاتٍ طويلةً حبيسة غرفتي؛ لا أكلّم أحداً إلّا للضرورة. فقدتُ شهيّتي للطعام، وبات النوم ملاذاً صعباً وأخيراً، أهرب إليه بحثاً عن السلام، كل هذا وسؤال مسموم يقضّ مضجعي ليلة بعد أخرى:

من المخطئ؟ أنا أم الآخرون؟

*

● **ملاحظات أولية:**

تبعاً لما عرضته الحالة عن قصة فشل مشروع خطبتها، يمكننا استخلاص نقاط قد تفسّر جوانب من شخصيتها وسلوكها الحالي:

اعتبار الزواج حلاً اجتماعياً للبطالة: شكّلت الظروف المادية والخوف من استمرار بطالة الحالة دافعاً لتوجيهها نحو الاقتران بشخصٍ ميسور، مما يعبّر عن ضغطٍ مجتمعيّ تقليديّ لا يرى في الزواج مؤسسة قائمة بذاتها، يؤسس فيها رجل وامرأة لمشروع حياة، بل «طوق نجاة» للأسرة قبل العروس المفترضة.

التناقض بين البحث عن الأمان والرفض العاطفي: استجابت الحالة ظاهرياً لرغبة الأسرة، لكنّها أخفت في أعماقها نفوراً متصاعداً تجاه الخطيب. يبدو إذن أن هذا الانقسام بين الحاجة إلى الاستقرار المادي وغياب التوافق العاطفي قد أدى إلى اندلاع صراع نفسي داخلي، عاشته الحالة وحدها.

إحباط ما بعد فسخ الخطبة: شعرت الحالة بذنبٍ مضاعف، فقد خذلت عائلتها وتوقّعات محيطها، عاجزة مرة أخرى عن تحقيق ذاتها عاطفياً كما مهنياً. هذه المعطيات توفر أرضيةً خصبة للاكتئاب، خاصة مع ضعف الدعم الأسري خلال تلك الفترة الحرجة.

تجذّر مشكلة التواصل داخل الأسرة: تبيّن من وصف الحالة أنّ قرارها لم يلقَ تفهّماً من الأمّ أو الأقارب، ما رسّخ شعورها بالعزلة، مع استمرار غياب الحوار البنّاء داخل الأسرة، وتكرار سيناريو الصدام بين طموحات الحالة وما ترى فيه الأسرة مصلحتها.

*

شعبة علم النفس - السنة الثالثة:
مسودة بحث تخرّج الطالبة: سلمى عفيف.
دراسة تطبيقية: الحالة (ع. ج) (45 سنة)

● **الحب والزواج:**

دخلت حياتي مرحلة طويلة من الركود، وبالكاد أبديتُ اهتماماً بالتفاعل مع مَن حولي، إلى أن حدث موقفٌ قلب مجريات الأمور.

اعتدتُ تدريجياً على مغادرة فراشي والخروج بين الحين والآخر، ثم أتت دعوة صديقتي الوحيدة لحضور حفل عيد الميلاد الثاني لابنها.

«إيه سيري، صحاباتك يولدو لولاد ونتي شادة ليا اللحاف هنا...».

لبّيتُ الدعوة بعد تردد، ثم تبدّد قلقي عندما قضيت مع صديقتي وقتاً جميلاً جداً، شعرت خلاله أن للحياة وجوهاً أخرى تستحق الانغماس فيها، بين مرح وفرح وسرور.

خلال عودتي إلى البيت، مستقلة حافلة المدينة المزدحمة، اقترب مني شابٌّ بطريقةٍ مريبة، محاولاً انتشال هاتفي المحمول من يدي بالقوة، مع اقتراب الحافلة من التوقف في إحدى المحطات. ارتبكتُ وخفتُ من المواجهة، وخيّل إليَّ أنني قد أُصبتُ بالخرس، لكنّ ركّاب الحافلة تدخّلوا وأوقفوا الشابّ بالقوّة. كاد الموقف يتطوّر إلى اشتباكٍ بالأيدي، مع استخراجه سكيناً ضخماً، فتوقّف السائق فوراً واستدعى الشرطة، لكن اللص تمكّن من الإفلات.

مع وصول سيارة الأمن، ترجّل منها ضابطٌ بدا عليه الحزم والهدوء. تحدّث معي ومع باقي الشهود باحترام، محللاً تفاصيل الحادثة.

بعد إنهاء إجراءات تسجيل المحضر، واصل الضابط سؤاله المهتم: «متأكدة نتي لاباس؟ ما خصك والو؟».

استغربتُ لطفه وحرصه على التحقّق من سلامتي، واعتقدت أنه مجرد حدث عابر، خاصة إثر عودتي السريعة إلى البيت، ومفاجأتي بشقيقي الغاضب، يتحقق أيضاً من سلامتي، مكرراً في ثورة:

«ما يقربش ليا من ختي، السيكتور ديالي، ما يقربش ليا من ختي...».

لأفهم فيما بعد أن خبر محاولة الاعتداء عليَّ قد شاعت، وأن أوصاف اللص تنطبق تماماً على شخص يعرفه شقيقي جيداً، ما دفعه إلى التهديد بملاحقته.

أفهمته بهدوء أن الشرطة قد حلّت المشكلة، وسيلقون عليه القبض سريعاً، وأن الموضوع بالتالي قد انتهى، فلا داعي لإقحام نفسه مرة أخرى في كوارث بالكاد تخلصنا من تبعاتها.

ثم تلقيت في اليوم التالي مكالمة من مركز الشرطة لاستكمال بعض الأوراق الضرورية...

قابلتُ الضابط مجدّداً، علمت أن اسمه (م. ب) وتحدّثنا لدقائق عن البلاغ والإجراءات، لفتني منطقه وتعاطفه، رغم شكي في أنه يتعامل مع الجميع بتلك الطريقة، لكنه أملى عليَّ رقم هاتفه الشخصي، واقترح المساعدة في أيّ شأن مرتبط بالمحضر.

صارت اتصالاتنا أكثر ودّيّة لاحقاً، ثم دعاني بعد أيام للقائه في مقهى محترم.

فوجئتُ بموافقتي السلسة، وقد اعتدت على رفض دعوات مماثلة (من الطبيعي ألا تتوقف أمي عن محاولاتها المستميتة لتزويجي، أليس كذلك؟).

تحدّث كل منا عن بعض تفاصيل حياته، وإن لم يكن في حياتي ما يغري أحداً بالاقتراب مني، واكتشفتُ أنه يرعى والدته ولا يهتم سوى بعمله. بدا متفهّماً، لا يستعجل ولا يلحّ في شيء، تاركاً لي مساحةً تسمح لي بالتعرف أكثر على شخصيته، وقد بدا واثقاً من أنني لن أجد في سيرته (إن حاولتُ التحري عنه) إلا ما يريح ويسرّ.

وكالعادة في قصص مماثلة، لم تمضِ أشهرٌ حتى عرض عليَّ الزواج، فتجرأت ووافقت...

لم أتوقّع يوماً أن أجد نفسي عروساً بعد عام من حادثة الحافلة، لكن الأقدار شاءت لنا ذلك، وسط دهشة عارمة من أمي وأقاربي، وقد عجزوا عن تصديق وصولي أخيراً إلى بر الأمان، ففتحت إذن صفحة جديدة، نسيتُ خلالها كل ما رويته على مسامعك منذ البداية، وقد اقتنعت أن نصيبي من السعادة أتاني أخيراً، بل إن فرحتي بلغت عنان السماء، عندما أخبرني زوجي بقرب انتقالنا إلى مدينة (...) حيث سيعمل في ولاية الأمن هناك.

*

● **ملاحظات أولية:**

الاستجابة العاطفية: جرى اللقاء مع الضابط في سياق عنيف، ما خلق فرصة للاستجابة العاطفية الإيجابية؛ تعززت بمبادرات الضابط للتعارف، إذ رأت فيه الحالة رمزاً للأمان والثقة في ظل موقف مضطرب، مما يُشير إلى أنّ الصدمات أو الأحداث الطارئة يمكن أن تفتح باباً لتغيّر المنظور نحو العلاقات.

البُعد الإنساني في شخصية الضابط: ساهم اكتشاف الحالة لظروفه العائلية ورعايته لوالدته واستقامته في إبراز الجانب المسؤول في شخصيّته، ما عزّز شعورها بالأمان والثقة، ولبّى حاجتها العميقة إلى شريكٍ يتفهّمها

إنسانيّاً قبل أن ينظر إليها بوصفها «حلاً اجتماعياً» وفقط، كما عانت من ذلك في تجربتها الفاشلة السابقة.

تدرّج العلاقة وبناء الثقة: بدأت العلاقة بمكالمة رسمية، ثم تطوّرت إلى لقاء وديّ، مما يشير إلى نموّ الشعور بالألفة دون انخراط فوريّ، ويعكس ذلك أهمية عامل الوقت في منح الحالة طمأنينة كافية للتغلب على ذكرياتها المؤلمة وتجاربها الفاشلة.

الزواج كتحوّل إيجابي: شكّل زواج الحالة من الضابط تتويجاً لمسارٍ صعب؛ انتقلت بموجبه إلى خانة الاستقلال العاطفي والقبول الذاتي، مما يعكس إمكانية تغيير الأوضاع النفسية لدى الأفراد متى وجدوا وضعاً أكثر اتزاناً وتفهّماً.

تحوّل المكانة داخل الأسرة: بعيداً عن منظور الحالة نفسها، فمن المرجّح أن الزواج بشخصٍ يحظى بمكانة وظيفية محترمة في المجتمع (ضابط شرطة) قد أسهم في تحسين مكانتها داخل الأسرة، وخفّف من توتّراتٍ قديمة (دون أن يلغيها نهائياً) وثبّت مسارها نحو الاستقرار المنشود.

*

شعبة علم النفس - السنة الثالثة:
مسودة بحث تخرّج الطالبة: سلمى عفيف.
دراسة تطبيقية: الحالة (ع. ج) (45 سنة)

● **المشاكل الزوجية وتعذّر الإنجاب:**

في بداية زواجي من (م. ب)، شعرتُ وكأنّ باباً جديداً للحياة قد انفتح أمامي. منحني احتفاءُ الأسرة والأقارب بزواجي من ضابط شرطة إحساساً عارماً بالاحترام والتقدير، رغم إصرارهم أحياناً على إزعاجي بطلبات غريبة، يفسّرونها دوماً بمنصب زوجي، المهتم فقط بعمله وواجباته المهنية.

«مالك، راجلك فلبوليس، بكلمة وحدة يقضي لينا الغرض...».

بدت حياتنا مثالية، وطغت على الشهور الأولى فرحةُ الاكتشاف والتعاون. انتقلنا إلى مدينة (...)، التي تغيّر وجهها بالكامل، وبسرعة مدهشة، مع دخولها في ورش تنموي كبير، حوّلها بمرور الوقت إلى قطب هائل، استقطب مغاربة من كل أنحاء البلاد، فتداولتُ مع زوجي، بهدوء وثقة، الخطط المستقبلية الطبيعية لأي متزوجين حديثاً.

بمرور الوقت، بدأ يغرق أكثر في عمله، وقد أفهمني أن العمل في مدينة كبيرة مختلف تماماً عن مدينتنا الصغيرة السابقة، فالملفات متراكمة، وبعض القضايا أكثر تعقيداً أحياناً، فكان يُستدعى باستمرار إلى نقاط أمنية أخرى، أو يكلَّف بدوريات ليلية، فتتوالى الأيام وأحياناً الأسابيع وأنا وحدي في البيت.

تفهّمت ظروفه بداية، وقدّمت واجبي في تشجيعه، لكنه لم يُبدِ أي

محاولات لتعويض الغياب عند عودته. يأتي مرهقاً، يأخذ حماماً ثم يغرق سريعاً في النوم، أو يجلس صامتاً أمام التلفاز، في تكرار حرفي لما عاينته من والدي أيام طفولتي.

حاولتُ التلميح مراراً برغبتي في قضاء وقت حميمي أطول معه، لكنني ما جسرت أبداً على المواجهة والتصريح، أنا في نهاية المطاف ابنة جيل متحفّظ في التعبير عن مشاعره، عكس جيلكم المندفع الذي لا يعرف أصلاً ماذا يريد.

ما علينا...

أحسستُ باشتياق عارم لمجرد سماع كلماته الحنونة، أو عناقه الطويل الذي لطالما أشعرني بالأمان، لكن اهتمامه بهذه التفاصيل تراجع شيئاً فشيئاً، فتصاعد بداخلي ضغط أشبه بالاختناق، ولم أقتنع بكلامه الدائم عن عمله على قضايا معقدة، ومطاردته لعصابات بنوعية مختلفة، تجمع بين أنشطة متعددة، لها أذرعها ونفوذها الهائل، وأشياء من هذا القبيل...

وما شأني أنا؟ لم أتزوّج لأعيش وحيدة داخل البيت؛ بل إنني اشتقتُ إلى ذاك الرجل اللطيف الذي تعرّفتُ عليه أول مرة في الحافلة إياها!

ثم تعقّدت الأمور أكثر مع مرور سنوات من الزواج دون حدوث حمل...

لا أنكر توتري بشأن الإنجاب، كانت الفحوصات الأولية مطمئنة، إذ لم يظهر أي سبب عضوي واضح لدى أيٍّ منا. ومع ذلك، أثار الموضوع قلقاً إضافياً، خصوصاً لدى عائلته، وقد تظاهرتُ بعدم سماعي تعليقات تفتقر للطف من بعض قريباته، عن إرهاقي النفسي، أو معاناتي ربما من مشاكل صحية دفينة...

أما والدته، التي نزورها في العطل، أو تأتي لقضاء أيام معنا، فكانت تتعمد توجيه كلامها في هذا الصدد إليه:

«العمر كيجري آ ولدي، إيوا إمتى غاتفرحونا؟».

وسط هذه الدوّامة، انغمستُ أكثر في مشاعر الوحدة والإحباط، وراودتني أسئلة مريرة: هل تسرّعتُ بالزواج من رجل يرتبط بعملٍ شاق لا يسمح له بمنحي أبسُط حقوقي الزوجية؟ هل كان عليّ تقبّل هذا الواقع دون احتجاج أو مقاومة؟

أما هو، فلم يبذل أبداً جهده لتعديل وتيرة عمله، بل راكم المزيد من المهمّات والساعات الإضافية، إلى أن دخلت حياتنا منعطفاً مباغتا، اسمه قضية الأستاذ (ف. ن).

*

● **ملاحظات أولية:**

التناقض بين الواقع والتوقعات: بنت الحالة صورةً مثالية عن الزواج وتوقّعت استمرار الدفء العاطفيّ الأول. تلاشى هذا التوقع بفعل ضغط العمل الذي باعد بينها وبين الضابط، ما أحدث فجوة في التواصل الحميمي، وهو تناقض غالباً ما يخلق صدمة في السنة الأولى من الزواج، حيث تكتشف الزوجة حقائق جديدة حول مسؤوليات الشريك ومحدودية الوقت والطاقة المتاحة له.

غياب الحضور الوجداني وأثره على العلاقة الزوجية: لاحظت الحالة تراجعاً في المبادرات العاطفية لزوجها، ما ولّد لديها إحساساً بالفراغ العاطفي والجسدي، مما يُشير إلى غياب حقيقي للحوار حول التفاصيل الحميمية، خاصة في ظل اعتياد الحالة طويلاً على الانغلاق والعزلة وعدم مشاركة مشاكلها مع الغير.

الضغوط العائلية وتأخر الإنجاب: يشكّل ضغط الأسرة (خاصة أسرة الزوج) عنصراً مُقلقاً يفاقم توتّر الزوجين بشأن تأخر الحمل، وتترجَم هذه الضغوط إلى صورٍ من التدخّل أو الاتهامات الضمنية، ما يزيد عجز الحالة عن إيجاد مساحة آمنة للتعبير عن همومها.

*

مكتبة
t.me/soramnqraa

شعبة علم النفس - السنة الثالثة:
مسودة بحث تخرّج الطالبة: سلمى عفيف.
دراسة تطبيقية: الحالة (ع. ج) (45 سنة)

● **الصدمة وإيداع الحالة ضريح بويا عمر:**

عندما شغلت قضية الأستاذ الجامعي (ف. ن) الرأي العام، تابعت تفاصيلها مثل الجميع، بين الجرائد والمواقع الإلكترونية، وكل من هب ودب من متدخلين عبر فيديوهات اليوتيوب، حاولوا جميعهم لعب دور المحقق كونان، سعياً لكشف غموضها، وبعد انتحار الأستاذ، هدأت الجلبة شيئاً فشيئاً، بين من عبّروا عن ارتياحهم لما جرى، مواصلين تضامنهم مع الضحية، ومن أظهروا خيبة أملهم لدفاعهم المستميت عنه.

لكن الأكيد أن حل القضية، وسط الصخب واللغط، بدا منطقياً وشديد الوضوح:

أستاذٌ له مكانته، تحرّش بباحثة، افتُضح أمره، انهار نفسيّاً، ثم انتحر.

ثم فاجأني زوجي بعمله على القضية بعد انتحار الأستاذ (ف. ن). لم يشاركني التفاصيل بداية، ملمّحاً إلى أن لتلك القضيّة أبعاداً معقدة، وربما تخفي سرّاً أعمق من مجرد فضيحة تحرّش.

فيما بعد، بدأ زوجي يشاركني بعض التفاصيل، على غير المعتاد، قائلاً إنه يعمل على القضية وحده، ويريد الوصول إلى الدلائل القاطعة قبل عرضها على رؤسائه.

أعتقد أنه وصل بطريقة ما إلى حاسوبَي الأستاذ (الشخصي

والعملي) وهاتفيه (اكتشف وجود هاتف آخر)، فاطلع على الكثير من الأسرار المرعبة والمتشعبة.

بداية، وجد مراسلات مع أستاذ فرنسي، يدرّس التاريخ في مارسيليا، وكان أحد أعضاء اللجنة الاستشارية الخاصة بإعداد فيلم وثائقي عن سيرة أحد المقاومين.

فحوى المراسلات كان فظيعاً، يبدو أن الفرنسي حاول مساومة عميد الكلية في وثائق أصلية تثبت أن جدّه، الذي صنع عائلة سياسية لها وزنها الثقيل في البلاد، لم يكن في حقيقة الأمر سوى متعاونٍ مع المستعمر، وقدّم خدماتٍ استخباراتية ساهمت في القضاء على مقاومين حقيقيين في معركة قدّم الجد فيها نفسه باعتباره بطلها والناجي الوحيد من ضراوتها.

يبدو أن العميد قد كلّف (ف. ن) بتولّي المهمة وإسكات الفرنسي بمبلغ معيّن، لكن الراحل حوّل دفة الأمور لصالحه، وساوم الفرنسي بالمبلغ ذاته (وربما أكثر، فقد وجد زوجي آثار معاملات نقدية سرية) لشراء الوثائق والصور التي تثبت بالدليل القاطع حقيقة جد العائلة النافذة، فهل عاد (ف. ن) لاستخدام تلك الوثائق لمساومة العائلة (رغم زواجه بابنة العميد) فقررت التخلص منه؟ هذا هو الاحتمال الأول.

في المقابل، وجد زوجي في الحواسيب (المشفرة بعناية) مراسلات أخرى تؤكد تورط (ف. ن) في قضية بالغة التعقيد، عنوانها مخطوط غامض ينتمي لحقبة سحيقة من تاريخ المغرب، يبدو أنه تمكن من تجميع شتاته بعد جهد كبير، وعندما تسلّم المغرب من إسبانيا عام 2013 صور ميكروفيلم لأجزاء من مكتبة ضائعة منذ القرن السابع عشر، برزت أصوات ما في إسبانيا ترفض هذا التعاون بين البلدين، ويبدو أن (ف. ن) قد تدخّل عارضاً على جهة مهتمة مجهولة شراء

المخطوط الكامل بمبلغ قياسي، فطالت المفاوضات حسب ما ورد في المراسلات، وحملت السطور تهديدات مبطنة بين الطرفين، فهل تكون الباحثة التي دمّرته تماماً عندما اتهمته بالتحرش، جزءاً من هذه الجهة أو الشبكة؟ وربما وصل الأمر إلى تصفيته. هذا هو الاحتمال الثاني.

ربما لم يكن (ف. ن) متحرّشا فعلاً، ولكن من قال إن الفساد مرتبط فقط بما بين الأفخاذ؟

وجد زوجي نفسه إذن موزعاً بين قضيتين، بعدما بدأت الأحداث بقضية واحدة، ومرّت أيامه ولياليه محاولاً إيجاد مفتاح يقوده إلى الفهم:

هل القضيتان منفصلتان أم متداخلتان؟

هل دمّرته شبكة المخطوطات المجهولة على يد الباحثة، فانتحر؟

هل دمّرته شبكة المخطوطات المجهولة على يد الباحثة، ثم قامت بتصفيته؟

هل سهلت عائلة زوجته تدميره على يد الشبكة، فانتحر؟

هل سهلت عائلة زوجته تدميره ثم تخلصت منه لإقبار فضيحة ماضي الجد المؤسِّس؟

واصل زوجي بحثه المعمق، فاحتفظ بالهواتف والحواسيب، ساعياً إلى إيجاد خيط أو أثر يقوده إلى المخطوطات والوثائق الأصلية، عنوان القضيتين.

ثم بدأ يتلقى رسائل ومكالمات هاتفية، تحذره من العبث بما يفوق حجمه، وتهدده بمصير مَن سبقوه، فأصرّ على التقدم، ولم يجد من يثق به سواي، فأعطاني مفتاحاً، وعنوان بيت صغير، في ضواحي (...) حيث خبأ هناك الهواتف والحواسيب وكل الوثائق والتسجيلات الأخرى المرتبطة بتحقيقه، وقال إنه قريب جداً من ملامسة الخيوط الكاملة للغز، لكنه يخشى مكروهاً مباغتاً.

وبعدها بأيام تلقّيتُ خبر مصرعه في حادثة سير...

أخبروني أنّ سيارته انقلبت بشكلٍ غامض وهو عائدٌ ليلاً عبر طريق سيار، وقالت التقارير الرسمية إنّها حادثة قضاءٍ وقدر، وإنّ الضابط قضى نحبه في عين المكان متأثّراً بجروحٍ بالغة، لكنني لم أصدق.

لقد قتلوا زوجي عمداً، لوصوله إلى حل ألغاز هذه المافيات المتداخلة وربما المتعاونة فيما بينها، هذا أكيد...

وبالكاد استجمعتُ شتات نفسي، وانتقلت إلى العنوان الذي حدّده لي زوجي، للبحث عن الوثائق التي خبأها، شاعرة بوجود مَن يتتبّع خطواتي، ثم فوجئت فور دخولي بمن يكبّل حركتي، ويخدّرني بالقوة، ففقدت وعيي، ولم أستعد رشدي إلا في مكان مظلم خانق، وأصوات المزامير.

ثم أدركتُ أنني مكبلة بالسلاسل، في إحدى غرف ضريح بويا عمر الرهيب...

*

التقييم النهائي لحالة (ع. ج)

رغم البراعة السردية التي قدّمتها الحالة (ع. ج)، وأسلوبها الهادئ الواثق، تبيّن بعد تمحيصٍ في سجلاتها بالمستشفى الذي استقبل عدداً من نزلاء ضريح بويا عمر، فور صدور قرار إغلاقه عام 2015 (بعد سلسلة من التأجيلات الغامضة)، وأيضاً بعد تحليل مجمل سردها، وجود بعض الفجوات والتناقضات، يمكن استعراضها على الشكل التالي:

- قدّمت الحالة نفسها باسم م. في حين أن اسمها المسجل هو (ع. ج).

- أشارت في بعض تفاصيل سردها (الطفولة والمراهقة على وجه الخصوص) إلى ولادتها بداية الثمانينيات، ما يعني أنها حالياً في الخامسة والثلاثين من عمرها، لكن السجلات، بالإضافة إلى المعاينة المباشرة (لون وتماسك الشعر - طبيعة التجاعيد - بعض الأمراض العضوية)، توحي بأنها في أواسط الأربعينيات.

- لا وجود لأي رابط عائلي أو حتى اجتماعي بين (ع. ج) وعائلة الضابط المتوفى.

- الضابط المتوفى (م. ب) كان متزوجاً (واسم زوجته م. فعلاً)، لكن التقارير والسجلات تفيد بمغادرة أرملته أرض الوطن، دون أن يتسنى لنا الوصول إليها.

التشخيص الأولي: حالة متقدّمة من الشرود التفارقي

من خلال كل ما سبق، وعبر دراسة جملة من التناقضات في سرد

الحالة، يتبين أننا أمام حالة شرود تفارقي، أو حالة شبيهة في إطار الاضطرابات التفارقية، إذ يتبنّى الفرد هويّة جديدة تماماً أو ينتحل دور شخصٍ آخر، ويصنع حول هذه الهويّة حكاية متكاملة، قد تكون مدعومة بوقائع جزئية أو حقائق مقتطعة من سياقاتها، وقد تتمسّك هذه الشخصيّة المختلَقة بسردٍ منطقيٍّ مُفصّل، ما يجعل الآخرين يميلون إلى تصديقها في البداية.

في بعض الحالات (مثل حالتنا هذه)، يتقمّص المريض حياة شخصٍ حقيقي (ضابط مات في ظروفٍ معيّنة)، مزوّداً القصّة بأبعاد بوليسيّة أو دراميّة تُقنع المحيطين بسهولة.

تتجلّى خطورة هذا الاضطراب في قدرة المريض على الحفاظ على تماسك روايته، والظهور بمظهرٍ هادئٍ وواثق، غير مضطربٍ في الكلام أو التفكير.

ينبع الشرود التفارقي غالباً من محاولة هروبٍ نفسيّ من واقعٍ مرير، أو من صدمةٍ كبيرةٍ لا يستطيع الفرد تحمّلها، فيبتكر هويةً بديلة تُعيد صياغة حياته بطريقة يكون فيها «محور بطولة» أو «ضحية لمؤامرة ضخمة»، ومن السهل أن ينخدع المستمع بهذا النموذج عندما يكون المريض واسع الاطلاع (كتب، صحف، أفلام) وقادراً على مزج وقائع حقيقية (حادثة سير، وفاة أستاذ جامعي، تراث عائلة سياسية) بلمسة سردية تجذب الانتباه وتزرع الشك.

الخلاصة أنّ هذه الحالة تذكّرنا بمدى تشعّب الآليات الدفاعية النفسية لدى الإنسان: فقد يبلغ المرء درجة الانغماس الكلّي في دورٍ لا يمتّ له بصلة، ليُنكر واقعه الأصلي ويستعيض عنه بعالمٍ مُتقن التفاصيل.

من منظور علاجيّ، تحتاج المريضة إلى تقييمٍ نفسي شامل، بحيث تتم مراجعة سيرتها الفعلية، والبحث عن أحداث صادمة في طفولتها

أو شبابها خاصة وأن الشكوك تجعل ما قالته عن فترة ما قبل «القضية الغامضة» نفسه موضع شك.

من الضروريّ أيضاً مقاربة الحالة بحذر شديد، وعدم مهاجمتها أو فضحها أمام الناس بعنفٍ قد يزيد تشتّتها، بل دعمها بلطفٍ وتشجيعها على تلقّي عنايةٍ نفسية خاصة.

خلاصة:

هل هناك حقاً مؤامرة تتعلّق بمخطوط يفضح تاريخاً سياسياً كاذباً؟ أم إنّ هذا الجزء أيضاً من نسج خيال ابتكرته المريضة لتعزيز قصّتها؟ بعض تلك التفاصيل قد يكون مقتبساً من شائعات شعبية أو مقالات صحفية قديمة حول أحداث مختلفة.

بمعزل عن وجود نواة حقيقة أم لا، يظلّ الجوهر النفسي لحالة (ع.ج) هو الأهمّ بالنسبة للباحثين:

لقد تبنّت شخصية «أرملة ضابط شرطة قُتل ظلماً» حتى اندمجت بشكل كامل مع هذه الشخصية ونسيت حقيقة نفسها، ممّا يمثّل صورةً نموذجية لاضطراب الشرود التفارقي، تستحق المزيد من الدراسة والتمحيص.

*

صفحات من المفكرة الشخصية للطالبة: سلمى عفيف

ص 67:

مواعيد...

رحلة الحسيمة: 3 يوليو. (حجز الفندق)

عيد ميلاد فرح: 17 ماي. (الهدية؟)

عرس خديجة: 22 يونيو. (كراء القفطان + حجز موعد الكوافيرة)

اجتماع نادي القلم الفضي: 7 يونيو (كتاب الشهر: **حيونة الإنسان** – ممدوح عدوان)

ص 45:

أسئلة...

لماذا أصرت الأستاذة على تكليفنا بدراسة حالات نزلاء سابقين في ضريح بويا عمر؟

الانتقال بنا من النظري إلى التطبيقي؟ (خبر إغلاق الضريح فرض نفسه...)

نشر مقالة علمية؟ (تعزيز ملفها الأكاديمي...)

بث سلسلة حلقات مرئية على مواقع التواصل الاجتماعي؟ (ركوب الموجة؟)

تأليف كتاب؟ (هل ستشير إلى أسمائنا؟)

دراسة إحصائية بتمويل أجنبي؟ (وملايين في حسابها البنكي؟)

ص 17:

أرقام...

- **33762036:** عدد السكان القانونيين الحاملين للجنسية المغربية (إحصاء عام 2014).
- **40% :** نسبة المغاربة (فوق 15 سنة) الذين يعانون من أمراض نفسية وعقلية.

2238: عدد الأسرة المخصصة للمرضى النفسيين المغاربة.

- **290:** عدد الأطباء النفسيين العاملين في القطاعين العام والخاص في المغرب.

ص 35:

دواء...

ليبونكس كلوزابين: أقراص فموية 100 ملغ

- الجرعة: 12.5 ملغ، وزيادتها بناء على تحمل المريض. (أقصى جرعة يومية مقسمة = 900 ملغ)

الكيفية: عن طريق الفم (مع الطعام للتقليل من اضطرابات المعدة).

عدد المرات: مرة أو مرتان يومياً (حسب الوصفة الطبية).

ص 65:

تجميع عناوين مقالات عن القضية...

طنجة: فضيحة تحرش جنسي «بأبعاد دولية» تهز أركان كلية اللغات والآداب والفنون.

هل تتسبب قضية التحرش بباحثة دكتوراه إسبانية في أزمة ديبلوماسية بين المغرب وإسبانيا؟

عودة الباحثة (أ. ن.) إلى إسبانيا: إقرار ببراءة الأستاذ (ف.ن.)؟

انتحار الأستاذ (ف. ن.): طي صفحة فضيحة شغلت الرأي العام في المغرب وإسبانيا؟

ص 52:

ترشيحات منير...

جنرال الجيش الميت – إسماعيل كاداريه

ضد التأويل ومقالات أخرى – سوزان سونتاغ

بيضة الديك – محمد زفزاف

نهاية رجل شجاع – حنا مينة

مهزلة العقل البشري – علي الوردي

- **الإخوة كارامازوف** – فيودور دوستويفسكي

مقتل روجر أكرويد – أغاثا كريستي

ص 70:

احتمالات...

- م. زوجة الضابط المتوفى لم تغادر المغرب، بل كانت موجودة فعلا في الضريح، وربما التقت في ظروف معينة هناك ب (ع. ج) وحكت لها كل التفاصيل الدقيقة التي سجلتها ذاكرة الحالة.
- البحث عن م. في مستشفيات أخرى، أو بين عدد من النزلاء السابقين، ممن هاموا على وجوههم في العراء.

*

شعبة علم النفس – السنة الثالثة:

مسودة بحث تخرج الطالبة: سلمى عفيف.

دراسة تطبيقية: الحالة (ع. ج) (45 سنة)

قرار الأستاذة المشرفة: منى الموساوي.

عدم الموافقة على مناقشة البحث مع التوصية بدراسة حالة أخرى.

الامتحان النهائي

«عندما تتوفر لنا جامعةٌ سليمة، تحتضن الفكر النقديّ، وتُقدّر المعرفة الحقة، عوض تدريب الطلبة على احتراف الصمت وإتقان فنون الطاعة العمياء، سيتمكن الأدب من ممارسة دوره الحقيقي في الدفع نحو التغيير. وإلى ذلك الحين، فلنتشبّث بهذا الصرح الصغير الذي بنيناه معاً في محاضراتنا، أو اعتبروه على الأقل ذكرى لطيفة مررتم بها، تتجاوز في أبعادها ثنائية المعدلات والامتحانات».

رشيد بناصر – الأربعاء 20 مايو 2015

كلية اللغات والآداب والفنون – جامعة ابن بطوطة – طنجة

ماستر: الأدب المقارن والدراسات الثقافية – **الأسدس**: الرابع

السنة الجامعية: 2014 – 2015

الامتحان النهائي في مادة: النص الأدبي المقارن

*

● تم إعداد الامتحان بحيث يكلَّف كل طالب(ة) بأسئلة متعلقة بعمل أدبي تناولناه بالدراسة والتحليل خلال المحاضرات.

(لكل طالب امتحان مختلف)

*

امتحان الطالب: منير الحسناوي **المدة:** ساعتان

السؤال الأول:

ما هو مفهوم السارد غير الموثوق؟

السؤال الثاني:

ما مدى أهمية هذا المفهوم في العمل الأدبي؟

السؤال الثالث:

حلل تطبيق المفهوم في رواية **مقتل روجر أكرويد** لأغاثا كريستي.

السؤال الرابع:

ضع خطوطاً أولية لحبكة سردية تنطلق من الكلمات المفتاحية التالية:

أستاذ جامعي - جامعة مغربية - وفاة غامضة - مخطوط أول - مخطوط ثان - مكتبة قديمة.

واقترح احتمالات مختلفة تفسّر هوية القاتل ودوافعه، مستلهماً أسلوب «الأجوبة المتعدّدة» الذي يتناسب مع مفهوم السارد غير الموثوق.

المطلوب إجابة مفصلة تشرح فيها تحليلك وخطواتك الاستنتاجية.

*

ورقة الطالب: منير الحسناوي

الإجابة الأولى:

السارد غير الموثوق (وقد يطلق عليه أحياناً الراوي المضلِّل) تقنية سردية تستهدف زعزعة ثقة القارئ فيما يُروى من أحداثٍ في العمل الأدبي. بحيث يتعمد الراوي (باعتباره شخصيةً رئيسةً في القصة أو شاهداً على أحداثها) عدم تقديم المعلومات بشكل موضوعيّ وصادق، وقد يُخفي بعض التفاصيل أو يتلاعَب بالحقيقة، بوعي أو بدونه.

الإجابة الثانية:

تنبع جاذبية هذه التقنية من قدرتها على دمج القارئ في مغامرة فكّ ألغاز النص، فتدفعه إلى التشكيك والتحليل بدلاً من تلقّي المعلومات مكتملةً جاهزة.

شاعت التقنية في الأدب البوليسي وعدد من الأفلام السينمائية الناجحة (مثال: Usual Suspects)، لكنها حاضرة أيضاً في أعمال أخرى متنوعة، قد نذكر منها رواية **نار شاحبة** لفلاديمير نابوكوف، حيث يلعب تشارلز كينبوت دور السارد غير الموثوق، وأيضاً شخصية بينجي كومسون في رواية **الصخب والعنف** لوليام فوكنر (تناولناها بالتحليل في المحاضرة الثالثة).

الإجابة الثالثة:

في رواية **مقتل روجر أكرويد** لأغاثا كريستي (المحاضرة الرابعة

عشرة)، نجد تطبيقاً متطرفاً لتقنية السارد غير الموثوق، إذ يَظهر الراوي في البداية بمظهر الحياديّ الذي يزوِّد القارئ بكافة التفاصيل حول الجريمة، قبل أن ينقلب مسار الأحداث باكتشاف القارئ أن الراوي ذاته هو من يتعمد تضليله، وأنه متورِّطٌ في الجريمة.

يؤكد هذا التحوّل الدرامي على مدى خطورة الركون التامّ إلى وجهة نظر واحدة، ويدفع بالتحليل ونقاش الدوافع والأدلّة إلى حدود أخرى أكثر اتساعاً.

الإجابة الرابعة:

الحبكة المتخيَّلة:

- أستاذ جامعي متخصص في تتبع التراث القديم.

- حيازة مخطوط تسعى مكتبة قديمة إلى الحصول عليه لأغراض علمية وبحثية (إيديولوجية؟).

- حياة مخطوط آخر يضمّ معلومات حساسة، لابتزاز عائلةٍ سياسيةٍ نافذة.

- العثور على الأستاذ ميتاً في ظروفٍ غامضة، دون أثر للمخطوطين.

استناداً إلى أسلوب السارد غير الموثوق الذي يقود القارئ إلى احتمالاتٍ متعددة، يمكننا وضع عدة تفسيرات للجريمة، بحيث تدور الشكوك بين أكثر من طرف:

- نظرية القتل بدافع السرقة والتربُّح:

المشتبه فيه: مندوب أو وسيط من المكتبة القديمة. (اختيار امرأة قد يضيف بعداً أكثر تشعباً وتشويقاً للأحداث).

الدافع: تسرَّبت إلى المكتبة وخبرائها معلوماتٌ تفيد بأنّ الأستاذ قد يعرض المخطوط في مزاد عالميّ بسعرٍ مهم، فقرر هؤلاء التخلّص من الأستاذ والاستيلاء على المخطوط.

السارد غير الموثوق: هنا، قد يكون المشتبه فيه قدّم نفسه باعتباره باحثاً بريئاً، يهتم بمواضيع أدبية وتاريخية، مخفياً أطماعه الحقيقية.

- نظرية الابتزاز السياسيّ والانتقام:

المشتبه فيه: أحد أفراد العائلة السياسية النافذة التي يُهدِّدها المخطوط الثاني.

الدافع: منع الأستاذ من نشر فضيحة أو الكشف عن أسرارٍ تورِّط هذه العائلة.

السارد غير الموثوق: صديق للعائلة، أو حتى أحد أفرادها، فيضلِّل القارئ بإظهار أفراد العائلة بمظهر مسالم، لا علاقة له بإخفاء أسرار معينة.

- نظرية القتل غير المباشر:

المشتبه فيه: الأستاذ نفسه (انتحار مُدبَّر) أو وفاة ناجمة عن أزمةٍ صحيّة نتيجة الضغط النفسي.

الدافع: اختلاق سيناريو ابتزازٍ محكم، ثم وقوع المشتبه فيه ضحية ابتزاز أكبر يقضي عليه، فيفضّل الانتحار.

السارد غير الموثوق: الأستاذ نفسه. (مثال: يسرد الأحداث بعد موته).

- نظرية الطرف الثالث:

المشتبه فيه: تاجر مخطوطات أو طرف منافس يسعى للإيقاع بالطرفين (العائلة السياسية وخبراء المكتبة).

الدافع: بتحييد الأستاذ والسيطرة على المخطوطين، يمكن لهذا الشخص تحقيق أرباح باهظة أو تهديد كلا الطرفين.

السارد غير الموثوق: شخص مقرب من الأستاذ، هو في الحقيقة على اتصالٍ سرّي بالطرف المنافس.

خطوات التحليل والاستنتاج:

- جمع المعلومات من مصادر متعددة:

دراسة أقوال الشهود ومعارف الأستاذ الجامعي.

- دراسة البيئة المهنية والاجتماعية للأستاذ:

البحث عن دافع أكاديميّ أو غيرة بحثية أو عاطفية، إذ إنّ بعض زملائه (أو طلابه؟) يسعون لنَيل الشُّهرة على حسابه أو السطو على إنجازاته.

- رصد الدوافع المادية والانتقامية:

البحث عن أيّ تلويح بوجود فضائح أو أسرار.

- تحليل الروايات المتعدّدة:

يمكن أن يكون الراوي فرداً من الشرطة، أو أحد أقارب الضحية، أو خبيراً في المخطوطات، وجميعهم قد يُخفون تفاصيل مهمّة لحماية أنفسهم، كما يمكن توظيف أسلوب آخر، يعتمد على المخطوط ذاته، بتتبّع قصة تنقّله، أو منحه صوتاً سردياً خاصاً به.

*

مكتبة
t.me/soramnqraa

دليل الخروج من المتاهة
(ما لم يكن للمينوتور رأي آخر)

[1]: دماء الياسمين (1204) 483

[2]: حبر وجبر وبحر (1612)..... 293

[3]: أسفار الغسّاني السبعة (1690)..... 177

[4]: إلى حبيبتي مادلين (1927)..... 513

[5]: ما لا تعرفه لوسيا (1936)..... 73

[6]: أيام في قرطاجنة (1947)..... 213

[7]: علي بومايي! (1974) 131

[8]: أجراس السراب (1988)..... 255

[9]: الحكايات تتداعى (1997)..... 407

[10]: المقصورة 55 (2001)..... 367

[11]: شهريار تكفيه ليلة واحدة (2013)..... 447

[12]: الرقص على حبال الشك (2014)..... 19

[13]: سيرة بطل (2015)..... 333

[14]: الحالة الحرجة لـ (ع. ج) (2016)..... 545

عبد المجيد سباطة

في متاهات الأستاذ ف.ن.

«الذاكرة...

لغةً: يُقال «ذو ذاكرة قوية» لمن لا ينسى، و«ذاكرة التاريخ» لما يُحفظ من أحداث الأمم.

واقعاً: سلعة تُعاد كتابتها حسب الحاجة، تُحذف منها الحقائق المزعجة، وتُضخَّم فيها الأكاذيب».

«لا أعتقد أن البحث عن البياض الناصع أو السواد الحالك في شخصية وماضي الأستاذ الراحل سيقود إلى شيء. هو لم يكن ملاكاً طاهراً ولا شيطاناً رجيماً، ولا يمكن وصف شخصيته بالمعقدة حتى. إنه ببساطة رجل فهم جيداً معادلة النجاح كما يعرفها قاموس واقعنا: الموهبة وحدها لا تكفي، ما لم يتقن صاحبها الرقص على الحبال، خاصة اللامرئية منها».

لم تكن الوفاة الغامضة لفريد النوري، أستاذ الأدب المقارن والدراسات الثقافية، بعد فضيحة تحرش هزت أركان كليته، لتجيب عن أسئلة عالقة حول حقيقة هذا الرجل، الذي تأرجحت سيرته بين الضبابية والوضوح، ما استدعى العودة إلى ماضٍ بعيد، يتعدى سنوات عمره بعقود وقرون، ويتجاوز حدود طنجة، إلى أرجاء مترامية الأطراف حول العالم. ربما لأن السيرة الفعلية لأي إنسان لا تبدأ بولادته، وقد لا تنتهي أيضاً بوفاته، كما أن الحقيقة واحدة، وإن تعددت طرق قراءتها، وسبل الوصول إليها...

عبد المجيد سباطة، كاتب ومترجم من المغرب، صدرت له عن المركز الثقافي العربي رواية **ساعة الصفر 00:00** (جائزة المغرب للكتاب 2018) ورواية **الملف 42** (القائمة القصيرة ـ الجائزة العالمية للرواية العربية بوكر 2021).

المركز الثقافي العربي
الدار البيضاء: ص. ب. 4006 (سيدنا)
بيروت: ص. ب. 113/5158
markaz.casablanca@gmail.com
cca_casa_bey@yahoo.com

مكتبة
t.me/soramnqraa